الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد التاسع

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فی تفسیر القرآن

کاتب:

محمد حسین طباطبایی

نشرت فی الطباعهٔ:

علامه طباطبایی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

تفسیر المیزان المجلد ۹

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

اشاره

(۸)(سوره الأنفال مدنیه و هی خمس و سبعون آیه)(۷۵)

[سوره الأنفال (۸): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

یَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلْأَنْفٰالِ قُلِ اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ اَلرَّسُولِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَیْنِکُمْ وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِینَ إِذٰا ذُکِرَ اَللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِیمٰاناً وَ عَلیٰ رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۲) اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ اَلصَّلاٰةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴) کَمٰا أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَیْتِکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِیقاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ لَکٰارِهُونَ (۵) یُجٰادِلُونَکَ فِی اَلْحَقِّ بَعْدَ مٰا تَبَیَّنَ کَأَنَّمٰا یُسٰاقُونَ إِلَی اَلْمَوْتِ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ (۶)

(بیان)

سیاق الآیات فی السوره یعطی أنها مدنیه نزلت بعد وقعه بدر،و هی تقص بعض أخبار بدر،و تذکر مسائل متفرقه تتعلق بالجهاد و الغنائم و الأنفال و نحوها، و أمورا أخری تتعلق بالهجره و بها تختتم السوره.

قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلْأَنْفٰالِ قُلِ اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »إلی آخر الآیه.

الأنفال جمع نفل بالفتح و هو الزیاده علی الشیء،و لذا یطلق النفل و النافله علی التطوع

لزيادته على الفريضه،و تطلق الأنفال على ما يسمى فيئا أيضا و هى الأشياء من الأموال التى لا مالك لها من الناس كرءوس الجبال،و بطون الأوديه،و الديار الخربه،و القرى التى باد أهلها و تركه من لا وارث له،و غير ذلك كأنها زياده على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد و هى لله و لرسوله،و تطلق على غنائم الحرب كأنها زياده على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب و الغزوه الظفر على الأعداء و استئصالهم فإذا غلبوا و ظفر بهم فقد حصل المقصود،و الأموال التى غنمه المقاتلون و القوم الذين أسروهم زياده على أصل الغرض.

و« ذات »فى الأصل مؤنث«ذا»بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمه الإضافه غير أنه كثر استعماله فى نفس الشىء بمعنى ما به الشىء هو هو فيقال:ذات الإنسان أى ما به الإنسان إنسان،و ذات زيد أى النفس الإنسانيه الخاصه التى سميت بزيد، و كان الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدى مؤداه ثم قيل ذات،و كذلك الأمر فى ذات البين فلكون الخصومه لا تتحقق إلا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أى الحاله و الرابطه السيئه التى هى صاحبه البين فالمراد بقوله: أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَيْنِكُمْ أى أصلحوا الحاله الفاسده و الرابطه السيئه التى بينكم.

و قال الراغب فى المفردات:« ذو »على وجهين:أحدهما يتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس و الأنواع،و يضاف إلى الظاهر دون المضمر،و يثنى و يجمع،و يقال فى التثنيه:ذواتا،و فى الجمع:ذوات،و لا يستعمل شىء منها إلا مضافا.

قال:و قد استعار أصحاب المعانى الذات فجعلوه عباره عن عين الشىء جوهرا كان أو عرضا،و استعملوها مفرده و مضافه إلى المضمر و بالألف و اللام،و أجروها مجرى النفس و الخاصه فقالوا:ذاته و نفسه و خاصته،و ليس ذلك من كلام العرب، و الثانى فى لفظ ذو لغه لطىء يستعملونه استعمال«الذى»و يجعل فى الرفع و النصب و الجر و الجمع و التأنيث على لفظ واحد نحو:

و بئرى ذو حفرت و ذو طويت.

أى التى حفرت و التى طويت.انتهى.

ص :۶

و الذی ذکره من عدم إضافته إلی الضمیر منقول عن الفراء،و لازمه کون استعماله مضافا إلی الضمیر من کلام المولدین و الحق أنه قلیل لا متروک،و قد وقع فی کلام علی(ع)فی بعض خطبه کما فی نهج البلاغه.

و قد اختلف المفسرون فی معنی الآیه و موقعها اختلافا شدیدا من جهات:من جهه معنی قوله:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ »و قد نسب إلی أهل البیت((ع)) و بعض آخر کعبد الله بن مسعود و سعد بن أبی وقاص و طلحه بن مصرف أنهم قرءوا:

« یسئلونک الأنفال »فقیل:عن زائده فی القراءه المشهوره،و قیل:بل مقدره فی القراءه الشاذه،و قیل:إن المراد بالأنفال غنائم الحرب،و قیل:غنائم غزوه بدر خاصه بجعل اللام فی الأنفال للعهد،و قیل:الفیء الذی لله و الرسول و الإمام،و قیل:

إن الآیه منسوخه بآیه الخمس،و قیل:بل محکمه،و قد طالت المشاجره بینهم کما یعلم بالرجوع إلی مطولات التفاسیر کتفسیری الرازی و الآلوسی و غیرهما.

و الذی ینبغی أن یقال بالاستمداد من السیاق:أن الآیه بسیاقها تدل علی أنه کان بین هؤلاء المشار إلیهم بقوله:« یَسْئَلُونَکَ »تخاصم خاصم به بعضهم بعضا بأخذ کل جانبا من القول لا یرضی به خصمه،و التفریع الذی فی قوله:« فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَیْنِکُمْ »یدل علی أن الخصومه کانت فی أمر الأنفال،و لازم ذلک أن یکون السؤال الواقع منهم المحکی فی صدر الآیه إنما وقع لقطع الخصومه،کأنهم تخاصموا فی أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله ص یسألونه عن حکمها لتنقطع بما یجیبه الخصومه و ترتفع عما بینهم.

و هذا-کما تری-یؤید أولا القراءه المشهوره:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ » فإن السؤال إذا تعدی بعن کان بمعنی استعلام الحکم و الخبر،و أما إذا استعمل متعدیا بنفسه کان بمعنی الاستعطاف و لا یناسب المقام إلا المعنی الأول.

و ثانیا:أن الأنفال بحسب المفهوم و إن کان یعم الغنیمه و الفیء جمیعا إلا أن مورد الآیه هی الأنفال بمعنی غنائم الحرب لا غنائم غزوه بدر خاصه إذ لا وجه للتخصیص فإنهم إذ تخاصموا فی غنائم بدر لم یتخاصموا فیها لأنها غنائم بدر خاصه بل لأنها غنائم مأخوذه من أعداء الدین فی جهاد دینی،و هو ظاهر.

و اختصاص الآیه بحسب موردها بغنیمه الحرب لا یوجب تخصیص الحکم الوارد فیها بالمورد،فإن المورد لا یخصص،فإطلاق حکم الآیه بالنسبه إلی کل ما یسمی بالنفل فی محله،و هی تدل علی أن الأنفال جمیعا لله و لرسوله لا یشارک الله و رسوله فیها أحد من المؤمنین سواء فی ذلک الغنیمه و الفیء.

ثم الظاهر من قوله:« قُلِ اَلْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ »و ما یعظهم الله به بعد هذه الجمله و یحرضهم علی الإیمان هو أن الله سبحانه فصل الخصومه بتشریع ملکها لنفسه و لرسوله،و نزعها من أیدیهم و هو یستدعی أن یکون تخاصمهم من جهه دعوی طائفه منهم أن الأنفال لها خاصه دون غیرها،أو أنها تختص بشیء منها،و إنکار الطائفه الأخری ذلک،ففصل الله سبحانه خصومتهم فیها بسلب ملکهم منها و إثبات ملک نفسه و رسوله،و موعظتهم أن یکفوا عن المخاصمه و المشاجره،و أما قول من یقول:

إن الغزاه یملکون ما أخذوه من الغنیمه بالإجماع فأحری به أن یورد فی الفقه دون التفسیر.

و بالجمله فنزاعهم فی الأنفال یکشف عن سابق عهد لهم بأن الغنیمه لهم أو ما فی معناه غیر أنه کان حکما مجملا اختلف فیه المتخاصمان و کل یجر النار إلی قرصته، و الآیات الکریمه تؤید ذلک.

توضیحه:أن ارتباط الآیات فی السوره و التصریح بقصه وقعه بدر فیها یکشف أن السوره بأجمعها نزلت حول وقعه بدر و بعیدها حتی إن ابن عباس-علی ما نقل عنه-کان یسمیها سوره بدر،و التی تتعرض لأمر الغنیمه من آیاتها خمس آیات فی مواضع ثلاثه من السوره هی بحسب ترتیب السوره،قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلْأَنْفالِ قُلِ اَلْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ »الآیه،و قوله تعالی:« وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلی عَبْدِنا یَوْمَ الْفُرْقانِ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ وَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ »، و قوله تعالی:« ما کانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْری حَتّی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیا وَ اللّهُ یُرِیدُ الْآخِرَهَ وَ اللّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ لَوْ لا کِتابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ فَکُلُوا مِمّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَیِّباً وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ ».

و سیاق الآیه الثانیه یفید أنها نزلت بعد الآیه الأولی و الآیات الأخیره جمیعا

لمكان قوله فيها إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ عَبْدِنٰا یَوْمَ الْفُرْقٰانِ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعٰانِ فهی نازله بعد الوقعه بزمان.

ثم الآیات الأخیره تدل علی أنهم کلموا رسول الله ص فی أمر الأسری و سألوه أن لا یقتلهم و یأخذ الفدیه،و فیها عتابهم علی ذلک،ثم تجویز أن یأکلوا مما غنموا و کأنهم فهموا من ذلک أنهم یملکون الغنائم و الأنفال علی إبهام فی أمره:هل یملکه جمیع من حضر الوقعه أو بعضهم کالمقاتلین دون القاعدین مثلا؟و هل یملکون ذلک بالسویه فیقسم بینهم کذلک أو یختلفون فیه بالزیاده و النقیصه کأن یکون سهم الفرسان منها أزید من المشاه؟أو نحو ذلک.

و کان ذلک سبب التخاصم بینهم فتشاجروا فی الأمر،و رفعوا ذلک إلی رسول الله ص فنزلت الآیه الأولی:« قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَیْنِکُمْ »الآیه،فخطأتهم الآیه فیما زعموا أنهم مالکوا الأنفال بما استفادوا من قوله:

« فَکُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ »الآیه،و أقرت ملک الأنفال لله و الرسول و نهتهم عن التخاصم و التشاجر،فلما انقطع بذلک تخاصمهم أرجعها النبی ص إلیهم،و قسمها بینهم بالسویه،و عزل السهم لعده من أصحابه لم یحضروا الوقعه،و لم یقدم مقاتلا علی قاعد، و لا فارسا علی ماش،ثم نزلت الآیه الثانیه:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ »الآیه،بعد حین فأخرج النبی ص مما رد إلیهم من السهام الخمس و بقی لهم الباقی.هذا ما یتحصل من انضمام الآیات المربوطه بالأنفال بعضها ببعض.

فقوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفٰالِ »یفید بما ینضم إلیه من قرائن السیاق أنهم سألوا النبی ص عن حکم غنائم الحرب بعد ما زعموا أنهم یملکون الغنیمه، و اختلفوا فیمن یملکها،أو فی کیفیه ملکها و انقسامها بینهم،أو فیهما معا، و تخاصموا فی ذلک.

و قوله:« قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »جواب عن مسألتهم و فیه بیان أنهم لا یملکونها و إنما هی أنفال یملکها الله و رسوله،فیوضع حیثما أراد الله و رسوله، و قد قطع ذلک أصل ما نشب بینهم من الاختلاف و التخاصم.

و یظهر من هذا البیان أن الآیه غیر ناسخه لقوله تعالی:« فَکُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ »

إلى آخر الآيه،و إنما تبين معناها بالتفسير،و إن قوله:« فَكُلُوا »ليس بكنايه عن ملكهم للغنيمه بحسب الأصل،و إنما المراد هو التصرف فيها و التمتع منها إلا أن يمتلكوا بقسمه النبى ص إياها بينهم.

و يظهر أيضا أن قوله تعالى:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ »الآيه ليس بناسخ لقوله:« قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »الآيه فإن قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ »الآيه إنما يؤثر بالنسبه إلى المجاهدين منعهم عن أكل تمام الغنيمه و التصرف فيه إذ لم يكن لهم بعد نزول قوله:« اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ » إلا ذلك،و أما قوله:« اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »فلا يفيد إلا كون أصل ملكها لله و الرسول من دون أن يتعرض لكيفيه التصرف و جواز الأكل و التمتع،فلا يناقضه فى ذلك قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ »الآيه حتى يكون بالنسبه إليه ناسخا، فيتحصل من مجموع الآيات الثلاث:أن أصل الملك فى الغنيمه لله و الرسول ثم يرجع أربعه أخماسها إلى المجاهدين يأكلونها و يمتلكونها و يرجع خمس منها إلى الله و الرسول و ذى القربى و غيرهم لهم التصرف فيها و الاختصاص بها.

و يظهر بالتأمل فى البيان السابق أيضا:أن فى التعبير عن الغنائم بالأنفال و هو جمع نفل بمعنى الزياده إشاره إلى تعليل الحكم بموضوعه الأعم،كأنه قيل:يسألونك عن الغنائم و هى زيادات لا مالك لها من بين الناس،و إذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات و الأنفال،و قُلِ:اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ ،و لازم ذلك كون الغنيمه لله و الرسول.

و بذلك ربما تأيد كون اللام فى لفظ الأنفال الأول للعهد و فى الثانى للجنس أو الاستغراق،و تبين وجه الإظهار فى قوله:« قُلِ الْأَنْفٰالُ »الآيه حيث لم يقل:قل هى لله و الرسول.

و يظهر بذلك أيضا:أن قوله:« قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »حكم عام يشمل بعمومه الغنيمه و سائر الأموال الزائده فى المجتمع نظير الديار الخاليه و القرى البائده و رءوس الجبال و بطون الأوديه و قطائع الملوك و تركه من لا وارث له،أما الأنفال بمعنى الغنائم فهى متعلقه بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبى ص،و بقى الباقى تحت ملك الله و رسوله.

هـذا ما يفيده التأمل فی كرائم الآيات،و للمفسـرين فيها أقاويل مختلفه تعلم بالرجوع إلی مطولات التفاسـير لا جدوی فی نقلها و التعرض المنقض و الإبرام فيها.

قوله تعـالی:« إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »إلی آخر الآيتين الآيتـان و التی بعـدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقه الإيمان و يختصون به من الأوصاف الكريمه و الثواب الجزيل بينت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالی:

« فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ »إلی آخر الآيه.

و قـد ذكر الله تعالی لهم خمس صـفات اختارها من بين جميع صـفاتهم التی ذكرها فی كلامه لكونها مسـتلزمه لكرائم صـفاتهم علی كثرتهـا و ملازمه لحق الإيمـان،و هی بحيث إذا تنبهوا لها و تأملوها كان ذلک مما يسـهل لهم توطين النفس علی التقوی و إصلاح ذات بينهم،و إطاعه الله و رسوله.

و هاتيـک الصـفات الخمس هی:وجـل القلب عنـد ذكر الله،و زيـاده الإيمـان عنـد اسـتماع آيات الله،و التوكل،و إقامه الصـلاه،و الإنفاق مما رزقهم الله،و معلوم أن الصفات الثلاث الأول من أعمال القلوب،و الأخيرتان من أعمال الجوارح.

و قد روعی فی ذكرها الترتيب الذی بينها بحسب الطبع،فإن نور الإيمان إنما يشـرق علی القلب تدريجا،فلا يزال يشتد و يضاعف حتی يتم و يكمل بحقيقته،فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل و الخشيه إذا تذكر بالله عند ذكره،و هو قوله تعالی:

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ».

ثم لا يزال ينبسط الإيمان و يتعرق و ينمو و يتفرع بالسير فی الآيات الـداله عليه تعالی،و الهاديه إلی المعارف الحقه،فكلما تأمل المؤمن فی شـیء منها زادته إيمانا، فيقوی الإيمان و يشتد حتی يستقر فی مرحله اليقين،و هو قوله تعالی:« وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ».

و إذا زاد الإيمان و كمل كمالا عرف عندئذ مقام ربه و موقع نفسه،معرفه تطابق واقع الأمر،و هو أن الأمر كله إلی الله سبحانه فإنه تعالی وحده هو الرب الذی إليه يرجع كل شـیء،فالواجب الحق علی الإنسان أن يتوكل عليه و يتبع ما يريده منه بأخذه وكيلا فی جميع ما يهمه فی حياته،فيرضی بما يقدر له فی مسير الحياه،

و یجری علی ما یحکم علیه من الأحکام و یشرعه من الشرائع فیأتمر بأوامره و ینتهی عن نواهیه،و هو قوله تعالی:« وَ عَلیٰ رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ .

ثم إذا استقر الإیمان علی کماله فی القلب،استوجب ذلک أن ینعطف العبد بالعبودیه إلی ربه،و ینصب نفسه فی مقام العبودیه و إخلاص الخضوع و هو الصلاه، و هی أمر بینه و بین ربه،و أن یقوم بحاجه المجتمع فی نواقص مساعیهم بالإنفاق علی الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غیر ذلک،و هو أمر بینه و بین سائر أفراد مجتمعه،و هو قوله تعالی:« اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ ».

و قد ظهر مما تقدم أن قوله تعالی:« زٰادَتْهُمْ إِیمٰاناً »إشاره إلی الزیاده من حیث الکیفیه و هو الاشتداد و الکمال،دون الکمیه و هی الزیاده من حیث عدد المؤمنین کما احتمله بعض المفسرین.

قوله تعالی:« أُولٰئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ »قضاء منه تعالی بثبوت الإیمان حقا فیمن اتصف بما عده تعالی من الصفات الخمس،و لذلک أطلق ما ذکره لهم من کریم الأجر فی قوله:« لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ »الآیه فلهؤلاء من صفات الکمال و کریم الثواب و عظیم الأجر ما لکل مؤمن حقیقی.

و أما قوله:« لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ »فالمغفره هی الصفح الإلهی عند ذنوبهم،و الرزق الکریم ما یرتزقون به من نعم الجنه،و قد أراد الله سبحانه بالرزق الکریم الجنه و نعمها فی مواضع من کلامه،کقوله تعالی:« فَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ وَ الَّذِینَ سَعَوْا فِی آیٰاتِنٰا مُعٰاجِزِینَ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ الْجَحِیمِ:» الحج:۵۱ و غیر ذلک.

و بذلک یظهر أن المراد بقوله:« لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ »مراتب القرب و الزلفی و درجات الکرامه المعنویه،و هو کذلک.فإن المغفره و الجنه من آثار مراتب القرب من الله سبحانه و فروعه البته.

و الذی یشتمل علیه الآیه من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنین،هو ثبوت جمیع الدرجات لجمیعهم،لا ثبوت جمیعها لکل واحد منهم فإنها من لوازم الإیمان،و الإیمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبه بإزائه کذلک لا محاله،فمن المؤمنین من له

درجه واحده،و منهم ذو الدرجتين،و منهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم فى الإيمان.

و يؤيده قوله تعالى:« يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ:» المجادله:-١١،و قوله تعالى:« أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَ اللّٰهِ كَمَنْ بٰاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ:» آل عمران:١۶٣.

و بما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما فى الآيه من الدرجات بدرجات الجنه، ليس على ما ينبغى،و إن المتعين كون المراد بها درجات القرب؛كما تقدم و إن كان كل منهما يلازم الآخر.

قوله تعالى:« كَمٰا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكٰارِهُونَ »إلى آخر الآيتين.ظاهر السياق أن قوله:« كَمٰا أَخْرَجَكَ »متعلق بما يدل عليه قوله تعالى:« قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »و التقدير:إن الله حكم بكون الأنفال له و لرسوله بالحق مع كراهتهم له،كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهه فريق منهم له،فللجميع حق يترتب عليه من مصلحه دينهم و دنياهم ما هم غافلون عنه.

و قيل:إنه متعلق بقوله:« يُجٰادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ »و قيل:إن العامل فيه معنى الحق و التقدير:هذا الذكر من الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق.و المعنيان -كما ترى-بعيدان عن سياق الآيه.

و المراد بالحق ما يقابل الباطل،و هو الأمر الثابت الذى يترتب عليه آثاره الواقعيه المطلوبه،و كون الفعل-و هو الإخراج-بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع،و قيل:المراد به الوحى،و قيل:المراد به الجهاد،و قيل غير ذلك،و هى معان بعيده.

و الأصل فى معنى الجدل شده الفتل:يقال:زمان جديل أى شديد الفتل، و سمى الجدال جدالا لأنه فيه نزاعا بالفتل عن مذهب إلى مذهب كما ذكره فى المجمع.

و معنى الآيتين:أن الله تعالى حكم فى أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من بيتك بالمدينه إخراجا يصاحب الحق،و الحال أن فريقا من المؤمنين

لکارهون لذلک،ینازعونک فی الحق بعد ما تبین لهم إجمالا،و الحال أنهم یشبهون جماعه یساقون إلی الموت،و هم ینظرون إلی ما أعد لهم من أسبابه و أدواته.

(بحث روائی)

فی جامع الجوامع للطبرسی،: قرأ ابن مسعود و علی بن الحسین زین العابدین و الباقر و الصادق(ع):یسألونک الأنفال.:

أقول:و رواه عن ابن مسعود و کذا عن السجاد و الباقر و الصادق غیره.

و فی الکافی،بإسناده عن العبد الصالح(ع)قال: الأنفال کل أرض خربه قد باد أهلها،و کل أرض لم یوجف علیها بخیل و لا رکاب-و لکن صالحوا صلحا و أعطوا بأیدیهم علی غیر قتال-فقال-:و له-یعنی الوالی-رءوس الجبال و بطون الأودیه و الآجام،و کل أرض میته لا رب لها،و له صوافی الملوک:ما کان فی أیدیهم من غیر وجه الغصب لأن الغصب کله مردود،و هو وارث من لا وارث له،و یعول من لا حیله له.

و فیه،:بإسناده عن الصادق(ع): فی قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ » قال:من مات و لیس له مولی فماله من الأنفال.

أقول:و فی معنی الروایتین روایات کثیره مرویه من طرق أهل البیت(ع) و لا ضیر فی عدم ذکرها الأنفال بمعنی غنائم الحرب،فإن الآیه بموردها تدل علیه علی ما یفیده سیاقها.

و فی الدر المنثور،:أخرج الطیالسی و البخاری فی الأدب المفرد و مسلم و النحاس فی ناسخه و ابن مردویه و البیهقی فی الشعب عن سعد بن أبی وقاص قال": نزلت فی أربع آیات من کتاب الله:کانت أمی حلفت أن لا تأکل و لا تشرب-حتی أفارق محمدا ص فأنزل الله:و إن جاهداک علی أن تشرک بی ما لیس لک به علم-فلا تطعهما و صاحبهما فی الدنیا معروفا-.

و الثانیه:أنی کنت أخذت سیفا أعجبنی-فقلت:یا رسول الله هب لی هذا فنزلت:یسألونک عن الأنفال-.

ص: ۱۴

و الثالثه:أني مرضت فأتاني رسول الله ص-فقلت:يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي أ فأوصي بالنصف؟قال:لا،فقلت:الثلث؟فسكت فكان الثلث بعده جائزا-.

و الرابعه:أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار-فضرب رجل منهم أنفي بلحيي جمل-فأتيت النبي فأنزل الله تحريم الخمر.

أقول:الروايه لا تخلو عن شيء أما أولا فلأن قوله تعالى:« وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي »الآيه ذيل قوله تعالى:« وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ:» لقمان:۱۴ و هي بسياقها تأبى أن تكون نازله عن سبب خاص.على أنه قد تقدم في ذيل قوله تعالى:

« قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً:» الأنعام:۱۵۱،إن الإحسان بالوالدين من الأحكام العامه غير المختصه بشريعه دون شريعه.

و أما ثانيا:فلأن ما ذكر من أخذ السيف و استيهابه من النبي ص إنما يناسب قراءه:« يسئلونك الأنفال »لا قراءه:« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ »و قد تقدم توضيحه في البيان المتقدم.

و أما ثالثا:فلأن استقرار السنه على الإيصاء بالثلث لم يكن بآيه نازله بل بسنه نبويه.

و أما رابعا:فلأن قصه شربه الخمر مع جماعه من الصحابه و شج أنفه بلحيي بعير و إن كانت حقه لكنه إنما شرب الخمر مع جماعه مختلطه من المهاجرين و الأنصار، و قد شج أنفه عمر بن الخطاب ثم أنزل الله آيه المائده،و لم ينزل للتحريم بل لتشديده، و قد تقدم ذلك كله في ذيل قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ:» المائده:۹۰.

و فيه،:أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و البيهقي في سننه عن أبي أمامه قال: سألت عباده بن الصامت عن الأنفال-فقال:

فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل-فساءت فيه أحلامنا فانتزعه الله من

أيدينا-و جعله إلى رسول الله ص فقسمه رسول الله ص بين المسلمين،عن براء يقول:عن سواء.

و فيه،:أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و أبو الشيخ و الحاكم،و صححه و البيهقى و ابن مردويه عن عباده بن الصامت قال:

خرجنا مع رسول الله ص فشهدت معه بدرا-فالتقى الناس فهزم الله العدو-فانطلقت طائفه فى آثارهم منهزمين يقتلون،و أكبت طائفه على العسكر يحوزونه و يجمعونه، و أحدقت طائفه برسول الله ص لا تصيب العدو منه غره-حتى إذا كان الليل و فاء الناس بعضهم إلى بعض-قال الذين جمعوا الغنائم:نحن حويناها و جمعناها،فليس لأحد فيها نصيب،و قال الذين خرجوا فى طلب العدو:لستم بأحق بها منا،نحن نفينا عنها العدو و هزمناهم،و قال الذين أحدقوا برسول الله ص:لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ص- و خفنا أن يصيب العدو منه غره و اشتغلنا به فنزلت:

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ » فقسمها رسول الله ص بين المسلمين،الحديث.

و فيه،:أخرج ابن أبى شيبه و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال:

لما كان يوم بدر قال النبى:من قتل قتيلا فله كذا و كذا-و من أسر أسيرا فله كذا و كذا- فأما المشيخه فثبتوا تحت الرايات،و أما الشبان فتسارعوا إلى القتل و الغنائم-فقالت المشيخه للشبان:أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا و لو كان منكم شىء-للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبى ص فنزلت:« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ » فقسم الغنائم بينهم بالسويه.

أقول:و فى هذه المعانى روايات أخر،و هنا روايات تدل على تفصيل القصه تتضح بها معنى الآيات سنوردها فى ذيل الآيات التاليه.

و فى بعض الروايات أن النبى ص وعدهم أن يعطيهم السلب و الغنيمه ثم نسخه الله تعالى بقوله:« قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ »و إلى ذلك يشير ما فى هذه الروايه، و لذلك ربما قيل:إنه لا يجب على الإمام أن يفى بما وعد به المحاربين.لكن يبعده

اختلافهم فی أمر الغنائم یوم بدر إذ لو کان النبی ص وعدهم بذلک لم یختلفوا مع صریح بیانه.

و فیه:،أخرج ابن جریر عن مجاهد": أنهم سألوا النبی ص عن الخمس بعد الأربعه الأخماس- فنزلت:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ ».

أقول:و هو لا ینطبق علی ما تقدم من مضمون الآیه علی ما یعطیه السیاق، و فی بعض ما ورد عن المفسرین السلف کسعید بن جبیر و مجاهد و عکرمه و کذا عن ابن عباس أن قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ »الآیه منسوخه بقوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ »الآیه، و قد تقدم فی بیان الآیه ما ینتفی به احتمال النسخ.

و فیه:،أخرج مالک و ابن أبی شیبه و أبو عبید و عبد بن حمید و ابن جریر و النحاس و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه عن القاسم بن محمد،قال": سمعت رجلا یسأل ابن عباس عن الأنفال-فقال:الفرس من النفل و السلب من النفل- فأعاد المسأله فقال ابن عباس ذلک أیضا-.

ثم قال الرجل:الأنفال التی قال الله فی کتابه،ما هی؟فلم یزل یسأله حتی کاد یحرجه،فقال ابن عباس:هذا مثل صبیغ الذی ضربه عمر،و فی لفظ:

ما أحوجک إلی من یضربک کما فعل عمر بصبیغ العراقی،و کان عمر ضربه حتی سالت الدماء علی عقبیه.

و فیه:،فی قوله تعالی:« أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا »أخرج الطبرانی عن الحارث بن مالک الأنصاری- أنه مر برسول الله ص فقال له:کیف أصبحت یا حارث؟ قال:أصبحت مؤمنا حقا.قال:انظر ما تقول-فإن لکل شیء حقیقه فما حقیقه إیمانک؟فقال:عرفت نفسی عن الدنیا فأسهرت لیلی و أظمأت نهاری-و کأنی أنظر إلی أهل الجنه یتزاورون فیها،و کأنی أنظر إلی أهل النار یتضاغون فیها،قال:

یا حارث عرفت فالزم،ثلاثا.

أقول:و الحدیث مروی من طرق الشیعه بأسانید عدیده.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧ الی ١۴]

اشاره

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اَللّٰهُ إِحْدَى اَلطّٰائِفَتَيْنِ أَنَّهٰا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذٰاتِ اَلشَّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اَللّٰهُ أَنْ يُحِقَّ اَلْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ يَقْطَعَ دٰابِرَ اَلْكٰافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ اَلْحَقَّ وَ يُبْطِلَ اَلْبٰاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجٰابَ لَكُمْ أَنِّی مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ اَلْمَلاٰئِكَهِ مُرْدِفِينَ (٩) وَ مٰا جَعَلَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ بُشْرىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا اَلنَّصْرُ إِلاّٰ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ اَلنُّعٰاسَ أَمَنَهً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ اَلشَّيْطٰانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلىٰ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ اَلْأَقْدٰامَ (١١) إِذْ يُوحِی رَبُّكَ إِلَى اَلْمَلاٰئِكَهِ أَنِّی مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا اَلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ اَلْأَعْنٰاقِ وَ اِضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنٰانٍ (١٢) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشٰاقِقِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (١٣) ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابَ اَلنّٰارِ (١۴)

(بيان)

تشير الآيات إلی قصه بدر،و هی أول غزوه فی الإسلام،و ظاهر سياق الآيات أنهم نزلت بعد انقضائها علی ما سيتضح.

ص: ١٨

قوله تعالى:« وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ إِحْدَى الطّٰائِفَتَيْنِ أَنَّهٰا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذٰاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ يَقْطَعَ دٰابِرَ الْكٰافِرِينَ »أى و اذكروا إذ يعدكم الله،و هو بيان منن الله و عد نعمه عليهم ليكونوا على بصيره من أن الله سبحانه لا يستقبلهم بأمر و لا يأتيهم بحكم إلا بالحق و فيه حفظ مصالحهم و إسعاد جدهم فلا يختلفوا فيما بينهم،و لا يكرهوا ما يختاره لهم،و يكلوا أمرهم إليه فيطيعوه و رسوله.

و المراد بالطائفتين العير و النفير،و العير قافله قريش و فيها تجارتهم و أموالهم و كان عليها أربعون رجلا منهم أبو سفيان بن حرب،و النفير جيش قريش و هم زهاء ألف رجل.

و قوله:« إِحْدَى الطّٰائِفَتَيْنِ »مفعول ثان لقوله:« يَعِدُكُمُ »و قوله:« أَنَّهٰا لَكُمْ »بدل منه و قوله« وَ تَوَدُّونَ »الآيه فى موضع الحال،و المراد بغير ذات الشوكه:

الطائفه غير ذات الشوكه و هى العير الذى كان أقل عده و عده من النفير، و الشوكه الحده،استعاره من الشوك.

و قوله:« وَ يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ »فى موضع الحال،و المراد بإحقاق الحق إظهاره و إثباته بترتيب آثاره عليه،و كلمات الله هى ما قضى به من نصره أنبيائه و إظهار دينه الحق،قال تعالى:« وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ» :الصافات:١٧٣ و قال تعالى:« يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ اللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكٰافِرُونَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» :الصف:٩ و قرئ:« بكلمته »:و هو أوجه و أقرب و الدابر ما يأتى بعد الشىء مما يتعلق به و يتصل إليه و قطع دابر الشىء،كنايه عن إفنائه و استئصاله بحيث لا يبقى بعده شىء من آثاره المتفرعه عليه المرتبطه به.

و معنى الآيه:و اذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إما العير و إما النفير و أنتم تودون أن تكون تلك الطائفه هى العير لما تعلمون من شوكه النفير،و قوتهم و شدتهم،مع ما لكم من الضعف و الهوان،و الحال

أن الله يريـد خلاـف ذلـك و هو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم و يظهر ما قضـى ظهوره من الحق،و يسـتأصل الكافرين و يقطع دابرهم.

قـوله تعـالى:« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِـلَ الْبَاطِـلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »ظـاهر السـياق أن اللاـم للغـايه،و قوله:« لِيُحِقَّ »الآـيه متعلق بقوله:« يَعِـدُكُمُ اللّهُ »أى إنما وعـدكم الله ذلك و هو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق و يبطل الباطل و لو كان المجرمون يكرهونه و لا يريدونه.

و بذلك يظهر أن قوله:« لِيُحِقَّ الْحَقَّ »الآيه ليس تكرارا لقوله:« وَ يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ »و إن كان فى معناه.

قوله تعالى:« إِذْ تَسْـتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُرْدِفِينَ » الاستغاثه طلب الغوث و هو النصره كما فى قوله:« فَاسْـتَغاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ:» القصص:۱۵ و الإمـداد معروف،و قوله:« مُرْدِفِينَ »من الإرداف و هو أن يجعل الراكب غيره ردفا له،و الردف التابع،قال الراغب:

الردف التابع،و ردف المرأه عجيزتها، و الترادف :التتابع،و الرادف:المتأخر، و المردف المقدم الذى أردف غيره.انتهى.

و بهذا المعنى تلائم الآيه ما فى قوله تعالى فيما يشير به إلى هذه القصه فى سوره آل عمران:« وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّهٌ فَـاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِـدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَهِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَهِ مُنْزَلِينَ بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُـوا وَ يَـأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هـذا يُمْـدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَهِ آلاـفٍ مِنَ الْمَلاـئِكَهِ مُسَوِّمِينَ وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّـ بُشْـرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»:

آل عمران:۱۲۶.

فـإن تطبيق الآيـات من السـورتين يوضـح أن المراد بنزول ألـف من الملاـئكه مردفين نزول ألف منهم يسـتتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثه آلاف المنزلين.

و بـذلك يظهر فسـاد مـا قيـل:إن المراد بكون الملاـئكه مردفين كون الأـلف متبعين ألفـا آخر لأـن مع كـل واحـد منهم ردفـا له فيكونون ألفين،و كذا ما قيل:

إن المراد كون بعضهم أثر بعض،و كذا ما قيل:إن المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين،و كذا ما قيل:إن المراد إردافهم المسلمين بأن يتقدموا عسكر المسلمين فيلقوا فی قلوب الذين كفروا الرعب.

قوله تعالى:« وَ مَا جَعَلَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ بُشْرىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّٰ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »الضميران فی قوله:« جَعَلَهُ »و قوله:« بِهِ » للإمداد بالملائكه على ما يدل عليه السياق،و المعنى أن الإمداد بالملائكه إنما كان لغرض البشرى و اطمئنان نفوسكم لا ـ ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير إليه قوله تعالى بعد:« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاٰئِكَهِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ .

و بذلك يتأيد ما ذكره بعضهم:أن الملائكه لم ينزلوا ليقتلوا المشركين و لا قتلوا منهم أحدا فقد قتل ثلث المقتولين منهم أو النصف على(ع)و الثلثين الباقين أو النصف سائر المسلمين.و إنما كان للملائكه تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبيت قلوب المسلمين،و إلقاء الرعب فی قلوب المشركين،و سيجیء بعض الكلام فی ذلك.

و قوله:« وَ مَا النَّصْرُ إِلاّٰ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »بيان انحصار حقيقه النصر فيه تعالى و أنه لو كان بكثره العدد و القوه و الشوكه كانت الدائره يومئذ للمشركين بما لهم من الكثره و القوه على المسلمين على ما بهم من القله و الضعف.

و قد علل بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »جميع مضمون الآيه و ما يتعلق به من الآيه السابقه فبعزته نصرهم و أمدهم،و بحكمته جعل نصره على هذه الشاكله.

قوله تعالى:« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعٰاسَ أَمَنَهً مِنْهُ »إلى آخر الآيه. النعاس أول النوم و هو خفيفه و التغشيه الإحاطه،و الأمنه الأمان،و قوله:« أَمَنَهً »أی من الله و قيل:أی من العدو، و الرجز هو الرجس و القذاره،و المراد برجز الشيطان القذاره التی يطرأ القلب من وسوسته و تسويله.

و معنى الآيه:أن النصر و الإمداد بالبشرى و اطمئنان القلوب كان فی وقت يأخذكم النعاس للأمن الذی أفاضه الله على قلوبكم فنمتم و لو كنتم خائفين مرتاعين لم

يأخذكم نعاس و لا نوم،و ينزل عليكم المطر ليطهركم به و يذهب عنكم وسوسه الشيطان و ليربط على قلوبكم و يشد عليها-و هو كنايه عن التشجيع-و ليثبت بالمطر أقدامكم فى الحرب بتلبد الرمل أو بثبات القلوب.

و الآيه تؤيد ما ورد أن المسلمين سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل،و أصبحوا محدثين و مجنبين،و أصابهم الضمأ،و وسوس إليهم الشيطان فقال:

إن عدوكم قد سبقكم إلى الماء،و أنتم تصلون مع الجنابه و الحدث و تسوخ أقدامكم فى الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابه،و تطهروا به من الحدث،و تلبدت به أرضهم،و أوحلت أرض عدوهم.

قوله تعالى:« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاٰئِكَهِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ »إلى آخر الآيه حال الظرف فى أول الآيه كحال الظرف فى قوله:« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ »و قوله:« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعٰاسَ »و معنى الآيه ظاهر.

و أما قوله:« فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنٰاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنٰانٍ »فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرءوس و بكل بنان جميع الأطراف من اليدين و الرجلين أو أصابع الأيدى لئلا يطيقوا حمل السلاح بها و القبض عليه.

و من الجائز أن يكون الخطاب بقوله:« فَاضْرِبُوا »إلخ للملائكه كما هو المتسابق إلى الذهن،و المراد بضرب فوق الأعناق و كل بنان ظاهر معناه،أو الكنايه عن إذلالهم و إبطال قوه الإمساك من أيديهم بالإرعاب،و أن يكون الخطاب للمؤمنين و المراد به تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم و الربط على قلوبهم،و حثهم و إغراؤهم بالمشركين.

قوله تعالى:« ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشٰاقِقِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ » المشاقه المخالفه و أصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل إلى شق غير شق من يخالفه،و المعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم،لأنهم خالفوا الله و رسوله و ألحوا و أصروا على ذلك و من يشاقق الله و رسوله فإن الله شديد العقاب.

قوله تعالى:« ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابَ النّٰارِ »خطاب تشديدى للكفار يشير إلى ما نزل بهم من الخزى و يأمرهم بأن يذوقوه،و يذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار.

ص :٢٢

(بحث روائی)

اشاره

فی المجمع،قال ابن عباس": لما کان یوم بدر و اصطف القوم للقتال قال أبو جهل:

اللهم أولانا بالنصر فانصره،و استغاث المسلمون فنزلت الملائکه و نزل قوله:« إِذْ تَسْتَغِیثُونَ رَبَّکُمْ »إلی آخره.

و قیل: إن النبی ص لما نظر إلی کثره عدد المشرکین-و قله عدد المسلمین استقبل القبله و قال:اللهم أنجز لی ما وعدتنی-اللهم إن تهلک هذه العصابه لا تعبد فی الأرض-فما زال یهتف ربه مادا یدیه-حتی سقط رداؤه من منکبیه فأنزل الله:

« إِذْ تَسْتَغِیثُونَ رَبَّکُمْ »الآیه: عن عمر بن الخطاب و السدی و أبی صالح و هو المروی عن أبی جعفر(ع).

قال: و لما أمسی رسول الله و جنه اللیل-ألقی الله علی أصحابه النعاس-و کانوا قد نزلوا فی موضع کثیر الرمل-لا تثبت فیه قدم فأنزل الله علیهم المطر رذاذا-حتی لبد الأرض و ثبت أقدامهم-و کان المطر علی قریش مثل العزالی،و ألقی الله فی قلوبهم الرعب کما قال الله تعالی:« سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ ».

أقول:لفظ الآیه:« إِذْ تَسْتَغِیثُونَ رَبَّکُمْ »إلخ لا یلائم نزولها یوم بدر عقیب استغاثتهم بل السیاق یدل علی نزولها مع قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ »و الآیات التالیه له،و هی تدل علی حکایه حال ماضیه و امتنانه تعالی علی المسلمین بما أنزل علیهم من آیات النصر و تفاریق النعم لیشکروا له و یطیعوه فیما یأمرهم و ینهاهم.

و لعل المراد من ذکر نزول الآیه بعد ذکر استغاثتهم انطباق مضمون الآیه علی الواقعه،و هو کثیر النظیر فی الروایات المشتمله علی أسباب النزول.

و فی تفسیر البرهان،عن ابن شهرآشوب:قال النبی ص فی العریش: اللهم إنک إن تهلک هذه العصابه الیوم-لا تعبد بعد هذا الیوم فنزل:« إِذْ تَسْتَغِیثُونَ رَبَّکُمْ » فخرج یقول: سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ -فأیده الله بخمسه آلاف من الملائکه مسومین، و کثرهم فی أعین المشرکین،و قلل المشرکین فی أعینهم فنزل:« وَ هُمْ بِالْعُدْوَهِ الْقُصْوی من الوادی خلف العقنقل-و النبی ص بالعدوه الدنیا عند القلیب.

أقول:و الكلام فيه كالكلام فى سابقه.

و فى المجمع،:ذكر البلخى عن الحسن": أن قوله:« وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ »الآيه-نزلت قبل قوله:« كَمٰا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ »-و هى فى القراءه بعدها.

أقول:و تقدم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الأخرى بحسب الوقوع لا يلازم سبقها نزولا،و لا دليل من جهه السياق يدل على ما ذكره.

و فى تفسير العياشى،عن محمد بن يحيى الخثعمى عن أبى عبد الله(ع): فى قوله تعالى:« وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ إِحْدَى الطّٰائِفَتَيْنِ-أَنَّهٰا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذٰاتِ الشَّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ »-فقال:الشوكه التى فيها القتال:

أقول:و روى مثله القمى فى تفسيره.

و فى المجمع،قال أصحاب السير و ذكر أبو حمزه و على بن إبراهيم فى تفسيرهما -دخل حديث بعضهم فى بعض-": أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام-و فيها أموالهم و هى اللطيمه،و فيها أربعون راكبا من قريش-فندب النبى ص أصحابه للخروج إليها ليأخذوها،و قال:لعل الله أن ينفلكموها-فانتدب الناس فخف بعضهم و ثقل بعضهم،و لم يظنوا أن رسول الله ص يلقى كيدا و لا حربا- فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان-و الركب لا يرونها إلا غنيمه لهم-.

فلما سمع أبو سفيان بمسير النبى ص-استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكه،و أمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم-و يخبرهم أن محمدا قد تعرض لعيرهم فى أصحابه-فخرج ضمضم سريعا إلى مكه-.

و كانت عاتكه بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم-قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال-أن رجلا أقبل على بعير له ينادى يا آل غالب-اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبى قبيس-فأخذ حجرا فدهدهه من الجبل-فما ترك دارا من دور قريش إلا أصابته منه فلذه-فانتبهت فزعه من ذلك و أخبرت العباس بذلك-فأخبر العباس عتبه بن ربيعه-فقال عتبه:هذه مصيبه تحدث فى قريش،و فشت الرؤيا فيهم و بلغ ذلك أبا جهل-فقال:هذه نبيه ثانيه فى بنى عبد المطلب،و اللات و العزى

لننظرن ثلاثه أيام-فإن كان ما رأت حقا و إلا لنكتبن كتابا بيننا:أنه ما من أهل بيت من العرب-أكذب رجالا و نساء من بنى هاشم-.

فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت:يا آل غالب يا آل غالب.اللطيمه اللطيمه.العير العير.أدركوا و ما أراكم تدركون-إن محمدا و الصباه من أهل يثرب قد خرجوا-يتعرضون لعيركم فتهيئوا للخروج،و ما بقى أحد من عظماء قريش-إلا أخرج مالا لتجهيز الجيش،و قالوا من لم يخرج نهدم داره،و خرج معهم العباس بن عبد المطلب،و نوفل بن الحارث بن عبد المطلب،و عقيل بن أبى طالب،و أخرجوا معهم القيان يضر بن الدفوف-.

و خرج رسول الله ص فى ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا-فلما كان بقرب بدر أخذ عينا للقوم فأخبره بهم،و فى حديث أبى حمزه:بعث رسول الله ص أيضا عينا له على العير اسمه عدى-فلما قدم على رسول الله ص فأخبره أين فارق العير-نزل جبرائيل على رسول الله ص-فأخبره بنفير المشركين من مكه-فاستشار أصحابه فى طلب العير و حرب النفير-فقام أبو بكر فقال:يا رسول الله-إنها قريش و خيلاؤها ما آمنت منذ كفرت،و لا ذلت منذ عزت،و لم نخرج على هيئه الحرب؛و فى حديث أبى حمزه:أنا عالم بهذا الطريق فارق عدى العير بكذا و كذا،و ساروا و سرنا فنحن و القوم على ماء بدر-يوم كذا و كذا كأنا فرسا رهان-فقال(ص):

اجلس فجلس.ثم قام عمر بن الخطاب فقال مثل ذلك،فقال(ص):اجلس فجلس-.

ثم قام المقداد فقال:يا رسول الله-إنها قريش و خيلاؤها،و قد آمنا بك و صدقنا و شهدنا أن ما جئت به حق،و الله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا و شوك الهراس لخضناه معك،و الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون-و لكنا نقول:امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون، فجزاه رسول الله ص خيرا على قوله ذاك-.

ثم قال:أشيروا على أيها الناس-و إنما يريد الأنصار لأن أكثر الناس منهم، و لأنهم حين بايعوه بالعقبه قالوا:إنا برآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا-ثم أنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع أبناءنا و نساءنا،فكان(ص)يتخوف أن لا يكون الأنصار ترى عليها نصرته-إلا على من دهمه بالمدينه من عدو،و أن ليس عليهم أن ينصروه خارج المدينه-.

فقام سعد بن معاذ فقال:بأبی أنت و أمی یا رسول الله کأنک أردتنا.فقال:

نعم. قال:بأبی أنت و أمی یا رسول الله-إنا قد آمنا بک و صدقناک-و شهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت،و خذ من أموالنا ما شئت،و اترک منها ما شئت،و الله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معک-و لعل الله عز و جل أن یریک منا ما تقر به عینک-فسر بنا علی برکه الله.

ففرح بذلک رسول الله ص و قال:-سیروا علی برکه الله-فإن الله عز و جل قد وعدنی إحدی الطائفتین-و لن یخلف الله وعده،و الله لکأنی أنظر إلی مصرع أبی جهل بن هشام-و عتبه بن ربیعه و شیبه بن ربیعه و فلان و فلان (۱)و أمر رسول الله ص بالرحیل،و خرج إلی بدر و هو بئر،و فی حدیث أبی حمزه الثمالی:بدر رجل من جهینه-و الماء ماؤه فإنما سمی الماء باسمه،و أقبلت قریش و بعثوا عبیدها لیستقوا من الماء-فأخذهم أصحاب رسول الله ص و قالوا لهم:من أنتم؟ قالوا:نحن عبید قریش.قالوا:فأین العیر؟قالوا:لا علم لنا بالعیر فأقبلوا یضربونهم، و کان رسول الله ص یصلی فانفتل من صلاته-و قال:إن صدقوکم ضربتموهم و إن کذبوکم ترکتموهم،فأتوه بهم فقال لهم:من أنتم؟قالوا:یا محمد نحن عبید قریش، قال:کم القوم؟قالوا:لا علم لنا بعددهم،قال:کم ینحرون فی کل یوم من جزور؟ قالوا:تسعه إلی عشره،فقال رسول الله ص:القوم تسعمائه إلی ألف رجل، و أمر(ص)بهم فحبسوا-و بلغ ذلک قریشا ففزعوا و ندموا علی مسیرهم-.

و لقی عتبه بن ربیعه أبا البختری بن هشام- فقال:أ ما تری هذا البغی-و الله ما أبصر موضع قدمی خرجنا لنمنع عیرنا-و قد أفلتت فجئنا بغیا و عدوانا،و الله ما أفلح قوم بغوا قط،و لوددت أن ما فی العیر من أموال بنی عبد مناف-ذهبت و لم نسر هذا المسیر،فقال له أبو البختری،إنک سید من سادات قریش-فسر فی الناس و تحمل العیر التی أصابها محمد و أصحابه-بنخله (۲)و دم ابن الحضرمی فإنه حلیفک-.

۱- ۱) و قد کان صلی الله علیه و آله یشیر بذلک إلی لقاء النفیر و هم یرجون لقاء العیر-.

۲- ۲) و قد تقدمت الروایات فی قصته فی الجزء الثانی من الکتاب فی ذیل قوله قوله تعالی:«یسألونک عن الشهر الحرام قتال فیه»الآیه،البقره آیه ۲۱۷.

فقال له:على ذلك،و ما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظليه يعنى أبا جهل-فصر إليه و أعلمه أنى حملت العير-و دم ابن الحضرمى و هو حليفى و على عقله-.

قال:فقصدت خباءه و أبلغته ذلك،فقال:إن عتبه يتعصب لمحمد-فإنه من بنى عبد مناف و ابنه معه-يريد أن يخذل بين الناس لا و اللات و العزى-حتى نقحم عليهم يثرب أو نأخذهم أسارى-فندخلهم مكه و تتسامع العرب بذلك،و كان أبو حذيفه بن عتبه مع رسول الله ص-.

و كان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش:قد نجى الله عيركم فارجعوا و دعوا محمدا و العرب،و ادفعوه بالراح ما اندفع،و إن لم ترجعوا فردوا القيان- فلحقهم الرسول فى الجحفه،فأراد عتبه أن يرجع فأبى أبو جهل و بنو مخزوم-و ردوا القيان من الجحفه-.

قال:و فزع أصحاب رسول الله ص-لما بلغهم كثره قريش،و استغاثوا و تضرعوا،فأنزل الله عز و جل:« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ »و ما بعده-.

قال الطبرسى:و لما أصبح رسول الله ص يوم بدر عبا أصحابه،فكان فى عسكره فرسان:فرس للزبير بن عوام،و فرس للمقداد بن الأسود،و كان فى عسكره سبعون جملا كانوا يتعاقبون عليها،و كان رسول الله ص و على بن أبى طالب(ع)- و مرثد بن أبى مرثد الغنوى-يتعاقبون على جمل لمرثد بن أبى مرثد،و كان فى عسكر قريش أربعمائه فرس،و قيل:مائتا فرس-.

فلما نظرت قريش إلى قله أصحاب رسول الله ص-قال أبو جهل:ما هم إلا أكله رأس-لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذا باليد،فقال عتبه بن ربيعه:

أ ترى لهم كمينا أو مددا؟فبعثوا عمير بن وهب الجمحى و كان فارسا شجاعا-فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله ص-ثم رجع فقال:ليس لهم كمين و لا مدد-و لكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع-أ ما ترونهم خرسا لا يتكلمون-و يتلمظون تلمظ الأفاعى ما لهم ملجأ إلا سيوفهم،و ما أراهم يولون حتى يقتلوا،و لا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتئوا رأيكم،فقال له أبو جهل:كذبت و جبنت-.

فأنزل الله تعالى:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها »-فبعث إليهم رسول الله

ص فقال:يا معشر قريش-إنى أكره أن أبدأ بكم فخلونى و العرب و ارجعوا- فقال عتبه:ما رد هذا قوم قط فأفلحوا،ثم ركب جملا له أحمر فنظر إليه رسول الله ص-و هو يجول بين العسكرين و ينهى عن القتال-فقال(ص):إن يك عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر-و إن يطيعوه يرشدوا-.

و خطب عتبه فقال فى خطبته:يا معشر قريش أطيعونى اليوم و اعصونى الدهر- إن محمدا له آل و ذمه و هو ابن عمكم-فخلوه و العرب فإن يك صادقا فأنتم أعلى عينا به- و إن يك كاذبا كفتكم ذؤبان العرب أمره-فغاظ أبا جهل قوله و قال له:جبنت و انتفخ سحرك-فقال:يا مصفر استه مثلى يجبن؟و ستعلم قريش أينا ألأم و أجبن؟ و أينا المفسد لقومه-.

و لبس درعه و تقدم هو و أخوه شيبه و ابنه الوليد،و قال:يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش-فبرز إليهم ثلاثه نفر من الأنصار و انتسبوا لهم-فقالوا:

ارجعوا إنما نريد الأكفاء من قريش-فنظر رسول الله ص إلى عبيده بن الحارث بن عبد المطلب-و كان له يومئذ سبعون سنه-فقال:قم يا عبيده،و نظر إلى حمزه- فقال:قم يا عم ثم نظر إلى على بن أبى طالب-فقال:قم يا على-و كان أصغر القوم-فاطلبوا بحقكم الذى جعله الله لكم-فقد جاءت قريش بخيلائها و فخرها- تريد أن تطفئ نور الله-و يأبى الله إلا أن يتم نوره.ثم قال:يا عبيده عليك بعتبه بن ربيعه،و قال لحمزه عليك بشيبه،و قال لعلى:عليك بالوليد-.

فمروا حتى انتهوا إلى القوم فقالوا:أكفاء كرام فحمل عبيده على عتبه-فضربه على رأسه ضربه فلقت هامته،و ضرب عتبه عبيده على ساقه فأطنها فسقطا جميعا، و حمل شيبه على حمزه فتضاربا بالسيفين حتى انثلما،و حمل أمير المؤمنين على(ع) على الوليد-فضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه-قال على:لقد أخذ الوليد يمينه بيساره-فضرب بها هامتى-فظننت أن السماء وقعت على الأرض-.

ثم اعتنق حمزه و شيبه فقال المسلمون:يا على أ ما ترى أن الكلب قد نهز عمك- فحمل عليه على(ع)ثم قال:يا عم-طأطئ رأسك و كان حمزه أطول من شيبه- فأدخل حمزه رأسه فى صدره-فضربه على فطرح نصفه،ثم جاء إلى عتبه و به رمق فأجهز عليه-.

و فى روايه أخرى أنه برز حمزه لعتبه،و برز عبيده لشيبه،و برز على للوليد فقتل حمزه عتبه،و قتل عبيده شيبه،و قتل على(ع)الوليد.فضرب شيبه رجل عبيده-فقطعها فاستنقذه حمزه و على،و حمل عبيده حمزه و على حتى أتيا به رسول الله ص-فاستعبر فقال:يا رسول الله أ لست شهيدا؟قال:بلى أنت أول شهيد من أهل بيتى-.

و قال أبو جهل لقريش:لا تعجلوا-و لا تبطروا كما بطر أبناء ربيعه-عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزرا،و عليكم بقريش فخذوهم أخذا حتى ندخلهم مكه- فنعرفهم ضلالتهم التى هم عليها-.

و جاء إبليس فى صوره سراقه بن مالك بن جعشم-فقال لهم:أنا جار لكم ادفعوا إلى رايتكم-فدفعوا إليه رايه الميسره،و كانت الرايه مع بنى عبد الدار-فنظر إليه رسول الله ص فقال لأصحابه:غضوا أبصاركم،و عضوا على النواجذ،و رفع يده فقال:اللهم إن تهلك هذه العصابه لا تعبد-ثم أصابه الغشى فسرى عنه و هو يسلك العرق عن وجهه-فقال:هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكه مردفين.

و فى الأمالى،بإسناده عن الرضا عن آبائه(ع): أن رسول الله ص سافر إلى بدر فى شهر رمضان-و افتتح مكه فى شهر رمضان.

أقول:و على ذلک أطبق أهل السير و التواريخ،قال اليعقوبى فى تاريخه:

و كانت وقعه بدر يوم الجمعه لثلاث عشره ليله بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه _ص-يعنى إلى المدينه-بثمانيه عشر شهرا.

و قال الواقدى:و نزل رسول الله ص وادى بدر عشاء ليله الجمعه لسبع عشره مضت من شهر رمضان فبعث عليا و الزبير و سعد بن أبى وقاص و بسبس بن عمرو يتجسسون على الماء فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم و أفلت بعضهم و أتوا بهم النبى ص و هو قائم يصلى فسألهم المسلمون فقالوا:نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء فضربوهم فلما أن لقوهم بالضرب قالوا:نحن لأبى سفيان و نحن فى العير،و هذا العير بهذا القوز فكانوا إذا قالوا ذلک يمسكون عن ضربهم.فسلم رسول الله ص من صلاته ثم قال:إن صدقوكم ضربتموهم و إن كذبوكم تركتموهم.

فلما أصبحوا عدل رسول الله ص الصفوف و خطب المسلمين فحمد الله و أثنى عليه

ثم قال:

أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه،و أنهاكم عما نهاكم الله عنه-فإن الله عظيم شأنه،يأمر بالحق،و يحب الصدق،و يعطى على الخير أهله على منازلهم عنده-به يذكرون،و به يتفاضلون،و إنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق-لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه،و إن الصبر فى مواطن البأس-مما يفرج الله به الهم و ينجى به من الغم-تدركون به النجاه فى الآخره،فيكم نبى الله يحذركم و يأمركم-فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شىء من أمركم-يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول:

لَمَقْتُ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ -انظروا فى الذى أمركم به من كتابه،و أراكم من آياته و ما أعزكم به بعد الذله-فاستكينوا له يرض ربكم عنكم،و أبلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا-تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته و مغفرته-فإن وعده حق،و قوله صدق،و عقابه شديد،و إنما أنا و أنتم بالله الحى القيوم،إليه ألجأنا ظهورنا،و به اعتصمنا،و عليه توكلنا،و إليه المصير،و يغفر الله لى و للمسلمين.

و فى المجمع،:ذكر جماعه من المفسرين كابن عباس و غيره: أن جبرائيل قال للنبى ص يوم بدر-خذ قبضه من تراب فارمهم بها-فقال رسول الله(ص)لما التقى الجمعان لعلى:أعطنى قبضه من حصا الوادى-فناوله كفا من حصا عليه تراب فرمى به فى وجوه القوم-و قال:شاهت الوجوه-فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه و فمه- و منخريه منها شىء-ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم،و كانت تلك الرميه سبب هزيمه القوم.

و فى الأمالى،بإسناده عن ابن عباس قال: وقف رسول الله ص على قتلى بدر فقال:جزاكم الله من عصابه شرا-لقد كذبتمونى صادقا و خونتم أمينا،ثم التفت إلى أبى جهل بن هشام فقال:إن هذا أعتى على الله من فرعون-إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحد الله،و إن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات و العزى.

و فى المغازى،للواقدى: و أمر رسول الله ص يوم بدر بالقليب أن تغور-ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أميه بن خلف-فإنه كان مسمنا انتفخ من يومه-فلما

أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه-فقال النبى ص:اتركوه،فأقروه و ألقوا عليه من التراب-و الحجاره ما غيبه-.

ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلا رجلا:هل وجدتم ما وعد ربكم حقا-فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا-بئس القوم كنتم لنبيكم كذبتمونى و صدقنى الناس،و أخرجتمونى و آوانى الناس،و قاتلتمونى و نصرنى الناس.فقالوا يا رسول الله أ تنادى قوما قد ماتوا؟فقال:لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق،و فى روايه أخرى:فقال رسول الله ص:ما أنتم بأسمع لما أقول منهم-و لكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى.

قال:و كان انهزام قريش حين زالت الشمس-فأقام رسول الله ص ببدر- و أمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم و حملها،و أمر نفرا من أصحابه أن يعينوه- فصلى العصر ببدر ثم راح-فمر بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به و بات،و بأصحابه جراح و ليست بالكثيره،و أمر ذكوان بن عبد قيس أن يحرس المسلمين-حتى كان آخر الليل فارتحل.

و فى تفسير القمى،فى خبر طويل": و خرج أبو جهل من بين الصفين و قال:

اللهم إن محمدا أقطعنا للرحم،و أتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداه-فأنزل الله على رسوله:

« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ الْفَتْحُ-وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ-وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً-وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ».

ثم أخذ رسول الله ص كفا من حصى-و رمى به فى وجوه قريش و قال:

شاهت الوجوه-فبعث الله رياح تضرب فى وجوه قريش-فكانت الهزيمه فقال رسول الله ص:اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمه أبو جهل بن هشام-فقتل منهم سبعين، و أسر منهم سبعين-.

و التقى عمرو بن الجموع مع أبى جهل-فضرب عمرو أبا جهل على فخذه-و ضرب أبو جهل عمرا على يده-فأبانها من العضد فتعلقت بجلده-فاتكى عمرو على يده برجله ثم تراخى إلى السماء-حتى انقطعت الجلده و رمى بيده-.

و قال عبد الله بن مسعود:انتهيت إلى أبى جهل-و هو يتشحط بدمه فقلت:

الحمـد لله الـذى أخزاك فرفع رأسه-فقال:إنما أخزى الله عبـدا،ابن أم عبـد لمن الـدبره ويلك؟قلت:لله و لرسوله و إنى قاتلك،و وضـعت رجلى على عنقه فقـال:ارتقيت مرتقى صـعبا يا رويعى الغنم-أما إنه ليس شـىء أشـد من قتلك إياى فى هـذا اليوم-أ لا تـولى قتلى رجـل من المطلـبيين-أو رجـل من الأحلاف؟فـاقتلعت بيضه كـانت على رأسه-فقتلته و أخـذت رأسه و جئت به إلى رسول الله ص-و قلت:يا رسول الله البشرى هذا رأس أبى جهل بن هشام-فسجد لله شكرا.

و فى الإرشاد للمفيد،: ثم بارز أمير المؤمنين(ع)-العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه-فلم يلبث أن قتله،و برز إليه حنظله بن أبى سـفيان فقتله، و برز إليه بعده طعيمه بن عدى فقتله،و قتل بعده نوفل بن خويلد و كان من شياطين قريش،و لم يزل يقتـل واحـدا منهم بعـد واحـد-حـتى أتى على شـطر المقتـولين منهم و كـانوا سـبعين رجلا،تولى كـافه من حضـر بـدرا من المسلمين-مع ثلاثه آلاف من الملائكه المسومين-قتل الشطر منهم،و تولى أمير المؤمنين(ع)قتل الشطر الآخر وحده.

و فى الإرشـاد،:أيضـا: قـد أثبتت رواه العامه و الخاصه معا-أسـماء الـذين تولى أمير المؤمنين(ع)قتلهم ببـدر-من المشـركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك-و اصـطلاح فكان ممن سـموه:الوليد بن عتبه كما قدمنا-و كان شجاعا جريا وقاحا فتاكا تهابه الرجال، و العاص بن سعيد و كان هولا عظيما تهابه الأبطال،و هو الذى حاد عنه عمر بن الخطاب-و قصته فيما ذكرناه مشهوره نحن نبينها فيمـا نورده،و طعيمه بن عـدى بن نوفـل-و كان من رءوس أهل الضـلال،و نوفل بن خويلـد و كان من أشـد المشـركين عـداوه-لرسول الله ص،و كـانت قريش تقـدمه و تعظمه و تطيعه،و هو الـذى قرن أبـا بكر و طلحه قبـل الهجره بمكه-و أوثقهمـا بحبـل و عذبهما يوما إلى الليل-حتى سئل فى أمرهما،و لما عرف رسول الله ص حضوره بدرا-سأل الله أن يكفيه أمره-فقال:

اللهم اكفنى نوفل بن خويلد-فقتله أمير المؤمنين(ع)-.

و زمعه بن الأسود (۱)و الحـارث بن زمعه،و النضـر بن الحـارث بن عبـد الـدار، و عمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحه بن عبيد الله،و عثمان و مالك ابنا عبيد الله

۱- ۱) فى بعض النسخ:و عقيل بن الأسود فيه فذلك سته و ثلاثون.

أخوا طلحه بن عبيد الله،و مسعود بن أبى أميه بن المغيره،و قيس بن الفاكه بن المغيره- و حذيفه بن أبى حذيفه بن المغيره،و[أبو]قيس (۱)بن الوليد بن المغيره،و حنظله بن أبى سفيان،و عمرو بن مخزوم،و أبو منذر بن أبى رفاعه،و منبه بن الحجاج السهمى،و العاص بن منبه،و علقمه بن كلده،و أبو العاص بن قيس بن عدى، و معاويه بن المغيره بن أبى العاص،و لوذان بن ربيعه،و عبد الله بن المنذر بن أبى رفاعه،و مسعود بن أميه بن المغيره،و حاجب بن السائب بن عويمر،و أوس بن المغيره بن لوذان،و زيد بن مليص،و عاصم بن أبى عوف،و سعيد بن وهب حليف بنى عامر،و معاويه بن[عامر بن]عبد القيس،و عبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد،و السائب بن مالك،و أبو الحكم بن الأخنس،و هشام بن أبى أميه بن المغيره-.

فذلك خمسه و ثلاثون رجلا-سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين(ع) فيه غيره-و هم أكثر من شطر المقتولين ببدر على ما قدمناه.

أقول:و ذكر غيره كما فى المجمع أنه قتل يوم بدر سبعه و عشرين رجلا،و ذكر الواقدى:أن الذى اتفق عليه قول النقله و الرواه من قتلاه تسعه رجال و الباقى مختلف فيه.

لكن البحث العميق عن القصه و ما يحتف بها من أشعارهم و الحوادث المختلفه التى حدثت بعدها تسىء الظن بهذا الاختلاف،و قد نقل عن محمد بن إسحاق أن أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلى(ع).

و قد عد الواقدى فيما ذكره ابن أبى الحديد من قتلى المشركين فى وقعه بدر اثنين و خمسين رجلا و نسب قتل أربعه و عشرين منهم إليه(ع)ممن انفرد بقتله أو شارك غيره.

و من شعر أسيد بن أبى إياس يحرض مشركى قريش على على(ع)على ما فى الإرشاد و المناقب قوله:

۱- ۱) هو أخو خالد بن الوليد،و الثلاثه الذين قتلوا أبناء أعمامه.

فی کل مجمع غایه أخزاکم

جزع أبر علی المذاکی القرح

لله درکم أ لما تنکروا

قد ینکر الحر الکریم و یستحی

هذا ابن فاطمه الذی أفناکم

ذبحا و قتله قعصه لم تذبح

أعطوه خرجا و اتقوا تضریبه

فعل الذلیل و بیعه لم تربح

أین الکهول و أین کل دعامه

فی المعضلات و أین زین الأبطح

أفناهم قعصا و ضربا یفتری

بالسیف یعمل حده لم یصفح

و فی الإرشاد،روی شعبه عن أبی إسحاق عن حارث بن مضرب قال:سمعت علی بن أبی طالب(ع)یقول: لقد حضرنا بدرا-و ما فینا فارس غیر المقداد بن الأسود،و لقد رأیتنا لیله بدر-و ما فینا إلا من نام غیر رسول الله ص-فإنه کان منتصبا فی أصل شجره-یصلی فیها و یدعو حتی الصباح.

أقول:و الروایات فی قصه بدر کثیره جدا و قد اقتصرنا منها علی ما یتضح به فهم مضامین الآیات،و من الأخبار ما سیأتی إن شاء الله فی تضاعیف البحث عن الآیات التالیه المشیره إلی بعض أطراف القصه.

(فهرس أسماء شهداء بدر رض)

فی البحار،عن الواقدی قال:حدثنی عبد الله بن جعفر قال": سألت الزهری کم استشهد من المسلمین ببدر؟قال:أربعه عشر:سته من المهاجرین،و ثمانیه من الأنصار-.

قال:فمن بنی المطلب بن عبد مناف،عبیده بن الحارث قتله عتبه-و فی غیر روایه الواقدی قتله شیبه-فدفنه النبی ص بالصفراء،و من بنی زهره عمیر بن أبی وقاص-قتله عمرو بن عبد ود فارس الأحزاب،و عمیر بن عبد ود ذو الشمالین حلیف لبنی زهره-قتله

أبـو أسـامه الجشـمى،و من بنى عـدى عاقـل بن أبى البكير-حليف لهم من بنى سـعد قتله مالـك بن زهير،و مهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضـرمى-و يقال:إن مهجعا أول من قتل من المهاجرين،و من بنى الحارث بن فهر صـفوان بن بيضاء-قتله طعيمه بن عدى-.

ص:۳۴

و من الأنصار ثم من بنی عمرو بن عوف،مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور، و سعد بن خیثمه قتله عمرو بن عبد ود،و یقال:طعیمه بن عدی،و من بنی عدی بن النجار حارثه بن سراقه-رماه حنان بن العرقه بسهم فأصاب حنجرته فقتله، و من بنی مالک بن النجار-عوف و معوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل،و من بنی سلمه عمیر بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم،و یقال:إنه أول قتیل قتل من الأنصار، و قد روی:أن أول قتیل منهم حارثه بن سراقه،و من بنی زریق رافع بن المعلی- قتله عکرمه بن أبی جهل،و من بنی الحارث بن الخزرج یزید بن الحارث-قتله نوفل بن معاویه فهؤلاء الثمانیه من الأنصار.

و روی عن ابن عباس": أن أنسه مولی النبی ص قتل ببدر،

و روی": أن معاذ بن ماعص جرح ببدر-فمات من جراحته بالمدینه،و ابن عبید بن السکن جرح-فاشتکی جرحه فمات منه.

[سوره الأنفال (۸): الآیات ۱۵ الی ۲۹]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا لَقِیتُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا زَحْفاً فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ اَلْأَدْبٰارَ (۱۵) وَ مَنْ یُوَلِّهِمْ یَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَیِّزاً إِلیٰ فِئَهٍ فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِیرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ رَمیٰ وَ لِیُبْلِیَ اَلْمُؤْمِنِینَ مِنْهُ بَلاٰءً حَسَناً إِنَّ اَللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۷) ذٰلِکُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مُوهِنُ کَیْدِ اَلْکٰافِرِینَ (۱۸) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَکُمُ اَلْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِیَ عَنْکُمْ فِئَتُکُمْ شَیْئاً وَ لَوْ کَثُرَتْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۹) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (۲۰) وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ یَسْمَعُونَ (۲۱) إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلصُّمُّ اَلْبُکْمُ اَلَّذِینَ لاٰ یَعْقِلُونَ (۲۲) وَ لَوْ عَلِمَ اَللّٰهُ فِیهِمْ خَیْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ اَلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اِتَّقُوا فِتْنَهً لاٰ تُصِیبَنَّ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (۲۵) وَ اُذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی اَلْأَرْضِ تَخٰافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ اَلنّٰاسُ فَآوٰاکُمْ وَ أَیَّدَکُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۲۶) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِکُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اِعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ أَوْلاٰدُکُمْ فِتْنَهٌ وَ أَنَّ اَللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۲۸) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اَللّٰهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقٰاناً وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِیمِ (۲۹)

(بيان)

أوامر و نواه متعلقه بالجهاد الإسلامى مما يناسب سوق القصه،و حث على تقوى الله و إنذار و تخويف من مخالفه الله و رسوله و التعرض لسخطه سبحانه،و فيها إشاره إلى بعض ما جرى فى وقعه بدر من منن الله و أياديه على المؤمنين.

قوله تعالى:«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ

ص :۳۶

الْأَدْبٰارَ

» اللقاء مصدر لقی يلقی من المجرد و لاقی يلاقی من المزيد فيه،قال الراغب فی مفردات القرآن،: اللقاء مقابله الشیء و مصادفته معا،و قد يعبر به عن كل واحد منهما يقال:لقيه يلقاه لقاء و لقيا و لقيه،و يقال ذلک فی الإدراک بالحس و بالبصر و بالبصيره قال: لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ،و قال: لَقَدْ لَقِينٰا مِنْ سَفَرِنٰا هٰذٰا نَصَباً ،و ملاقاه الله عباره عن القيامه و عن المصير إليه قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاٰقُوهُ ،و قال: اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا اللّٰهِ ،و اللقاء الملاقاه،قال: وَ قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا ،و قال: إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ .انتهی.

و قال فی المجمع،: اللقاء الاجتماع علی وجه المقاربه لأن الاجتماع قد يكون علی غير وجه المقاربه فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض فی المحل الواحد.انتهی.

و قال فيه: الزحف الدنو قليلا قليلا و التزاحف التدانی يقال:زحف يزحف زحفا و أزحفت للقوم إذا دنوت لقتالهم و ثبت لهم.قال الليث الزحف جماعه يزحفون إلی عدو لهم بمره و جمعه زحوف.انتهی.

و توليه الأعداء الأدبار جعلهم يلونها و هو استدبار العدو و استقبال جهه الهزيمه.

و خطاب الآيه عام غير خاص بوقت دون وقت و لا غزوه دون غزوه فلا وجه لتخصيصها بغزوه بدر و قصر حرمه الفرار من الزحف بها كما يحكی عن بعض المفسرين.علی أنک عرفت أن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد غزوه بدر لا يومها، و أن الآيات ذيل ما فی صدر السوره من قوله:« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفٰالِ قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »الآيه،و للكلام تتمه ستوافيک فی البحث الروائی إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ » إلی آخر الآيه. التحرف .الزوال عن جهه الاستواء إلی جهه الحرف و هو طرف الشیء و هو أن ينحرف و ينعطف المقاتل من جهه إلی جهه أخری ليتمكن من عدوه و يبادر إلی إلقاء الكيد عليه،و التحيز هو أخذ الحيز و هو المكان،و الفئه القطعه من جماعه الناس،و التحيز إلی فئه أن ينعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو إلی فئه من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم.

و البواء الرجوع إلی مكان و استقرار فيه،و لذا قال الراغب:أصل البواء

مساواه الأجزاء فی المکان خلاف النبوه الذی هو منافاه الأجزاء.انتهی فمعنی قوله:

بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ

أی رجع و معه غضب من الله.

فمعنی الآیتین:یا أیها الذین آمنوا إذا لقیتم الذین کفروا لقاء زحف أو زاحفین للقتال فلا تفروا منهم و من یفر منهم یومئذ أی وقتئذ فقد رجع و معه غضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصیر إلا أن یکون فراره للتحرف لقتال أو التحیز إلی فئه فلا بأس به.

قوله تعالی:« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ »إلی آخر الآیه،التدبر فی السیاق لا یدع شکا فی أن الآیه تشیر إلی وقعه بدر و ما صنعه رسول الله ص من رمیهم بکف من الحصی،و المؤمنون بوضع السیف فیهم و قتلهم القتل الذریع،و ذیل الآیه أعنی قوله: وَ لِیُبْلِیَ الْمُؤْمِنِینَ مِنْهُ بَلاٰءً حَسَناً یدل علی أن الکلام جار مجری الامتنان منه تعالی،و قد أثبت تعالی عین ما نفاه فی جمله واحده أعنی قوله:« وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ ».

فمن جمیع هذه الشواهد یتحصل أن المراد بقوله:« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ »نفی أن تکون وقعه بدر و ما ظهر فیها من استئصال المشرکین و الظهور علیهم و الظفر بهم جاریه علی مجری العاده و المعروف من نوامیس الطبیعه،و کیف یسع لقوم هم شرذمه قلیلون ما فیهم علی ما روی إلا فرس أو فرسان و بضعه أدرع و بضعه سیوف،أن یستأصلوا جیشا مجهزا بالأفراس و الأسلحه و الرجال و الزاد و الراحله،هم أضعافهم عده و لا یقاسون بهم قوه و شده،و أسباب الغلبه عندهم،و عوامل البأس معهم،و الموقف المناسب للتقدم لهم.

إلا أن الله سبحانه بما أنزل من الملائکه ثبت أقدام المؤمنین و أرعب قلوب المشرکین،و ألقی الهزیمه بما رماه النبی ص من الحصاه علیهم فشملهم المؤمنین قتلا و أسرا فبطل بذلک کیدهم و خمدت أنفاسهم و سکنت أجراسهم.

فبالحری أن ینسب ما وقع علیهم من القتل بأیدی المؤمنین و الرمی الذی شتت شملهم و ألقی الهزیمه فیهم إلیه سبحانه دون المؤمنین.

فما فی الآیه من النفی جار مجری الدعوی بنوع من العنایه، بالنظر إلی استناد

القتل بأطرافها إلى سبب إلهى غير عادى،و لا ينافى ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع إلى أسبابها القريبه المعهوده فى الطبيعه بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم،و النبى ص راميا لما رماه من الحصاه.

و قوله:« وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً »الظاهر أن ضمير« مِنْهُ »راجع إلى الله تعالى،و الجمله لبيان الغايه و هى معطوفه على مقدر محذوف،و التقدير:إنما فعل الله ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمه عنده،و ليبلى المؤمنين و يمتحنهم بلاء و امتحانا حسنا أو لينعم عليهم بنعمه حسنه،و هو إفناء خصمهم و إعلاء كلمه التوحيد بهم و إغناؤهم بما غنموا من الغنائم.

و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »تعليل لقوله:« وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ »أى إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاء حسنا.

و التفريع الذى فى صدر الآيه:« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ »إلخ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقه:« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ »إلى آخر الآيات من المعنى،فإنها تعد منن الله عليهم من إنزال الملائكه و إمدادهم بهم و تغشيه النعاس إياهم و إمطار السماء عليهم و ما أوحى إلى الملائكه من تأييدهم و تثبيت أقدامهم و إلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم،فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرع عليه قوله:« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ ».

و على هذا فقوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمُ »إلى قوله:« وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ » معترضه متعلقه بقوله:« فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنٰاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنٰانٍ »أو بمعناه المفهوم من الجمل المسروده،و قوله:« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ »إلخ متصل بما قبله بحسب النظم.

و ربما يذكر فى نظم الآيه وجهان آخران:

أحدهما:أن الله سبحانه لما أمرهم بالقتل فى الآيه المتقدمه ذكر عقيبها أن ما كان من الفتح يوم بدر و قهر المشركين إنما كان بنصرته و معونته تذكيرا للنعمه.

ذكره أبو مسلم.

و الثانى:أنهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول:أنا قتلت فلانا و أنا فعلت كذا نزلت الآيه على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم.و ربما قيل:إن الفاء فى

قوله:« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ »لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض.و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى:« ذٰلِكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكٰافِرِينَ »قال فى المجمع،:« ذٰلِكُمْ » موضعه رفع،و كذلك« أَنَّ اللّٰهَ »فى موضع رفع،و التقدير:الأمر ذلكم و الأمر أن الله موهن،و كذلك الوجه فيما تقدم من قوله:« ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابَ النّٰارِ »،و من قال:إن« ذٰلِكُمْ »مبتدأ و« فَذُوقُوهُ »خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرا لمبتدإ،و لا يجوز:زيد فمنطلق،و لا:زيد فاضربه إلا أن تضمر«هذا»تريد:هذا زيد فاضربه.انتهى.فمعنى الآيه:الأمر ذلكم الذى ذكرناه و الأمر أن الله موهن كيد الكافرين.

قوله تعالى:« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ الْفَتْحُ »إلى آخر الآيه.ظاهر الآيه بما تشتمل عليه من الجمل المسروده كقوله:« وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »و قوله:

« وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ »إلخ أن تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكم،و هو المناسب لقوله فى الآيه السابقه:« وَ أَنَّ اللّٰهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكٰافِرِينَ ».

فالمعنى:إن طلبتم الفتح و سألتم الله أيها المشركون أن يفتح بينكم و بين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائره للمؤمنين عليكم، و إن تنتهوا عن المكيده على الله و رسوله فهو خير لكم و إن تعودوا إلى مثل ما كدتم نعد إلى مثل ما أوهنا به كيدكم،و لن تغنى عنكم جماعتكم شيئا و لو كثرت كما لم تغن فى هذه المره و إن الله مع المؤمنين و لن يغلب من هو معه.

و بهذا يتأيد ما ورد أن أبا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان أو حين التقى الفئتان:اللهم إن محمدا أقطعنا للرحم و أتانا بما لا نعرف فانصر عليه،و فى بعض الروايات-و هو الأنسب-كما فى المجمع،عن أبى حمزه:قال أبو جهل:اللهم ربنا ديننا القديم و دين محمد الحديث فأى الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم.

و ذكر بعضهم:أن الخطاب فى الآيه للمؤمنين و وجهوا مضامين جملها بما لا يرتضيه الذوق السليم،و لا جدوى للإطاله بذكرها و المناقشه فيها فمن أراد ذلك فعليه بالمطولات.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » الضمير على ما يفيده السياق راجع إلى الرسول ص،و المعنى،و لا تولوا عن الرسول

و أنتم تسمعون ما يلقياه إليكم من الدعوه الحقه و ما يأمركم به و ينهاكم عنه مما فيه صلاح دينك و دنياكم.و مصب الكلام أوامره الحربيه و إن كان لفظه أعم.

قوله تعالى:« وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ »المعنى ظاهر و فيه نوع تعريض للمشركين إذ قالوا:سمعنا،و هو لا يسمعون،و قد حكى الله عنهم ذلك إذ قال بعد عده آيات:« وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا قٰالُوا قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذٰا» :الأنفال:۳۱،لكنهم كذبوا و لم يسمعوا و لو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى: « وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا» :الأعراف:۱۷۹،و قال تعالى حكايه عن أصحاب السعير:« وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ»: الملك:۱۰ فالمراد بالسمع فى الآيه الأولى تلقى الكلام الحق الذى هو صوت من طريق الأذن، و فى الآيه الثانيه الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع.

و الآيتان-كما ترى-خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآيه السابقه عليهما و تعريض للمشركين،فهو تعالى لما التفت إلى المشركين فذمهم و تهكم عليهم بسؤالهم الفتح،و ذكر لهم أن الغلبه دائما لكلمه الإيمان على كلمه الكفر و لدعوه الحق على دعوه الباطل،التفت إلى حزبه و هم المؤمنون فأمرهم بالطاعه له و لرسوله، و حذرهم عن التولى عنه بعد استماع كلمه الحق،و أن يكونوا كأولئك إذ قالوا:

سمعنا و هم لا يسمعون.

و من الممكن أن يكون فى الآيه إشاره إلى عده من أهل مكه آمنوا بالنبى ص و لما تخلص قلوبهم من الشك خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ص فابتلوا بما ابتلى به مشركو قريش،فقد ورد فى الخبر:أن فئه من قريش أسلموا بمكه و احتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش،يوم بدر،و هم قيس بن الوليد بن المغيره،و على بن أميه بن خلف،و العاص بن منبه بن الحجاج،و الحارث بن زمعه، و قيس بن الفاكه بن المغيره و لما رأوا قله المسلمين قالوا:مساكين هؤلاء غرهم دينهم، و سيذكرهم الله بعد عده آيات بقوله:« إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ »الآيه.

و ربما قيل:إن المراد بالذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظه و النضير.و هو بعيد.

قوله تعالی:« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ »إلی آخر الآیتین.تعریض و ذم للذین سبق ذکرهم من الکفار علی ما یعطیه سیاق الکلام و ما اشتملت علیه الآیه من الموصول و الضمائر المستعمله فی أولی العقل،و علی هذا فالظاهر أن اللام فی قوله:« اَلصُّمُّ الْبُكْمُ »للعهد الذکری،و یئول المعنی إلی أن شر جمیع ما یدب علی الأرض من أجناس الحیوان و أنواعها هؤلاء الصم البکم الذین لا یعقلون، و إنما لم یعقلوا لأنه لا طریق لهم إلی تلقی الحق لفقدهم السمع و النطق فلا یسمعون و لا ینطقون.

ثم ذکر تعالی أن الله إنما ابتلاهم بالصمم و البکمه فلا یسمعون کلمه الحق و لا ینطقون بکلمه الحق،و بالجمله حرمهم نعمه السمع و القبول،لأنه تعالی لم یجد عندهم خیرا و لم یعلم به و لو کان لعلم،لکن لم یعلم فلم یوفقهم للسمع و القبول،و لو أنه تعالی رزقهم السمع و الحال هذه لم یثبت السمع و القبول فیهم بل تولوا عن الحق و هم معرضون.

و من هنا یعلم أن المراد بالخیر حسن السریره الذی یثبت به الاستعداد لقبول الحق و یستقر فی القلب،و أن المراد بقوله:« وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ »الأسماع علی تقدیر عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلک فلا یرد أنه تعالی لو أسمعهم و رزقهم قبول الحق استلزم ذلک تحقق الخیر فیهم و لا وجه مع ذلک لتولیهم و إعراضهم و ذلک أن الشرط فی قوله:« وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ »علی تقدیر فقدهم الخیر علی ما یفیده السیاق.

قوله تعالی:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ » لما دعاهم فی قوله:« أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ »إلخ إلی إطاعه الدعوه الحقه و عدم التولی عنها بعد استماعها أکده ثانیا بالدعوه إلی استجابه الله و الرسول فی دعوه الرسول،ببیان حقیقه الأمر و الرکن الواقعی الذی تعتمد علیه هذه الدعوه،و هو أن هذه الدعوه دعوه إلی ما یحیی الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء و البوار، و موقفه فی الوجود، أن الله سبحانه أقرب إلیه من قلبه و أنه سیحشر إلیه فلیأخذ حذره و لیجمع همه و یعزم عزمه.

الحیاه أنعم نعمه و أعلی سلعه یعتقدها الموجود الحی لنفسه کیف لا؟و هو لا یری وراءه إلا العدم و البطلان،و أثرها الذی هو الشعور و الإراده هو الذی ترام

لأجله الحياه و يرتاح إليه الإنسان و لا يزال يفر من الجهل و افتقاد حريه الإراده و الاختيار و قد جهز الإنسان و هو أحد الموجودات الحيه بما يحفظ به حياته الروحيه التى هى حقيقه وجوده كما جهز كل نوع من أنواع الخليقه بما يحفظ به وجوده و بقاءه.

و هذا الجهاز الإنسانى يشخص له خيراته و منافعه،و يحذره من مواطن الشر و الضر.

و إذ كان هذه الهدايه الإلهيه التى يسوق النوع الإنسان إلى نحو سعادته و خيره و يندبه نحو منافع وجوده هدايه بحسب التكوين و فى طور الخلقه،و من المحال أن يقع خطأ فى التكوين،كان من الحتم الضرورى أن يدرك الإنسان سعاده وجوده إدراكا لا يقع فيه شك كما أن سائر الأنواع المخلوقه تسير إلى ما فيه خير وجوده و منافع شخصه من غير أن يسهو فيه من حيث فطرته،و إنما يقع الخبط فيما يقع من جهه تأثير عوامل و أسباب أخر مضاده تؤثر فيه أثرا مخالفا ينحرف فيه الشىء عما هو خير له إلى ما هو شر،و عما فيه نفعه إلى ما فيه ضرر يعود إليه،و ذلك كالجسم الثقيل الأرضى الذى يستقر بحسب الطبيعه الأرضيه على بسيط الأرض ثم إنه يبتعد عن الأرض بالحركه إلى جهه العلو بدفع دافع يجبره على خلاف الطبع فإذا بطل أثر الدفع عاد إلى مستقره بالحركه نحو الأرض على استقامه إلا أن يمنعه مانع فيخرجه عن السير الاستقامى إلى انحراف و اعوجاج.

و هذا هو الذى يصر عليه القرآن الكريم أن الإنسان لا يخفى عليه ما فيه سعادته فى الحياه من علم و عمل،و أنه يدرك بفطرته ما هو حق الاعتقاد و العمل قال تعالى:« فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»:

الروم:٣٠و قال تعالى اَلَّذِى خَلَقَ فَسَوّى وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدىٰ -Xإلى أن قالX- فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشىٰ وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى:» الأعلى:١١ و قال تعالى:« وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها:» الشمس:١٠.

نعم ربما أخطأ الإنسان طريق الحق فى اعتقاد أو عمل و خبط فى مشيته لكن لا لأن الفطره الإنسانيه و الهدايه الإلهيه أوقعته فى ضلاله و أوردته فى تهلكه بل لأنه أغفل عقله و نسى رشده و اتبع هوى نفسه و ما زينه جنود الشياطين فى عينه،قال

تعالى:« إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدىٰ» :النجم:۲۳ و قال:« أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ» :الجاثيه:-۲۳.

فهذه الأمور التى تدعو إليها الفطره الإنسانيه من حق العلم و العمل لوازم الحياه السعيده الإنسانيه و هى الحياه الحقيقيه التى بالحرى أن تختص باسم الحياه و الحياه السعيده تستتبعها كما أنها تستلزم الحياه و تستتبعها و تعيدها إلى محلها لو ضعفت الحياه فى محلها بورود ما يضادها و يبطل رشد فعلها.

فإذا انحرف الإنسان عن سوى الصراط الذى تهديه إليه الفطره الإنسانيه و تسوقه إليه الهدايه،الإلهيه فقد فقد لوازم الحياه السعيده من العلم النافع و العمل الصالح،و لحق بحلول الجهل و فساد الإراده الحره و العمل النافع بالأموات و لا يحييه إلا علم حق و عمل حق،و هما اللذان تندب إليهما الفطره و هذا هو الذى تشير إليه الآيه التى نبحث عنها:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ ».

و اللام فى قوله:« لِمٰا يُحْيِيكُمْ ».بمعنى إلى،و هو شائع فى الاستعمال،و الذى يدعو إليه الرسول ص هو الدين الحق و هو الإسلام الذى يفسره القرآن الكريم باتباع الفطره فيما تندب إليه من علم نافع و عمل صالح.

و للحياه بحسب ما يراه القرآن الكريم معنى آخر أدق مما نراه بحسب النظر السطحى الساذج فإنا إنما نعرف من الحياه فى بادئ النظر ما يعيش به الإنسان فى نشأته الدنيويه إلى أن يحل به الموت،و هى التى تصاحب الشعور و الفعل الإرادى، و يوجد مثلها أو ما يقرب منها فى غير الإنسان أيضا من سائر الأنواع الحيوانيه لكن الله سبحانه يقول:« وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ» :العنكبوت ۶۴ و يفيد ذلك أن الإنسان متمتع بهذه الحياه غير مشتغل إلا بالأوهام،و أنه مشغول بها عما هو أهم و أوجب من غايات وجوده و أغراض روحه فهو فى حجاب مضروب عليه يفصل بينه و بين حقيقه ما يطلبه و يبتغيه من الحياه.

و هذا هو الذى يشير إليه قوله تعالى و هو من خطابات يوم القيامه:« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق:-۲۲.

فللإنسان حياه أخرى أعلى كعبا و أغلى قيمه من هذه الحياه الدنيويه التى يعدها الله سبحانه لعبا و لهوا،و هى الحياه الأخرويه التى سينكشف عن وجهها الغطاء، و هى الحياه التى لا يشوبها اللعب و اللهو،و لا يدانيها اللغو و التأثيم، لا يسير فيها الإنسان إلا بنور الإيمان و روح العبوديه قال تعالى:« أُولٰئِكَ كَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمٰانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» :المجادله:۲۲ و قال تعالى:« أَ وَ مَنْ كٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» :الأنعام ۱۲۲.

فهذه حياه أخرى أرفع قدرا و أعلى منزله من الحياه الدنيويه العامه التى ربما شارك فيها الحيوان العجم الإنسان،و يظهر من أمثال قوله تعالى:« وَ أَیَّدْنٰاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» :البقره:۲۵۳ و قوله:« وَ كَذٰلِكَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا»:

XالآيهXالشورى:-۵۲ أن هناك حياه أخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين سيوافيك البحث عنها فيما يناسبها من المورد إن شاء الله.

و بالجمله فللإنسان حياه حقيقيه أشرف و أكمل من حياته الدينيه الدنيويه يتلبس بها إذا تم استعداده بالتحلى بحليه الدين و الدخول فى زمره الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياه الدنيويه حين تم استعداده للتلبس بها و هو جنين إنسانى.

و على ذلك ينطبق قوله تعالى فى الآيه المبحوث عنها:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا یُحْیِیكُمْ »فالتلبس بما تندب إليه الدعوه الحقه من الإسلام يجر إلى الإنسان هذه الحياه الحقيقيه كما أن هذه الحياه منبع ينبع منه الإسلام و ينشأ منه العلم النافع و العمل الصالح،و فى معنى هذه الآيه قوله تعالى:« مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیٰاةً طَیِّبَةً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا یَعْمَلُونَ:» النحل:-۹۷.

و الآيه أعنى قوله فيها:« إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا یُحْیِیكُمْ »مطلق لا يأبى الشمول لجميع دعوته(ص)المحييه للقلوب،أو بعضها الذى فيه طبيعه الإحياء أو لنتائجها التى هى أنواع الحياه السعيده الحقيقيه كالحياه السعيده فى جوار الله سبحانه فى الآخره.

و من هنا يظهر أن لا وجه لتقييد الآيه بما قيدها به أكثر المفسرين فقد قال بعضهم:إن المراد بقوله:« إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا یُحْیِیكُمْ »بالنظر إلى مورد النزول:إذا دعاكم إلى الجهاد إذ فيه إحياء أمركم و إعزاز دينكم.

و قيل:المعنى إذا دعاكم إلى الشهاده فى سبيل الله فى جهاد عدوكم فإن الله سبحانه عد الشهداء أحياء كما فى قوله:« وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» :آل عمران:-١۶٩.

و قيل:المعنى إذا دعاكم إلى الإيمان فإنه حياه القلب و الكفر موته أو إذا دعاكم إلى الحق.

و قيل:المعنى إذا دعاكم إلى القرآن و العلم فى الدين لأن العلم حياه و الجهل موت و القرآن نور و حياه و علم.

و قيل:المعنى إذا دعاكم إلى الجنه لما فيها من الحياه الدائمه و النعمه الباقيه الأبديه.

و هذه الوجوه المذكوره يقبل كل واحد منها انطباق الآيه عليه غير أن الآيه كما عرفت مطلقه لا موجب لصرفها عما لها من المعنى الوسيع.

قوله تعالى:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » الحيلوله هى التخلل وسطا،و القلب العضو المعروف.و يستعمل كثيرا فى القرآن الكريم فى الأمر الذى يدرك به الإنسان و يظهر به أحكام عواطفه الباطنه كالحب و البغض و الخوف و الرجاء و التمنى و القلق و نحو ذلك فالقلب هو الذى يقضى و يحكم، و هو الذى يحب شيئا و يبغض آخر،و هو الذى يخاف و يرجو و يتمنى و يسر و يحزن، و هو فى الحقيقه النفس الإنسانيه تفعل بما جهزت به من القوى و العواطف الباطنه.

و الإنسان كسائر ما أبدعه الله من الأنواع التى هى أبعاض عالم الخلقه مركب من أجزاء شتى مجهز بقوى و أدوات تابعه لوجوده يملكها و يستخدمها فى مقاصد وجوده،و الجميع مربوطه به ربطا يجعل شتات الأجزاء و الأبعاض على كثرتها و تفاريق القوى و الأدوات على تعددها،واحدا تاما يفعل و يترك،و يتحرك و يسكن، بوحدته و فردانيته.

غير أن الله سبحانه لما كان هو المبدع للإنسان و هو الموجد لكل واحد واحد من أجزاء وجوده و تفاريق قواه و أدواته كان هو الذى يحيط به و بكل واحد من أجزاء وجوده و توابعه،و يملك كلا منها بحقيقه معنى الملك يتصرف فيه كيف يشاء، و يملك الإنسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسط الحائل بين الإنسان و بين كل

جزء من أجزاء وجوده و كل تابع من توابع شخصه:بينه و بين قلبه،بينه و بين سمعه، بينه و بين بصره،بينه و من بدنه،بينه و بين نفسه.يتصرف فيها بإيجادها،و يتصرف فيها بتمليك الأسنان ما شاء منها كيف شاء،و إعطائه ما أعطى،و حرمانه ما حرم.

و نظير الإنسان فى ذلك سائر الموجودات فما من شىء فى الكون و له ذات و توابع ذات من قوى و آثار و أفعال إلا و الله سبحانه هو المالك بحقيقه معنى الكلمه لذاته و لتوابع ذاته،و هو المملك إياه كلا من ذاته و توابع ذاته فهو الحائل المتوسط بينه و بين ذاته و بينه و بين توابع ذاته من قواه و آثاره و أفعاله.

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان و بين قلبه و كل ما يملكه الإنسان و يرتبط و يتصل هو به نوعا من الارتباط و الاتصال و هو أقرب إليه من كل شىء كما قال تعالى:« وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» :ق:-۱۶.

و إلى هذه الحقيقه يشير قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »فهو تعالى لكونه مالكا لكل شىء و من جملتها الإنسان ملكا حقيقيا لا مالك حقيقيا سواه،أقرب إليه حتى من نفسه و قوى نفسه التى يملكها لأنه سبحانه هو الذى يملكه إياها فهو حائل متوسط بينه و بينها يملكه إياها و يربطها به فافهم ذلك.

و لذلك عقب الجمله بقوله:« وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »فإن الحشر و البعث هو الذى ينجلى عنده أن الملك الحق لله وحده لا شريك له،و يبطل عند ذلك كل ملك صورى و سلطنه ظاهريه إلا ملكه الحق جل ثناؤه كما قال سبحانه:« لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ:» المؤمن:-۱۶،و قال:« يَوْمَ لاٰ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ:» الإنفطار:-۱۹.

فكأن الآيه تقول:و اعلموا أن الله هو المالك بالحقيقه لكم و لقلوبكم و هو أقرب إليكم من كل شىء،و أنه ستحشرون إليه فيظهر حقيقه ملكه لكم و سلطانه عليكم يومئذ فلا يغنى عنكم منه شىء.

و أما اتصال الكلام أعنى ارتباط قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ » إلخ بقوله:« اِسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ »فلأن حيلولته سبحانه بين المرء و قلبه،يقطع منبت كل عذر فى عدم استجابته لله و الرسول إذا دعاه لما

یحییه،و هو التوحید الذی هو حقیقه الدعوه الحقه فإن الله سبحانه لما کان أقرب إلیه من کل شیء حتی من قلبه الذی یعرفه بوجدانه قبل کل شیء،فهو تعالی وحده لا شریک له أعرف إلیه من قلبه الذی هو وسیله إدراکه و سبب أصل معرفته و علمه.

فهو یعرف الله إلها واحدا لا شریک له قبل معرفته قلبه و کل ما یعرفه بقلبه، فمهما شک فی شیء أو ارتاب فی أمر فلن یشک فی إلهه الواحد الذی هو رب کل شیء و لن یضل فی تشخیص هذه الکلمه الحقه.

فإذا دعاه داعی الحق إلی کلمه الحق و دین التوحید الذی یحییه لو استجاب له، کان علیه أن یستجیب داعی الله فإنه لا عذر له فی ترک الاستجابه معللا بأنه لم یعرف حقیه ما دعی إلیه،أو اختلط علیه،أو أعیته المذاهب فی الإقبال علی الحق الصریح فإن الله سبحانه هو الحق الصریح الذی لا یحجبه حاجب،و لا یستره ساتر إذ کل حجاب مفروض فالله سبحانه أقرب منه إلی الإنسان،و کل ما یختلج فی القلب من شبهه أو وسوسه فالله سبحانه متوسط متخلل بینه-مع ما له من ظرف و هو القلب- و بین الإنسان فلا سبیل للإنسان إلی الجهل بالله و الشک فی توحده.

و أیضا فإن الله سبحانه لما کان حائلا بین المرء و قلبه فهو أقرب إلی قلبه منه کما أنه أقرب إلیه من قلبه فإن الحائل المتوسط أقرب إلی کل من الطرفین من الطرف الآخر و إذا کان تعالی أقرب إلی قلب الإنسان منه فهو أعلم بما فی قلبه منه.

فعلی الإنسان إذا دعاه داعی الحق إلی ما یحییه من الحق أن یستجیب دعاءه بقلبه کما یستجیبه بلسانه،و لا یضمر فی قلبه ما لا یوافق ما لباه بلسانه و هو النفاق فإن الله أعلم بما فی قلبه منه و سیحشر إلیه فینبئه بحقیقه عمله و یخبره بما طواه فی قلبه قال تعالی:« یَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَی اللّٰهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ:» المؤمن:-۱۶،و قال:

« وَ لاٰ یَکْتُمُونَ اللّٰهَ حَدِیثاً:» النساء:-۴۲.

و أیضا فإن الله سبحانه لما کان هو الحائل بین الإنسان و قلبه و هو المالک للقلب بحقیقه معنی الملک کان هو المتصرف فی القلب قبل الإنسان و له أن یتصرف فیه بما شاء فما یجده الإنسان فی قلبه من إیمان أو شک أو خوف أو رجاء أو طمأنینه أو قلق و اضطراب أو غیر ذلک مما ینسب إلیه باختیار أو اضطرار،فله انتساب إلیه

تعالى بتصرفه فيما هو أقرب إليه من كل شىء تصرفا بالتوفيق أو الخذلان أو أى نوع من أنواع التربيه الإلهيه،يتصرف بما شاء و يحكم بما أراد من غير أن يمنعه مانع أو يهدده ذم أو لوم كما قال تعالى:« وَ اللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ:» الرعد:-۴۱، و قال تعالى:« لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ:» التغابن:-۱.

فمن الجهل أن يثق الإنسان بما يجد فى قلبه من الإيمان بالحق أو التلبس بنيه حسنه أو عزيمه على خير أو هم بصلاح و تقوى،بمعنى أن يرى استقلاله بملك قلبه و قدرته المطلقه على ما يهم به فإن القلب بين أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء و هو المالك له بحقيقه معنى الملك و المحيط به بتمام معنى الكلمه،قال تعالى:« وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ:» الأنعام:-۱۱۰،فمن الواجب عليه أن يؤمن بالحق و يعزم على الخير على مخافه من الله تعالى أن يقلبه من السعاده إلى الشقاء و يحول قلبه من حال الاستقامه إلى حال الانتكاس و الانحراف،و لا يأمن مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

و كذلك الإنسان إذا وجد قلبه غير مقبل على كلمه الحق و العزم على الخير و صالح العمل،عليه أن يبادر إلى استجابه الله و رسوله فيما يدعوه إلى ما يحييه،و لا ينهزم عما يهجم عليه من أسباب اليأس و عوامل القنوط من ناحيه قلبه فإن الله سبحانه يحول بين المرء و قلبه،و هو القادر على أن يصلح سره و يحول قلبه إلى أحسن حال و يشمله بروح منه و رحمه فإنما الأمر إليه،و قد قال:« إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ:» يوسف:-۸۷و قال:« وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ:» الحجر:-۵۶.

فالآيه الكريمه-كما ترى-من أجمع الآيات القرآنيه تشتمل على معرفه حقيقيه من المعارف الإلهيه-مسأله الحيلوله-و هى تقطع عذر المتجاهلين فى معرفه الله سبحانه من الكفار و المشركين،و تقلع غره النفاق من أصلها بتوجيه نفوس المنافقين إلى مقام ربهم و أنه أعلم بما فى قلوبهم منهم،و يلقى إلى المسلمين و الذين هم فى طريق الإيمان بالله و آياته مسأله نفسيه تعلمهم أنهم غير مستقلين فى ملك قلوبهم و لا منقطعون فى ذلك من ربهم فيزول بذلك رذيله الكبر عمن يرى لنفسه استقلالا و سلطنه فيما يملكه فلا يغره ما يشاهده من تقوى القلب و إيمان السر،و رذيله اليأس و القنوط عمن يحيط بقلبه

دواهی الهوی و دواعی أعراض الدنیا فیتثاقل عن الإیمان بالحق و الإقبال علی الخیر، و یورثه ذلک الیأس و القنوط.

و مما تقدم یظهر أن قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ »إلخ تعلیل لقوله تعالی:« اِسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ »علی جمیع التقادیر من وجوه معناه.

و بذلک یظهر أیضا أن الآیه أوسع معنی مما أورده المفسرون من تفسیرها:

کقول من قال:إن المراد أن الله سبحانه أقرب إلی المرء من قلبه نظیر قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ ،و فیه تحذیر شدید.

و قول من قال:إن المراد أن القلب لا یستطیع أن یکتم الله حدیثا فإن الله أقرب إلی قلب الإنسان من نفسه،فما یعلمه الإنسان من قلبه یعلمه الله قبله.

و قول من قال:إن المراد أنه یحول بین المرء و بین الانتفاع بقلبه بالموت فلا یمکنه استدراک ما فات فبادروا إلی الطاعات قبل الحیلوله و دعوا التسویف،و فیه حث علی الطاعه قبل حلول المانع.

و قول من قال:معناه أن الله سبحانه یملک تقلیب القلوب من حال إلی حال فکأنهم خافوا من القتال فأعلمهم الله سبحانه أنه یبدل خوفهم أمنا بأن یحول بینهم و بین ما یتفکرون فیه من أسباب الخوف.

و قد ورد فی الحدیث عن أئمه أهل البیت(ع)أن المراد بذلک أن الله سبحانه یحول بین الإنسان و بین أن یعلم أن الحق باطل أو أن الباطل حق،و سیجیء فی البحث الروائی إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خٰاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِیدُ الْعِقٰابِ »قرأ علی و الباقر(ع)من أئمه أهل البیت و کذا زید بن ثابت و الربیع بن أنس و أبو العالیه علی ما فی المجمع:لتصیبن باللام و نون التأکید الثقیله، و القراءه المشهوره:لا تصیبن بلا الناهیه و نون التأکید الثقیله.

و علی أی تقدیر کان،تحذر الآیه جمیع المؤمنین عن فتنه تختص بالظالمین منهم، و لا یتعداهم إلی غیرهم من الکفار و المشرکین،و اختصاصها بالظالمین من المؤمنین و أمر

عـامتهم مع ذلـك باتقائهـا يـدل على أنهـا و إن كـانت قائمه ببعض الجماعه لكن السـيئ من أثرها يعم الجميع ثم قوله تعالى:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيـدُ الْعِقابِ »تهديـد للجميع بالعقاب الشديد و لا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياه الدنيا و كونه من العذاب الدنيوى من قبيل الاختلافات القوميه و شيوع القتل و الفساد و ارتفاع الأمن و السلام و نحو ذلك.

و مقتضـى ذلـك أن تكون الفتنه المـذكوره على اختصاصـها ببعض القوم ممـا يوجب على عـامه الأـمه أن يبـادروا على دفعها،و يقطعوا دابرها و يطفئوا لهيب نارها بما أوجب الله عليهم من النهى عن المنكر و الأمر بالمعروف.

فيئول معنى الكلاـم إلى تحـذير عـامه المسـلمين عن المسـاهله فى أمر الاختلافـات الـداخليه التى تهـدد وحـدتهم و توجب شـق عصاهم و اختلاف كلمتهم،و لا تلبث دون أن تحزبهم أحزابا و تبعضهم أبعاضا،و و يكون الملك لمن غلب منهم،و الغلبه لكلمه الفساد لا لكلمه الحق و الدين الحنيف الذى يشترك فيه عامه المسلمين.

فهـذه فتنه تقوم بالبعض منهم خاصه و هم الظالمون غير أن سـيئ أثره يعم الكل و يشـمل الجميع فيسـتوعبهم الذله و المسـكنه و كل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم،و هم جميعا مسئولون عند الله و الله شديد العقاب.

و قد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنه و لم يعرفها بكمال اسـمها و رسمها غير أن قوله فيما بعد:« لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »و قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيـدُ الْعِقابِ »-كما تقدم-يوضـحها بعض الإيضاح،و هو أنها اختلاف البعض من الأمه مع بعض منها فى أمر يعلم جميعه وجه الحق فيه فيجمح البعض عن قبول الحق و يقدم إلى المنكر بظلمه فلا يرد عونه عن ظلمه و لا ينهونه عن ما يأتيه من المنكر،و ليس كل ظلم،بل الظلم الـذى يسـرى سوء أثره إلى كافه المؤمنين و عامه الأمه لمكان أمره سـبحانه الجميع باتقـائه،فـالظلم الــذى هـو لبعض الأـمه و يجب على الجميـع أن يتقـوه ليس إلاـ مـا هـو مـن قبيـل التغلب على الحكـومه الحقه الإسلاميه،و التظاهر بهدم القطعيات من الكتاب و السنه التى هى من حقوقها.

و أيا ما كان ففى الفتن الواقعه فى صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآيه أوضح

انطباق و قد انهدمت بها الوحده الدينيه،و بدت الفرقه و نفدت القوه،و ذهبت الشوكه على ما اشتملت عليه من القتل و السبى و النهب و هتك الأعراض و الحرمات و هجر الكتاب و إلغاء السنه،و قال الرسول:يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من شمول مشامتها و تعرق فسادها أن الأمه لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم و تفريطهم فى جنب الله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

و قد تفطن بعض المفسرين بأن الآيه تحذر الأمه و تهددهم بفتنه تشمل عامتهم و تفرق جمعهم،و تشتت شملهم،و توعدهم بعذاب الله الشديد،و قد أحسن التفطن غير أنه تكلف فى توجيه العذاب بالعذاب الدنيوى،و تمحل فى تقييد ما فى الآيه من إطلاق العقاب،و أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

و لنرجع إلى لفظ الآيه:

أما على قراءه أهل البيت(ع)و زيد:« و اتقوا فتنه لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصه »فاللام فى« لتصيبن »للقسم و النون الثقيله لتأكيده،و التقدير:

و اتقوا فتنه أقسم لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصه،و خاصه حال من الفتنه،و المعنى اتقوا فتنه تختص إصابته بالذين ظلموا منكم أيها المخاطبون و هم الذين آمنوا،و عليك أن تتذكر ما سلف بيانه أن لفظ:« اَلَّذِينَ آمَنُوا »فى القرآن خطاب تشريفى للمؤمنين فى أول البعثه و بدء انتشار الدعوه لو لا قرينه صارفه عن ذلك،ثم تذكر أن فتن صدر الإسلام تنتهى إلى أصحاب بدر،و الآيه على أى حال يأمر الجميع أن يتقوا فتنه تثيرها بعضهم،و ليس إلا لأن أثرها السيئ يعم الجميع كما تقدم.

و أما على قراءه المشهور:« وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » فقد ذكروا:أن لا فى« لاٰ تُصِيبَنَّ »ناهيه و النون لتأكيد النهى،و ليس« لاٰ تُصِيبَنَّ » جوابا للأمر فى« اِتَّقُوا »بل الكلام جار مجرى الابتداء و الاستيناف كقوله تعالى:

« يٰا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰاكِنَكُمْ لاٰ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰانُ وَ جُنُودُهُ:» النمل:-١٨ فقد قال أولا:« وَ اتَّقُوا فِتْنَةً »ثم استأنف و قال:« لاٰ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » لاتصال الجملتين معنى.

و ربما جوز بعض النحاه أن يكون« لاٰ تُصِيبَنَّ »نهيا واردا فى جواب الأمر كما يقال:اتق زيدا لا يضربك أو لا يضربنك و التقدير:اتق زيدا فإنك إن اتقيته لا يضربك و لم يشترط فى نون التأكيد أن لا يدخل الخبر.

و ربما قال بعضهم:إن لا زائده و المعنى:اتقوا فتنه تصيبن الآيه.

و ربما ذكر آخرون:«أن أصل لاٰ تُصِيبَنَّ »«لتصيبن»أشبعت فتحه اللام حتى تولدت الألف،و إشباع الفتحه ليس بعزيز فى الشعر قال:

فأنت من الغوائل حين ترمى

*و من ذم الرجال بمنتزاح

يريد:بمنتزح،و الوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى.

و مآل المعنى على هذا الوجه أى على قراءه لاٰ«تُصِيبَنَّ »أيضا إلى ما تفيده القراءه الأولى« لتصيبن »كما عرفت.

و الآيه-كما عرفت-تتضمن خطابا اجتماعيا متوجها إلى مجموع الأمه و ذلك يؤيد كون الخطاب فى الآيه السابقه:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ »خطابا اجتماعيا متوجها إلى كافه المؤمنين،و يتفرع عليه أن المراد بالدعوه إلى ما يحييهم الدعوه إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله و إقامه الدين و عدم التفرق فيه كما قال:« وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا» :آل عمران:-١٠٣ و قال:« أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ:» الشورى:-١٣ و قوله:« وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» :الأنعام:-١٥٣.

و بهذا يتأيد بعض الوجوه المذكوره سابقا فى قوله:« إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ » و كذا فى قوله:« أَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ »و تختص الآيه به بحسب السياق و إن كانت تفيد معنى أوسع من ذلك باعتبار أخذها فى نفسها مفرده عن السياق،و الباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك و الله الهادى.

قوله تعالى:« وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخٰافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّٰاسُ »إلى آخر الآيه. الاستضعاف عد الشىء ضعيفا بتوهين أمره، و التخطف و الخطف و الاختطاف أخذ الشىء بسرعه انتزاع،و الإيواء جعل الإنسان ذا مأوى و مسكن يرجع إليه و يأوى،و التأييد من الأيد و هو القوه.

و السـياق يـدل على أن المراد بقوله:« إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » الزمان الـذى كان المسـلمون محصورين بمكه قبل الهجره و هم قليل مستضعفون،و بقوله:

تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ

»مشـركو العرب و صـناديد قريش،و بقوله« فَآواكُمْ » أى بالمدينه و بقوله« وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ »ما أسبغ عليهم من نعمه النصر ببدر،و بقوله:

« وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ »ما رزقهم من الغنائم و أحلها لهم.

و مـا عـده فى الآيه من أحوال المؤمنين و مننه عليهم بالإيواء و إن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا أن المراد الامتنـان على جميعهم من المهـاجرين و الأنصـار فإنهم أمه واحـده يوحـدهم دين واحـد.على أن فيما ذكره الله فى الآيه من مننه التأييد بالنصـر و الرزق من الطيبات و هما يعمان الجميع،هذا بحسب ما تقتضيه الآيه من حيث وقوعها فى سياق آيات بدر،و لكن هى وحدها و باعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث إنهم أمه واحده يرجع لاحقهم إلى سابقهم فقد بدا ظهور الإسلام فيهم و هم قليـل مستضـعفون بمكه يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم بالمـدينه و كثرهم بالأنصار و أيـدهم بنصـره فى بـدر و غيره و رزقهم من جميع الطيبات الغنائم و غيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون.

قوله تعـالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »إلى آخر الآيتين. الخيانه نقض الأمانه التى هى حفظ الأمن لحق من الحقوق بعهـد أو وصـيه و نحو ذلك،قال الراغب: الخيانه و النفاق واحد إلا أن الخيانه تقال اعتبارا بالعهـد و الأمـانه،و النفـاق يقال اعتبارا بالـدين ثم يتـداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهـد فى السـر،و نقيض الخيانه الأمانه يقال:خنت فلانا،و خنت أمانه فلان و على ذلك قوله: لا تَخُونُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ .انتهى.

و قوله:« وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ »من الجـائز أن يكون مجزومـا معطوفا على تخونوا السابق،و المعنى:و لا تخونوا أماناتكم،و أن يكون منصوبا بحذف أن و التقدير:

و أن تخونوا أماناتكم و يؤيد الوجه الثانى قوله بعده:« وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ».

و ذلك أن الخيانه و إن كانت إنما يتعلق النهى التحريمى بها عنـد العلم فلا نهى مع جهل بالموضوع و لا تحريم غير أن العلم من الشرائط العامه التى لا ينجز تكليف من التكاليف المولويه إلا به فلا نكته ظاهره فى تقييد النهى عن الخيانه بالعلم مع

أن العلم لكونه شرطا عاما مستغنى عن ذكره،و ظاهر قوله:« وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » بحذف متعلقات الفعل أن المراد:و لكم علم بأنه خيانه لا ما قيل:إن المعنى:

و أنتم تعلمون مفاسد الخيانه و سوء عاقبتها و تحريم الله إياها فإن ذلك لا دليل عليه من جهه اللفظ و لا من جهه السياق.

فالوجه أن تكون الجمله بتقدير:و أن تخونوا أماناتكم،و يكون مجموع قوله:

« لاٰ تَخُونُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ »نهيا واحدا متعلقا بنوع خيانه هى خيانه أمانه الله و رسوله و هى بعينها خيانه لأمانه المؤمنين أنفسهم فإن من الأمانه ما هى أمانه الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرعه من عنده و منها ما هى أمانه الرسول كسيرته الحسنه،و منها ما هى أمانه الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم،و منها ما يشترك فيه الله و رسوله و المؤمنون،و هى الأمور التى أمر بها الله سبحانه و أجراها الرسول و ينتفع بها الناس و يقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسيه و المقاصد الحربيه التى تضيع بإفشائها آمال الدين و تضل بإذاعتها مساعى الحكومه الإسلاميه فيبطل به حق الله و رسوله و يعود ضرره إلى عامه المؤمنين.

فهذا النوع من الأمانه خيانته خيانه لله و رسوله و للمؤمنين فالخائن بهذه الخيانه من المؤمنين يخون الله و الرسول و هو يعلم أن هذه الأمانه التى يخونها أمانه لنفسه و لسائر إخوانه المؤمنين و هو يخون أمانه نفسه،و لن يقدم عاقل على الخيانه لأمانه نفسه فإن الإنسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانه للأمانه فكيف يخون أمانه نفسه.

فالمراد بقوله:« وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »-و الله أعلم-و تخونوا فى ضمن خيانه الله و الرسول أماناتكم و الحال أنكم تعلمون أنها أمانات أنفسكم و تخونونها،و أى عاقل يقدم على خيانه أمانه نفسه و الإضرار بما لا يعود إلا إلى شخصه فتذييل النهى بقوله:« وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »لتهييج العصبيه الحقه و إثاره قضاء الفطره لا لبيان شرط من شرائط التكليف.

فكأن بعض أفراد المسلمين كان يفشى أمورا من عزائم النبى ص المكتومه من المشركين أو يخبرهم ببعض أسراره فسماه الله تعالى خيانه و نهى عنه،و عدها خيانه لله و الرسول و المؤمنين.

و يؤيد ذلك قوله بعد هذا النهى:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ »إلخ

فإن ظاهر السياق أنه متصل بما قبله غير مستقل عنه،و يفيد حينئذ أن موعظتهم فی أمر الأموال و الأولاد مع النهی عن خيانه الله و الرسول و أماناتهم إنما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومه،استماله منهم مخافه أن يتعدوا علی أموالهم و أولادهم الذين تركوهم بمكه بالهجره إلی المدينه،فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاء للموده و استبقاء للمال و الولد أو ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبی لبابه مع بنی قريظه.

و هذا يؤيد ما ورد فی سبب النزول أن أبا سفيان خرج من مكه بمال كثير فأخبر جبرئيل النبی ص بخروجه و أشار عليه بالخروج إليه و كتمان أمره فكتب إليه بعضهم بالخبر فأنزل الله:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »و فی نزول الآيه بعض أحاديث أخر سيأتی إن شاء الله فی البحث الروائی التالی.

قوله تعالی:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » الفرقان ما يفرق به بين الشیء و الشیء،و هو فی الآيه بقرينه السياق و تفريعه علی التقوی الفرقان بين الحق و الباطل سواء كان ذلك فی الاعتقاد بالتفرقه بين الإيمان و الكفر و كل هدی و ضلال أو فی العمل بالتمييز بين الطاعه و المعصيه و كل ما يرضی الله أو يسخطه،أو فی الرأی و النظر بالفصل بين الصواب و الخطإ فإن ذلك كله مما تثمره شجره التقوی،و قد أطلق الفرقان فی الآيه و لم يقيده قد عد جمل الخير و الشر فی الآيات السابقه و الجميع يحتاج إلی الفرقان.

و نظير الآيه بحسب المعنی قوله تعالی:« وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »و قد تقدم الكلام فی معنی تكفير السيئات و المغفره،و الآيه بمنزله تلخيص الكلام فی الأوامر و النواهی التی تتضمنها الآيات السابقه أی إن تتقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضی الله فی جميع ما تقدم بما يسخطه و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم و الله ذو الفضل العظيم.

(بحث روائی)

فی الكافی،بإسناده عن عقيل الخزاعی:أن أمير المؤمنين(ع)قال: إن الرعب و الخوف من جهاد المستحق للجهاد-و المتوازرين علی الضلال،ضلال فی الدين و سلب للدنيا مع الذل و الصغار،و فيه استيجاب النار بالفرار من الزحف-

عند حضره القتال يقول الله عز و جل:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً- فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ »

و فى الفقيه،و العلل،بإسناده عن ابن شاذان: أن أبا الحسن الرضا(ع) كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله:حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن فى الدين،و الاستخفاف بالرسل و الأئمه العادله،و ترك نصرتهم على الأعداء،و العقوبه لهم على ترك ما دعوا إليه-من الإقرار بالربوبيه و إظهار العدل،و ترك الجور و إماته الفساد،لما فى ذلك من جرأه العدو على المسلمين،و ما يكون فى ذلك من السبى و القتل-و إبطال دين الله عز و جل و غيره من الفساد.

أقول:و قد استفاضت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)أن الفرار من الزحف من المعاصى الكبيره الموبقه،و قد تقدم طرف منها فى البحث عن الكبائر فى تفسير قوله تعالى:« إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ :النساء:-٣١ فى الجزء الرابع من الكتاب.

و على ذلك روايات من طرق أهل السنه

كما فى صحيحى البخارى،و مسلم،عن أبى هريره عن النبى ص قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا:و ما هن يا رسول الله؟ قال:الشرك بالله-و قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق-و السحر و أكل الربا و أكل مال اليتيم-و التولى يوم الزحف-و قذف المحصنات الغافلات المؤمنات ،و هناك روايات أخرى عن ابن عباس و غيره تدل على كون الفرار من الزحف من الكبائر.

نعم قوله تعالى:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »الآيه يقيد إطلاق آيه تحريم الفرار بما دون الثلاثه لواحد.

و قد روى من طرقهم عن عمر بن الخطاب و عبد الله بن عمر و ابن عباس و أبى هريره و أبى سعيد الخدرى و غيرهم كما فى الدر المنثور": أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآيه خاص بيوم بدر.

و ربما وجه ذلك بأن الآيه نزلت يوم بدر،و أن الظرف فى قوله« وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ »إشاره إلى يوم بدر،و قد عرفت أن سياق الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر،و أن المراد بقوله:« يَوْمَئِذٍ »هو يوم الزحف لا يوم بدر.على أنه لو

فرض نزولها یوم بدر لم یوجب خصوص السبب فی عموم مدلول الآیه شیئا کما فی سائر الآیات التی جمعت بین عموم الدلاله و خصوص السبب.

قال صاحب المنار فی تفسیره:و إنما قد یتجه بناء التخصیص علی قرینه الحال لو کانت الآیه قد نزلت قبل اشتباک القتال-خلافا للجمهور-مع ما لغزوه بدر من الخصائص ککونها أول غزوه فی الإسلام لو انهزم فیها المسلمون و النبی ص فیهم لکانت الفتنه کبیره.و تأیید المسلمین بالملائکه یثبتونهم،و وعده تعالی بنصرهم و إلقاء الرعب فی قلوب أعدائهم.

فإذا نظرنا إلی مجموع الخصائص و قرینه الحال فی النهی اتجه کون التحریم المقرون بالوعید الشدید الذی فی الآیه خاصا بها.أضف إلی ذلک أن الله تعالی امتحن الصحابه(رض)بالتولی و الإدبار فی القتال مرتین مع وجوده(ص)معهم:یوم أحد و فیه یقول الله تعالی(٣: ١٥٥ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)و یوم حنین، و فیه یقول الله تعالی(٩: ٢٥ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ-٢٦، ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إلخ،و هذا لا ینافی کون التولی حراما و من الکبائر،و لا یقتضی أن یکون کل تول لغیر السببین المستثنیین فی آیه الأنفال یبوء صاحبه بغضب عظیم من الله و مأواه جهنم و بئس المصیر بل قد یکون دون ذلک،و یتقید بآیه رخصه الضعف الآتیه فی هذه السوره، و بالنهی عن إلقاء النفس فی التهلکه من حیث عمومها کما تقدم فی سوره البقره و سیأتی تفصیله قریبا.

و قد روی أحمد و أصحاب السنن إلا النسائی من حدیث ابن عمر قال": «کنت فی سریه من سرایا رسول الله ص-فحاص الناس حیصه و کنت فیمن حاص-فقلنا:

کیف نصنع-و قد فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب؟ثم قلنا:لو دخلنا المدینه فبتنا؟ ثم قلنا:لو عرضنا نفوسنا علی رسول الله ص؟فإن کان لنا توبه و إلا ذهبنا، فأتیناه قبل صلاه الغداه-فخرج فقال:من الفرارون؟فقلنا:نحن الفرارون.قال:

بل أنتم العکارون إنا فئتکم و فئه المسلمین.قال:فأتینا حتی قبلنا یده.

«و لفظ أبی داود»فقلنا:ندخل المدینه فنبیت فیها-لنذهب و لا یرانا أحد فدخلنا فقلنا:لو عرضنا أنفسنا علی رسول الله ص-فإن کانت لنا توبه أقمنا-و إن کان غیر ذلک ذهبنا-فجلسنا لرسول الله ص قبل صلاه الفجر-فلما خرج قمنا إلیه فقلنا:نحن الفرارون إلخ.

تأول بعضهم هذا الحدیث بتوسع فی معنی التحیز إلی فئه لا یبقی معه للوعید معنی و لا للغه حکم،و قد قال الترمذی فیه:حسن لا نعرفه إلا من حدیث یزید بن أبی زیاد أقول:و هو مختلف فیه ضعفه الکثیرون،و قال ابن حبان کان صدوقا إلا أنه لما کبر ساء حفظه و تغیر فوقعت المناکیر فی حدیثه فمن سمع منه قبل التغیر فسماعه صحیح،و جمله القول:أن هذا الحدیث لا وزن له فی هذه المسأله لا متنا و لا سندا،و فی معناه أثر عن عمر هو دونه فلا یوضع فی میزان هذه المسأله.انتهی.

أقول:و الذی نقله فی أول کلامه من الوجوه و القرائن المحتفه بغزوه بدر من کونه أول غزوه فی الإسلام،و کون النبی ص بینهم و نحو ذلک مشترکه بحسب حقیقه الملاک بینها و بین أمثال غزوه أحد و الخندق و خیبر و حنین،و الإسلام أیامئذ فی حاجه شدیده إلی الرجال المقاتلین و ثباتهم فی الزحوف،و النبی ص بینهم، و الله وعدهم بالنصر و أنزل فی بعضها الملائکه لتأییدهم و إلقاء الرعب فی قلوب أعدائهم.

و الذی ذکره من الآیات النازله فی فرارهم یوم أحد و یوم حنین لا دلاله فیها علی عدم شمول وعید آیه الأنفال لهم إذ ذاک و أی مانع یمنع من ذلک و الآیه مطلقه و لیس هناک مقید یقیدها.

و من العجیب تسلیمه کون فرارهم فی الیومین کبیره محرمه ثم قوله:إن ذلک لا یقتضی کونه مما یبوء صاحبه بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصیر بل قد یکون دون ذلک مع أن الکبائر الموبقه هی المعاصی التی أوعد الله علیها النار.

و أعجب منه قوله:إنه یتقید بآیه رخصه الضعف الآتیه فی هذه السوره، و بالنهی عن إلقاء النفس فی التهلکه من حیث عمومها!مع أن آیه رخصه الضعف إنما تدل علی الرخصه فی الفرار إذا کان یربو عدد الزاحفین من الأعداء علی الضعف.

و آیه النهی عن إلقاء النفس فی التهلکه لو دلت بعمومها علی أزید مما یدل علیه

آیه رخصه الضعف لغت آیه الأنفال و بقیت بلا مصداق کما أن التأول فی قوله تعالی:

« أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ »علی حسب ما تقتضیه روایه ابن عمر یوجب إلغاء الآیه کما ذکره صاحب المنار فقد تلخص أن لا مناص عن إبقاء الآیه علی ظاهر إطلاقها.

و فی تفسیر العیاشی،عن موسی بن جعفر(ع): فی الآیه:« إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ » قال متطردا یرید الکره علیهم« أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ »یعنی متأخرا إلی أصحابه من غیر هزیمه،من انهزم حتی یجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله.

أقول:تشیر الروایه إلی نکته مهمه فی لفظ الآیه،و هی أن النهی إنما تعلقت فی الآیه علی تولی الأدبار و هی أعم من الانهزام فإذا استثنی الموردان أعنی التحرف لقتال و التحیز إلی فئه و هی غیر موارد الفرار عن هزیمه،بقیت موارد الهزیمه تحت النهی فکل انهزام عن أعداء الدین إذا لم یجوزوا الضعف عددا حرام محرم.

و فی تفسیر البرهان،عن ابن شهرآشوب عن الثعلبی عن ضحاک عن عکرمه عن ابن عباس: فی قوله تعالی:« وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ »أن النبی ص قال لعلی:

ناولنی کفا من حصی-و ناوله و رمی به فی وجوه قریش-فما بقی أحد إلا امتلأت عیناه من الحصی:

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن الطبرانی و أبی الشیخ و ابن مردویه عن ابن عباس و روی العیاشی فی تفسیره حدیث المناوله عن محمد بن کلیب الأسدی عن أبیه عن الصادق(ع)و فی خبر آخر عن علی(ع).

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر عن محمد بن قیس و محمد بن کعب رضی الله عنهما قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض-أخذ رسول الله ص قبضه من تراب-فرمی بها فی وجوه القوم،و قال:شاهت الوجوه-فدخلت فی أعینهم کلهم،و أقبل أصحاب رسول الله ص یقتلونهم،و کانت هزیمتهم فی رمیه رسول الله ص-فأنزل الله:« وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ -إلی قوله- سَمِيعٌ عَلِيمٌ ».

أقول:و المراد بنزول الآیه نزولها بعد ذلک و هی تقص القصه لا نزولها وقتئذ، و هو شائع فی أسباب النزول.و قد ذکر ابن هشام فی سیرته:أن النبی ص رماهم بالتراب ثم أمر أصحابه بالکره فکانت الهزیمه.

و فیه أخرج ابن أبی الشیبه و أحمد و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه و ابن منده و الحاکم و صححه و البیهقی فی الدلائل عن ابن شهاب عن عبد الله بن ثعلبه بن صعیر": أن أبا جهل قال حین التقی القوم:اللهم أقطعنا للرحم و آتانا بما لا نعرف-فأحنه الغداه فکان ذلک استفتاحا منه- فنزلت:« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَکُمُ الْفَتْحُ »الآیه.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ »الآیه-قال قال الباقر (ع):هم بنو عبد الدار-لم یکن أسلم منهم غیر مصعب بن عمیر-و حلیف لهم یقال له:سویبط.

و فی جامع الجوامع،:قال الباقر(ع): هم بنو عبد الدار-لم یسلم منهم غیر مصعب بن عمیر و سوید بن حرمله،و کانوا یقولون:نحن صم بکم عمی عما جاء به محمد-و قد قتلوا جمیعا بأحد و کانوا أصحاب اللواء.

أقول:و روی فی الدر المنثور،ما فی معناه بطرق عن ابن عباس و قتاده، و الروایه من قبیل الجری و الانطباق،و الآیه عامه.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا-اِسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ الآیه.قال:قال الحیاه الجنه.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی الربیع الشامی قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ-إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ » قال:نزلت فی ولایه علی(ع):

أقول:و رواه فی تفسیر البرهان،عن ابن مردویه عن رجاله مرفوعا إلی الإمام محمد بن علی الباقر،(ع)و کذا عن أبی الجارود عنه(ع)کما رواه القمی فی تفسیره

،و الروایه من قبیل الجری و کذا الروایه السابقه علیها و قد قدمنا فی الکلام علی الآیه أنها عامه.

و فی تفسیر القمی،عن أبی الجارود عن الباقر(ع): فی قوله تعالی:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ »یقول:بین المرء و معصیته أن یقوده إلی النار،و یحول بین الکافر و طاعته أن یستکمل بها الإیمان،و اعلموا أن الأعمال بخواتیمها.

و فی المحاسن،بإسناده عن علی بن الحکم عن هشام بن سالم عن الصادق(ع): فی قول الله تبارک و تعالی:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ »قال:یحول بینه و بین أن یعلم أن الباطل حق:

أقول:و رواه الصدوق فی المعانی،عن ابن أبی عمیر عن هشام بن سالم عنه(ع).

و فی تفسیر العیاشی،عن یونس بن عمار عن أبی عبد الله(ع)قال: لا یستیقن القلب أن الحق باطل أبدا،و لا یستیقن أن الباطل حق أبدا.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن ابن عباس رضی الله عنهما قال: سألت النبی ص عن هذه الآیه:« یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ »قال:یحول بین المؤمن و الکفر، و یحول بین الکافر و بین الهدی.

أقول:و هو قریب من الخبر المتقدم عن أبی الجارود عن الباقر(ع)فی معنی الآیه.

و فی تفسیر العیاشی،عن حمزه الطیار عن أبی عبد الله(ع): « وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ »قال:هو أن یشتهی الشیء بسمعه و بصره و لسانه و یده-أما إنه لا یغشی شیئا منها و إن کان یشتهیه-فإنه لا یأتیه إلا و قلبه منکر لا یقبل الذی یأتی-یعرف أن الحق لیس فیه:

أقول:و رواه البرقی فی المحاسن بإسناده عن حمزه الطیار عنه(ع)

و روی ما یقرب منه العیاشی فی تفسیره عن جابر عن أبی جعفر(ع)،و یئول معنی الروایه إلی الروایتین المتقدمتین عن هشام بن سالم و یونس بن عمار عن الصادق(ع).

و فی تفسیر العیاشی،عن الصیقل: سئل أبو عبد الله(ع)« وَ اتَّقُوا فِتْنَهً لاٰ تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خٰاصَّهً »قال:أخبرت أنهم أصحاب الجمل.

و فی تفسیر القمی،قال:قال": نزلت فی الطلحه و الزبیر-لما حاربا أمیر المؤمنین (ع)و ظلماه.

و فی المجمع،عن الحاکم بإسناده عن قتاده عن سعید بن المسیب عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآیه:« وَ اتَّقُوا فِتْنَهً »قال النبی ص:من ظلم علیا مقعدی هذا بعد وفاتی-فکأنما جحد نبوتی و نبوه الأنبیاء من قبلی.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن أبی شـیبه و عبد بن حمید و نعیم بن حماد فی الفتن و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیـخ و ابن مردویه عن الزبیر رضـی الله عنه قـال": لقـد قرأنا زمانا و ما نری أنا من أهلها-فإذا نحن المعنیون بها:« وَ اتَّقُوا فِتْنَهً لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً ».

و فیه،أخرج ابن جریر و أبو الشیـخ عن السدی فی الآیه قال": هذه نزلت فی أهل بدر خاصه-فأصابتهم یوم الجمل فاقتتلوا-فکان من المقتولین طلحه و الزبیر و هما من أهل بدر.

و فیه،أخرج أحمد و البزاز و ابن المنذر و ابن مردویه و ابن عساکر عن مطرف قال": قلنا للزبیر:یا أبا عبد الله ضیعتم الخلیفه حتی قتل-ثم جئتم تطلبون بدمه؟فقال الزبیر رضی الله عنه:إنا قرأنا علی عهد رسول الله ص-و أبی بکر و عمر و عثمان رضی الله عنهم« وَ اتَّقُوا فِتْنَهً لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً »-و لم نکن نحسب أنا أهلها-حتی وقعت فینا حیث وقعت.

و فیه،أخرج عبد بن حمید و أبو الشیخ عن قتاده رضی الله عنه فی الآیه قال":

علم و الله ذوو الألباب من أصحاب محمد ص-أنه سیکون فتن.

و فیه،:أخرج أبو الشیخ و أبو نعیم و الدیلمی فی مسـند الفردوسی عن ابن عباس رضی الله عنهما عن رسول الله ص: فی قوله:« وَ اذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی الْأَرْضِ-تَخافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النّاسُ »قیل:یا رسول الله و من الناس؟قال:

أهل فارس.

أقول:و الروایه لا تلائم سیاق الآیه.

و فیه،":فی قوله تعـالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا-لا تَخُونُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ »الآیه":أخرج ابن جریر و ابن المنـذر و أبو الشـیخ عن جابر بن عبد الله رضـی الله عنه": أن أبا سـفیان خرج من مکه-فأتی جبرائیل النبی ص فقال:إن أبا سفیان بمکان کذا و کذا- فاخرجوا إلیه و اکتموا-فکتب رجل من المنافقین إلی أبی سـفیان-أن محمـدا یریـدکم فخذوا حذرکم فأنزل الله:« لا تَخُونُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ »الآیه.

أقول:و معنی الروایه قریب الانطباق علی ما استفدناه من الآیه فی البیان المتقدم.

ص :۶۳

و فیه،:أخرج ابن جریر عن المغیره بن شعبه قال": نزلت هذه الآیه فی قتل عثمان رضی الله عنه.

أقول:و الآیه لا تنطبق علیه بسیاقها البته

و فی المجمع،عن الباقر و الصادق(ع)و الکلبی و الزهری: نزلت فی أبی لبابه بن عبد المنذر الأنصاری،و ذلک أن رسول الله ص حاصر یهود قریظه- إحدی و عشرین لیله-فسألوا رسول الله ص الصلح-علی ما صالح علیه إخوانهم من بنی النضیر-علی أن یسیروا إلی إخوانهم-إلی أذرعات و أریحات من أرض الشام-فأبی أن یعطیهم ذلک رسول الله ص-إلا أن ینزلوا علی حکم سعد بن معاذ-فقالوا:

أرسل إلینا أبا لبابه-و کان مناصحا لهم لأن عیاله و ماله و ولده کانت عندهم-فبعثه رسول الله ص فأتاهم فقالوا:ما تری یا أبا لبابه؟أ ننزل علی حکم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابه بیده إلی حلقه:أنه الذبح-فلا تفعلوا فأتاه جبرائیل فأخبره بذلک-.

قال أبو لبابه:فوالله ما زالت قدمای عن مکانهما-حتی عرفت أنی قد خنت الله و رسوله-فنزلت الآیه فیه-فلما نزلت شد نفسه علی ساریه من سواری المسجد، و قال:و الله لا أذوق طعاما و لا شرابا-حتی أموت أو یتوب الله علی-فمکث سبعه أیام لا یذوق فیها طعاما و لا شرابا-حتی خر مغشیا علیه ثم تاب الله علیه-فقیل له:

یا أبا لبابه قد تیب علیک-فقال:لا و الله لا أحل نفسی-حتی یکون رسول الله هو الذی یحلنی-فجاءه و حله بیده-.

ثم قال أبو لبابه:إن من تمام توبتی-أن أهجر دار قومی التی أصبت فیها الذنب- و إن انخلع من مالی.فقال النبی ص:یجزیک الثلث أن تصدق به.

أقول:قصه أبی لبابه و توبته صحیحه قابله الانطباق علی مضمون الآیتین غیر أنها وقعت بعد قصه بدر بکثیر،و ظاهر الآیتین إذا اعتبرتا و قیستا إلی الآیات السابقه علیهما أن الجمیع فی سیاق واحد نزلت بعد وقعه بدر بقلیل.و الله أعلم.

ص :۶۴

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الی ۴٠]

اشاره

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اَللّهُ وَ اَللّهُ خَيْرُ اَلْماكِرِينَ (٣٠) وَ إِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هٰذا إِنْ هٰذا إِلاّ أَساطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قالُوا اَللّهُمَّ إِنْ كانَ هٰذا هُوَ اَلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ اَلسَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَ ما كانَ اَللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اَللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَ ما لَهُمْ أَلاّ يُعَذِّبَهُمُ اَللّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣۴) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ اَلْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا اَلْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣۵) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣۶) لِيَمِيزَ اَللّهُ اَلْخَبِيثَ مِنَ اَلطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ اَلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ اَلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قاتِلُوهُمْ حَتّٰى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ اَلدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اَللّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ اَلْمَوْلىٰ وَ نِعْمَ اَلنَّصِيرُ (۴٠)

ص: ۶۵

(بيان)

الآيات فی سياق الآيات السابقه و هی متصله بها و منعطفه علی آيات أول السوره إلا قوله:« وَ إِذْ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ »الآيه و الآيه التی تليها،فإن ظهور اتصالها دون بقيه الآيات، و سيجیء الكلام فيها إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ » إلی آخر الآيه،قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيله،و ذلك ضربان:

ضرب محمود و ذلك أن يتحری به فعل جميل و علی ذلك قال: وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ ، و مذموم و هو أن يتحری به فعل قبيح قال: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ . وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا . فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ،و قال فی الأمرين :وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً ،و قال بعضهم:من مكر الله إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدنيا،

و لذلك قال أمير المؤمنين رضی الله عنه: من وسع عليه دنياه و لم يعلم أنه مكر به-فهو مخدوع عن عقله. انتهی.

و فی المجمع،: الإثبات الحبس يقال:رماه فأثبته أی حبسه مكانه،و أثبت الحرب أی جرحه جراحه مثقله.انتهی.

و مقتضی سياق الآيات إن يكن قوله:« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »الآيه معطوفه علی قوله سابقا:« وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَی الطّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ »فالآيه مسوقه لبيان ما أسبغ الله عليهم من نعمته،و أيدهم به من أياديه التی لم يكن لهم فيها صنع.

و معنی الآيه:و اذكر أو و ليذكروا إذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك أن يوقعوا بك أحد أمور ثلاثه:إما أن يحبسوك و إما أن يقتلوك و إما أن يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين.

و الترديد فی الآيه بين الحبس و القتل و الإخراج بيانا لما كانوا يمكرونه من مكر يدل أنه كان منهم شوری يشاور فيها بعضهم بعضا فی أمر النبی ص و ما كان يهمهم و يهتمون به من إطفاء نور دعوته،و بذلك يتأيد ما ورد من أسباب النزول أن الآيه تشير إلی قصه دار الندوه علی ما سيجیء فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

قوله تعالى:« وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا » إلى آخر الآيه الأساطير الأحاديث جمع أسطوره و يغلب فى الأخبار الخرافيه،و قوله حكايه عنهم:« قَدْ سَمِعْنا »و قوله:« لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا »و قوله:« مِثْلَ هذا »و لم يقل:مثل هذه أو مثلها كل ذلك للدلاله على إهانتهم بآيات الله و إزرائهم بمقام الرساله، و نظيرها قولهم:« إِنْ هذا إِلاّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ».

و المعنى:و إذا تتلى عليهم آياتنا التى لا ريب فى دلالتها على أنها من عندنا و هى تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجوا و اعتدوا بها و هونوا أمرها و أزروا برسالتنا و قالوا قد سمعنا و عقلنا هذا الذى تلى علينا لا حقيقه له إلا أنه من أساطير الأولين،و لو نشاء لقلنا مثله غير أنا لا نعتنى به و لا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافيه.

قوله تعالى:« وَ إِذْ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ »إلى آخر الآيتين. الإمطار هو إنزال الشىء من فوق،و غلب فى قطرات الماء من المطر أو هو استعاره إمطار المطر لغيره كالحجاره و كيف كان فقولهم:أمطر علينا حجاره من السماء بالتصريح باسم السماء للدلاله على كونه بنحو الآيه السماويه و الإهلاك الإلهى محضا.

فإمطار الحجاره من السماء عليهم على ما سألوا أحد أقسام العذاب و يبقى الباقى تحت قولهم:« أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ »و لذلك نكر العذاب و أبهم وصفه ليدل على باقى أقسام العذاب،و يفيد مجموع الكلام:أن أمطر علينا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليما، و إنما أفرد إمطار الحجاره من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجاره مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن و عذاب الروح بما فيه من الذله و الإهانه.

ثم قوله:« إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ »يدل بلفظه على أن الذى سمعوه من النبى ص بلسان القال أو الحال بدعوته هو قوله:«هذا هو الحق من عند الله» و فيه شىء من معنى الحصر،و هذا غير ما كان يقوله لهم:هذا حق من عند الله فإن القول الثانى يواجه به الذى لا يرى دينا سماويا و نبوه إلهيه كما كان يقوله المشركون و هم الوثنيه:ما أنزل الله على بشر من شىء،و أما القول الأول فإنما يواجه به من يرى أن هناك دينا حقا من عند الله و رساله إلهيه يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبى ص أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو

الحق من عند الله لا غيره ثم،يرد بالاشتراط فى مثل قوله.اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

فالأشبه أن لا يكون هذا حكايه عن بعض المشركين بنسبته إلى جميعهم لاتفاقهم فى الرأى أو رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكايه عن بعض أهل الرده ممن أسلم ثم ارتد أو عن بعض أهل الكتاب المعتقدين بدين سماوى حق فافهم ذلك.

و يؤيد هذا الآيه التاليه لهذه الآيه:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »أما قوله:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ »فإن كان المراد به نفى تعذيب الله كفار قريش بمكه قبل الهجره و النبى فيهم كان مدلوله أن المانع من نزول العذاب يومئذ هو وجود النبى ص بينهم،و المراد بالعذاب غير العذاب الذى جرى عليهم بيد النبى ص من القتل و الأسر كما سماه الله فى الآيات السابقه عذابا و قال فى مثلها:« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللّٰهُ بِعَذٰابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينٰا» التوبه:-۵۲،بل عذاب الاستئصال بآيه سماويه كما جرى فى أمم الأنبياء الماضين لكن الله سبحانه هددهم بعذاب الاستئصال فى آيات كثيره كقوله تعالى:« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ:» حم السجده:-۱۳،و كيف يلائم أمثال هذه التهديدات قوله:

« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ »لو كان المراد بالمعذبين هم كفار قريش و مشركو العرب ما دام النبى ص بمكه.

و لو كان المراد بالمعذبين جميع العرب أو الأمه،و المراد بقوله:« وَ أَنْتَ فِيهِمْ » حياه النبى ص،و المعنى:و لا يعذب الله هذه الأمه و أنت فيهم حيا كما ربما يؤيده قوله بعده:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »كان ذلك نفيا للعذاب عن جميع الأمه و لم يناف نزوله على بعضهم كما سمى وقوع القتل بهم عذابا كما فى الآيات السابقه، و كما ورد أن الله تعالى عذب جمعا منهم كأبى لهب و المستهزءين برسول الله ص، و على هذا لا تشمل الآيه القائلين:« اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ »إلى آخر الآيه و خاصه باعتبار ما روى أن القائل به أبو جهل كما فى صحيح البخارى أو النضر بن الحارث بن كلده كما فى بعض روايات أخر و قد حقت عليهما كلمه العذاب و قتلا يوم بدر فلا ترتبط الآيه:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ »الآيه،بهؤلاء القائلين:اللهم إن

کان هذا هو الحق من عندک الآیه مع أنها مسوقه سوق الجواب عن قولهم.

و یشتد الإشکال بناء علی ما وقع فی بعض أسباب النزول أنهم قالوا:اللهم إن کان هذا هو الحق من عندک فأمطر علینا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب ألیم فنزل قوله تعالی:« سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ لِلْکٰافِرِینَ لَیْسَ لَهُ دٰافِعٌ »و سیجیء الکلام فیه و فی غیره من أسباب النزول المرویه فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

و الذی تمحل به بعض المفسرین فی توجیه مضمون الآیه بناء علی حملها علی ما مر من المعنی أن الله سبحانه أرسل محمدا ص رحمه للعالمین و نعمه لهذه الأمه لا نقمه و عذابا.فیه أنه لیس مقتضی الرحمه للعالمین أن یهمل مصلحه الدین،و یسکت عن مظالم الظالمین و إن بلغ ما بلغ و أدی إلی شقاء الصالحین و اختلال نظام الدنیا و الدین، و قد حکی الله سبحانه عن نفسه بقوله:« وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ »و لم یمنع ذلک من حلول غضبه علی من حل به من الأمم الماضیه و القرون الخالیه کما ذکره فی کلامه.

علی أنه تعالی سمی ما وقع علی کفار قریش من القتل و الهلاک فی بدر و غیره عذابا و لم یناف ذلک قوله:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ رَحْمَهً لِلْعٰالَمِینَ:» الأنبیاء:-۱۰۷، و هدد هذه الأمه بعذاب واقع قطعی فی سور یونس و الإسراء و الأنبیاء و القصص و الروم و المعارج و غیرها و لم یناف ذلک کونه(ص)رحمه للعالمین فما بال نزول العذاب علی شرذمه تفوهت بهذه الکلمه: « اَللّٰهُمَّ إِنْ کٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ »إلخ،ینافی قول النبی ص نبی الرحمه مع أن من مقتضی الرحمه أن یوفی لکل ذی حق حقه، و أن یقتص للمظلوم من الظالم و أن یؤخذ کل طاغیه بطغیانه.

و أما قوله تعالی:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »فظاهره النفی الاستقبالی علی ما هو ظاهر الصفه:« مُعَذِّبَهُمْ »و کون قوله:« یَسْتَغْفِرُونَ »مسوقا لإفاده الاستمرار و الجمله حالیه،و المعنی:و لا یستقبلهم الله بالعذاب ما داموا یستغفرونه.

و الآیه کیفما أخذت لا تنطبق علی حال مشرکی مکه و هم مشرکون معاندون لا یخضعون لحق و لا یستغفرون عن مظلمه و لا جریمه،و لا یصلح الأمر بما ورد فی بعض الآثار أنهم قالوا ما قالوا ثم ندموا علی ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم:«غفرانک اللهم».

و ذلک-مضافا إلی عدم ثبوته-أنه تعالی لا یعبأ فی کلامه باستغفار المشرکین

و لا سيما أئمه الكفر منهم،و اللاغى من الاستغفار لا أثر له،و لو لم يكن استغفارهم لاغيا و ارتفع به ما أجرموه بقولهم:اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء الآيه لم يكن وجه لذمهم و تأنيبهم بقوله تعالى:« وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ »فى سياق هذه الآيات المسوقه لذمهم و لومهم و عد جرائمهم و مظالمهم على النبى ص و المؤمنين.

على أن قوله تعالى بعد الآيتين:« وَ مَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »الآيه لا يلائم نفى العذاب فى هاتين الآيتين فإن ظاهر الآيه أن العذاب المهدد به هو عذاب القتل بأيدى المؤمنين كما يدل عليه قوله بعده:« فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »و حينئذ فلو كان القائلون:« اَللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ »الآيه مشركى قريش أو بعضهم و كان المراد من العذاب المنفى العذاب السماوى لم يستقم إنكار وقوع العذاب عليهم بالقتل و نحوه فإن الكلام حينئذ يئول إلى معنى التشديد:

و محصله:أنهم كانوا أحق بالعذاب و لهم جرم آخر وراء ما أجرموه و هو الصد عن المسجد الحرام،و هذا النوع من الترقى أنسب بإثبات العذاب لهم لا لنفيه عنهم.

و إن كان المراد بالعذاب المنفى هو القتل و نحوه كان عدم الملاءمه بين قوله:

« وَ مَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ »و قوله:« فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »و بين قوله:

« وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ »إلخ،أوضح و أظهر.

و ربما وجه الآيه بهذا المعنى بعضهم بأن المراد بقوله:« وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ »عذاب أهل مكه قبل الهجره،و بقوله:« وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »عذاب الناس كافه بعد هجرته(ص)إلى المدينه و إيمان جمع و استغفارهم و لذا قيل:إن صدر الآيه نزلت قبل الهجره،و ذيلها بعد الهجره!.

و هو ظاهر الفساد فإن النبى ص لما كان فيهم بمكه قبل الهجره كان معه جمع ممن يؤمن بالله و يستغفره،و هو(ص)بعد الهجره كان فى الناس فما معنى تخصيص صدر الآيه بقوله:« وَ أَنْتَ فِيهِمْ »و ذيلها بقوله:« وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ».

و لو فرض أن معنى الآيه أن الله لا يعذب هذه الأمه ما دمت فيهم ببركه وجودك،و لا يعذبهم بعدك ببركه استغفارهم لله و المراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الآيتين التاليتين:« وَ مَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ »إلخ مع ما تقدم من الإشكال عليه.

فقد ظهر من جميع ما تقدم-على طوله-أن الآيتين أعنى قوله:« وَ إِذْ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً »إلى آخر الآيتين لا تشاركان الآيات السابقه و اللاحقه المسروده فى الكلام على كفار قريش فى سياقها الواحد فهما لم تنزلا معها.

و الأقرب أن يكون ما حكى فيهما من قولهم و الجواب عنه بقوله:« وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ »غير مرتبط بهم و إنما صدر هذا القول من بعض أهل الكتاب أو بعض من آمن ثم ارتد من الناس.

و يتأيد بذلك بعض ما ورد أن القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهرى، و قد تقدم الحديث نقلا عن تفسيرى الثعلبى و المجمع فى ذيل قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» XالآيهX:المائده:-۶۷ فى الجزء السادس من الكتاب.

و على هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفى العذاب السماوى المستعقب للاستئصال الشامل للأمه على نهج عذاب سائر الأمم،و الله سبحانه ينفى فيها العذاب عن الأمه ما دام النبى ص فيهم حيا،و بعده ما داموا يستغفرون الله تعالى.

و يظهر من قوله تعالى:« وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »بضمه إلى الآيات التى توعد هذه الأمه بالعذاب الذى يقضى بين الرسول و بينهم كآيات سوره يونس:« وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» :يونس:-۴۷ إلى آخر الآيات أن فى مستقبل أمر هذه الأمه يوما ينقطع عنهم الاستغفار و يرتفع من بينهم المؤمن الإلهى فيعذبون عند ذاك.

قوله تعالى:« وَ ما لَهُمْ أَلاّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ »إلى آخر الآيه استفهام فى معنى الإنكار أو التعجب،و قوله:« وَ ما لَهُمْ »بتقدير فعل يتعلق به الظرف و يكون قوله:« أَلاّ يُعَذِّبَهُمُ »مفعوله أو هو من التضمين نظير ما قيل فى قوله:« هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكّى:» النازعات:-۱۸.

و التقدير على أى حال نحو من قولنا:«و ما الذى يثبت و يحق لهم عدم تعذيب الله إياهم و الحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام و يمنعون المؤمنين من دخوله وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ ».فقوله:« وَ هُمْ يَصُدُّونَ »إلخ حال عن ضمير« يُعَذِّبَهُمُ »و قوله:

« وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ »حال عن ضمير« يَصُدُّونَ ».

و قوله:« إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ »تعليل لقوله:« وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ »أى ليس لهم أن يلوا أمر البيت فيجيزوا و يمنعوا من شاءوا لأن هذا المسجد مبنى على تقوى الله فلا يلى أمره إلا المتقون و ليسوا بهم.

فقوله:« إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ »جمله خبريه تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذى لب،و ليست الجمله إنشائيه مشتمله على جعل الولايه للمتقين،و يشهد لما ذكرناه قوله بعد:« وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ »كما لا يخفى.

و المراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعم منه على ما يفيده السياق باتصال الآيه بالآيه التاليه،و قد تقدم أن الآيه غير متصله ظاهرا بما تقدمها أى أن الآيتين:« وَ إِذْ قٰالُوا اللّٰهُمَّ »إلخ« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ »إلخ خارجتان عن سياق الآيات،و لازم ذلك ما ذكرناه.

قال فى المجمع،:و يسأل فيقال:كيف يجمع بين الآيتين و فى الأولى نفى تعذيبهم، و فى الثانيه إثبات ذلك؟و جوابه على ثلاثه أوجه:

أحدها:أن المراد بالأول عذاب الاصطلام و الاستئصال كما فعل بالأمم الماضيه، و بالثانى عذاب القتل بالسيف و الأسر و غير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم.

و الآخر:أنه أراد:و ما لهم أن لا يعذبهم الله فى الآخره،و يريد بالأول عذاب الدنيا.عن الجبائى.

و الثالث:أن الأول استدعاء للاستغفار.يريد أنه لا يعذبهم بعذاب دنيا و لا آخره إذا استغفروا و تابوا فإذا لم يفعلوا عذبوا ثم بين أن استحقاقهم العذاب بصدهم عن المسجد الحرام.انتهى.

و فيه:أن مبنى الإشكال على اتصال الآيه بما قبلها و قد تقدم أنها غير متصله.

هذا إجمالا.

و أما تفصيلا فيرد على الوجه الأول:أن سياق الآيه و هو كما تقدم سياق التشدد و الترقى،و لا يلائم ذلك نفى العذاب فى الأولى مع إثباته فى الثانيه و إن كان العذاب غير العذاب.

و على الثانى أن سياق الآيه ينافى كون المراد بالعذاب فيها عذاب الآخره،و خاصه بالنظر إلى قوله فى الآيه الثالثه-و هى فى سياق الآيه الأولى-« فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ».

و على الثالث:أن ذلك خلاف ظاهر الآيه بلا شك حيث إن ظاهرها إثبات الاستغفار لهم حالا مستمرا لاستدعائه و هو ظاهر.

قوله تعالى:« وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّٰ مُكٰاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » المكاء بضم الميم الصفير،و المكاء بصيغه المبالغه طائر بالحجاز شديد الصفير،و منه المثل السائر:بنيك حمرى و مكئكينى.و التصديه التصفيق بضرب اليد على اليد.

و قوله:« وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ »الضمير لهؤلاء الصادين المذكورين فى الآيه السابقه و هم المشركون من قريش،و قوله:« فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينه التفريع بالفاء.

و من هنا يتأيد أن الآيتين متصلتان كلاما واحدا و قوله:« وَ مٰا كٰانَ »إلخ جمله حاليه و المعنى: و ما لهم أن لا يعذبهم الله و الحال أنهم يصدون العباد من المؤمنين عن المسجد الحرام و ما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبه من المكاء و التصديه فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون،و الالتفات فى قوله:« فَذُوقُوا الْعَذٰابَ » عن الغيبه إلى الخطاب لبلوغ التشديد.

و يستفاد من الآيتين أن الكعبه المشرفه لو تركت بالصد استعقب ذلك المؤاخذه الإلهيه بالعذاب

قال على(ع) فى بعض وصاياه:«الله الله فى بيت ربكم فإنه إن ترك لم تنظروا

(۱)

.»

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ »إلى آخر الآيه يبين حال الكفار فى ضلال سعيهم الذى يسعونه لإبطال دعوه الله و المنع عن سلوك السالكين لسبيل الله،و يشرح ذلك قوله:« فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ »إلخ.

۱- ۱) نهج البلاغه فى باب الوصايا.

و بهـذا السـياق يظهر أن قوله:« وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »بمنزله التعليل، و محصل المعنى أن الكفر سـيبعثهم-بحسـب سنه الله فى الأسـباب-إلى أن يسـعوا فى إبطـال الـدعوه و الصـد عن سبيـل الحق غير أن الظلم و الفسق و كل فساد لا يهـدى إلى الفلاـح و النجـاح فسـينفقون أمـوالهم فى سبيـل هـذه الأـغراض الفاسـده فتضـيع الأـموال فى هـذا الطريق فيكون ضـيعتها موجبه لتحسرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها،و ذلك أن الكفار يحشرون إلى جهنم و يكون ما يأتون به فى الدنيا من التجمع على الشر و الخروج إلى محاربه الله و رسوله بحذاء خروجهم محشورين إلى جهنم يوم القيامه.

و قوله:« فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ »إلى آخر الآيه من ملاحم القرآن و الآيه من سوره الأنفال النازله بعد غزوه بـدر فكأنها تشـير إلى ما سـيقع من غزوه أحد أو هى و غيرها،و على هذا فقوله:« فَسَيُنْفِقُونَهٰا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً » إشاره إلى غزوه أحد أو هى و غيرها، و قوله:« ثُمَّ يُغْلَبُونَ »إلى فتح مكه،و قوله:

« وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »إلى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

قوله تعالى:« لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ »الخبـاثه و الطيب معنيـان متقابلاـن و قـد مر شـرحهما و التمييز إخراج الشـىء عمـا يخالفه و إلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه،و الركم جمع الشـىء فوق الشـىء و منه سـحاب مركوم أى مجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض و مجموعها و تراكم الأشياء تراكب بعضها بعضا.

و الآـيه فى موضع التعليـل لما أخبر به فى الآيه السابقه من حال الكفار بحسب السـنه الكونيه،و هو أنهم يسـعون بتمام وجـدهم و مقـدرتهم إلى أن يطفئـوا نـور الله و يصـدوا عن سبيـل الله فينفقون فى ذلـك الأـموال و يبـذلون فى طريقه المسـاعى غير أنهم لا يهتـدون إلى مقاصـدهم و لاـ يبلغون آمـالهم بـل تضـيع أموالهم و تحبـط أعمالهم و تضل مساعيهم، و يرثون بـذلك الحسـره و الهزيمه.

و ذلك أن هذه الأعمال و التقلبات تسير على سنه إلهيه و تتوجه إلى غايه تكوينيه ربانيه،و هى أن الله سبحانه يميز فى هذا النظام الجارى الشر من الخير و الخبيث من الطيب و يركم الخبيث بجعل بعضه على بعض،و يجعل ما اجتمع منه و تراكم فى جهنم

و هی الغـایه التی تسـیر إلیهـا قـافله الشـر و الخبیث یحلها الجمیع و هی دار البوار کما أن الخیر و الطیب إلی الجنه،و الأولون هم الخاسرون کما أن الآخرین هم الرابحون المفلحون.

و من هنـا یظهر أن قوله:« لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ »إلـخ قریب المضـمون من قوله تعالی فی مثل ضـربه للحق و الباطل:« أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِیَهٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رٰابِیاً وَ مِمّٰا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْیَهٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا یَنْفَعُ النّٰاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ :الرعـد:-۱۷ و الآیه تشـیر إلی قانون کلی إلهی و هو إلحاق فرع کل شیء بأصله.

قوله تعالی:« قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ یَنْتَهُوا یُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ »إلی آخر الآیه الانتهاء الإقلاع عن الشـیء لأجل النهی،و السـلوف التقدم،و السنه هی الطریقه و السیره.

أمر النبی ص أن یبلغهم ذلک و فی معناه تطمیع و تخویف و حقیقته دعوه إلی ترک القتال و الفتنه لیغفر الله لهم بذلک ما تقدم من قتلهم و إیـذائهم للمـؤمنین فـإن لم ینتهوا عمـا نهوا عنه فقـد مضت سـنه الله فی الأـولین منهم بالإهلاـک و الإبـاده و خسـران السعی.

قوله تعالی:« وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰی لاٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلّٰهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ بِمٰا یَعْمَلُونَ بَصِیرٌ »الآیه و ما بعدها یشـتملان علی تکلیف المؤمنین بحـذاء مـا کلف به الکفار فی الآیه السابقه،و المعنی:قل لهم أن ینتهوا عن المحاده لله و رسوله یغفر لهم ما قـد سـلف و إن یعودوا إلی مثـل مـا عملوا فقـد علموا بمـا جری علی سـابقتهم قـل لهم کـذا و أما أنت و المؤمنون فلا تهنوا فیما یهمکم من إقامه الدین و تصـفیه جو صالح للمؤمنین،و قاتلوهم حتی تنتهی هذه الفتن التی تفاجئکم کل یوم،و لا تکون فتنه بعد فـإن انتهوا فإن الله یجازیهم بما یری من أعمالهم،و إن تولوا عن الانتهاء فأدیموا القتال و الله مولاکم فاعلموا ذلک و لا تهنوا و لا تخافوا.

و الفتنه مـا یمتحن به النفوس و تکون لاـ محـاله مما یشق علیها،و غلب اسـتعمالها فی المقاتل و ارتفاع الأمن و انتقاض الصـلح،و کـان کفـار قریش یقبضون علی المؤمنین بـالنبی ص قبل الهجره و بعـدها إلی مـده فی مکه و یعـذبونهم و یجبرونهم علی ترک الإسلام و الرجوع إلی الکفر،و کانت تسمی فتنه.

و قد ظهر بما یفیده السیاق من المعنی السابق أن قوله:« وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰی لاٰ تَکُونَ

فِتْنَهٌ

»كنايه عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم و لا يلقوا فتنه يفتتن بها المؤمنون و يكون الدين كله لله لا يدعو إلى خلافه أحد،و أن قوله:« فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »المراد به الانتهاء عن القتال و لذلك أردفه بمثل قوله:« فَإِنَّ اللّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب أعمالهم و هو بصير بها،و أن قوله:« وَ إِنْ تَوَلَّوْا »إلخ أي إن تولوا عن الانتهاء،و لم يكفوا عن القتال و لم يتركوا الفتنه فاعلموا أن الله مولاكم و ناصركم و قاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى و نعم النصير.

و قد ظهر أن قوله:« وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ »لا ينافي إقرار أهل الكتاب على دينهم إن دخلوا في الذمه و أعطوا الجزيه فلا نسبه للآيه مع قوله تعالى:« حَتّى يُعْطُوا الْجِزْيَهَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ:» التوبه:-٢٩.بالناسخيه و المنسوخيه.

و لبعض المفسرين وجوه في معنى الانتهاء و المغفره و غيرهما من مفردات الآيات الثلاث لا كثير جدوى في التعرض لها تركناها.

و قد ورد في بعض الأخبار كون«نعم المولى و نعم النصير»من أسماء الله الحسنى و المراد بالاسم حينئذ لا محاله غير الاسم بمعناه المصطلح بل كل ما يخص بلفظه شيئا من المصاديق كما ورد نظيره في قوله تعالى:« لا تَأْخُذُهُ سِنَهٌ وَ لا نَوْمٌ »و قد مر استيفاء الكلام في الأسماء الحسنى في ذيل قوله تعالى:« وَ لِلّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى:» الأعراف-١٨٠ في الجزء الثامن من الكتاب.

(بحث روائی)

في تفسير القمي،":في قوله تعالى:« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »الآيه-أنها نزلت بمكه قبل الهجره.

و في الدر المنثور،أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريح(رض)": « وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »قال:هي مكيه.

أقول:و هو ظاهر ما رواه أيضا عن عبد بن حميد عن معاويه بن قره،لكن عرفت أن سياق الآيات لا يساعد عليه.

و فيه،أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل و الخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما": فى قوله:

« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ »قال:تشاورت قريش ليله بمكه-فقال بعضهم:

إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق-يريدون النبى ص-و قال بعضهم:بل اقتلوه،و قال بعضهم بل أخرجوه-فأطلع الله نبيه ص على ذلك-فبات على رضى الله عنه على فراش النبى ص-و خرج النبى(ص)حتى لحق بالغار،و بات المشركون يحرسون عليا رضى الله عنه-يحسبونه النبى(ص)فلما أصبحوا ثاروا عليه-فلما رأوه عليا رضى الله عنه رد الله مكرهم-فقالوا:أين صاحبك هذا؟قال:لا أدرى فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل-اختلط عليهم فصعدوا فى الجبل-فرأوا على بابه نسج العنكبوت- فقالوا:لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه-فمكث ثلاث ليال.

و فى تفسير القمى،": كان سبب نزولها-أنه لما أظهر رسول الله ص الدعوه بمكه-قدمت عليه الأوس و الخزرج-فقال لهم رسول الله ص:تمنعونى و تكونون لى جارا-حتى أتلو كتاب الله عليكم و ثوابكم على الله الجنه؟فقالوا:نعم خذ لربك و لنفسك ما شئت-فقال لهم:موعدكم العقبه-فى الليله الوسطى من ليالى التشريق- فحجوا و رجعوا إلى منى-و كان فيهم ممن قد حج بشر كثير-.

فلما كان اليوم الثانى من أيام التشريق-قال لهم رسول الله ص:إذا كان الليل-فاحضروا دار عبد المطلب على العقبه،و لا تنبهوا نائما،و لينسل واحد فواحد- فجاء سبعون رجلا من الأوس و الخزرج-فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ص:

تمنعونى و تجيرونى حتى أتلو عليكم كتاب ربى-و ثوابكم على الله الجنه-.

فقال أسعد بن زراره و البراء بن معرور-و عبد الله بن حرام نعم يا رسول الله- اشترط لربك و نفسك ما شئت.فقال:أما ما أشترط لربى-فأن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا،و ما أشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون أنفسكم-و تمنعون أهلى مما تمنعون أهليكم و أولادكم.فقالوا فما لنا على ذلك؟فقال:الجنه فى الآخره،و تملكون العرب،و يدين لكم العجم فى الدنيا،و تكونون ملوكا فى الجنه فقالوا:قد رضينا-.

فقال:أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا-يكونون شهداء عليكم بذلك-كما أخذ موسى من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا-فأشار إليهم جبرائيل فقال:هذا نقيب-

و هذا نقيب تسعه من الخزرج و ثلاثه من الأوس:فمن الخزرج أسعد بن زراره و البراء بن معرور-و عبد الله بن حرام أبو جابر بن عبد الله-و رافع بن مالك و سعد بن عباده و المنذر بن عمر-و عبد الله بن رواحه و سعد بن ربيع-و عباده بن صامت و من الأوس أبو الهيثم بن التيهان و هو من اليمن-و أسيد بن حصين و سعد بن خيثمه.

فلما اجتمعوا و بايعوا لرسول الله ص صاح إبليس:يا معشر قريش و العرب- هذا محمد و الصباه من أهل يثرب-على جمره العقبه يبايعونه على حربكم-فأسمع أهل منى،و هاجت قريش فأقبلوا بالسلاح،و سمع رسول الله ص النداء فقال للأنصار:

تفرقوا فقالوا:يا رسول الله-إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا.فقال رسول الله ص:لم أومر بذلك-و لم يأذن الله لى فى محاربتهم.قالوا:فتخرج معنا؟قال:

أنتظر أمر الله-.

فجاءت قريش على بكره أبيها قد أخذوا السلاح-و خرج حمزه و أمير المؤمنين (ع)بالسلاح-و معهما السيوف فوقفا على العقبه-فلما نظرت قريش إليهما-قالوا:ما هذا الذى اجتمعتم له؟فقال حمزه:ما اجتمعنا و ما هاهنا أحد-و الله لا يجوز هذه العقبه أحد إلا ضربته بسيفى-.

فرجعوا إلى مكه و قالوا:لا نأمن أن يفسد أمرنا-و يدخل واحد من مشائخ قريش فى دين محمد-فاجتمعوا فى دار الندوه،و كان لا يدخل دار الندوه إلا من أتى عليه أربعون سنه-فدخلوا أربعين رجلا من مشائخ قريش،و جاء إبليس فى صوره شيخ كبير-فقال له البواب،من أنت؟فقال:أنا شيخ من أهل نجد-لا يعدمكم منى رأى صائب-إنى حيث بلغنى اجتماعكم فى أمر هذا الرجل-جئت لأشير عليكم-فقال:

ادخل فدخل إبليس-.

فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل:يا معشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعز منا-نحن أهل الله-تفد إلينا العرب فى السنه مرتين و يكرموننا،و نحن فى حرم الله لا يطمع فينا طامع-فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله-فكنا نسميه الأمين لصلاحه و سكونه و صدق لهجته-حتى إذا بلغ ما بلغ و أكرمناه ادعى أنه رسول الله-و أن أخبار السماء تأتيه فسفه أحلامنا،و سب آلهتنا،و أفسد شباننا،و فرق جماعتنا،و زعم أنه من مات من أسلافنا ففى النار،و لم يرد علينا شىء أعظم من

هـذا،و قـد رأيت فيه رأيا.قـالوا:و مـا رأيت؟قـال:رأيت أن نـدس إليه رجلاـ منا ليقتله-فإن طلبت بنو هاشم بـديته أعطيناهم عشـر ديات-.

فقـال الخبيث:هـذا رأى خبيث-قـالوا:و كيف ذلـك؟قـال:لأـن قاتـل محمـد مقتول لاـ محـاله-فمن هـذا الـذى يبـذل نفسه للقتل منكم؟فإنه إذا قتل محمدا تعصبت بنو هاشم و حلفاؤهم من خزاعه،و إن بنى هاشم لا ترضى أن يمشى قاتل محمد على الأرض-فتقع بينكم الحروب فى حرمكم و تتفانون-.

فقال آخر منهم:فعنـدى رأى آخر.قال:و ما هو؟قال:نثبته فى بيت و نلقى عليه قوته-حتى يأتى عليه ريب المنون فيموت-كما مات زهير و النابغه و إمرؤ القيس.فقال إبليس:هـذا أخبث من الآخر.قالوا:و كيف ذاك؟قال:لأن بنى هاشم لا ترضـى بذلـك-فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم-فاجتمعوا عليكم فأخرجوه-.

قال آخر منهم:لا و لكنا نخرجه من بلادنا-و نتفرغ لعباده آلهتنا.قال إبليس:

هذا أخبث من ذينك الرأيين المتقدمين،قالوا:و كيف؟قال:لأنكم تعمدون إلى أصبح الناس وجها،و أتقن الناس لسانا و أفصحهم لهجه-فتحملوه إلى بوادى العرب فيخدعهم و يسحرهم بلسانه-فلا يفجئوكم إلا و قد ملأها خيلا و رجلا.فبقوا حائرين-.

ثم قالوا لإبليس:فما الرأى يا شيخ؟قال:ما فيه إلا رأى واحد.قالوا:

و مـا هو؟قـال: يجتمع من كـل بطن من بطون قريش-فيكون معهم من بنى هـاشم رجـل- فيأخـذون سـكينا أو حديـده أو سـيفا- فيدخلون عليه فيضـربونه كلهم ضربه واحده- حتى يتفرق دمه فى قريش كلها-فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه-فقد شاركوه فيه- فإن سألوكم أن تعطوكم الديه فأعطوهم ثلاث ديات.قالوا:نعم و عشـر ديات.قالوا:الرأى رأى الشـيخ النجدى فاجتمعوا فيه،و دخل معهم فى ذلك أبو لهب عم النبى ص-.

فنزل جبرئيـل على رسول الله ص فـأخبره-أن قريشـا قـد اجتمعت فى دار النـدوه يـدبرون عليـك-فـأنزل الله عليه فى ذلك:« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ-أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ »-.

و اجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلا فيقتلوه،و خرجوا إلى المسجد يصفرون و يصفقون-و يطوفون بالبيت فأنزل الله:« وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً -

فالمکاء التصفیر و التصدیه صفق الیدین-و هذه الآیه معطوفه علی قوله:« وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا -قد کتبت بعد آیات کثیره-.

فلما أمسی رسول الله ص جاءت قریش لیدخلوا علیه-فقال أبو لهب:لا أدعکم أن تدخلوا علیه باللیل-فإن فی الدار صبیانا و نساء-و لا نأمن أن یقع بهم ید خاطئه فنحرسه اللیله-فإذا أصبحنا دخلنا علیه-فناموا حول حجره رسول الله ص-.

و أمر رسول الله ص أن یفرش له فرش-فقال لعلی بن أبی طالب(ع):

أفدنی بنفسک-قال:نعم یا رسول الله-قال:نم علی فراشی و التحف ببردتی-فنام علی (ع)علی فراش رسول الله ص و التحف ببردته-.

و جاء جبرئیل فأخذ بید رسول الله ص-فأخرجه علی قریش و هم نیام و هو یقرأ علیهم:« وَ جَعَلْنا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا-فَأَغْشَیْناهُمْ فَهُمْ لا یُبْصِرُونَ » و قال له جبرئیل:خذ علی طریق ثور-و هو جبل علی طریق منی له سنام کسنام الثور-فدخل الغار و کان من أمره ما کان-.

فلما أصبحت قریش و أتوا إلی الحجره-و قصدوا الفراش فوثب علی(ع)فی وجوههم- فقال:ما شأنکم؟قالوا:أین محمد؟قال:أ جعلتمونی علیه رقیبا؟أ لستم قلتم نخرجه من بلادنا؟فقد خرج عنکم فأقبلوا علی أبی لهب یضربونه-و یقولون:أنت تخدعنا منذ اللیل-.

فتفرقوا فی الجبال،و کان فیهم رجل من خزاعه یقال له:أبو کرز یقفو الآثار- فقالوا:یا أبا کرز الیوم الیوم-فوقف بهم علی باب حجره رسول الله ص و قال لهم:

هذه قدم محمد و الله إنها لأخت القدم التی فی المقام،و کان أبو بکر بن أبی قحافه استقبل رسول الله ص فرده معه-فقال أبو کرز:و هذه قدم ابن أبی قحافه أو أبیه-ثم قال:و هاهنا غیر ابن أبی قحافه،و لا یزال یقف بهم حتی أوقفهم علی باب الغار-.

ثم قال:ما جاوزوا هذا المکان-إما أن یکونوا صعدوا إلی السماء أو دخلوا تحت الأرض،و بعث الله العنکبوت فنسجت علی باب الغار،و جاء فارس من الملائکه ثم قال:ما فی الغار أحد-فتفرقوا فی الشعاب،و صرفهم الله عن رسوله ص-ثم أذن لنبیه(ص)فی الهجره.

أقول:و روی ما یقرب من هذا المعنی ملخصا فی الدر المنثور عن ابن إسحاق و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبی نعیم و البیهقی معا فی الدلائل عن ابن

عباس لكن نسب فيه إلى أبى جهل ما نسب فى هذه الروايه إلى الشيخ النجدى ثم ذكر أن الشيخ النجدى صدق أبا جهل فى رأيه و اجتمع القوم على قوله.

و قد روى دخول إبليس عليهم فى دار الندوه فى زى شيخ نجدى فى عده روايات من طرق الشيعه و أهل السنه.

و أما ما فى الروايه من قول أبى كرز لما اقتفى أثر رسول الله ص:«هذه قدم محمد،و هذه قدم ابن أبى قحافه،و هاهنا غير ابن أبى قحافه»فقد ورد فى الروايات أن ثالثهما هند بن أبى هاله ربيب رسول الله ص و أمه خديجه بنت خويلد رضى الله عنها.

و قد روى الشيخ فى أماليه،بإسناده عن أبى عبيده بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه و عبد الله بن أبى رافع جميعا عن عمار بن ياسر و أبى رافع و عن سنان بن أبى سنان عن ابن هند بن أبى هاله،و قد دخل حديث عمار و أبى رافع و هند بعضه فى بعض، و هو حديث طويل فى هجره النبى ص و فيه": و استتبع رسول الله ص أبا بكر بن أبى قحافه-و هند بن أبى هاله فأمرهما أن يقعدا له-بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار،و ثبت رسول الله ص بمكانه مع على-يأمره فى ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين- ثم خرج رسول الله ص فى فحمه العشاء-و الرصد من قريش قد أطافوا بداره- ينتظرون أن ينتصف الليل و تنام الأعين-.

فخرج و هو يقرأ هذه الآيه« وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا-فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ »و كان بيده قبضه من تراب فرمى بها فى رءوسهم-فما شعر القوم به حتى تجاوزهم-و مضى حتى أتى إلى هند و أبى بكر-فنهضا معه حتى وصلوا إلى الغار.

ثم رجع هند إلى مكه بما أمره به رسول الله ص،و دخل رسول الله و أبو بكر الغار-.

قال بعد سوق القصه الليله:حتى إذا اعتم من الليله القابله انطلق هو-يعنى عليا(ع)-و هند بن أبى هاله حتى دخلا على رسول الله ص فى الغار-فأمر رسول الله ص هندا أن يبتاع له و لصاحبه بعيرين-فقال أبو بكر قد كنت أعددت لى و لك يا نبى الله راحلتين-نرتحلهما إلى يثرب فقال:إنى لا آخذهما و لا أحدهما إلا بالثمن-قال:فهى لك بذلك فأمر رسول الله ص عليا(ع)-فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ ذمته و أداء أمانته-.

ص :٨١

و كانت قريش قد سموا محمدا فى الجاهليه:الأمين،و كانت تودعه و تستحفظه أموالها و أمتعتها،و كذلك من يقدم مكه من العرب فى الموسم،و جاءت النبوه و الرساله و الأمر كذلك-فأمر عليا(ع)أن يقيم صارخا بالأبطح غدوه و عشيا:من كان له قبل محمد أمانه أو دين فليأت فلنؤد إليه أمانته-.

قال:فقال رسول الله ص:إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا على بأمر تكرهه- حتى تقدم على فأد أمانتى على أعين الناس ظاهرا-ثم إنى مستخلفك على فاطمه ابنتى- و مستخلف ربى عليكما و مستحفظه فيكما-فأمر أن يبتاع رواحل له و للفواطم (1)و من أزمع الهجره معه من بنى هشام-.

قال أبو عبيده:فقلت لعبيد الله يعنى ابن أبى رافع:أ و كان رسول الله ص يجد ما ينفقه هكذا؟فقال:إنى سألت أبى عما سألتنى-و كان يحدث لى هذا الحديث.

فقال:و أين يذهب بك عن مال خديجه(ع)-.

قال عبيد الله بن أبى رافع:و قد قال على بن أبى طالب(ع)يذكر مبيته على الفراش-و مقام رسول الله ص فى الغار ثلاثا نظما:

وقيت بنفسى خير من وطء الحصى

و من طاف بالبيت العتيق و بالحجر

محمد لما خاف أن يمكروا به

فوقاه ربى ذو الجلال من المكر

و بت أراعيهم متى ينشروننى

و قد وطنت نفسى على القتل و الأسر

و بات رسول الله فى الغار آمنا

هناك و فى حفظ الإله و فى ستر

أقام ثلاثا ثم زمت قلائص

قلائص يفرين الحصى أينما تفرى

و قد روى الأبيات عنه(ع)بتفاوت يسير فى الدر المنثور عن الحاكم عن على بن الحسين(ع).

و فى تفسير العياشى،عن زراره و حمران عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع):

قوله:« خَيْرُ الْمٰاكِرِينَ »قال:إن رسول الله ص قد كان لقى من قومه بلاء شديدا- حتى أتوه ذات يوم و هو ساجد-حتى طرحوا عليه رحم شاه-فأتته ابنته و هو ساجد لم يرفع رأسه فرفعته عنه و مسحته-ثم أراه الله بعد ذلك الذى يحب.أنه كان ببدر

١- ١) و هن على ما فى ذيل الراويه:فاطمه بنت النبى عليها السلام فاطمه بنت أسد،و فاطمه بنت الزبير.

و ليس معه غير فارس واحد-ثم كان معه يوم الفتح اثنا عشر ألفا-حتى جعل أبو سفيان و المشركون يستغيثون الحديث.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى رضى الله عنه قال": كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيره-فيسمع سجع أهلها و كلامهم-فلما قدم إلى مكه سمع كلام النبى(ص)و القرآن-فقال:قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا-إن هذا إلا أساطير الأولين.

أقول:و هناك بعض روايات أخر فى أن القائل بهذا القول كان هو النضر بن الحارث و قد قتل يوم بدر صبرا.

و فيه،أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك رض قال": قال أبو جهل بن هشام:اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك-فأمطر علينا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»فنزلت:

« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ-وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ».

أقول:و روى القمى هذا المعنى فى تفسيره،و روى السيوطى أيضا فى الدر المنثور،عن ابن جرير الطبرى و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير و عن ابن جرير عن عطاء": أن القائل:« اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ »الآيه-النضر بن الحارث و قد تقدم فى البيان السابق ما يقتضيه سياق الآيه.

و فيه،أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان و محمد بن قيس قالا": قالت قريش بعضها لبعض:محمد أكرمه الله من بيننا؟ اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ-فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً مِنَ السَّمٰاءِ الآيه-فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا:غفرانك اللهم- فأنزل الله:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ -إلى قوله- لاٰ يَعْلَمُونَ .

و فيه،أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن أبزى(رض)قال":

كان رسول الله(ص)بمكه فأنزل الله:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ »فخرج رسول الله(ص)إلى المدينه فأنزل الله:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »فلما خرجوا أنزل الله:« وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ يُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ »الآيه-فأذن فى فتح مكه فهو العذاب الذى وعدهم.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

عن عطیه(رض)": فی قوله:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ »یعنی المشرکین حتی یخرجک منهم« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »قال:یعنی المؤمنین.ثم أعاد المشرکین فقال:« وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ یُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ-وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ ».

و فیه،أخرج ابن أبی حاتم عن السدی(رض)": فی قوله:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »یقول: لو استغفروا و أقروا بالذنوب لکانوا مؤمنین،و فی قوله:

« وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ یُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ-وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ »یقول: و کیف لا أعذبهم و هم لا یستغفرون.

و فیه،أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و أبو الشیخ عن مجاهد(رض) "فی قوله:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ »قال:بین أظهرهم« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »قال:یسلمون.

و فیه،أخرج عبد بن حمید و ابن جریر عن أبی مالک(رض)": « وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ »یعنی أهل مکه« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ »و فیهم المؤمنون یستغفرون.

و فیه،أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن عکرمه و الحسن رضی عنهما": فی قوله:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »قالا:نسختها الآیه التی تلیها:

« وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ یُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ »فقوتلوا بمکه فأصابهم فیها الجوع و الحصر.

أقول:عدم انطباقها علی الآیه بظاهرها المؤید بسیاقها ظاهر،و إنما دعاهم إلی هذه التکلفات الاحتفاظ باتصال الآیه فی التألیف بما قبلها و ما قبلها من الآیات المتعرضه لحال مشرکی أهل مکه،و من عجیب ما فیها تفسیر العذاب فی الآیه بفتح مکه،و لم یکن إلا رحمه للمشرکین و المؤمنین جمیعا.

و فیه،أخرج الترمذی عن أبی موسی الأشعری(رض)قال:قال رسول الله ص: أنزل الله علی أمانین لأمتی« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ-وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »فإذا مضیت ترکت فیهم الاستغفار إلی یوم القیامه.

أقول:مضمون الروایه مستفاد من الآیه،و قد روی ما فی معناها عن أبی هریره و ابن عباس عنه(ص)و رواها فی نهج البلاغه عن علی(ع).

و فی ذیل هذه الروایه شیء؛و هو أنه لا یلائم ما مر فی البیان المتقدم من إیعاد

القرآن هذه الأمه بعذاب واقع قبل يوم القيامه،و لازمه أن يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامه.

و فيه،أخرج أحمد عن فضاله بن عبيد رضى الله عنه عن النبى ص قال: العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله.

و فى الكافى،عن على بن إبراهيم عن أبيه عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبى جعفر (ع)قال:قال رسول الله ص: مقامى بين أظهركم خير لكم-فإن الله يقول. وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ ،و مفارقتى إياكم خير لكم.فقالوا:يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا-فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟فقال:أما مفارقتى لكم خير لكم-فإن أعمالكم تعرض على كل خميس و اثنين-فما كان من حسنه حمدت الله عليها، و ما كان من سيئه أستغفر الله لكم.

أقول:و روى هذا المعنى العياشى فى تفسيره و الشيخ فى أماليه،عن حنان بن سدير عن أبيه عنه(ع)،و فى روايتهما أن السائل هو جابر بن عبد الله الأنصارى ع،و رواه أيضا فى الكافى،بإسناده عن محمد بن أبى حمزه و غير واحد عن أبى عبد الله(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير(رض) قال": كانت قريش تعارض النبى ص فى الطواف-يستهزءون و يصفرون و يصفقون فنزلت:« وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّٰ مُكٰاءً وَ تَصْدِيَةً ».

و فيه،أخرج أبو الشيخ عن نبيط و كان من الصحابه(رض)": فى قوله:« وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ »الآيه-قال:كانوا يطوفون بالبيت الحرام و هم يصفرون.

و فيه،أخرج الطستى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن نافع بن الأزرق قال له:

أخبرنى عن قوله عز و جل:« إِلاّٰ مُكٰاءً وَ تَصْدِيَةً »قال:المكاء صوت القنبره-و التصديه صوت العصافير و هو التصفيق،و ذلك أن رسول الله ص كان إذا قام إلى الصلاه و هو بمكه-كان يصلى قائما بين الحجر و الركن اليمانى-فيجىء رجلان من بنى سهم-يقوم أحدهما عن يمينه و الآخر عن شماله،و يصيح أحدهما كما يصيح المكاء،و الآخر يصفق بيده تصديه العصافير ليفسد عليه صلاته.

و فى تفسير العياشى،عن إبراهيم بن عمر اليمانى عمن ذكره عن أبى عبد الله(ع):

فی قول الله:« وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ »یعنی أولیاء البیت یعنی المشرکین« إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ »حیث ما کانوا هم أولی به من المشرکین- «وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّٰ مُكٰاءً وَ تَصْدِيَةً »قال:التصفیر و التصفیق.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البیهقی فی الدلائل کلهم من طریقه (۱)قال:حدثنی الزهری و محمد بن یحیی بن حیان و عاصم بن عمر بن قتاده و الحصین بن عبد الرحمن بن عمر قال": لما أصیبت قریش یوم بدر و رجع فلهم إلی مکه-و رجع أبو سفیان بعیره مشی عبد الله بن ربیعه-و عکرمه بن أبی جهل و صفوان بن أمیه فی رجال من قریش-إلی من کان معه تجاره فقالوا:یا معشر قریش-إن محمدا قد وترکم و قتل خیارکم-فأعینونا بهذا المال علی حربه-فلعلنا أن ندرک منه ثارا ففعلوا-ففیهم کما ذکر عن ابن عباس أنزل الله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ -إلی قوله- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

و فیه،أخرج ابن مردویه عن ابن عباس رضی الله عنهما": فی قوله:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ -لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ »قال نزلت فی أبی سفیان بن حرب.

و فیه،أخرج ابن سعد و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن عساکر عن سعید بن جبیر": فی قوله:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ -لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ »الآیه-قال:نزلت فی أبی سفیان بن حرب-استأجر یوم أحد ألفین من الأحابیش من بنی کنانه-یقاتل بهم رسول الله ص سوی من استجاش من العرب-فأنزل الله فیه هذه الآیه-.

و هم الذین قال فیهم کعب بن مالک رضی الله عنه:

و جئنا إلی موج من البحر وسطه

أحابیش منهم حاسر و مقنع

ثلاثه آلاف و نحن نصیه

ثلاث مئین إن کثرن فأربع

أقول:و رواه ملخصا عن ابن إسحاق و ابن أبی حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبیر.

۱- ۱) یعنی طریق محمد بن إسحاق.

و فی المجمع،:فی قوله تعالی:« وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰی لاٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ-وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلّٰهِ » الآیه،:قال:روی زراره و غیره عن أبی عبد الله(ع)أنه قال: لم یجیء تأویل هذه الآیه-و لو قام قائمنا بعد سیری من یدرکه-ما یکون من تأویل هذه الآیه-و لیبلغن دین محمد ص ما بلغ اللیل-حتی لا یکون مشرک علی ظهر الأرض:

أقول: و رواه العیاشی فی تفسیره عن زراره عنه(ع)،و فی معناه ما فی الکافی،بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع)،و روی هذا المعنی أیضا العیاشی عن عبد الأعلی الحلبی عن أبی جعفر(ع)فی روایه طویله .

و قد تقدم حدیث إبراهیم اللیثی فی تفسیر قوله:« لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ » الآیه مع بعض ما یتعلق به من الکلام فی ذیل قوله:« کَمٰا بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ:» الأعراف:-۲۹ فی الجزء الثامن من الکتاب.

[سوره الأنفال (۸): الآیات ۴۱ الی ۵۴]

اشاره

وَ اِعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی اَلْقُرْبیٰ وَ اَلْیَتٰامیٰ وَ اَلْمَسٰاکِینِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِیلِ إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ عَبْدِنٰا یَوْمَ اَلْفُرْقٰانِ یَوْمَ اِلْتَقَی اَلْجَمْعٰانِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴۱) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَهِ اَلدُّنْیٰا وَ هُمْ بِالْعُدْوَهِ اَلْقُصْویٰ وَ اَلرَّکْبُ أَسْفَلَ مِنْکُمْ وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِی اَلْمِیعٰادِ وَ لٰکِنْ لِیَقْضِیَ اَللّٰهُ أَمْراً کٰانَ مَفْعُولاً لِیَهْلِکَ مَنْ هَلَکَ عَنْ بَیِّنَهٍ وَ یَحْییٰ مَنْ حَیَّ عَنْ بَیِّنَهٍ وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَسَمِیعٌ عَلِیمٌ (۴۲) إِذْ یُرِیکَهُمُ اَللّٰهُ فِی مَنٰامِکَ قَلِیلاً وَ لَوْ أَرٰاکَهُمْ کَثِیراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنٰازَعْتُمْ فِی اَلْأَمْرِ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ یُرِیکُمُوهُمْ إِذِ اِلْتَقَیْتُمْ فِی أَعْیُنِکُمْ قَلِیلاً وَ یُقَلِّلُکُمْ فِی أَعْیُنِهِمْ لِیَقْضِیَ اَللّٰهُ أَمْراً کٰانَ مَفْعُولاً وَ إِلَی اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۴۴) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا لَقِیتُمْ فِئَهً فَاثْبُتُوا وَ اُذْکُرُوا اَللّٰهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِیحُکُمْ وَ اِصْبِرُوا إِنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلصّٰابِرِینَ (۴۶) وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ اَلنّٰاسِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ (۴۷) وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ اَلشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَکُمُ اَلْیَوْمَ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ إِنِّی جٰارٌ لَکُمْ فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ اَلْفِئَتٰانِ نَکَصَ عَلیٰ عَقِبَیْهِ وَ قٰالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ إِنِّی أَریٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ إِنِّی أَخٰافُ اَللّٰهَ وَ اَللّٰهُ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (۴۸) إِذْ یَقُولُ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِینُهُمْ وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اَللّٰهِ فَإِنَّ اَللّٰهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۴۹) وَ لَوْ تَریٰ إِذْ یَتَوَفَّی اَلَّذِینَ کَفَرُوا اَلْمَلاٰئِکَهُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِیقِ (۵۰) ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لَیْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ (۵۱) کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَفَرُوا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ قَوِیٌّ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (۵۲) ذٰلِکَ بِأَنَّ اَللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۵۳) کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَکْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ وَ کُلٌّ کٰانُوا ظٰالِمِینَ (۵۴)

(بيان)

تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم و بالثبات عند اللقاء و تذكرهم، و تقص عليهم بعض ما نكب الله به أعداء الدين و أخزاهم بالمكر الإلهی،و أجری فيهم سنه آل فرعون و من قبلهم من المكذبين لآيات الله الصادين عن سبيله.

قوله تعالی:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ »إلی آخر الآيه. الغنم و الغنيمه إصابه الفائده من جهه تجاره أو عمل أو حرب و ينطبق بحسب مورد نزول الآيه علی غنيمه الحرب،قال الراغب: الغنم -بفتحتين-معروف قال:

و من البقر و الغنم ما حرمنا عليهم شحومهما،و الغنم -بالضم فالسكون-إصابته و الظفر به ثم استعمل فی كل مظفور به من جهه العدی و غيرهم قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً .و المغنم ما يغنم و جمعه مغانم قال: فعند الله مغانم كثيره،انتهی.

و ذو القربی القريب و المراد به قرابه النبی ص أو خصوص أشخاص منهم علی ما يفسره الآثار القطعيه،و اليتيم هو الإنسان الذی مات أبوه و هو صغير،قالوا:

كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا الإنسان فإن يتمه من قبل أبيه.

و قوله:« فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ »إلخ قرئ بفتح أن،و يمكن أن يكون بتقدير حرف الجر و التقدير:و اعلموا أن ما غنمتم من شیء فعلی أن لله خمسه أی هو واقع علی هذا الأساس محكوم به،و يمكن أن يكون بالعطف علی أن الأولی،و حذف خبر الأولی لدلاله الكلام عليه،و التقدير:اعلموا أن ما غنمتم من شیء يجب قسمته فاعلموا أن خمسه لله،أو يكون الفاء لاستشمام معنی الشرط فإن مآل المعنی إلی نحو قولنا:

إن غنمتم شيئا فخمسه لله إلخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء،و كرر أن للتأكيد، و الأصل:اعلموا أن ما غنمتم من شیء أن خمسه لله إلخ،و الأصل الذی تعلق به العلم هو:ما غنمتم من شیء خمسه لله و للرسول إلخ،و قد قدم لفظ الجلاله للتعظيم.

و قوله:« إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ »إلخ قيد للأمر الذی يدل عليه صدر الآيه أی أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا علی عبدنا،و ربما قيل:إنه متصل بقوله

تعالى فى الآيه السابقه:« فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاٰكُمْ »هذا و السياق الذى يتم بحيلوله قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ »إلخ لا يلائم ذلك.

و قوله تعالى:« وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ الْفُرْقٰانِ »الظاهر أن المراد به القرآن بقرينه تخصيص النبى ص بالإنزال،و لو كان المراد به الملائكه المنزلون يوم بدر -كما قيل-لكان الأنسب أولا:أن يقال:و من أنزلنا على عبدنا،أو ما يؤدى هذا المعنى و ثانيا:أن يقال:عليكم لا على عبدنا فإن الملائكه كما أنزلت لنصره النبى ص أنزلت لنصره المؤمنين معه كما يدل عليه قوله:« فَاسْتَجٰابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَةِ مُرْدِفِينَ:» الأنفال:-٩.و قوله بعد ذلك:« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاٰئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا» XالخX:الأنفال:-١٢.و نظيرهما قوله:« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاٰثَةِ آلاٰفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذٰا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاٰفٍ مِنَ الْمَلاٰئِكَةِ مُسَوِّمِينَ:» آل عمران:-١٢٥.

و فى الالتفات من الغيبه إلى التكلم فى قوله:« إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا »من بسط اللطف على رسول الله ص و اصطفائه بالقرب ما لا يخفى.

و يظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث فى قوله تعالى فى أول السوره:« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفٰالِ قُلِ الْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ »الآيه أن المراد بقوله:« وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ الْفُرْقٰانِ »هو قوله تبارك و تعالى:« فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً »بما يحتف به من الآيات.

و المراد بقوله:« يَوْمَ الْفُرْقٰانِ »يوم بدر كما يشهد به قوله بعده:« يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ » فإن يوم بدر هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق و الباطل فأحق الحق بنصرته، و أبطل الباطل بخذلانه.

و قوله تعالى:« وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »بمنزله التعليل لقوله:« يَوْمَ الْفُرْقٰانِ » بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق و الباطل كأنه قيل:و الله على كل شىء قدير فهو قادر أن يفرق بين الحق و الباطل بما فرق.

فمعنى الآيه-و الله أعلم-و اعلموا أن خمس ما غنمتم أى شىء كان هو لله و لرسوله و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزله على عبده محمد ص يوم بدر،و هو أن الأنفال و غنائم الحرب لله و لرسوله لا يشارك

الله و رسوله فيها أحد،و قد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها و أباح لكم التصرف فيها فالذى أباح لكم التصرف فيها يأمركم أن تئودوا خمسها إلى أهله.

و ظاهر الآيه أنها مشتمله على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنيه، و أن الحكم متعلق بما يسمى غنما و غنيمه سواء كان غنيمه حربيه مأخوذه من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمه لغه كأرباح المكاسب و الغوص و الملاحه و المستخرج من الكنوز و المعادن،و إن كان مورد نزول الآيه هو غنيمه الحرب فليس للمورد أن يخصص.

و كذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله:« لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ »انحصار الموارد فى هؤلاء الأصناف،و أن لكل منهم سهما بمعنى استقلاله فى أخذ السهم كما يستفاد مثله من آيه الزكاه من غير أن يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر إلى المتبادر من ظاهر معنى الآيه،و عليه وردت الأخبار من طرق الشيعه عن أئمه أهل البيت(ع)و قد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنه فى تفسير الآيه و سنتعرض لها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:« إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيٰا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوىٰ وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعٰادِ وَ لٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً » العدوه بالضم و قد يكسر شفير الوادى،و الدنيا مؤنث أدنى كما أن القصوى و قد يقال:القصيا مؤنث أقصى و الركب كما قيل هو العير الذى كان عليه أبو سفيان بن حرب.

و الظرف فى قوله:« إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ »بيان ثان لقوله فى الآيه السابقه:« يَوْمَ الْفُرْقٰانِ كما أن قوله:« يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ »بيان أول له متعلق بقوله:« أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا »و أما ما يظهر من بعضهم أنه بيان لقوله:« وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »بما يفيده بحسب المورد،و المعنى:و الله قدير على نصركم و أنتم أذله إذ أنتم نزول بشفير الوادى الأقرب،فلا يخفى بعده و وجه التكلف فيه.

و قوله تعالى:« وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعٰادِ »سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفه عن تلاقى الجيشين،و كون الركب أسفل منهم،و أن الله بقدرته التى قهرت كل شىء فرق بين الحق و الباطل،و أيد الحق على الباطل،و كذا قوله بعد:« وَ لٰكِنْ

لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً

»كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله:« وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعٰادِ »بيان أن التلاقى على هذا الوجه لم يكن إلا بمشيه خاصه من الله سبحانه حيث نزل المشركون و هم ذوو عده و شده بالعدوه القصوى و فيها الماء و الأرض الصلبه،و المؤمنون على قله عددهم و هوان أمرهم بالعدوه الدنيا و لا ماء فيها و الأرض رمليه لا تثبت تحت أقدامهم،و تخلص العير منهم إذ ضرب أبو سفيان فى الساحل أسفل،و تلاقى الفريقان لا حاجز بينهما و لا مناص عندئذ عن الحرب،فالتلاقى و المواجهه على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين،لم يكن عن أسباب عاديه بل لمشيه خاصه إلهيه ظهرت بها قدرته و بانت بها عنايته الخاصه و نصره و تأييده للمؤمنين.

فقوله:« وَ لَوْ تَوٰاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعٰادِ »بيان أن هذا التلاقى لم يكن عن سابق قصد و عزيمه،و لا رويه أو مشوره،و لهذا المعنى عقبه بقوله:« وَ لٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً »بما فيه من الاستدراك.

و قوله «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »لتعليل ما قضى به من الأمر المفعول أى إن الله إنما قضى هذا الذى جرى بينكم من التلاقى و المواجهه ثم تأييد المؤمنين و خذلان المشركين ليكون ذلك بينه ظاهره على حقيه الحق و بطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينه و يحيى من حى عن بينه.

و بذلك يظهر أن المراد بالهلاكه و الحياه هو الهدى و الضلال لأن ذلك هو الذى يرتبط به وجود الآيه البينه ظاهرا.

و كذا قوله:« وَ إِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ »عطف على قوله:« لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ »إلخ،أى و إن الله إنما قضى ما قضى و فعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما فى صدوركم،و فيه إشاره إلى ما ذكره فى صدر الآيات:« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجٰابَ لَكُمْ »إلى آخر الآيات.

و على هذا السياق-أى لبيان أن مرجع الأمر فى هذه الواقعه هو القضاء الخاص الإلهى دون الأسباب العاديه-سيق قوله تعالى بعد:« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنٰامِكَ قَلِيلاً »إلخ،و قوله:« وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ »إلخ،و قوله:« إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ »إلخ.

و معنى الآيه يوم الفرقان هو الوقت الـذى أنتم نزول بالعـدوه الـدنيا و هم نزول بالعدوه القصوى،و قد توافق نزولكم بها و نزولهم بهـا بحيث لو تواعـدتم بينكم أن تلتقوا بهـذا الميعاد لاختلفتم فيه و لم تتلاقوا على هـذه الوتيره فلم يكن ذلك منكم و لا منهم و لكن ذلـك كان أمرا مفعولا و الله قاضـيه و حاكمه،و إنما قضـى ما قضـى ليظهر آيه بينه فتتم بـذلك الحجه،و لأنه قـد اسـتجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم و علم به من حاجه قلوبكم.

قوله تعالى:« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِى مَنامِكَ قَلِيلًا »إلى آخر الآيه، الفشل هو الضـعف مع الفزع،و التنازع هو الاختلاف و هو من النزع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه،و التسليم هو النتيجه.

و الكلام على تقدير اذكر أى اذكر وقتا يريكهم الله فى منامك قليلا،و إنما أراكهم قليلا ليربط بذلك قلوبكم و تطمئن نفوسكم و لو أراكهم كثيرا ثم ذكرتها للمؤمنين أفزعكم الضـعف و اختلفتم فى أمر الخروج إليهم و لكنه تعالى نجاكم بإراءتهم قليلا عن الفشل و التنازع إنه عليم بذات الصدور و هى القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب فى اطمئنانها و ارتباطها و قوتها.

و الآيه تـدل على أن الله سـبحانه أرى نبيه ص رؤيا مبشـره رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين أنها لهم و قد أراهم قليلا لا يعبأ بشأنهم،و أن النبى ص ذكر ما رآه للمؤمنين و وعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم.و الدليل على ذلك قوله:« وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ »إلخ و هو ظاهر.

قوله تعالى:« وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ إلى آخر الآيه».معنى الآيه ظاهر،و لا تنافى بين هـذه الآـيه و قوله تعالى:« قَدْ كانَ لَكُمْ آيَهٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَهٌ تُقاتِلُ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ أُخْرى كافِرَهٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَ اللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ:» آل عمران:-١٣ بناء على أن الآيه تشير إلى وقعه بدر.

و ذلك أن التقليل الـذى يشـير إليه فى الآيه المبحوث عنها مقيـد بقوله:« إِذِ الْتَقَيْتُمْ »و بذلك يرتفع التنافى كأن الله سـبحانه أرى المؤمنين قليلا فى أعين المشركين فى بادئ الالتقاء ليستحقروا جمعهم و يشجعهم ذلك على القتال و النزال حتى إذا زحفوا

و اختلطوا،كثر المؤمنين فى أعينهم فرأوهم مثليهم رأى العين فأوهن بذلك عزمهم و أطار قلوبهم فكانت الهزيمه فآيه الأنفال تشير إلى أول الوقعه،و آيه آل عمران إلى ما بعد الزحف و الاختلاط و قوله:« لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً »متعلق بقوله:« يُرِيكُمُوهُمْ » و تعليل لمضمونه.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »إلى آخر الآيات الثلاث.قال الراغب فى المفردات: الثبات -بفتح الثاء-ضد الزوال انتهى فهو فى المورد ضد الفرار من العدو،و هو بحسب ما له من المعنى أعم من الصبر الذى يأمر به فى قوله:« وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ » فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف و لا يفزع و لا يجزع،و بالبدن بأن لا يتكاسل و لا يتساهل و لا يزول عن مكانه و لا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

و الريح على ما قيل،العز و الدوله،و قد ذكر الراغب أن الريح فى الآيه بمعنى الغلبه استعاره كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبت عليه و تقلعه و تذهب به،و الغلبه على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشىء كالتراب فاستعيرت لها.

و قال الراغب: البطر دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمه و قله القيام بحقها و صرفها إلى غير وجهها قال عز و جل:« بَطَراً وَ رِئاءَ النّاسِ »و قال:« بَطِرَتْ مَعِيشَتَها »و أصله:بطرت معيشته فصرف عنه الفعل و نصب،و يقارب البطر الطرب، و هو خفه أكثر ما يعترى من الفرح و قد يقال ذلك فى الترح،و البيطره معالجه الدابه.

انتهى.و الرئاء المراءاه.

و قوله:« فَاثْبُتُوا »أمر بمطلق الثبوت أمام العدو،و عدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانيا بالصبر كما تقدمت الإشاره إليه.

و قوله:« وَ اذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً »أى فى جنانكم و لسانكم فكل ذلك ذكر، و من المعلوم أن الأحوال القلبيه الباطنه من الإنسان هى التى تميز مقاصده و تشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره و هو يقول:يا غنى و المريض المستغيث به من مرضه و هو يقول:يا شافى و لو قال الفقير فى ذلك:يا الله أو قال المريض فيه ذلك لكان معناه:يا غنى و يا شافى لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثه

و الدعوه لا یریدان إلا ذلک کما هو ظاهر.

و الذی یخرج إلی قتال عدوه،ثم لقیه و استعد الظرف للقتال،و لیس فیه إلا زهاق النفوس،و سفک الدماء و نقص الأطراف و کل ما یهدد الإنسان بالفناء فی ما یحبه فإن حاله یحول فکرته و یصرف إرادته إلی الظفر بما یریده بالقتال،و الغلبه علی العدو الذی یهدده بالفناء،و الذی حاله هذا الحال و تفکیره هذا التفکیر إنما یذکر الله سبحانه بما یناسب حاله و تنصرف إلیه فکرته.

و هذا أقوی قرینه علی أن المراد بذکر الله کثیرا أن یذکر المؤمن ما علمه تعالی من المعارف المرتبطه بهذا الشأن و هو أنه تعالی إلهه و ربه الذی بیده الموت و الحیاه و هو علی نصره لقدیر،و أنه هو مولاه نعم المولی و نعم النصیر،و قد وعده النصر إذ قال: إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدٰامَکُمْ ،و إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ و إن مآل أمره فی قتاله إلی إحدی الحسنیین إما الظفر علی عدوه و رفع رایه الإسلام و إخلاص الجو لسعادته الدینیه،و إما القتل فی سبیل الله و الانتقال بالشهاده إلی رحمته،و الدخول فی حظیره کرامته،و مجاوره المقربین من أولیائه، و ما فی هذا الصف من المعارف الحقیقیه التی تدعو إلی السعاده الواقعیه و الکرامه السرمدیه.

و قد قید الذکر بالکثیر لتتجدد به روح التقوی کلما لاح للإنسان ما یصرف نفسه إلی حب الحیاه الفانیه و التمتع بزخارف الدنیا الغاره و الخطورات النفسانیه التی یلقیها الشیطان بتسویله.

و قوله:« وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ »ظاهر السیاق أن المراد بها إطاعه ما صدر من ناحیته تعالی و ناحیه رسوله من التکالیف و الدساتیر المتعلقه بالجهاد و الدفاع عن حومه الدین و بیضه الإسلام مما تشتمل علیه آیات الجهاد و السنه النبویه کالابتداء بإتمام الحجه و عدم التعرض للنساء و الذراری و الکف عن تبییت العدو و غیر ذلک من أحکام الجهاد.

و قوله:« وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِیحُکُمْ »أی و لا تختلفوا بالنزاع فیما بینکم حتی یورث ذلکم ضعف إرادتکم و ذهاب عزتکم و دولتکم أو غلبتکم فإن اختلاف الآراء یخل بالوحده و یوهن القوه.

و قوله:« وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰابِرِینَ »أی الزموا الصبر علی ما یصیبکم

من مكـاره القتـال ممـا يهـددكم به العـدو،و على الإكثار من ذكر الله،و على طاعه الله و رسوله من غير أن يهزهزكم الحوادث أو يزجركم ثقل الطاعه أو تغويكم لذه المعصيه أو يضلكم عجب النفس و خيلاؤها.

و قد أكد الأمر بالصبر بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰابِرِينَ »لأن الصبر أقوى عون على الشدائد و أشد ركن تجاه التلون فى العزم و سرعه التحول فى الإراده،و هو الـذى يخلى بين الإنسـان و بين التفكير الصـحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشه و الأفكار الموهنه لإرادته عند الأهوال و المصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين.

و قوله:« وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ النّٰاسِ »الآيه نهى عن اتخاذ طريقه هؤلاء البطرين المرائين الصادين عن سبيل الله،و هم على ما يفيـده سـياق الكلام فى الآيات،كفار قريش،و ما ذكره من أوصافهم أعنى البطر و رئاء الناس و الصـد عن سبيـل الله هو الـذى أوجب النهى عن التشبه بهم و اتخاذ طريقتهم بـدلاله السـياق،و قوله:« وَ اللّٰهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »ينبئ عن إحـاطته تعـالى بأعمـالهم و سـلطنته عليها و ملكه لها،و من المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخله فى قضائه متمشيه بإذنه و مشـيته و ما هـذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سـبحانه فالجمله كالكنايه عما يصـرح به بعـد عـده آيات بقوله:« وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ:» الأنفال:-۵۹.

و ظاهر أن أخـذ هذه القيود أعنى قوله:« بَطَراً وَ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ »يوجب تعلق النهى بها و التقدير:و لا تخرجوا من دياركم إلى قتل أعـداء الـدين بطرين و مرائين بالتجملات الـدنيويه،و صـد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم و أفعالكم إلى ترك تقوى الله و التوغل فى معاصيه و الانخلاع عن طاعه أوامره و دساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم و يطفئ نور الإيمان و يبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السـعى و الفوز بالمقاصد الهامه إلا سوى الصراط الذى يمهده الدين القويم و تسهله المله الفطريه و الله لا يهدى القوم الفاسقين إلى مقاصدهم الفاسده.

و قـد اشـتملت الآيـات الثلاث على أمور سته أوجب الله سـبحانه على المؤمنين رعايتها فى الحروب الإسـلاميه عنـد اللقاء و هى الثبات،و ذكر الله كثيرا،و طاعه الله و رسوله، و عدم التنازع،و أن لا يخرجوا بطرا و رئاء الناس و يصدون عن سبيل الله.

و مجموع الأمور السته دستور حربى جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربيه

شیئا،و التأمل الدقیق فی تفاصیل الوقائع فی تاریخ الحروب الإسلامیه الواقعه فی زمن النبی ص کبدر و أحد و الخندق و حنین و غیر ذلک یوضح أن الأمر فی الغلبه و الهزیمه کان یدور مدار رعایه المسلمین مواد هذا الدستور الإلهی و عدم رعایتها،و المراقبه لها و المساهله فیها.

قوله تعالی:« وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ »إلی آخر الآیه،تزیین الشیطان للإنسان عمله هو إلقاؤه فی قلبه کون العمل حسنا جمیلا یستلذ به و ذلک بتهییج قواه الباطنه و عواطفه الداخله المتعلقه بذلک العمل فینجذب إلیه قلبه، و لا یجد فراغا یعقل ما له من سوء الأثر و شؤم العاقبه.

و لیس من البعید أن یکون قوله:« وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ »الآیه مفسرا أو بمنزله المفسر للتزیین الشیطانی علی أن یکون المراد بالأعمال نتائجها و هی ما هیئوه من قوه و سلاح و عده و ما أخرجوه من القیان و المعازف و الخمور،و ما تظاهروا به من نظام الجیش و الجنائب تساق بین أیدیهم،و یمکن أن یکون المراد بها نفس الأعمال و هی أنواع تمادیهم فی الغی و الضلال و إصرارهم فی محاده الله و رسوله،و استرسالهم فی الظلم و الفسق فیکون قوله المحکی:« لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النّاسِ »مما یتم به تزیین الشیطان،و تطیب به نفوسهم فیما اهتموا به من قتال المسلمین،و قد أکمل ذلک بقوله:« وَ إِنِّی جارٌ لَکُمْ ».

و الجوار من سنن العرب فی الجاهلیه التی کانت تعیش عیشه القبائل،و من حقوق الجوار نصره الجار للجار إذا دهمه عدو،و له آثار مختلفه بحسب السنن الجاریه فی المجتمعات الإنسانیه.

و قوله:« فَلَمّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَکَصَ عَلی عَقِبَیْهِ » النکوص الإحجام عن الشیء و« عَلی عَقِبَیْهِ »حال و العقب مؤخر القدم أی أحجم و قد رجع القهقری منهزما وراءه.

و قوله:« إِنِّی أَری ما لا تَرَوْنَ »الآیه تعلیل لقوله:« إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ »و لعله إشاره إلی نزول الملائکه المردفین الذین نصر الله المسلمین بهم،و کذا قوله:« إِنِّی أَخافُ اللّهَ وَ اللّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ »تعلیل لقوله:« إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ »و مفسر للتعلیل السابق.

و المعنی و یوم الفرقان هو الوقت الذی زین الشیطان للمشرکین ما کانوا یعملونه لمحاده الله و رسوله و قتال المؤمنین،و یتلبسون به للتهیؤ علی إطفاء نور الله،فزین ذلک

فی أنظارهم،و طیب نفوسهم بقوله:لا غالب لکم الیوم من الناس،و إنی مجیر لکم أذب عنکم فلما تراءت الفئتان فرأی المشرکون المؤمنین و المؤمنون المشرکین رجع الشیطان القهقری منهزما وراءه و قال للمشرکین إنی بریء منکم إنی أری ما لا ترونه من نزول ملائکه النصر للمؤمنین و ما عندهم من العذاب الذی یهددکم إنی أخاف عذاب الله و الله شدید العقاب.

و هذا المعنی-کما تری-یقبل الانطباق علی وسوسه الشیطان لهم فی قلوبهم و تهییجهم علی المؤمنین و تشجیعهم علی قتالهم و تطییب نفوسهم بما استعدوا به حتی إذا تراءت الفئتان و نزل النصر و استولی الرعب علی قلوبهم انتکست أوهامهم و تبدلت أفکارهم و عادت مزعمه الغلبه و أمنیه الفتح و الظفر مخافه مستولیه علی نفوسهم و خیبه و یأسا شامله لقلوبهم.

و یقبل الانطباق علی تصور شیطانی یبدو لهم فتنجذب إلیه حواسهم بأن یکون قد تصور لهم فی صوره إنسان و یقول لهم ما حکاه الله من قوله:« لاٰ غٰالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النّٰاسِ وَ إِنِّی جٰارٌ لَکُمْ »فیغویهم و یسیرهم و یقربهم من القتال حتی إذا تقاربت الفئتان و تراءتا فلما تراءت الفئتان و رأی الوضع علی خلاف ما کان یؤمله و یطمع فیه نکص علی عقبیه و قال:إنی بریء منکم إنی أری ما لا ترون من نزول النصر و الملائکه إنی أخاف الله و الله شدید العقاب،و قد ورد فی روایات القصه من طرق الشیعه و أهل السنه ما یؤید هذا الوجه.

و هو أن الشیطان تصور للمشرکین فی صوره سراقه بن مالک بن جشعم الکنانی ثم المدلجی و کان من أشراف کنانه و قال لهم ما قال و حمل رایتهم حتی إذا تلاقی الفریقان فر منهزما و هو یقول:« إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ إِنِّی أَریٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ »إلی آخر ما حکاه الله تعالی،و ستجیء الروایه فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

و قد أصر بعض المفسرین علی الوجه الأول،و رد الثانی بتزییف الآثار المرویه و تضعیف أسناد الأخبار،و هی و إن لم تکن متواتره و لا محفوفه ببعض القرائن القطعیه الموجبه للوثوق التام لکن أصل المعنی لیس من المستحیل الذی یدفعه العقل السلیم، و لا من القصص التی تدفعها آثار صحیحه،و لا مانع من أن یتمثل لهم الشیطان فیوردهم مورد الضلال و الغی حتی إذا تم له ما أراد ترکهم فی تهلکتهم أو حتی شاهد

عذابا إلهيا نكص على عقبيه هاربا.

على أن سياق الآيه الكريمه أقرب إلى إفاده هذا الوجه الثانى منه إلى الوجه الأول،و خاصه بالنظر إلى قوله:« وَ إِنِّی جٰارٌ لَکُمْ »و قوله:« فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ الْفِئَتٰانِ نَکَصَ عَلیٰ عَقِبَیْهِ »و قوله:« إِنِّی أَریٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ »الآیه فإن إرجاع معنى قوله:

« إِنِّی أَریٰ »إلخ مثلا إلى الخواطر النفسانيه بنوع من العنايه الاستعاريه بعيد جدا.

قوله تعالى:« إِذْ یَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِینُهُمْ « إلى آخر الآيه،أى يقول المنافقون و هم الذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر،و الذين فى قلوبهم مرض و هم الضعفاء فى الإيمان ممن لا يخلو نفسه من الشك و الارتياب.يقولون -مشيرين إلى المؤمنين إشاره تحقير و استذلال-:غر هؤلاء دينهم إذ لو لا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكه الظاهره،و هم شرذمه أذلاء لا عده لهم و لا عده، و قريش على ما بهم من العده و القوه و الشوكه.

قوله تعالى:« وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ فَإِنَّ اللّٰهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ »فى مقام الجواب عن قولهم و إبانه غرورهم أنفسهم؛و قوله::« فَإِنَّ اللّٰهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ »من وضع السبب موضع المسبب،و المعنى:و قد أخطأ هؤلاء المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض فى قولهم فإن المؤمنين توكلوا على الله و نسبوا حقيقه التأثير إليه و ضموا أنفسهم إلى قوته و حوله،و من يتوكل أمره على الله فإن الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطئ فى وضع كل أمر موضعه الذى يليق به.

و فى الآيه دليل على حضور جمع من المنافقين و ضعفاء الإيمان ببدر حين تلاقى الفئتين.

أما المنافقون و هم الذين كانوا يظهرون الإسلام و يبطنون الكفر فلا معنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلا بين المسلمين لكن الشأن فى العامل الذى أوجب منهم الثبات و اليوم يوم شديد.

و أما الضعفاء الإيمان أو الشاكون فى حقيقه الإسلام فمن الممكن أن يكونوا بين المؤمنين أو فى فئه المشركين و قد قيل إنهم كانوا فئه من قريش أسلموا بمكه و احتبسهم آباؤهم و اضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروها و شاهدوا ما عليه المسلمون من القله و الذله قالوا:مساكين هؤلاء غرهم دينهم،

و سیجیء فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

و علی أی حال ینبغی إمعان النظر فی البحث عما تفیده هذه الآیه من حضور جمع من المنافقین و الذین فی قلوبهم مرض یوم بدر عند القتال،و استخراج حقیقه السبب الذی أوجب لهؤلاء المنافقین و الضعفاء حضور هذه الغزوه،و الوقوف فی ذلک الموقف الصعب الهائل الذی لا یساعد علیه الأسباب العادیه و لا یقف فیه إلا رجال الحقیقه الذین امتحن الله قلوبهم للإیمان.و أنهم لما ذا حضروها؟و کیف و لما ذا صبروا مع الصابرین من فئه الإسلام؟و لعلنا نوفق لبعض البحث فی ذلک فیما سیوافی من آیات سوره التوبه فی شأن المنافقین و الذین فی قلوبهم مرض إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« وَ لَوْ تَریٰ إِذْ یَتَوَفَّی الَّذِینَ کَفَرُوا الْمَلاٰئِکَهُ »إلی تمام الآیتین.

التوفی أخذ الحق بتمامه،و یستعمل فی کلامه تعالی کثیرا بمعنی قبض الروح،و نسبه قبض أرواحهم إلی الملائکه مع ما فی بعض الآیات من نسبته إلی ملک الموت،و فی بعض آخر إلی الله سبحانه کقوله:« قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ:» الم السجده:-۱۱،و قوله:« اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا:» الزمر:-۴۲ دلیل علی أن لملک الموت أعوانا یتولون قبض الأرواح هم بمنزله الأیدی العماله له یصدرون عن إذنه و یعملون عن أمره،کما أنه یصدر عن إذن من الله و یعمل عن أمر منه،و بذلک یصح نسبه التوفی إلی الملائکه الأعوان،و إلی ملک الموت،و إلی الله سبحانه.

و قوله:« یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ »ظاهره أنهم یضربون مقادیم أبدانهم و خلاف ذلک فیکنی به عن إحاطتهم و استیعاب جهاتهم بالضرب،و قیل:إن الأدبار کنایه عن الأستاه فبالمناسبه یکون المراد بوجوههم مقدم رءوسهم،و ضرب الوجوه و الأدبار بهذا المعنی یراد به الإزراء و الإذلال.

و قوله:« وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِیقِ »أی یقول لهم الملائکه:ذوقوا عذاب الحریق و هو النار.

و قوله:« ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ »تتمه لقولهم المحکی أو إشاره إلی مجموع ما یفعل بهم و ما یقول لهم الملائکه،و المعنی إنما نذیقکم عذاب الحریق بما قدمت أیدیکم أو:نضرب وجوهکم و أدبارکم و نذیقکم عذاب الحریق بما قدمت أیدیکم.

و قوله:« وَ أَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ »معطوف على موضع قوله« بِمٰا قَدَّمَتْ » أى و ذلك بأن الله ليس بظلام للعبيد أى لا يظلم أحدا من عبيده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف و لا اختلاف فى فعله فلو ظلم أحدا لظلم كل أحد،و لو كان ظالما لكان ظلاما للعبيد فافهم ذلك.

و سياق الآيات يشهد على أن المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكه يتوفاهم و يعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركى قريش.

قوله تعالى:« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اللّهِ »إلى آخر الآيه. الدأب و الديدن :العاده و هى العمل الذى يدوم و يجرى عليه الإنسان، و الطريقه التى يسلكها،و المعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون و الذين من قبلهم من الأمم الخاليه الكافره كفروا بآيات الله و أذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى لا يضعف عن أخذهم شديد العقاب إذا أخذ.

قوله تعالى:« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ »إلخ أى إن العقاب الذى يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمه إلهيه سابقه بسلبها و استخلافها،و لا تزول نعمه من النعم الإلهيه و لا تتبدل نقمه و عقابا إلا مع تبدل محله و هو النفوس الإنسانيه،فالنعمه التى أنعم بها على قوم إنما أفيضت عليهم لما استعدوا لها فى أنفسهم،و لا يسلبونها و لا تتبدل بهم نقمه و عقابا إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد و ملاك الإفاضه و تلبسهم باستعداد العقاب.

و هذا ضابط كلى فى تبدل النعمه إلى النقمه و العقاب،و أجمع منه قوله تعالى:

« إِنَّ اللّهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ:» الرعد:-۱۱ و إن كان ظاهره أظهر انطباقا على تبدل النعمه إلى النقمه.

و كيف كان فقوله:« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً »إلخ من قبيل التعليل بأمر عام و تطبيقه على مورده الخاص أى أخذ مشركى قريش بذنوبهم،و عقابهم بهذا العقاب الشديد،و تبديل نعمه الله عليهم عقابا شديدا إنما هو فرع من فروع سنه جاريه إلهيه هى أن الله لا يغير نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

و قوله:« وَ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »تعليل آخر بعد التعليل بقوله:« ذٰلِكَ بِأَنَّ

اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً

»إلخ و ظاهره-بمقتضى إشعار السياق-أن المراد به:و ذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم و علم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله،و يحتمل أن يكون المراد:ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك،و يمكن الجمع بين المحتملين.

قوله تعالى:« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ »إلخ كرر التنظير السابق لمشابهه الفرض مع ما تقدم فقوله:« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ »إلخ السابق تنظير لقوله :«ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ »كما أن قوله:« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ -إلى قوله- وَ كُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ »ثانيا تنظير لقوله:« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً »إلخ.

غير أن التنظير الثانى يشتمل على نوع من الالتفات فى قوله:« فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » و قد وقع بحذائه فى التنظير الأول:« فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ »من غير التفات و لعل الوجه فيه أن التنظير الثانى لما كان مسبوقا بإفاده أن الله هو المفيض بالنعم على عباده و لا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم،و هذا شأن الرب بالنسبه إلى عبيده اقتضى ذلك أن يعد هؤلاء عبيدا غير جارين على صراط عبوديه ربهم و لذلك غير بعض سياق التنظير فقال فى الثانى:« كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ »و قد كان بحذائه فى الأول قوله:« كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ »و لذلك التفت هاهنا من الغيبه إلى التكلم مع الغير فقال:« فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » للدلاله على أنه سبحانه هو ربهم و هو مهلكهم،و قد أخذ المتكلم مع الغير للدلاله على عظمه الشأن و جلاله المقام،و أن له وسائط يعملون بأمره و يجرون بمشيته.

و قوله:« وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ »أظهر المفعول و لم يقل:و أغرقناهم ليؤمن الالتباس برجوع الضمير إلى آل فرعون و الذين من قبلهم جميعا.

و قوله تعالى:« وَ كُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ »أى جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهى من كفار قريش و آل فرعون و الذين من قبلهم كانوا ظالمين فى جنب الله.

و فيه بيان أن الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحدا،و لا يبدل نعمته على أحد نقمه إلا إذا كان ظالما ظلما يبدل نعمه الله كفرا بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه.

(بحث روائی)

فی الکافی،عن علی بن إبراهیم عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن الحسین بن عثمان عن سماعه قال: سألت أبا الحسن(ع)عن الخمس فقال:فی کل ما أفاد الناس من قلیل أو کثیر.

و فیه،عن علی بن إبراهیم عن أبیه عن حماد بن عیسی عن بعض أصحابنا عن العبد الصالح قال: الخمس فی خمسه أشیاء:من الغنائم و الغوص و من الکنوز و من المعادن و الملاحه-یؤخذ من کل هذه الصنوف الخمس- فیجعل لمن جعل الله له،و یقسم أربعه أخماس بین من قاتل علیه و ولی ذلک.

و یقسم بینهم الخمس علی سته أسهم:سهم لله،و سهم لرسوله،و سهم لذی القربی-و سهم للیتامی،و سهم للمساکین،و سهم لأبناء السبیل-فسهم الله و سهم رسوله لأولی الأمر من بعد رسول الله وراثه-فله ثلاثه أسهم:سهمان وراثه،و سهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس کلا،و نصف الخمس الثانی بین أهل بیته:فسهم لیتاماهم، و سهم لمساکینهم،و سهم لأبناء سبیلهم یقسم بینهم علی الکتاب و السنه-ما یستغنون به فی سنتهم-فإن فضل منهم شیء فهو للوالی،و إن عجز أو نقص عن استغنائهم کان علی الوالی أن ینفق من عنده ما یستغنون به،و إنما صار علیه أن یمونهم لأن له ما فضل عنهم،و إنما جعل الله هذا الخمس خاصه لهم-دون مساکین الناس و أبناء سبیلهم-عوضا لهم عن صدقات الناس تنزیها من الله-لقرابتهم من رسول الله ص- و کرامه من الله لهم من أوساخ الناس-فجعل لهم خاصه من عنده و ما یغنیهم به،أن یصیرهم فی موضع الذل و المسکنه،و لا بأس بصدقه بعضهم علی بعض-.

و هؤلاء الذین جعل الله لهم الخمس-هم قرابه النبی ص الذین ذکرهم الله فقال:« وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ »و هم بنو عبد المطلب أنفسهم الذکر منهم و الأنثی- لیس فیهم من أهل بیوتات قریش و لا من العرب أحد،و لا فیهم و لا منهم فی هذا الخمس من موالیهم،و قد تحل صدقات الناس لموالیهم،و هم و الناس سواء.

و من کانت أمه من بنی هاشم و أبوه من سائر قریش-فإن الصدقات تحل له،و لیس له من الخمس شیء لأن الله یقول،« اُدْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ ».

و فی التهذیب،بإسناده عن علی بن مهزیار قال: قال لی علی بن راشد:قلت له:أمرتنی بالقیام بأمرک و أخذ حقک-فأعلمت موالیک بذلک-فقال لی بعضهم:و أی شیء حقه؟ فلم أدر ما أجیبه!فقال:یجب علیهم الخمس فقلت:ففی أی شیء؟فقال:فی أمتعتهم و ضیاعهم-قلت:و التاجر علیه و الصانع بیده؟فقال:ذلک إذا أمکنهم بعد مئونتهم.

و فیه،بإسناده عن زکریا بن مالک الجعفی عن أبی عبد الله(ع): أنه سئل عن قول الله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ-فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبیٰ-وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ »فقال:خمس الله عز و جل للإمام،و خمس الرسول للإمام، و خمس ذی القربی لقرابه الرسول للإمام،و الیتامی یتامی آل الرسول،و المساکین منهم،و أبناء السبیل منهم فلا یخرج منهم إلی غیرهم.

و فیه،بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبی نصر عن أبی عبد الله(ع)قال: قال له إبراهیم بن أبی البلاد:وجب علیک زکاه؟قال:لا و لکن یفضل و نعطی هکذا، و سئل عن قول الله عز و جل:« وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ-فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبیٰ »فقیل له:فما کان لله فلمن هو؟قال:للرسول،و ما کان للرسول فهو للإمام.قیل:أ فرأیت إن کان صنف أکثر من صنف،و صنف أقل من صنف؟ فقال:ذلک للإمام.قیل أ فرأیت رسول الله ص کیف یصنع؟قال:إنما کان یعطی علی ما یری هو،و کذلک الإمام.

أقول:و الأخبار عن أئمه أهل البیت(ع)متواتره فی اختصاص الخمس بالله و رسوله و الإمام من أهل بیته و یتامی قرابته و مساکینهم و أبناء سبیلهم لا یتعداهم إلی غیرهم،و أنه یقسم سته أسهم علی ما مر فی الروایات،و أنه لا یختص بغنائم الحرب بل یعم کل ما کان یسمی غنیمه لغه من أرباح المکاسب و الکنوز و الغوص و المعادن و الملاحه،و فی روایاتهم-کما تقدم-أن ذلک موهبه من الله لأهل البیت بما حرم علیهم الزکوات و الصدقات.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه و ابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس رضی الله عنهما": أن نجده الحروری أرسل یسأله عن سهم ذی القربی-الذین ذکر الله فکتب إلیه:أنا کنا نری أنا هم فأبی ذلک علینا قومنا،و قالوا: و یقول لمن تراه؟فقال ابن عباس رضی الله عنهما:هو لقربی رسول الله ص-قسمه لهم رسول الله ص-.

و قد كان عمر(رض)عرض علينا من ذلك عرضا-رأيناه دون حقنا فرددناه عليه و أبينا أن نقبله.و كان عرض عليهم أن يعين ناكحهم،و أن يقضى عن غارمهم،و أن يعطى فقيرهم،و أبى أن يزيدهم على ذلك.

أقول:و قوله فى الروايه:«قالوا لمن تراه»معناه:قال الذين أرسلهم نجده الحرورى لابن عباس:و يقول نجده لمن ترى الخمس أى يسألك عن فتواك فيمن يصرف إليه الخمس.

و قوله:هو لقربى رسول الله قسمها لهم«إلخ»ظاهره أنه فسر ذى القربى بأقرباء النبى ص،و ظاهر الروايات السابقه عن أئمه أهل البيت(ع)أنهم فسروا ذى القربى بالإمام من أهل البيت،و ظاهر الآيه يؤيد ذلك حيث عبر بلفظ المفرد!.

و فيه،أخرج ابن المنذر عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: سألت عليا رضى الله عنه فقلت:يا أمير المؤمنين-أخبرنى كيف كان صنع أبى بكر-و عمر رضى الله عنهما فى الخمس نصيبكم؟فقال:أما أبو بكر(رض)فلم يكن فى ولايته أخماس،و أما عمر (رض)فلم يزل يدفعه إلى فى كل خمس-حتى كان خمس السوس و جنديسابور-فقال و أنا عنده،هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس-و قد أحل ببعض المسلمين و اشتدت حاجتهم.

فقلت،نعم،فوثب العباس بن عبد المطلب فقال،لا تعرض فى الذى لنا.فقلت؛ أ لسنا من أرفق المسلمين،و شفع أمير المؤمنين،فقبضه-فوالله ما قبضناه و لا قدرت عليه فى ولايه عثمان رضى الله عنه-.

ثم أنشأ على رضى الله عنه يحدث فقال:إن الله حرم الصدقه على رسوله(ص) فعوضه سهما من الخمس عوضا مما حرم عليه،و حرمها على أهل بيته خاصه دون أمته- فضرب لهم مع رسول الله(ص)سهما-عوضا مما حرم عليهم.

و فيه،أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:قال رسول الله(ص):

رغبت لكم عن غساله الأيدى-لأن لكم فى خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم.

أقول:و هو مبنى على كون سهم أهل البيت هو ما لذى القربى فحسب.

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قسم رسول الله(ص)سهم ذى القربى على بنى هاشم و بنى المطلب.قال:فمشيت أنا و عثمان بن

عفـان حتی دخلنـا علیه-فقلنا:یا رسول الله هؤلاء إخوانک من بنی هاشم-لا ینکر فضـلهم-لمکانک الـذی وضـعک الله به منهم.أ رأیت إخواننـا من بنی المطلب أعطیتهم دوننـا،و إنمـا نحن و هم بمنزله واحـده فی النسب؟فقـال:إنهم لم یفارقونـا فی الجاهلیه و الإسلام.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن زید بن أرقم رضی الله عنه قال": آل محمد الذین أعطوا الخمس:آل علی و آل عباس و آل جعفر و آل عقیل.

أقول: و الروایـات فی هـذا البـاب کثیره من طرق أهـل السـنه و قـد اختلفت الروایـات الحـاکیه لعمل النبی ص من طرقهم بین ما مضمونه أنه(ص)کان یقسم الخمس علی أربعه أسهم و بین ما مضمونه التقسیم علی خمسه أسهم.

غیر أنه یقرب من المسـلم فیها أن من سـهام الخمس ما یختص بقرابه النبی ص و هم المعنیون بـذی القربی فی آیه الخمس علی خلاف ما فی الروایات المرویه عن أئمه أهل البیت((ع)).

و ممـا یقرب من المسـلم فیهـا أن النبی ص کـان یقسـمه بین المطلبیین مـا دام حیا، و أنه انقطع عنهم علی هـذا الوصف فی زمن الخلفاء الثلاث ثم جری علی ذلک الأمر بعدهم.

و من المسـلم فیهـا أیضـا أن الخمس یختص بغنـائم الحرب-علی خلاـف مـا علیه الروایـات من طرق أئمه أهـل الـبیت((ع))و لا یتعداها إلی کل ما یصدق علیه اسم الغنیمه لغه.

و ما یتعلق بالآیه من محصل البحث التفسـیری هو الذی قدمناه و هناک أبحاث أخر کلامیه أو فقهیه خارجه عن غرضـنا.و هناک بحث حقوقی اجتماعی فی ما یؤثره الخمس من الأثر فی المجتمع الإسلامی سیوافیک فی ضمن الکلام علی الزکاه.

بقی الکلام فیما تتضمنه الروایات أن الله سبحانه أراد بتشریع الخمس إکرام أهل بیت النبی ص و أسرته و ترفیعهم من أن یأخذوا أوسـاخ النـاس فی أموالهم، و الظـاهر أن ذلـک مـأخوذ من قوله تعـالی فی آیه الزکاه خطابا لنبیه(ص):« خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ:» التوبه:- ۱۰۳ فإن التطهیر و التزکیه إنما یتعلق بما لا یخلو من دنس و وسخ و نحوهما و لم یقع فی آیه الخمس ما یشعر بذلک.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن جریر عن عروه بن الزبیر(رض)قال":

أمر رسول الله(ص)بالقتل فی آی من القرآن-فکان أول مشهد شهده رسول الله(ص)

بدرا،و كان رئيس المشركين يومئذ عتبه بن ربيعه بن عبد شمس-فالتقوا يوم الجمعه ببدر- لسبع أو ست عشره ليله مضت من رمضان،و أصحاب رسول الله ص ثلاثمائه و بضعه عشر رجلا،و المشركون بين الألف و التسعمائه،و كان ذلك يوم الفرقان يوم فرق الله بين الحق و الباطل-فكان أول قتيل قتل يومئذ مهجع-مولى عمرو رجل من الأنصار،و هزم الله يومئذ المشركين-فقتل منهم زياده على سبعين رجلا،و أسر منهم مثل ذلك.

و فيه،أخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال": كانت ليله الفرقان يوم التقى الجمعان فى صبيحتها-ليله الجمعه لسبع عشره مضت من رمضان.

أقول:و روى مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن على و عن ابن أبى شيبه عن جعفر عن أبيه،و أيضا عنه عن أبى بكر عن عبد الرحمن بن هشام و عنه عن عامر بن ربيعه البدرى":مثله لكن فيه ،كان يوم بدر يوم الإثنين لسبع عشره من رمضان.

و ربما أطلق فى بعض أخبار أئمه أهل البيت(ع)على التسعه عشر من رمضان يوم يلتقى الجمعان لما عد ليلته فى أخبارهم من ليله القدر،و هذا معنى آخر غير ما أريد فى الآيه من« يَوْمَ الْفُرْقٰانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ »

ففى تفسير العياشى،عن إسحاق بن عمار عن أبى عبد اللّه(ع)قال: فى تسعه عشر من شهر رمضان يلتقى الجمعان.قلت:ما معنى قوله:يلتقى الجمعان؟قال:يجتمع فيها ما يريد-من تقديمه و تأخيره و إرادته و قضائه.

و فى تفسير العياشى،عن محمد بن يحيى عن أبى عبد الله(ع): فى قوله:« وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ »قال:أبو سفيان و أصحابه.

و فى تفسير القمى،":فى قوله تعالى:« لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ-وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »الآيه-قال:قال:يعلم من بقى أن الله نصره.

و فى الدر المنثور،":فى قوله تعالى:« وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ »الآيه":أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال":

لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر-حتى قلت لرجل إلى جنبى:تراهم سبعين؟قال:لا بل مائه.

و فيه،:فى قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا لَقِيتُمْ »إلخ:أخرج الحاكم و صححه عن أبى موسى رضى الله عنه: أن رسول الله ص كان يكره الصوت عند القتال.

و فیه،أخرج ابن أبی شیبه عن النعمان بن مقرن رضی الله عنه قال: کان رسول الله ص إذا کان عند القتال لم یقاتل أول النهار،و أخره إلی أن تزول الشمس-و تهب الریاح و تنزل النصر.

و فی تفسیر البرهان،":فی قوله تعالی:« وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ »الآیه":بإسناده عن یحیی بن الحسن بن فرات قال:حدثنا أبو المقدم ثعلبه بن زید الأنصاری قال:سمعت جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاری رحمه الله یقول": تمثل إبلیس فی أربع صور:

تمثل یوم بدر فی صوره سراقه بن مالک بن جشعم المدلجی-فقال لقریش:لا غالب لکم الیوم من الناس-و إنی جار لکم فلما تراءت الفئتان نکص علی عقبیه-و قال إنی بریء منکم-.

و تصور یوم العقبه فی صوره منبه بن الحجاج-فنادی:أن محمدا و الصباه معه عند العقبه فأدرکوهم.قال رسول الله ص للأنصار:لا تخافوا فإن صوته لن یعدوه-.

و تصور فی یوم اجتماع قریش فی دار الندوه-فی صوره شیخ من أهل نجد و أشار علیهم فی أمرهم-فأنزل الله تعالی: «وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا-لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ-وَ یَمْکُرُونَ وَ یَمْکُرُ اللّٰهُ وَ اللّٰهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ -.

و تصور فی یوم قبض رسول الله ص فی صوره المغیره بن شعبه-فقال:أیها الناس لا تجعلوا کسروانیه و لا قیصرانیه- وسعوها تتسع فلا تردوا إلی بنی هاشم فینظر بها الحبالی.

و فی المجمع،قیل": إنهم لما التقوا کان إبلیس فی صف المشرکین-أخذ بیده الحارث بن هشام فنکص علی عقبیه-فقال له الحارث بن هشام:یا سراقه إلی أین؟ أ تخذلنا فی هذه الحاله؟فقال:إنی أری ما لا ترون،فقال:و الله ما نری إلا جعامیس یثرب-فدفع فی صدر الحارث و انطلق و انهزم الناس-.

و فلما قدموا مکه قالوا:هزم الناس سراقه-فبلغ ذلک سراقه فقال:و الله ما شعرت بمسیرکم حتی بلغنی هزیمتکم-فقالوا:إنک أتیتنا یوم کذا فحلف لهم-فلما أسلموا علموا أن ذلک کان الشیطان. قال:و روی ذلک عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع) .

أقول:و روى مثله ابن شهرآشوب عنهما(ع)،و فى معنى هاتين الروايتين روايات كثيره من طرق أهل السنه عن ابن عباس و غيره.

و قد مر فى البيان المتقدم استبعاد بعض المفسرين ذلك و تضعيفه ما ورد فيه من الروايات،و هى إنما تثبت أمرا ممكنا غير مستحيل،و الاستبعاد الخالى لا يبنى عليه فى الأبحاث العلميه،و التمثلات البرزخيه ليست بشاذه نادره فلا موجب للإصرار على النفى كما أن الإثبات كذلك غير أن ظاهر الآيه أوفق للإثبات.

و فى الدر المنثور،":فى قوله تعالى:« وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ »الآيتين- أخرج ابن أبى حاتم عن ابن إسحاق فى قوله:« إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » قال:هم الفئه الذين خرجوا مع قريش-احتبسهم آباؤهم فخرجوا و هم على الارتياب- فلما رأوا قله أصحاب رسول الله ص قالوا:غر هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه-من قله عددهم و كثره عدوهم-.

و هم فئه من قريش مسمون خمسه:قيس بن الوليد بن المغيره،و أبو قيس بن الفاكه بن المغيره المخزوميان،و الحارث بن زمعه،و على بن أميه بن خلف،و العاصى بن منبه.

أقول:و هذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » فحسب،و فى بعض التفاسير أن القائل:« غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ »هم المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض من أهل المدينه،و لم يخرجوا مع النبى ص،و سياق الآيه الظاهر فى حضورهم و قولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك.

و فى روايه أبى هريره-على ما رواه فى الدر المنثور عن الطبرانى فى الأوسط عنه- ما لفظه": و قال عتبه بن ربيعه و ناس معه من المشركين يوم بدر،« غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ » فأنزل الله،« إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ-غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ ». و الذى ذكره لا ينطبق على الآيه البته فالقرآن الكريم لا يسمى المشركين منافقين و لا الذين فى قلوبهم مرض.

و فى تفسير العياشى،عن أبى على المحمودى عن أبيه رفعه": فى قول الله ،يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ قال،إنما أراد أستاههم.إن الله كريم يكنى.

و فى تفسير الصافى،عن الكافى عن الصادق(ع): أن الله بعث نبيا من أنبيائه إلى

قومه،و أوحی إليه؛أن قل لقومک-إنه ليس من أهل قريه و لا ناس كانوا على طاعتی- فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره-إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون،و إنه ليس من أهل قريه و لا أهل بيت كانوا على معصيتی-فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب-إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون.

و فيه،أيضا عنه(ع)أنه قال،كان أبی يقول،: إن الله عز و جل قضی قضاء حتما،لا ينعم على العبد بنعمه فيسلبها إياه-حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلک النقمه.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ۵۵ الى ۶۶]

اشاره

إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۵۵) اَلَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي اَلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ اَلْخٰائِنِينَ (۵۸) وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ (۵۹) وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ اَلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اَللّٰهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اَللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۶۱) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اَللّٰهُ هُوَ اَلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۳) يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ حَسْبُكَ اَللّٰهُ وَ مَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۶۴) يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِينَ عَلَى اَلْقِتٰالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ (۶۵) اَلْآنَ خَفَّفَ اَللّٰهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صٰابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ مَعَ اَلصّٰابِرِينَ (۶۶)

(بيان)

أحكام و دستورات فی الحرب و السلم و المعاهدات و نقضها و غير ذلک،و صدر الآيات يقبل الانطباق علی طوائف اليهود التی كانت فی المدينه و حولها و قد كان النبی ص عاهدهم بعد هجرته إلی المدينه أن لا يضروه و لا يغدروا به و لا يعينوا عليه عدوا و يقروا علی دينهم و يأمنوا فی أنفسهم فنقضوا العهد نقضا بعد نقض حتی أمر الله سبحانه بقتالهم فآل أمرهم إلی ما آل إليه،و سيجیء بعض أخبارهم فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

و علی هذا فالآيات الأربع الأول غير نازله مع ما سبقها من الآيات و لا متصله بها كما يعطيه سياقها و أما السبع الباقيه فليست بواضحه الاتصال بما قبلها من الآيات الأربع و لا بما قبل ما قبلها.

قوله تعالی:« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ »الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحيه من غير شک فی ذلک لما فی تقييد الحكم بقوله:« عِنْدَ اللّٰهِ »من الدلاله عليه فإن معناه الحكم؛و ما يحكم و يقضی به الله سبحانه لا يتطرق إليه خطأ و قد قال تعالی:« لاٰ يَضِلُّ رَبِّی وَ لاٰ يَنْسیٰ :» طه:-۵۲.

و قـد افتتـح هـذه القطعه من الكلام المتعلق بهم بكونهم شـر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم و دفعهم،و من المغروز فى الطباع أن الشر الذى لا يرجى معه خير يجب دفعه بأى وسيله صحت و أمكنت فناسب ما سيأمره فى حقهم بقوله:

« فَإِمّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »إلخ الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

و عقـب قـوله:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا »بقـوله:« فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ »مبتـدأ بفـاء التفريـع أى إن من وصـفهم الـذى يتفرع على كفرهم أنهم لا يؤمنون،و لا يتفرع عدم الإيمان على الكفر إلا إذا رسخ فى النفس رسوخا لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ فى دخول الإيمان فى قلب هذا شأنه لمكان المضاده التى بين الكفر و الإيمان.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا »الـذين ثبتوا على الكفر،و عنـد هـذا يرجع معنى هذه الآيه إلى نظيرتها السابقه:« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ:» الأنفال:-٢٣.

على أن الآيتين لما دلتا على حصـر الشر عند الله فى طائفه معينه من الدواب كانت الآيه الأولى مع دلالتها على كون أهلها ممن لا يؤمنـون البته داله على أن المراد بقوله فى الآـيه الثـانيه:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ »كونهم ثـابتين على كفرهم لاـ يزولون عنه البته.

قوله تعـالى:« اَلَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّهٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ » بيان للـذين كفروا فى الآيه السابقه أو بـدل منهم بـدل البعض من الكل،و يتفرع عليه أن«من»فى قوله« مِنْهُمْ »تبعيضـيه و المعنى:الـذين عاهـدتهم من بين الـذين كفروا، و أما احتمال أن يكون من زائده و المعنى:الذين عاهدتهم،أو بمعنى مع و المعنى:

الذين عاهدت معهم فليس:بشىء.

و المراد بكل مره مرات المعاهده أن ينقضون عهدهم فى كل مره عاهدتهم و هم لا يتقون الله فى نقض العهد أو لا يتقونكم و لا يخافون نقض عهدكم،و فيه دلاله على تكرر النقض منهم.

قوله تعالى:« فَإِمّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ »

قال فی المجمع، الثقف الظفر و الإدراک بسرعه،و التشرید التفریق علی اضطراب.انتهی، و قوله:« فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ »أصله إن تثقفهم دخل«ما»التأکید علی إن الشرطیه لیصحح دخول نون التأکید علی الشرط و الکلام مسوق للتأکید فی ضمن الشرط.

و المراد بتشرید من خلفهم بهم أن یفعل بهم من التنکیل و التشدید ما یعتبر به من خلفهم،و یستولی الرعب و الخوف علی قلوبهم فیتفرقوا و ینحل عقد عزیمتهم و اتحاد إرادتهم علی قتال المؤمنین و إبطال کلمه الحق.

و علی هذا فالمراد بقوله:« لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ »رجاء أن یتذکروا ما لنقض العهد و الإفساد فی الأرض و المحاده مع کلمه الحق من التبعه السیئه و العاقبه المشئومه فإن الله لا یهدی القوم الفاسقین و إن الله لا یهدی کید الخائنین.

ففی الآیه إیماء إلی الأمر بقتالهم ثم التشدید علیهم و التنکیل بهم عند الظفر بهم و ثقفهم،و إیماء إلی أن وراءهم من حاله حالهم فی نقض العهد و تربص الدوائر علی الحق و أهله.

قوله تعالی:« وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیٰانَهً فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلیٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْخٰائِنِینَ » الخیانه -علی ما فی المجمع،-نقض العهد فیما یؤتمن علیه،و هذا معنی الخیانه فی العهود و المواثیق،و أما الخیانه بمعناها العام فهی نقض ما أبرم من الحق فی عهد أو أمانه،و النبذ هو الإلقاء و منه قوله:« فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ:» آل عمران:-۱۸۷ و السواء بمعنی الاستواء و العدل.

و قوله:« وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ »کقوله فی الآیه السابقه:« فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ »و معنی الخوف ظهور أمارات تدل علی وقوع ما یجب التحرز منه و الحذر عنه و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْخٰائِنِینَ »تعلیل لقوله:« فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلیٰ سَوٰاءٍ ».

و معنی الآیه:و إن خفت من قوم بینک و بینهم عهد أن یخونوک و ینقضوا عهدهم و لاحت آثار داله علی ذلک فانبذ و ألق إلیهم عهدهم و أعلمهم إلغاء العهد لتکونوا أنتم و هم علی استواء من نقض عهد أو تکون مستویا علی عدل فإن من العدل المعامله بالمثل و السواء لأنک إن قاتلتهم قبل إلغاء العهد کان ذلک منک خیانه و الله لا یحب الخائنین.

و ملخص الآـيتين دسـتوران إلهيـان فى قتـال الـذين لا عهـد لهم بالنقض أو بخوفه فإن كان أهل العهـد من الكفار لا يثبتون على عهـدهم بنقضه فى كـل مره فعلى ولى الأمر أن يقاتلهم و يشـدد عليهم،و إن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم و لا وثوق بعهـدهم فيعلمون إلغاء عهـدهم ثم يقاتلون و لا يبدأ بقتالهم قبل الاعلام فإنما ذلك خيانه،و أما إن كانوا عاهدوا و لم ينقضوا و لم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهـدهم و احترام عقـدهم و قد قال تعالى:« فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ:» التوبه:-۴.و قال:« أَوْفُوا بِالْعُقُودِ:» المائده:-۱.

قوله تعالى:« وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ »القراءه المشـهوره « تحسبن »بتاء الخطاب،و هو خطاب للنبى ص تطييبا لنفسه و تقويه لقلبه كالخطـاب الآـتى بعـد عـده آيات:«يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّٰهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »و كالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين:«يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتٰالِ ».

و السبق تقدم الشىء على طالب اللحوق به،و الإعجاز إيجاد العجز،و قوله:

« إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ »تعليل لقوله:« و لا تحسـبن »إلخ،و المعنى:يا أيها النبى لا تحسبن أن الذين كفروا سبقونا فلا ندركهم،لأنهم لا يعجزون الله و له القدره على كل شىء.

قوله تعالى:« وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ الْخَيْلِ ».إلى آخر الآيه الإعداد تهيئه الشىء للظفر بشىء آخر و إيجاد ما يحتاج إليه الشىء المطلوب فى تحققه كإعداد الحطب و الوقود للإيقاد و إعداد الإيقاد للطبخ،و القوه كل ما يمكن معه عمل من الأعمال،و هى فى الحرب كل ما يتمشـى به الحرب و الدفاع من أنواع الأسـلحه، و الرجال المدربين و المعاهد الحربيه التى تقوم بمصـلحه ذلـك كله،و الربـاط مبالغه فى الربط و هو أيسـر من العقـد يقال:ربطه يربطه ربطا و رابطه يرابطه مرابطه و رباطا فالكل بمعنى غير أن الرباط أبلغ من الربط،و الخيل هو الفرس،و الإرهاب قريب المعنى من التخويف.

و قـوله:« وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ الْخَيْلِ »أمر عـام بتهيئه المـؤمنين مبلغ اسـتطاعتهم من القـوى الحربيه ما يحتـاجون إليه قبال ما لهم من الأعـداء فى الوجود أو فى الفرض و الاعتبار فإن المجتمع الإنسانى لا يخلو من التآلف من أفراد أو أقوام مختلفى الطباع و متضادى الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنه قيمه ينافعهم إلا و هناك مجتمع آخر يضاده فى منافعه،و يخالفه فى سنته،و لا يعيشان

معا برهه من الدهر إلا و ينشب بينهما الخلاف و يؤدى ذلك إلى التغلب و القهر.

فالحروب المبيده و الاختلافات الداعيه إليها مما لا مناص عنها فى المجتمعات الإنسانيه و المجتمعات هى هذه المجتمعات،و يدل على ذلك ما نشاهده من تجهز الإنسان فى خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب و الشده فى الأبدان،و الفكر العامل فى القهر و الغلبه،فمن الواجب الفطرى على المجتمع الإسلامى أن يتجهز دائما بإعداد ما استطاع من قوه و من رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

و الذى اختاره الله للمجتمع الإسلامى بما أنزل عليهم من الدين الفطرى الذى هو الدين القيم هى الحكومه الإنسانيه التى يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، و يراعى فيها مصلحه الضعيف و القوى و الغنى و الفقير و الحر و العبد و الرجل و المرأه و الفرد و الجماعه و البعض و الكل على حد سواء دون الحكومه الفرديه الاستبداديه التى لا تسير إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولى لها الحاكم فى دماء الناس و أعراضهم و أموالهم بما شاء و أراد،و لا الحكومه الأكثريه التى تطابق أهواء الجمهور من الناس و تبطل منافع آخرين و ترضى الأكثرين(النصف+واحد)و تضطهد و تسخط الأقلين(النصف-واحد).

و لعل هذا هو السر فى قوله تعالى:« وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ »حيث وجه الخطاب إلى الناس بعد ما كان الخطاب فى الآيات السابقه موجها إلى النبى ص كقوله:

« فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »و قوله:« فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ »و قوله:

« و لا تحسبن الذين كفروا سبقوا »و كذا فى الآيات التاليه كقوله:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا »إلى غير ذلك.

و ذلك أن الحكومه الإسلاميه حكومه إنسانيه بمعنى مراعاه حقوق كل فرد و تعظيم إراده البعض و احترام جانبه أى من كان من غير اختصاص الإراده المؤثره بفرد واحد أو بأكثر الأفراد.

فالمنافع التى يهددها عدوهم هى منافع كل فرد فعلى كل فرد أن يقوم بالذب عنها،و يعد ما استطاع من قوه لحفظها من الضيعه،و الإعداد و إن كان منه ما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعه القويه و الإمكانات البالغه لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربيه و التدرب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع.

و قوله تعالی:« تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّٰهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ »فی مقام التعليل لقوله:« وَ أَعِدُّوا لَهُمْ »أی و أعدوا لهم ذلک لترهبوا و تخوفوا به عدو الله و عدوکم،و فی عدهم عدوا لله و لهم جميعا بيان للواقع و تأكيد فی التحريض.

و فی قوله:« وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ »دلاله علی أن المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوه لله و لهم،و المراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون-علی ما يعطيه إطلاق اللفظ-كل من لا خبره للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوه من المنافقين الذين هم فی كسوه المؤمنين و صورتهم يصلون و يصومون و يحجون و يجاهدون ظاهرا،و من غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد.

و الإرهاب بإعداد القوه،و إن كان فی نفسه من الأغراض الصحيحه التی تتفرع عليها فوائد عظيمه ظاهره غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوه،و لذلک أردفه بقوله:« وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ »ليدل علی جماع الغرض.

و ذلک أن الغرض الحقيقی من إعداد القوی هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعه، و حفظ المجتمع من العدو الذی يهدده فی نفوسه و أعراضه و أمواله،و باللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائره الفساد الذی يبطل كلمه الحق و يهدم بنيان دين الفطره الذی به يعبد الله فی أرضه و يقوم ملاک العدل فی عباده.

و هذا أمر ينتفع به كل فرد من أفراد المجتمع الدينی فما أنفقه فرد أو جماعه فی سبيل الله،و هو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع إلی نفسه و إن كان فی صوره أخری فإن أنفق فی سبيله مالا أو جاها أو أی نعمه من هذا القبيل فهو من الإنفاق فی سبيل الضروريات الذی لا يلبث دون أن يرجع إليه نفسه نفعه و ما استعقبه من نماء فی الدنيا و الآخره،و إن أنفق فی سبيله نفسا فهو الشهاده فی سبيل الله التی تستتبع حياه باقيه خالده حقه لمثلها فليعمل العاملون لا كما يغر به آحاد الفادين فی سبيل المقاصد الدنيويه ببقاء الاسم و خلود الذكر و تمام الفخر فهؤلاء و إن تنبهوا اليوم لهذا التعليم الإسلامی، و أن المجتمع كنفس واحده تشترک أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع و ضرر لكنهم خبطوا فی مسيرهم و اشتبه عليهم الأمر فی تشخيص الكمال الإنسانی الذی لأجله تندبه الفطره و تدعوه إلی الاجتماع،و هو التمتع من الحياه الدائمه،فحسبوه الحياه الدنيا

الدائره فضاق عليهم المسلک فی أمثال التفديه بالنفس لأجل تمتع الغير بلذائذ الماده.

و بالجمله فإعداد القوه إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الإسلامی و منافعه الحيويه،و التظاهر بالقوه المعده ينتج إرهاب العدو،و هو أيضا من شعب الدفع و نوع معه،فقوله تعالی:« تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّٰهِ »إلخ يذكر فائده من فوائد الإعداد الراجعه إلی أفراد المجتمع،و قوله:« وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ »يذكر أن ما أنفقوه فی سبيله لا يبطل و لا يفوت بل يرجع إليهم من غير أن يفوت عن ذی حق حقه.

و هذا أعنی قوله:« وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ »إلخ أعم فائده من مثل قوله:« وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ:» البقره:-٢٧٢ فإن الخير منصرف إلی المال فلا يشمل النفس بخلاف قوله هاهنا:« وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ».

قوله تعالی:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »فی المجمع،: الجنوح الميل،و منه جناح الطائر لأنه يميل به فی أحد شقيه، و لا جناح عليه أی لا ميل إلی مأثم.انتهی،و السلم بفتح السين و كسرها الصلح.

و قوله:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ »من تتمه الأمر بالجنوح فالجميع فی معنی أمر واحد، و المعنی:و إن مالوا إلی الصلح و المسالمه فمل إليها و توكل فی ذلک علی الله و لا تخف من أن يضطهدک أسباب خفيه عنک علی غفله منک و عدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب و لا يعجزه مكر بل ينصرک و يكفيک و هذا هو الذی يثبته قوله فی الآيه التاليه« وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ ».

و قد تقدم فيما أسلفناه من معنی التوكل علی الله أنه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهريه بل سلب الاعتماد القطعی علی الأسباب الظاهريه لأن الذی يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها،و السبب التام الذی لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذی يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقه و الاعتماد إلی الله سبحانه الذی بمشيته يدور رحی الأسباب عامه،و لا ينافيه أن يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحه عليه من غير أن يلغی شيئا منها فيركب مطيه الجهل.

قوله تعالی:« وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِی أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ »الآیه متصله بما قبلها و هی بمنزله دفع الدخل،و ذلک أن الله سبحانه لما أمر نبیه ص بالجنوح للسلم إن جنحوا له و لم یرض بالخدیعه لأنها من الخیانه فی حقوق المعاشره و المواصله للعامه و الله لا یحب الخائنین کان أمره بالجنوح المذکور مظنه سؤال و هو أن من الجائز أن یکون جنوحهم للسلم خدیعه منهم یضلون بها المؤمنین لیغیروا علیهم فی شرائط و أحوال مناسبه فأجاب سبحانه بأنا أمرناک بالتوکل فإن أرادوا بذلک أن یخدعوک فإن حسبک الله و قد قال تعالی:« وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ .

و هذا مما یدل علی أن هناک أسبابا وراء ما ینکشف لنا من الأسباب الطبیعیه العادیه تجری علی ما یوافق صلاح العبد المتوکل إذا خانته الأسباب الطبیعیه العادیه و لم تساعده علی مطلوبه الحق.

و قوله:« هُوَ الَّذِی أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ »بمنزله الاحتجاج علی قوله:« فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ »بذکر شواهد تدل علی کفایته تعالی و هی أنه أیده بنصره و أیده بالمؤمنین و ألف بین قلوبهم و هی شیء متباغضه.

قوله تعالی:« وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ »إلخ،قال الراغب: الإلف اجتماع مع التیام یقال:

ألفت بینهم،و منه الألفه،و یقال:للمألوف إلف و آلف قال تعالی:« إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ »انتهی.

أورد سبحانه فی جمله ما استشهد علی کفایته لمن توکل علیه أنه کفی نبیه ص بتألیف قلوب المؤمنین بعد ذکر تأییده بهم،و الکلام مطلق و الملاک المذکور فیه عام یشمل جمیع المؤمنین و إن کانت الآیه أظهر انطباقا علی الأنصار حیث أید الله بهم نبیه ص فآووه و نصروه و ألف الله سبحانه بدینه بینهم أنفسهم و قد نشبت فیهم الحروب المبیده و کانت قائمه علی ساقها دهرا طویلا و هی حرب«بغاث»بین الأوس و الخزرج حتی اصطلحوا بنزول الإسلام فی دارهم و أصبحوا بنعمته إخوانا.

و قد امتن الله بتألیفه بین قلوب المسلمین فی مواضع من کلامه و بین أهمیه موقعه

بمثل قوله:« لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ.

بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

».

و ذلک أن الإنسان مفطور علی حب النعم الحیویه التی تتم بها حیاته لا بغیه له دونها و لا یرید فی الحقیقه شیئا و لا یقصده إلا لینتفع به فی نفسه و ما ربما یلوح أنه یرید نفعا عائدا إلی غیره فالتأمل الدقیق یکشف عن اشتماله علی نفع عائد إلیه نفسه، و إذ کان یحب الوجدان فهو یبغض الفقدان.

و بهذین الوصفین الغریزیین أعنی الحب و البغض یتم له أمر الحیاه و لو أنه أحب کل شیء و منها الأضداد و المتناقضات لبطلت الحیاه و لو أنه أبغض کل شیء حتی المتنافیات لبطلت الحیاه،و قد فطره الله سبحانه علی الحیاه الاجتماعیه؛لقصور ما عنده من القوی و الأدوات عن القیام بجمیع ما یحتاج إلیه من ضروریات حیاته و من الضروری أن الاجتماع لا یتم إلا باختصاص کل فرد بما یحرم عنه آخرون من مال أو جاه أو زینه أو جمال أو کل ما یتنافس فیه الطباع الإنسانی أو یتعلق به الهوی النفسانی علی اختلاف فیه بالزیاده و النقیصه.

و هذا أول ما یودع أنواع العداوه و البغضاء فی القلوب و الشح فی النفوس ثم ما ینبسط بینهم من وجوه الحرمان بالظلم و العدوان و بغی البعض علی البعض فی دم أو عرض أو مال أو غیر ذلک مما یتنعمون به و یتنافسون فیه و یعلمون لأجله،تثیر فی داخل نفوسهم کل بغضاء و شنآن.

و هذا کله أوصاف و غرائز باطنیه فی الجماعه لا تلبث دون أن تظهر فی أعمالهم و تتلاقی فی أفعالهم و یماس بعضها بعضا بینهم فی مسیر حیاتهم و فیه البلوی التی تتعقب الفتن و المصائب الاجتماعیه التی تبید النفوس و تهلک الحرث و النسل،و قد شهدت بذلک الحوادث الجاریه علی توالی القرون و الأجیال.

و مهما ظنت الأمم المجتمعه أن بغیتها فی اجتماعها هی التمتع من العیشه المادیه المحدوده بالحیاه الدنیویه فلا سبیل إلی قلع ماده هذا الفساد من أصلها و قطع منابته فإن الدار دار التزاحم،و المجتمع قائم علی قاعده الاختصاص،و النفوس مختلفه فی الاستعداد، و الحوادث الواقعه و العوامل المؤثره و الأحوال الخارجه دخیله فی معایشهم و حیاتهم.

قال تعالى:« إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً:» المعارج:-٢١،و قال:« إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ:» يوسف:-٥٣،و قال:

« وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ:» هود:-١١٩،إلى غير ذلك من الآيات.

و غايه ما يمكن الإنسان فى بسط الألفه و إرضاء القلوب المشحونه بالعداوه و البغضاء أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيويه المحبوبه عندهم غير أنه إنما ينفع فى موارد جزئيه خاصه،و أما العداوه و البغضاء العامتان فلا سبيل إلى إزالتهما عن القلوب ببذل النعمه فإنه لا يبطل غريزه الاستزاده و الشح الملتهب فى كل نفس بما يشاهد من المزايا الحيويه عند غيره.

على أن من النعم ما لا يقبل إلا الاختصاص و الانفراد كالملك و الرئاسه العاليه و أمور أخرى تجرى مجراهما حتى أن الأمم الراقيه ذوى المدنيه و الحضاره لم يتمكنوا من معالجه هذا الداء إلا بما يزول به بعض شدته،و يستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه،و أما البغضاءات المتعلقه بالأمور التى تختص به بعض مجتمعهم كالرئاسه و الملك فهى على حالها تتقد بشررها القلوب و لا يزال يأكل بعضها بعضا.

على أن ذلك ينحصر فيما بينهم و أما المجتمعات الخارجه من مجتمعهم فلا يعبأ بحالهم و لا يعتنى من منافعهم الحيويه إلا بما يوافق منافع أولئك و إن أعيتهم طوارق البلاء و عفاهم الدهر بالعناء.

و قد من الله على الأمه الإسلاميه إذ أزال الشح عن نفوسهم و ألف بين قلوبهم بمعرفه إلهيه علمه إياهم و بثه فيما بينهم ببيان أن الحياه الإنسانيه حياه خالده غير محصوره فى هذه الأيام القلائل التى ستفنى و يبقى الإنسان و لا خبر عنها،و إن سعاده هذه الحياه الدائمه غير التمتع بلذائذ الماده و الرعى فى كلإ الخسه بل هى حياه واقعيه و عيشه حقيقيه يحيى و يعيش بها الإنسان فى كرامه عبوديه الله سبحانه،و يتنعم بنعم القرب و الزلفى ثم يتمتع بما تيسر له من متاع الحياه الدنيا مما ساقه إليه الحظ أو الاكتساب عارفا بحقوق النعمه ثم ينتقل إلى جوار الله و يدخل دار رضوانه و يخالط هناك الصالحين من عباده،و يحيى حق الحياه قال تعالى:« وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَهِ إِلاّ مَتاعٌ:» الرعد:-٢۶،و قال تعالى:« وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ:» العنكبوت:-۶۴ و قال:« فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّى عَنْ ذِكْرِنا

وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى:» النجم:-٣٠.

فعلى المسلم أن يؤمن بربه و يتربى بتربيته،و يعزم عزمه و يجمع بغيته على ما عند ربه فإنما هو عبد مدبر لا يملك ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و من كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلا بربه الذى بيده الخير و الشر و النفع و الضر و الغنى و الفقر و الموت و الحياه،و كان عليه أن يسير مسير الحياه بالعلم النافع و العمل الصالح فما سعد به من مزايا الحياه الدنيا فموهبه من عند ربه و ما حرم منه احتسب عند ربه أجره،و ما عند الله خير و أبقى.

و ليس هذا من إلغاء الأسباب فى شىء و لا إبطالا للفطره الإنسانيه الداعيه إلى العمل و الاكتساب،النادبه إلى التوسل بالفكر و الإراده،المحرضه إلى الاجتهاد فى تنظيم العوامل و العلل،الموصله إلى المقاصد الإنسانيه و الأغراض الصحيحه الحيويه فقد فصلنا القول فى توضيح ذلک فى موارد متفرقه من هذا الكتاب.

و إذا تسنن المسلمون بهذه السنه الإلهيه،و حولوا هوى قلوبهم عن ذلک التمتع المادى الذى ليس إلا بغيه حيوانيه و غرضا ماديا إلى هذا التمتع المعنوى الذى لا تزاحم فيه و لا حرمان عنده،ارتفعت عن قلوبهم العداوه و البغضاء،و خلصت نفوسهم من الشح و الرين،و أصبحوا بنعمه الله إخوانا،و أفلحوا حق الفلاح قال:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً:» آل عمران:-١٠٣ و قال:« وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ:» الحشر:-٩.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُکَ اللّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »تطييب لنفس النبى ص،و قد قال تعالى قبله:« فَإِنَّ حَسْبَکَ اللّهُ هُوَ الَّذِی أَيَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ » فالمراد-و الله أعلم-يكفيک الله بنصره و بمن اتبعک من المؤمنين،و ليس المراد أن هناک سببين كافيين أو سببا كافيا ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآنى يأبى ذلک.

و ربما قيل:إن المعنى حسبک الله و حسب من اتبعک من المؤمنين بعطف قوله:

« مَنِ اتَّبَعَکَ »على موضع الكاف من« حَسْبُکَ ».

و الکلام علی أی حال مسوق للتحریض علی القتال علی ما یفیده السیاق و القرائن الخارجه فإن تأثیر المؤمنین فی کفایتهم له(ص)إنما هو فی القتال علی ما یسبق إلی الذهن.

و ذکر بعضهم:أن الآیه نزلت بالبیداء قبل غزوه بدر،و علی هذا لا اتصال لها بما بعدها،و أما اتصالها بما قبلها فغیر مقطوع به.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ عَلَی الْقِتٰالِ »إلی آخر الآیه.

التحریض و التحضیض و الترغیب و الحض و الحث بمعنی و الفقه أبلغ و أغزر من الفهم، و قوله:« إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ »أی من الذین کفروا کما قید به الألف بعدا،و کذلک قوله:« وَ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَهٌ »أی مائه صابره کما قید بها« عِشْرُونَ »قبلا.

و قوله:« بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَفْقَهُونَ »الباء للسببیه أو الإله و الجمله تعلیلیه متعلقه بقوله:« یَغْلِبُوا »أی عشرون صابرون منکم یغلبون مائتین من الذین کفروا،و مائه صابره منکم یغلبون ألفا من الذین کفروا کل ذلک بسبب أن الکفار قوم لا یفقهون.

و فقدان الفقه فی الکفار و بالمقابله ثبوته فی المؤمنین هو الذی أوجب أن یعدل الواحد من العشرین من المؤمنین أکثر من العشره من المائتین من الذین کفروا حتی یغلب العشرون من هؤلاء المائتین من أولئک علی ما بنی علیه الحکم فی الآیه فإن المؤمنین إنما یقدمون فیما یقدمون عن إیمان بالله و هو القوه التی لا یعادله و لا یقاومه أی قوه أخری لابتنائه علی الفقه الصحیح الذی یوصفهم بکل سجیه نفسانیه فاضله کالشجاعه و الشهامه و الجرأه و الاستقامه و الوقار و الطمأنینه و الثقه بالله و الیقین بأنه علی إحدی الحسنیین إن قتل ففی الجنه و إن قتل ففی الجنه و إن الموت بالمعنی الذی یراه الکفار و هو الفناء لا مصداق له.

و أما الکفار فإنما اتکاؤهم علی هوی النفس،و اعتمادهم علی ظاهر ما یسوله لهم الشیطان،و النفوس المعتمده علی أهوائها لا تتفق للغایه و إن اتفقت أحیانا فإنما تدوم علیه ما لم یلح لائح الموت الذی تراه فناء،و ما أندر ما تثبت النفس علی هواها حتی حال ما تهدد بالموت و هی علی استقامه من الفکر بل تمیل بأدنی ریح مخالف،و خاصه فی المخاوف العامه و المهاول الشامله کما أثبته التاریخ من انهزام المشرکین یوم بدر و هم

ألف بقتل سبعين منهم،و نسبه السبعين إلى الألف قريبه من نسبه الواحد إلى أربعه عشر فكان انهزامهم فى معنى انهزام الأربعه عشر مقاتلا من مقاتل واحد،و ليس ذلك إلا لفقه المؤمنين الذى يستصحب العلم و الإيمان،و جهل الكفار الذى يلازمه الكفر و الهوى.

قوله تعالى:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ »إلخ أى إن يكن منكم مائه صابره يغلبوا مائتين من الذين كفروا و إن يكن منكم ألف صابر يغلبوا ألفين من الذين كفروا على وزان ما مر فى الآيه السابقه.

و قوله:« وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً »المراد به الضعف فى الصفات الروحيه و لا محاله ينتهى إلى الإيمان فإن الإيقان بالحق هو الذى ينبعث عنه جميع السجايا الحسنه الموجبه للفتح و الظفر كالشجاعه و الصبر و الرأى المصيب و أما الضعف من حيث العده و القوه فمن الضرورى أن المؤمنين لم يزالوا يزيدون عده و قوه فى زمن النبى ص.

و قوله:« بِإِذْنِ اللّٰهِ »تقييد لقوله:« يَغْلِبُوا »أى إن الله لا يشاء خلافه و الحال أنكم مؤمنون صابرون،و بذلك يظهر أن قوله:« وَ اللّٰهُ مَعَ الصّٰابِرِينَ » يفيد فائده التعليل بالنسبه إلى الإذن.

و قوله تعالى فى الآيه السابقه تعليلا للحكم:« بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ »و كذا فى هذه الآيه:« وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً »« وَ اللّٰهُ مَعَ الصّٰابِرِينَ »و عدم الفقه و الضعف الروحى و الصبر من العلل و الأسباب الخارجيه المؤثره فى الغلبه و الظفر و الفوز بلا شك يدل على أن الحكم فى الآيتين مبنى على ما اعتبر من الأوصاف الروحيه فى الفئتين:

المؤمنين و الكفار،و إن القوى الداخله الروحيه التى اعتبرت فى الآيه الأولى ما فى المؤمن الواحد منها غالبه على القوى الداخله الروحيه فى عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير إليه بقوله:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ »لا يربو ما فى المؤمن الواحد منها-من متوسطى المؤمنين-إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوه من أثرها بنسبه الثمانين فى المائه،و تبدلت العشرون و المائتان فى الآيه الأولى إلى المائه و المائتين فى الآيه الثانيه،و المائه و الألف فى الأولى إلى الألف و الألفين فى الثانيه.

و البحث الدقيق فى العوامل المولده للسجايا النفسانيه بحسب الأحوال الطارئه على الإنسان فى المجتمعات يهدى إلى ذلك فإن المجتمعات المنزليه و الأحزاب المنعقده

فی سبیـل غرض من الأـغراض الحیویه دنیویه أو دینیه فی أول تکونهـا و نشأتها تحس بالموانع المضاده و المحن الهادمه لبنیانها من کل جانب فتتنبه قواها الدافعه للجهاد فی سبیل هدفها المشـروع عندها،و یستیقظ ما نامت من نفسانیاتها للتحذر من المکاره و التفدیه فی طریق مطلوبها بالمال و النفس.

و لا تزال تجاهـد و تفـدی لیلها و نهارها،و تتقوی و تتقدم حتی تمهد لنفسـها حیاه فیها بعض الاسـتقلال،و یصـفو لها الجو بعض الصـفاء و یکثر جمعها و یضـرب بجرانها الأرض أخـذت بالاسـتفاده من فوائـد جهـدها و التنعم بنعمه الراحه،و التوسع فی متسع الأمن،و شرعت القوی الروحیه الباسطه الباعثه للعمل فی الخمود.

علی أن المجتمع و إن قلت أفراده لاـ یخلو من اختلاـف فی الإیمـان،و السـجایا الروحیه الجمیله من قوی فیهـا و ضـعیف،و کلما کثرت الأـفراد ازداد ضـعفاء الإیمـان و الـذین فی قلوبهم مرض و المنـافقون فتنزلت القوی الروحیه فی الفرد المتوسط و ارتفعت کفه المیزان عما کانت علیه من الثقل.

و الجماعات الدینیه و الأحزاب الدنیویه فی ذلک علی السواء و السنه الطبیعیه الجاریه فی النظام الإنسانی تجری علی الجمیع علی نسق واحـد،و قـد أثبتت التجربه القطعیه أن المجتمعـات المؤتلفه لغرض هـام کلمـا قلت أفرادهـا و قویت رقباؤهـا و مزاحموها،و أحـاطت بهـا المحن و الفتن کـانت أکثر نشاطـا للعمـل و أحـد فی الأثر و کلما کثرت أفرادها و قلت مزاحماتها و الموانع الحائله بینها و بین مقاصدها و مطالبها کانت أکثر خمودا و أقل تیقظا و أسفه حلما.

و التـدبر الکافی فی مغازی النبی ص ینور ذلک فهـذه غزوه بدر غلب فیها المسـلمون و هم ثلاثمائه و بضـعه عشـر رجلا علی ما بهم من رثاثه الحال و قله العده و فقد السلاح و القوه کفار قریش و هم یعدلون ثلاثه أمثال المسلمین أو یزیدون علی ما لهم من العزه و الشوکه و القوه ثم ما جری علی المسـلمین فی غزوه أحد ثم فی غزوه الخندق ثم فی غزوه خیبر ثم فی غزوه حنین و هی أعجبها و قد ذکرها الله سبحانه بما لا یبقی لباحث ریبا فی ذلک إذ قال:« وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْکُمْ شَیْئاً وَ ضاقَتْ عَلَیْکُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ »إلی آخر الآیات.

فالآیه تدل أولا علی أن الإسلام کان کلما زاد فی زمن النبی ص عزه و شوکه

ظاهرا زادت نقصا و خمودا فی قوی المسلمین الروحیه العامه و درجه إیمانهم و سجایاهم الجمیله النفسانیه المعنویه باطنا حتی استقرت بعد غزوه بدر-بقلیل أو کثیر-علی خمس ما کانت علیه قبلها کما یشیر إلیه بعض الإشاره قوله تعالی فی الآیات التالیه:

«مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیٰا وَ اللّٰهُ یُرِیدُ الْآخِرَهَ وَ اللّٰهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ لَوْ لاٰ کِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ »الآیات.

و ثانیا:أن الظاهر أن الآیتین نزلتا دفعه واحده فإنهما و إن کانتا تخبران عن حال المؤمنین فی زمانین مختلفین کما یشیر إلیه قوله فی الآیه الثانیه:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْکُمْ »لکن الآیتین تقیسان کما مر طبع قوی المؤمنین الروحیه فی زمانین مختلفین،و سیاق الثانیه بالنظر إلی هذا القیاس بحیث لا یستقل عن الأولی،و وجود حکمین مختلفین فی زمانین لا یوجب أن ینزل الآیه المتضمنه لأحدهما فی زمان غیر زمان نزول الأخری المتضمنه للآخر.

نعم لو کانت الآیتان مقصورتین فی بیان الحکم التکلیفی فحسب کان الظاهر نزول الثانیه بعد زمان نزلت فیه الأولی.

و ثالثا:أن ظاهر قوله تعالی:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْکُمْ »کما قیل کون الآیتین مسوقتین لبیان الحکم التکلیفی لأن التخفیف لا یکون إلا بعد التکلیف فاللفظ لفظ الخبر و المراد به الأمر و محصل المراد فی الآیه الأولی:لیثبت الواحد منکم للعشره من الکفار و فی الآیه الثانیه:الآن خفف الله فی أمره فلیثبت الواحد منکم للاثنین من الکفار.

و اختصاص التخفیف بباب التکالیف-کما قیل-و إن أمکنت المناقشه فیه لکن ظهور الآیتین فی وجود حکمین مختلفین مترتبین بحسب الزمان أحدهما أخف من الآخر لا ینبغی الارتیاب فیه.

و رابعا:أن ظاهر التعلیل فی الآیه الأولی بالفقه،و فی الآیه الثانیه بالصبر مع تقیید المقاتل من المؤمنین فی الآیتین جمیعا بالصبر یدل علی أن الصبر یرجح الواحد فی قوه الروح علی مثلیه،و الفقه یرجحه فیها علی خمسه أمثاله فإذا اجتمعا فی واحد یرجح علی عشره أمثال نفسه،و الصبر لا یفارق الفقه و إن جاز العکس.

و خامسا:أن الصبر واجب فی القتال علی أی حال.

(بحث روائی)

فی تفسیر البیضاوی،«: فی قوله تعالی اَلَّذِینَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ-ثُمَّ یَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِی کُلِّ مَرَّةٍ »هم یهود بنی قریظه عاهدهم رسول الله ص-أن لا- یمالئوا علیه فأعانوا المشرکین بالسلاح-و قالوا:نسینا،ثم عاهدهم فنکثوا-و مالئوهم علیه یوم الخندق، و رکب کعب بن الأشرف إلی مکه فحالفهم.

أقول:و روی ذلک عن ابن عباس و مجاهد،و روی عن سعید بن جبیر أن الآیه نزلت فی سته رهط من الیهود منهم ابن تابوت.و إیضاح ما تشیر إلیه الآیه من نقض الیهود میثاق النبی ص مره بعد مره و ما قاساه من المحن من ناحیتهم یحتاج إلی سیر إجمالی فیما جری بینه(ص)و بینهم من الأمر بعد هجرته(ص)إلی المدینه إلی سبع سنین من الهجره.

و قد کانت طوائف من الیهود هاجرت من بلادها إلی الحجاز و توطنوا بها و بنوا فیها الحصون و القلاع،و زادت نفوسهم و کثرت أموالهم و عظم أمرهم و قد مرت فی ذیل قوله تعالی:« وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ کِتٰابٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ وَ کٰانُوا مِنْ قَبْلُ یَسْتَفْتِحُونَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ مٰا عَرَفُوا کَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَی الْکٰافِرِینَ:» البقره:-٨٩ فی الجزء الأول من الکتاب روایات فی بدء مهاجرتهم إلی الحجاز و کیفیه نزولهم حول المدینه و بشارتهم الناس بالنبی ص.

و لما هاجر النبی ص إلی المدینه و دعاهم إلی الإسلام استنکفوا عن الإیمان به فصالح یهود المدینه و عاهدهم بکتاب کتب بینه و بینهم و هم ثلاثه رهط حول المدینه:

بنو قینقاع،و بنو النضیر،و بنو قریظه أما بنو قینقاع فنکثوا العهد فی غزوه بدر فسار إلیهم النبی ص فی منتصف شوال فی السنه الثانیه من الهجره بعد بضعه و عشرین یوما من وقعه بدر فتحصنوا فی حصونهم فحاصرهم أشد الحصار،و بقوا علی ذلک خمسه عشر یوما.

ثم نزلوا علی حکم النبی ص فی نفوسهم و أموالهم و نسائهم و ذراریهم فأمر بهم فکتفوا،و کلم عبد الله بن أبی بن سلول النبی ص فیهم و ألح علیه و کانوا حلفاءه فوهبهم له،و أمرهم أن یخرجوا من المدینه و لا یجاوروه بها فخرجوا إلی أذرعات الشام و معهم نساؤهم و ذراریهم،و قبض منهم أموالهم غنیمه الحرب،و کانوا ستمائه مقاتل من أشجع الیهود.

و أما بنو النضـير فإنهم كادوا النبى ص إذ خرج إليهم فى نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوه بدر،و كلمهم أن يعينوه فى ديه نفر أو رجلين من الكلابيين قتلهم عمرو بن أميه الضمرى فقالوا:نفعل يا أبا القاسم اجلس هنا حتى نقضى حاجتك، و خلا بعضهم ببعض فتأمروا بقتله و اختاروا من بينهم عمرو بن جحاش أن يأخذ حجر رحى فيصعد فيلقه على رأسه و يشدخه به و حذرهم سلام بن مشكم و قال لهم:لا تفعلوا ذلك فوالله ليخبرن بما هممتم به،و إنه لنقض العهد الذى بيننا و بينه.

فجاءه الوحى و أخبره ربه بما هموا به فقام(ص)من مجلسه مسرعا و توجه إلى المدينه،و لحقه أصحابه و استفسروه عن قيامه و توجهه فأخبرهم بما همت به بنو النضير، و بعث إليهم من المدينه أن اخرجوا من المدينه و لا تساكنونى بها،و قد أجلتكم فمن وجدته بعد ذلك بها،منكم ضربت عنقه فأقاموا أياما يتجهزون للخروج.

و أرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبى أن لا تخرجوا من دياركم فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم و يموتون دونكم،و ينصركم بنو قريظه و حلفاؤكم من غطفان،و أرضاهم بذلك.

فبعث رئيسهم حيى بن أخطب إلى النبى ص يقول:إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك فكبر رسول الله ص و كبر أصحابه،و أمر عليا(ع)بحمل الرايه و السير إليهم فساروا و أحاطوا بديارهم،و غدر بهم عبد الله بن أبى،و لم ينصرهم بنو قريظه و لا حلفاؤهم من غطفان.

و قد كان النبى ص أمر بقطع نخيلهم و إحراقها فجزعوا من ذلك و قالوا:يا محمد لا تقطع فإن كان لك فخذه،و إن كان لنا فاتركه لنا.ثم قالوا له بعد أيام:يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا قال:لا و لكن تخرجون و لكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك و بقوا أياما على ذلك ثم رضوا و سألوه ذلك قال:لا و لكن تخرجون و لا يحمل أحد منكم شيئا،و من وجدنا معه شيئا من ذلك قتلناه فخرجوا فوقع قوم منهم إلى فدك و وادى القرى،و قوم إلى أرض الشام،و كان مالهم فيئا لله و رسوله من غير أن ينال شيئا من ذلك جيش الإسلام،و قصتهم مذكوره فى سوره الحشر،و من كيد بنى النضير للنبى ص تخريب الأحزاب من قريش و غطفان و غيرهم عليه(ص).

و أما بنو قريظه فقد كانوا على الصلح و السلم حتى وقعت غزوه الخندق و قد كان

حیی بن أخطب رئیس بنی النضیر رکب إلی مکه و حث قریشا علی النبی ص و حزب الأحزاب،و فی ذلک رکب إلی بنی قریظه و جاءهم فی دیارهم فلم یزل یوسوس إلیهم و یعزهم و یلح علیهم و یکلم رئیسهم کعب بن أسد فی ذلک و نقض العهد و مناجزه النبی ص حتی أرضاهم بذلک و اشترطوا علیه أن یدخل فی حصنهم فیصیبه ما أصابهم فقبل و دخل.

فنقضوا العهد و مالوا إلی الأحزاب الذین حاصروا المدینه و أظهروا سب النبی ص و أحدثوا ثلمه أخری.

فلما فرغ النبی ص من أمر الأحزاب أتاه جبرئیل بوحی من الله یأمره بالمسیر إلیهم فسار إلیهم و یحمل رایته علی(ع)و نازل حصون بنی قریظه،و حصرهم خمسه و عشرین یوما.

فلما اشتد علیهم الحصار عرض علیهم رئیسهم کعب بن أسد أن یختاروا أحد ثلاث خصال:إما أن یسلموا و یدخلوا فی دین محمد،و إما أن یقتلوا ذراریهم و یخرجوا إلیه بسیوفهم مصلته یناجزونه حتی یظفروا به أو یقتلوا عن آخرهم،و إما أن یهجموا علیه و یکسبوه یوم السبت لأنهم-یعنی المسلمین-قد أمنوا أن یقاتلوهم فیه!.

فأبوا علیه أن یجیبوه إلی واحده منهن فبعثوا إلی النبی ص أن أرسل إلینا أبا لبابه بن عبد المنذر نستشیره فی الأمر؛و کان أبو لبابه مناصحا لهم لأن عیاله و ذریته و ماله کانت عندهم.

فأرسله إلیهم فلما رأوه قاموا إلیه یبکون،و قالوا:له کیف تری أن ننزل علی حکم محمد؟قال:نعم،و أشار بیده إلی حلقه:أنه الذبح،قال أبو لبابه:فوالله ما زلت قدمای حتی علمت أنی خنت الله و رسوله،و أوحی الله إلی نبیه ص فی أمر أبی لبابه.

فندم أبو لبابه و مضی علی وجهه حتی أتی المسجد و ربط نفسه علی ساریه من سواری المسجد تائبا لله،و حلف ألا یحله إلا النبی ص أو یموت،فبلغ ذلک النبی ص فقال:دعوه حتی یتوب الله علیه،ثم إن الله تاب علیه و أنزل توبته و حله النبی ص.

ثم إن بنی قریظه نزلوا علی حکم النبی ص،و کانوا موالی أوس فکلمته أوس فی أمرهم مستشفعین و آل الأمر إلی تحکیم سعد بن معاذ الأوسی فی أمرهم و رضوا

و رضی به النبی(ص)فأحضر سعد و کان جریحا.

و لما کلم سعد رحمه الله فی أمرهم قال:لقد آن لسعد أن لا یأخذه فی الله لومه لائم ثم حکم فیهم بقتل الرجال و سبی النساء و الذراری و أخذ الأموال فأجری علیهم ما حکم به سعد فضربت أعناقهم عن آخرهم،و کانوا ستمائه مقاتل أو سبعمائه،و قیل أکثر،و لم ینج منهم إلا نفر یسیر آمنوا قبل تقتیلهم،و هرب عمرو بن سعدی منهم و لم یکن داخلا معهم فی نقض العهد،و سبیت النساء إلا امرأه واحده ضربت عنقها و هی التی طرحت علی رأس خلاد بن السوید بن الصامت رحی فقتلته.

ثم أجلی النبی(ص)من کان بالمدینه من الیهود ثم سار((ص))إلی یهود خیبر لما کان من کیدهم و سعیهم فی حث الأحزاب علیه و تألیفهم من جمیع القبائل العربیه لحربه فنازل حصونهم و حصرهم أیاما،و أرسل النبی(ص)إلی قتالهم أبا بکر فی جمع یوما فانهزم،ثم عمر بن الخطاب فی جمع یوما فانهزم.

و عند ذلک

قال النبی(ص): «لأعطین الرایه غدا رجلا یحب الله و رسوله- و یحبه الله و رسوله کرار غیر فرار-لا یرجع حتی یفتح الله علی یدیه »و لما کان من غد أعطی الرایه علیا(ع)و أرسله إلی قتال القوم فتقدم إلیهم و قتل مرحبا الفارس المعروف منهم،و هزمهم و قلع بیده باب حصنهم و فتح الله علی یده الحصن،و کان ذلک بعد صلح الحدیبیه فی المحرم سنه سبع من الهجره.

ثم أجلی النبی(ص)من بقی من الیهود و قد نصح لهم قبل ذلک أن یبیعوا أموالهم و یأخذوا أثمانها.انتهی ما أردنا تلخیصه من قصه الیهود مع النبی(ص).

و فی تفسیر العیاشی،عن جابر": فی قوله تعالی:« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ »الآیه- نزلت فی بنی أمیه هم شر خلق الله-هم« اَلَّذِینَ کَفَرُوا »فی باطن القرآن،و هم« اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ »:

أقول:و روی مثله القمی عن أبی حمزه عنه(ع)

،و هو من باطن القرآن کما صرح به فی الروایه لیس بالظاهر.

و فی الکافی،بإسناده عن سهل بن زیاد عن بعض أصحابه عن عبد الله بن سنان

عن أبی عبد الله(ع)قال:قال رسول الله(ص): ثلاث من کن فیه کان منافقا- و إن صام و صلی و زعم أنه مسلم:من إذا ؤتمن خان،و إن حدث کذب، و إذا وعد أخلف إن الله عز و جل قال فی کتابه:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْخٰائِنِینَ »و قال:« أَنَّ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَیْهِ إِنْ کٰانَ مِنَ الْکٰاذِبِینَ »و فی قوله عز و جل:« وَ اذْکُرْ فِی الْکِتٰابِ إِسْمٰاعِیلَ-إِنَّهُ کٰانَ صٰادِقَ الْوَعْدِ وَ کٰانَ رَسُولاً نَبِیًّا » و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ »الآیه- قال:قال:السلاح.

و فی التفسیر العیاشی،عن محمد بن عیسی عمن ذکره عن أبی عبد الله(ع): فی الآیه قال:سیف و ترس.

و فی الفقیه،عن الصادق(ع)مرسلا: فی الآیه قال:منه الخضاب بالسواد.

و فی الکافی،بإسناده عن جابر عن أبی جعفر(ع): دخل قوم علی الحسین بن علی(ع) فرأوه مختضبا بالسواد-فسألوه عن ذلک فمد یده إلی لحیته ثم قال:أمر رسول الله ص فی غزاه غزاها أن یختضبوا بالسواد-لیقووا به علی المشرکین.

و فی تفسیر العیاشی،عن جابر الأنصاری قال:قال رسول الله ص: « وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ »قال:الرمی:

أقول:و رواه فی الکافی،بإسناده عن عبد الله بن المغیره رفعه عنه(ص)، و الزمخشری فی ربیع الأبرار،عن عقبه بن عامر عنه، و السیوطی فی الدر المنثور،عن أحمد و مسلم و أبی داود و ابن ماجه و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبی الشیخ و أبی یعقوب إسحاق بن إبراهیم و البیهقی عن عقبه بن عامر الجهنی عنه(ص).

و فی الدر المنثور،أخرج أبو داود و الترمذی و ابن ماجه و الحاکم و صححه و البیهقی عن عقبه بن عامر الجهنی رضی الله عنه قال:سمعت رسول الله ص یقول:

إن الله یدخل بالسهم الواحد ثلاثه نفر الجنه:صانعه الذی یحتسب فی صنعته الخیر- و الذی یجهز به فی سبیل الله،و الذی یرمی به فی سبیل الله-.

و قال:ارموا و ارکبوا،و أن ترموا خیر من أن ترکبوا،و قال:کل شیء یلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثه:رمیه عن قوسه،و تأدیبه فرسه،و ملاعبته

أهله فإنهن من الحق،و من علم الرمی ثم ترکه فهی نعمه کفرها.

أقول:و فی هذه المعانی روایات أخر،و خاصه فی الخیل و الرمی و الروایات علی أی حال من باب عد المصادیق.

و فی الدر المنثور،أخرج سعد و الحارث بن أبی أسامه و أبو یعلی و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن قانع فی معجمه و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن منده و الرویانی فی مسنده و ابن مردویه و ابن عساکر عن یزید بن عبد الله بن غریب عن أبیه عن جده عن النبی ص قال: فی قوله:« وَ آخَرِینَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اللّٰهُ یَعْلَمُهُمْ »قال:

هم الجن،و لا تخبل الشیطان إنسانا فی داره فرس عتیق.

أقول:و فی معناها روایات أخر،و محصل الروایات ربط قوله:« وَ آخَرِینَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اللّٰهُ یَعْلَمُهُمْ »بقوله:« وَ مِنْ رِبٰاطِ الْخَیْلِ »و هی من قبیل الجری و لیس من التفسیر فی شیء،و المراد من الآیه بظاهرها العدو من الإنسان کالکفار و المنافقین.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن عبد الرحمن بن أبزی": أن النبی ص کان یقرأ:

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ

.

و فیه،أخرج أبو عبید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس":

فی قوله:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا »قال:نسختها هذه الآیه:« قٰاتِلُوا الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ إلی قوله -صٰاغِرُونَ ».

أقول:و روی نسخها بآیه البراءه:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »و الآیه لا تخلو عن إیماء إلی کون الحکم مؤجلا حیث قال:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ ».

و فی الکافی،بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع): فی قوله تعالی:« وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا »قلت:ما السلم؟قال:الدخول فی أمرنا،و فی روایه أخری:الدخول فی أمرک.

أقول:و هو من الجری.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن عساکر عن أبی هریره قال": مکتوب علی العرش

لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى-محمد عبدى و رسولى أيدته بعلى؛و ذلك قوله:

« هُـوَ الَّذِی أَيَّدَکَ بِنَصْـرِهِ وَ بِـالْمُؤْمِنِينَ :» أقـول:و رواه الصـدوق فى المعـانى،بإسـناده عـن أبى هريره،و أبـو نعيـم فى حليه الأولياء،بإسناده عنه،و كذا ابن شهرآشوب مسندا عن أنس عن النبى ص.

و فى تفسـير البرهان،عن شـرف الـدين النجفى قال: تأويله ذكره أبو نعيم فى حليه الأولياء بطريقه عن أبى هريره قال":نزلت هـذه الآيه فى على بن أبى طالب، و هو المعنى بقوله:المؤمنين.

أقول:و لفـظ الآـيه لاـ يساعـد على ذلك اللهم إلا أن يكون المراد بالاتباع تمام الاتباع الـذى لا يشـذ عنه شأن من الشـئون،و من للتبعيض دون البيان إن ساعد عليه السياق.

و فى الدر المنثور،أخرج البزار عن ابن عباس قال": لما أسلم عمر قال المشركون:

قد انتصف القوم منا اليوم،و أنزل الله:« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُکَ اللَّهُ-وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ».

أقول:و روى هذا المعنى فى روايات أخر،و الاعتبار لا يساعد عليه فإن الزمان الذى أسلم فيه لم يكن على نعت يصحح الخطاب بمثل قوله:« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُکَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »و اليوم يوم الفتنه و العسره،و قد دام الحال على ذلك بعده سنين متماديه،و ما كان النبى ص يومئذ يحتاج إلى شـىء يعينه العده،و فى هذه الروايات أنه كان تمام الأربعين أو رابع أربعين.على أن الظاهر أن الآيه مدنيه من جمله آيات سوره الأنفال.

و فيه،أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن الزهرى": فى قوله:« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُکَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »قال:نزلت فى الأنصار.

أقول:و سياق الآـيه فى عـدم المساعـده عليه كـالروايتين السـابقتين اللهم إلاـ أن يكون المراد نزولهـا يوم آمن به الأنصار أو يوم تابعوه، و الظاهر أن الآيه نزلت فى تطييب نفس النبى ص بجميع من كان معه من المؤمنين:مهاجريهم و أنصارهم، و هى توطئه و تمهيد لما فى الآيه التاليه من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال.

و فى تفسير القمى،قال: قال":، كان الحكم فى أول النبوه فى أصحاب رسول الله

ص-أن الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشره من الكفار-فإن هرب منهم فهو الفار من الزحف،و المائه يقاتلون ألفا-.

ثم علم الله أن فيهم ضعفا لا يقدرون على ذلك-فأنزل الله:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً-فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صٰابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »ففرض عليهم أن يقاتل أقل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار-فإن فر منهما فهو الفار من الزحف-فإن كانوا ثلاثه من الكفار و واحدا من المسلمين-ففر المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف.

أقول:و فی تفسير العياشی،عن الحسين بن صالح عن الصادق عن علی(ع) ما يقرب منه،و روی ما فی معناها فی الدر المنثور،بطرق عديده عن ابن عباس و غيره.

و فی الدر المنثور،أخرج الشيرازی فی الألقاب و ابن عدی و الحاكم و صححه عن ابن عمر": أن رسول الله ص قرأ:« اَلْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ-وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً رفع.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١]

اشاره

مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي اَلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيٰا وَ اَللّٰهُ يُرِيدُ اَلْآخِرَةَ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اَللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ اَلْأَسْرىٰ إِنْ يَعْلَمِ اَللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّٰا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا اَللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

ص:١٣٣

(بیان)

عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حین أخذوا الأسری من المشرکین ثم اقترحوا علی رسول الله ص أن لا یقتلهم و یأخذ منهم الفداء لیصلح به حالهم و یتقووا بذلک علی أعداء الدین،و قد شدد سبحانه فی العتاب إلا أنه أجابهم إلی مقترحهم و أباح لهم التصرف من الغنائم.و هی تشتمل الفداء.

و فی آخر الآیات ما هو بمنزله التطمیع و الوعد الجمیل للأسری إن أسلموا و الاستغناء عنهم إن أرادوا خیانه النبی ص.

قوله تعالی:« مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ »إلی آخر الآیات الثلاث، الأسر :الشد علی المحارب بما یصیر به فی قبضه الآخذ له کما قیل و الأسیر هو المشدود علیه،و جمعه الأسری و الأسراء و الأساری و الأساری،و قیل الأساری جمع جمع و علی هذا فالسبی أعم موردا من الأسر لصدقه علی أخذ من لا یحتاج إلی شد کالذراری.

و الثخن بالکسر فالفتح الغلظ،و منه قولهم:أثخنته الجراح و أثخنه المرض قال الراغب فی المفردات،:یقال:ثخن الشیء فهو ثخین إذا غلظ فلم یسل و لم یستمر فی ذهابه،و منه أستعیر قولهم:أثخنته ضربا و استخفافا قال الله تعالی:« مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ »« حَتّٰی إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثٰاقَ » فالمراد بإثخان النبی فی الأرض استقرار دینه بین الناس کأنه شیء غلیظ انجمد فثبت، بعد ما کان رقیقا سائلا مخشی الزوال بالسیلان.

و العرض ما یطرأ علی الشیء و یسرع فیه الزوال،و لذلک سمی به متاع الدنیا لدثوره و زواله عما قلیل،و الحلال وصف من الحل مقابل العقد و الحرمه کأن الشیء الحلال کان معقودا علیه محروما منه فحل بعد ذلک؛و قد مر معنی الطیب و هو الملاءمه للطبع.

و قد اختلف المفسرون فی تفسیر الآیات بعد اتفاقهم علی أنها إنما نزلت بعد وقعه بدر تعاتب أهل بدر و تبیح لهم الغنائم.

و السبب فی اختلاف ما ورد فی سبب نزولها و معانی جملها من الأخبار المختلفه،

و لو صحت الروايات لكان التأمل فيها قاضيا بتوسع عجيب فی نقل الحديث بالمعنى حتى ربما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضه.

فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها فمن ظاهر فی أن العتاب و التهديد متوجه إلى النبی ص و المؤمنين جميعا،أو إلى النبی و المؤمنين ما عدا عمر،أو ما عدا عمر و سعد بن معاذ،أو إلى المؤمنين دون النبی أو إلى شخص أو أشخاص أشاروا إليه بالفداء بعد ما استشارهم.

و من قال:إن العتاب إنما هو على أخذهم الفداء،أو على استحلالهم الغنيمه قبل الإباحه من جانب الله،و النبی ص يشاركهم فی ذلك لما أنه بدا باستشارتهم مع أن القوم إنما أخذوا الفداء بعد نزول الآيات لا قبله حتى يعاتبوا عليه،و النبی ص أجل من أن يجوز فی حقه استحلال شیء قبل أن يأذن الله له فيه و يوحی بذلك إليه، و حاشا ساحه الحق سبحانه أن يهدد نبيه بعذاب عظيم ليس من شأنه أن ينزل عليه من غير جرم أجرمه و قد عصمه من المعاصی،و العذاب العظيم ليس ينزل إلا على جرم عظيم لا كما قيل:إن المراد به الصغائر.

فالذی ينبغی أن يقال:إن قوله تعالى:« مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي اَلْأَرْضِ »إن السنه الجاريه فی الأنبياء الماضين(ع)أنهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم و ظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفوا عن محاده الله و رسوله،و كانوا لا يأخذون أسرى حتى يثخنوا فی الأرض،و يستقر دينهم بين الناس فلا مانع بعد ذلك من الأسر ثم المن أو الفداء كما قال تعالى فيما يوحی إلى نبيه ص بعد ما علا أمر الإسلام و استقر فی الحجاز و اليمن:« فَإِذٰا لَقِيتُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ اَلرِّقٰابِ حَتّٰى إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا اَلْوَثٰاقَ فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰاءً:» سوره محمد:-۴.

و العتاب على ما يهدی إليه سياق الكلام فی الآيه الأولى إنما هو على أخذهم الأسرى كما يشهد به أيضا قوله فی الآيه الثانيه:« لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ » أی فی أخذكم و إنما كانوا أخذوا عند نزول الآيات الأسرى دون الفداء و ليس العتاب على استباحه الفداء أو أخذه كما احتمل.

بل يشهد قوله فی الآيه التاليه:« فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ

»-حيث افتتحت بفاء التفريع التى تفرع معناها على ما تقدمها-:

على أن المراد بالغنيمه ما يعم الفداء،و أنهم اقترحوا على النبى ص أن لا يقتل الأسرى و يأخذ منهم الفداء كما سألوه عن الأنفال أو سألوه أن يعطيهموها كما فى آيه صدر السوره و كيف يتصور أن يسألوه الأنفال،و لا يسألوه أن يأخذ الفداء و قد كان الفداء المأخوذ-على ما فى الروايات-يقرب من مائتين و ثمانين ألف درهم؟.

فقد كانوا سألوا النبى ص أن يعطيهم الغنائم،و يأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على أخذهم الأسرى ثم أباح لهم ما أخذوا الأسرى لأجله و هو الفداء لا لأن النبى ص شاركهم فى استباحه الفداء و استشارهم فى الفداء و القتل حتى يشاركهم فى العتاب المتوجه إليهم.

و من الدليل من لفظ الآيه على أن النبى ص لا يشاركهم فى العتاب إن العتاب فى الآيه متعلق بأخذ الأسرى و ليس فيها ما يشعر بأنه استشارهم فيه أو رضى بذلك و لم يرد فى شىء من الآثار أنه(ص)وصاهم بأخذ الأسرى و لا قال قولا يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك مما أقدمت عليه عامه المهاجرين و الأنصار على قاعدتهم فى الحروب:

إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء فقد ورد فى الآثار أنهم بالغوا فى الأسر و كان الرجل يقى أسيره أن يناله الناس بسوء إلا على(ع)فقد أكثر من قتل الرجال و لم يأخذ أسيرا.

فمعنى الآيات:« مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ »و لم يعهد فى سنه الله فى أنبيائه« أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ »و يحق له أن يأخذهم و يستدر على ذلك شيئا« حَتّٰى يُثْخِنَ »و يغلظ« فِي الْأَرْضِ » و يستقر دينه بين الناس« تُرِيدُونَ »أنتم معاشر أهل بدر-و خطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبسين باقتراح الفداء على النبى ص- « عَرَضَ الدُّنْيٰا »و متاعها السريع الزوال « وَ اللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ »بتشريع الدين و الأمر بقتال الكفار،ثم فى هذه السنه التى أخبر بها فى كلامه؛« وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ »لا يغلب « حَكِيمٌ »لا يلغو فى أحكامه المتقنه.

« لَوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ »يقتضى أن لا يعذبكم و لا يهلككم،و إنما أبهم لأن الإبهام أنسب فى مقام المعاتبه ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن،و لا يتعين له فيهون عنده أمره« لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ »أى فى أخذكم الأسرى فإن الفداء و الغنيمه لم

يؤخذا قبل نزول الآيات و إخبارهم بحليتها و طيبها« عَذٰابٌ عَظِيمٌ »و هو كما تقدم يدل على عظم المعصيه لأن العذاب العظيم إنما يستحق بالمعصيه العظيمه« فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ » و تصرفوا فيما أحرزتم من الفائده سواء كان مما تسلطتم عليه من أموال المشركين أو مما أخذتم منهم من الفداء« حَلاٰلاً طَيِّباً »أى حالكونه حلالا طيبا بإباحه الله سبحانه « وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »و هو تعليل لقوله:« فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ »إلخ أى غفرنا لكم و رحمناكم فكلوا مما غنمتم أو تعليل لجميع ما تقدم أى لم يعذبكم الله بل أباحه لكم لأنه غفور رحيم.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرىٰ »إلى آخر الآيه كون الأسرى بأيديهم استعاره لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشىء يكون فى يد الإنسان يقلبه كيف يشاء.

و قوله:« إِنْ يَعْلَمِ اللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً »كنايه عن الإيمان أو اتباع الحق الذى يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم فى آخر الآيه بالمغفره،و لا مغفره مع شرك قال تعالى:

« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ:» النساء-۴۸.

و معنى الآيه:يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم و أخذت منهم الفداء:أن ثبت فى قلوبكم الإيمان و علم الله منكم ذلك-و لا يعلم إلا ما ثبت و تحقق-يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء و يغفر لكم و الله غفور رحيم.

قوله تعالى:« وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ »إلخ أمكنه منه أى أقدره عليه و إنما قال أولا:« خِيٰانَتَكَ »ثم قال:« خٰانُوا اللّٰهَ »لأنهم أرادوا بالفديه أن يجمعوا الشمل ثانيا و يعودوا إلى محاربته(ص)،و أما خيانتهم لله من قبل فهى كفرهم و إصرارهم على أن يطفئوا نور الله و كيدهم و مكرهم.

و معنى الآيه:إن آمنوا بالله و ثبت الإيمان فى قلوبهم آتاهم الله خيرا مما أخذ منهم و غفر لهم،و إن أرادوا خيانتك و العود إلى ما كانوا عليه من العناد و الفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم و أقدرك عليهم و هو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانيا،و الله عليم بخيانتهم لو خانوا حكيم فى إمكانك منهم.

(بحث روائی)

فی المجمع،": فی قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ »إلخ-قال:کان القتلی من المشرکین یوم بدر سبعین-قتل منهم علی بن أبی طالب(ع)سبعه و عشرین (۱)، و کان الأسری أیضا سبعین،و لم یؤسر أحد من أصحاب النبی ص فجمعوا الأساری، و قرنوهم فی الحبال،و ساقوهم علی أقدامهم،و قتل من أصحاب رسول الله ص تسعه رجال-منهم سعد بن خیثمه و کان من النقباء من الأوس-.

قال:و عن محمد بن إسحاق قال:استشهد من المسلمین یوم بدر أحد عشر رجلا:

أربعه من قریش،و سبعه من الأنصار،و قیل:ثمانیه،و قتل من المشرکین بضعه و أربعون رجلا

(۲)

(.

قال:و عن ابن عباس قال": لما أمسی رسول الله ص یوم بدر-و الناس محبوسون بالوثاق بات ساهرا أول اللیله-فقال له أصحابه:ما لک لا تنام؟فقال(ع):سمعت أنین عمی العباس فی وثاقه،فأطلقوه فسکت فنام رسول الله ص.

قال:و روی عبیده السلمانی عن رسول الله ص:أنه قال لأصحابه یوم بدر فی الأساری:إن شئتم قتلتموهم،و إن شئتم فادیتموهم-و استشهد منکم بعدتهم،و کانت الأساری سبعین-فقالوا:بل نأخذ الفداء فنستمتع به-و نتقوی به علی عدونا،و لیستشهد منا بعدتهم-قال عبیده طلبوا الخیرتین کلتیهما (۳)فقتل منهم یوم أحد سبعون.

و فی کتاب علی بن إبراهیم،": لما قتل رسول الله ص النضر بن الحارث و عقبه بن أبی معیط-خافت الأنصار أن یقتل الأساری-فقالوا:یا رسول الله قتلنا سبعین-و هم قومک و أسرتک أ تجد أصلهم-فخذ یا رسول الله منهم الفداء،و قد کانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم فی عسکر قریش-فلما طلبوا إلیه و سألوه نزلت الآیه:« مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ »الآیات-فأطلق لهم ذلک.

۱- ۱) و لم یأسر أحدا علی ما فی الروایات.

۲- ۲) و هؤلاء هم الذین ضبط علماء الآثار أسماءهم غیر من لم یضبط اسمه.

۳- ۳) لکن قوله تعالی فی عتابهم«تریدون عرض الدنیا»یخطئ عبیده فی قوله.

و كـان أكثر الفـداء أربعه آلاـف درهـم-و أقله ألف درهم-فبعثت قريش بالفـداء أولا فأولا-فبعثت زينب بنت رسول الله ص من فـداء زوجهـا-أبى العاص بن الربيع، و بعثت قلائـد لها كانت خـديجه جهزتها بها،و كان أبو العاص ابن أخت خـديجه،فلما رأى رسول الله ص تلك القلائد-قال:رحم الله خديجه هذه قلائد هى جهزتها بها- فأطلقه رسول الله ص بشـرط أن يبعث إليه زينب،و لا يمنعها من اللحوق به فعاهده على ذلك و وفى له.

قـال:و روى: أن النبى ص كره أخـذ الفـداء حتى رأى سـعد بن معاذ-كراهيه ذلك فى وجهه-فقال:يا رسول الله-هـذا أول حرب لقينـا فئـه المشـركين-و الإثخـان فى القتـل أحـب إلى مـن اسـتبقاء الرجـال،و قـال عمر بـن الخطـاب:يـا رسـول الله كـذبوك و أخرجوك- فقـدمهم و اضـرب أعنـاقهم،و مكن عليـا من عقيـل فيضـرب عنقه،و مكنى من فلاـن أضـرب عنقه فـإن هؤلاـء أئمه الكفر،و قال أبو بكر:أهلك و قومك استأن بهم و استبقهم- و خذ منهم فديه فيكون لنا قوه على الكفار-قال ابن زيد فقال رسول الله ص:لو نزل عذاب من السماء ما نجا منكم أحد-غير عمر و سعد بن معاذ.

و قـال أبو جعفر البـاقر(ع): كـان الفـداء يوم بـدر كـل رجل من المشـركين بأربعين أوقيه،و الأوقيه أربعون مثقالا-إلا العباس فإن فداءه كان مائه أوقيه،و كان أخذ منه حين أسر عشرون أوقيه ذهبا-فقال النبى ص:ذلك غنيمه-ففاد نفسك و ابنى أخيك نوفلا و عقيلا-فقال:ليس معى شىء.فقال:أين الذهب الذى سلمته إلى أم الفضل-و قلت:

إن حدث بى حدث فهو لك-و للفضل و عبد الله و قثم.فقال:من أخبرك بهذا؟قال:الله تعالى- فقال:أشـهد أنك رسول الله-و الله ما اطلع على هذا أحد إلا الله تعالى.

أقول:و الروايات فى هذه المعانى كثيره من طرق الفريقين تركنا إيرادها إيثارا للاختصار.

و فى قرب الإسناد،للحميرى عن عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه(ع)قال:

أوتى النبى ص بمال دراهم-فقال النبى ص للعباس:يا عباس-ابسط رداء و خـذ من هذا المال طرفا-فبسط رداء و أخذ منه طائفه- ثم قال رسول الله ص:يا عباس-هذا من الذى قال الله تبارك و تعالى:« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرىٰ -إِنْ يَعْلَمِ اللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّٰا أُخِذَ مِنْكُمْ »قال:نزلت فى العباس و نوفل و عقيل-

و قال:إن رسول الله ص نهی یوم بدر-أن یقتل أحد من بنی هاشم و أبو البختری- فأسروا فأرسل علیا فقال:انظر من هاهنا من بنی هاشم؟قال:فمر علی عقیل بن أبی طالب فحاد عنه-قال فقال له:یا بن أم علی-أما و الله لقد رأیت مکانی-.

قال:فرجع إلی رسول الله ص فقال:هذا أبو الفضل فی ید فلان،و هذا عقیل فی ید فلان،و هذا نوفل فی ید فلان یعنی نوفل بن الحارث-فقال رسول الله ص حتی انتهی إلی عقیل-فقال:یا أبا یزید قتل أبو جهل!فقال:إذا لا تنازعوا فی تهامه.قال:إن کنتم أثخنتم القوم و إلا فارکبوا أکتافهم-.

قال:فجیء بالعباس-فقیل له:أفد نفسک و أفد ابن[ابنی]أخیک فقال:

یا محمد تترکنی أسأل قریشا فی کفی-فقال(ص)له:أعط مما خلفت عند أم الفضل- و قلت لها إن أصابنی شیء فی وجهی- فأنفقیه علی ولدک و نفسک.قال:یا ابن أخی من أخبرک بهذا؟قال:أتانی به جبرئیل.فقال:و محلوفه ما علم بهذا إلا أنا و هی- أشهد أنک رسول الله.قال:فرجع الأساری کلهم مشرکین-إلا العباس و عقیل و نوفل بن الحارث»و فیهم نزلت هذه الآیه:« قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ اَلْأَسْریٰ ».الآیه.

أقول:و روی فی الدر المنثور،هذه المعانی بطرق مختلفه عن الصحابه و روی نزول الآیه فی العباس و ابنی أخیه عن ابن سعد و ابن عساکر عن ابن عباس،و روی مقدار الفدیه التی فدی بها عن کل رجل من الأساری،و قصه فدیه العباس عنه و عن ابنی أخیه الطبرسی فی مجمع البیان،عن الباقر(ع)کما فی الحدیث.

[سوره الأنفال (٨): الآیات ٧٢ الی ٧٥]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهٰاجِرُوا مٰا لَکُمْ مِنْ وَلاٰیَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ حَتّٰی یُهٰاجِرُوا وَ إِنِ اِسْتَنْصَرُوکُمْ فِی اَلدِّینِ فَعَلَیْکُمُ اَلنَّصْرُ إِلاّٰ عَلیٰ قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثٰاقٌ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (٧٢) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ إِلاّٰ تَفْعَلُوهُ تَکُنْ فِتْنَهٌ فِی اَلْأَرْضِ وَ فَسٰادٌ کَبِیرٌ (٧٣) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (٧۴) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولٰئِکَ مِنْکُمْ وَ أُولُوا اَلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتٰابِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (٧۵)

(بیان)

الآیـات تختم السـوره،و یرجـع معناهـا نوع رجوع إلی مـا افتتحت به السوره و فیهـا إیجـاب الموالاـه بین المؤمنین إلاـ إذا اختلفوا بالمهاجره و عدمها و قطع موالاه الکافرین.

قـوله تعـالی:« إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا »إلی قوله:« أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ » المراد بالـذین آمنوا و هـاجروا:الطـائفه الأـولی من المهاجرین قبل نزول السوره بـدلیل ما سـیذکر من المهاجرین فی آخر الآیات،و المراد بالـذین آووا و نصـروا:هم الأنصار الـذین آووا النبی ص و المؤمنین المهـاجرین و نصـروا الله و رسوله،و کـان ینحصـر المسـلمون یومئـذ فی هاتین الطائفتین إلا قلیل ممن آمن بمکه و لم یهاجر.

و قد جعل الله بینهم ولایه بقوله:« أُولٰئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ »و الولایه أعم من ولایه المیراث و ولایه النصره و ولایه الأمن،فمن آمن منهم کافرا کان نافـذا عنـد الجمیع؛ فالبعض من الجمیع ولی البعض من الجمیع کالمهاجر هو ولی کل مهاجر و أنصاری، و الأنصاری ولی کل أنصاری و مهاجر،کل ذلک بدلیل إطلاق الولایه فی الآیه.

فلاـ شاهـد علی صـرف الآـیه إلی ولاـیه الإـرث بالمواخاه التی کان النبی ص جعلها فی بـدء الهجره بین المهاجرین و الأنصار و کانوا یتوارثون بها زمانا حتی نسخت.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهٰاجِرُوا »إلی آخر الآیه،معناه واضح و قد نفیت

فیها الولایه بین المؤمنین المهاجرین و الأنصار و بین المؤمنین غیر المهاجرین إلا ولایه النصره إذا استنصروهم بشرط أن یکون الاستنصار علی قوم لیس بینهم و بین المؤمنین میثاق.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ »أی إن ولایتهم بینهم لا تتعداهم إلی المؤمنین فلیس للمؤمنین أن یتولوهم،و ذلک أن قوله هاهنا فی الکفار:« بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ »کقوله فی المؤمنین:« أُولئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ »إنشاء و تشریع فی صوره الإخبار،و جعل الولایه بین الکفار أنفسهم لا یحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذکرناه من نفی تعدیه عنهم إلی المؤمنین.

قوله تعالی:« إِلاّ تَفْعَلُوهُ تَکُنْ فِتْنَهٌ فِی الْأَرْضِ وَ فَسادٌ کَبِیرٌ »إشاره إلی مصلحه جعل الولایه علی النحو الذی جعلت،فإن الولایه مما لا غنی عنها فی مجتمع من المجتمعات البشریه سیما المجتمع الإسلامی الذی أسس علی اتباع الحق و بسط العدل الإلهی کما أن تولی الکفار و هم أعداء هذا المجتمع یوجب الاختلاط بینهم فیسری فیه عقائدهم و أخلاقهم،و تفسد سیره الإسلام المبنیه علی الحق بسیرهم المبنیه علی اتباع الهوی و عباده الشیطان،و قد صدق جریان الحوادث فی هذه الآونه ما أشارت إلیه هذه الآیه.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا »إلی آخر الآیه إثبات لحق الإیمان علی من اتصف بآثاره اتصافا حقا،و وعد لهم بالمغفره و الرزق الکریم.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولئِکَ مِنْکُمْ » خطاب للمهاجرین الأولین و الأنصار و إلحاق من آمن و هاجر و جاهد معهم بهم فیشارکونهم فی الولایه.

قوله تعالی:« وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّهِ »إلی آخر الآیه.

جعل للولایه بین أولی الأرحام و القرابات،و هی ولایه الإرث فإن سائر أقسام الولایه لا ینحصر فیما بینهم.

و الآیه تنسخ ولایه الإرث بالمواخاه التی أجراها النبی ص بین المسلمین فی أول الهجره،و تثبت الإرث بالقرابه سواء کان هناک ذو سهم أو لم یکن أو کان عصبه أو لم یکن فالآیه مطلقه کما هو ظاهر.

(بحث روائی)

فی المجمع،عن الباقر(ع): أنهم کانوا یتوارثون بالمواخاه.

أقول:و لا دلاله فیه علی أن الآیه نزلت فی ولایه الإخوه.

فی الکافی،بإسناده عن أبی بصیر عن أبی جعفر(ع)قال: الخال و الخاله یرثان إذا لم یکن معهما أحد-إن الله یقول:« وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ-فِی کِتابِ اللّٰهِ ».:

أقول:و رواه العیاشی عن أبی بصیر عنه مرسلا.

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره عن أبی جعفر(ع): فی قول الله:« وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّٰهِ »إن بعضهم أولی بالمیراث من بعض-لأن أقربهم إلیه أولی به.ثم قال أبو جعفر(ع)،إنهم أولی بالمیت،و أقربهم إلیه أمه و أخوه و أخته لأمه و أبیه-أ لیس الأم أقرب إلی المیت من إخوانه و أخواته؟

و فیه،عن ابن سنان عن أبی عبد الله(ع)قال: لما اختلف علی بن أبی طالب (ع)و عثمان بن عفان-فی الرجل یموت و لیس له عصبه یرثونه-و له ذوو قرابه لا یرثونه:

لیس له بینهم مفروض،فقال علی(ع)میراثه لذوی قرابته-لأن الله تعالی یقول:

وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّٰهِ

»و قال عثمان أجعل میراثه فی بیت مال المسلمین-و لا یرثه أحد من قرابته.

أقول:و الروایات فی نفی القول بالعصبه و الاستناد فی ذلک إلی الآیه کثیره من أئمه أهل البیت(ع).

و فی الدر المنثور،أخرج الطیالسی و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن ابن عباس قال: آخی رسول الله ص بین أصحابه-و ورث بعضهم من بعض حتی نزلت هذه الآیه« وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّٰهِ »فترکوا ذلک و توارثوا بالنسب.

و فی المعانی،بإسناده فیه رفع عن موسی بن جعفر(ع): فیما جری بینه و بین هارون-و فیه:قال هارون:فلم ادعیتم أنکم ورثتم رسول الله-و العم یحجب ابن العم، و قبض رسول الله و قد توفی أبو طالب قبله-و العباس عمه حی-إلی أن قال-فقلت:إن

النبی لم یورث من لم یهاجر-و لا أثبت له ولایه حتی یهاجر-فقال:ما حجتک فیه؟قلت:

قول الله تبارک و تعالی:« وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهاجِرُوا-مٰا لَکُمْ مِنْ وَلاٰیَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ حَتّٰی یُهاجِرُوا »و إن عمی العباس لم یهاجر-فقال:إنی سائلک یا موسی-هل أفتیت بذلک أحدا من أعدائنا-أم أخبرت أحدا من الفقهاء فی هذه المسأله بشیء؟فقلت:اللهم لا و ما سألنی عنها إلا أمیر المؤمنین:الحدیث.

أقول:و رواه المفید فی الإختصاص، .

(۹)(سوره التوبه مدنیه و هی مائه و تسع و عشرون آیه)(۱۲۹)

[سوره التوبه (۹): الآیات ۱ الی ۱۶]

اشاره

بَرٰاءَهٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی اَلَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۱) فَسِیحُوا فِی اَلْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ وَ اِعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اَللّٰهِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مُخْزِی اَلْکٰافِرِینَ (۲) وَ أَذٰانٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی اَلنّٰاسِ یَوْمَ اَلْحَجِّ اَلْأَکْبَرِ أَنَّ اَللّٰهَ بَرِیءٌ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اَللّٰهِ وَ بَشِّرِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۳) إِلاَّ اَلَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ ثُمَّ لَمْ یَنْقُصُوکُمْ شَیْئاً وَ لَمْ یُظٰاهِرُوا عَلَیْکُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلیٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُتَّقِینَ (۴) فَإِذَا اِنْسَلَخَ اَلْأَشْهُرُ اَلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا اَلْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ اُحْصُرُوهُمْ وَ اُقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتَوُا اَلزَّکٰاهَ فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ اِسْتَجٰارَکَ فَأَجِرْهُ حَتّٰی یَسْمَعَ کَلاٰمَ اَللّٰهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَعْلَمُونَ (۶) کَیْفَ یَکُونُ لِلْمُشْرِکِینَ عَهْدٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ اَلَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ عِنْدَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ فَمَا اِسْتَقٰامُوا لَکُمْ فَاسْتَقِیمُوا لَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُتَّقِینَ (۷) کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لاٰ یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً یُرْضُونَکُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ تَأْبیٰ قُلُوبُهُمْ وَ أَکْثَرُهُمْ فٰاسِقُونَ (۸) اِشْتَرَوْا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِیلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِهِ إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۹) لاٰ یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُعْتَدُونَ (۱۰) فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتَوُا اَلزَّکٰاهَ فَإِخْوٰانُکُمْ فِی اَلدِّینِ وَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۱۱) وَ إِنْ نَکَثُوا أَیْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِی دِینِکُمْ فَقٰاتِلُوا أَئِمَّهَ اَلْکُفْرِ إِنَّهُمْ لاٰ أَیْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ یَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لاٰ تُقٰاتِلُونَ قَوْماً نَکَثُوا أَیْمٰانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ اَلرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳) قٰاتِلُوهُمْ یُعَذِّبْهُمُ اَللّٰهُ بِأَیْدِیکُمْ وَ یُخْزِهِمْ وَ یَنْصُرْکُمْ عَلَیْهِمْ وَ یَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِینَ (۱۴) وَ یُذْهِبْ غَیْظَ قُلُوبِهِمْ وَ یَتُوبُ اَللّٰهُ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۵) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَکُوا وَ لَمّٰا یَعْلَمِ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ جٰاهَدُوا مِنْکُمْ وَ لَمْ یَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لاٰ رَسُولِهِ وَ لاَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَلِیجَهً وَ اَللّٰهُ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۶)

(بيان)

الآيـات مفتتـح قبيـل من الآيـات سـموها سـوره التـوبه أو سـوره الـبراءه،و قـد اختلفوا فى كونهـا سوره مسـتقله أو جزء من سوره الأنفال،و اختلاف المفسـرين فى ذلک ينتهى إلى اختلاف الصحابه ثم التابعين فيه،و قد اختلف فى ذلک الحديث عن أئمه أهل البيت((ع)) غير أن الأرجح بحسب الصناعه ما يدل من حديثهم على أنها ملحقه بسوره الأنفال.

و البحث عن معانى آياتها و ما اشـتملت عليه من المضامين لا يهـدى إلى غرض واحد متعين على حد سائر السور المشـتمله على أغراض مشـخصه تؤمهـا أوائلهـا و تنعطف إليها أواخرها،فأولها آيات تؤذن بالبراءه و فيها آيات القتال مع المشـركين،و القتال مع أهل الكتاب،و شـطر عظيم منها يتكلم فى أمر المنافقين،و آيات فى الاستنهاض على القتال و ما يتعرض لحال المخلفين، و آيات ولايه الكفار،و آيات الزكاه و غير ذلک،و معظمها ما يرجع إلى قتال الكفار و ما يرجع إلى المنافقين.

و على أى حـال لاـ يترتب من جهه التفسـير على هـذا البحث فائـده مهمه و إن أمكن ذلـک من جهه البحث الفقهى الخارج عن غرضنا.

قوله تعالى:« بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »قال الراغب:

أصل البرء و البراء و التبرى -:التفصـى مما يكره مجاورته،و لـذلک قيل:برأت من المرض و برئت من فلان و تبرأت،و أبرأته من كذا و برأته،و رجل برىء و قوم براء و بريئون قال تعالى:براءه من الله و رسوله.انتهى.

و الآيه بالنسـبه إلى الآيات التاليه كالعنوان المصدر به الكلام المشـير إلى خلاصه القول على نهج سائر السور المفصـله التى تشير الآيه و الآيتان من أولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها.

و الخطاب فى الآيه للمؤمنين أو للنبى ص و لهم على ما يـدل عليه قوله:« عٰاهَدْتُمْ » و قـد أخـذ الله تعالى و منه الخطاب و رسوله ص و هو الواسـطه،و المشـركون و هم الـذين أريدت البراءه منهم،و وجه الخطاب ليبلغ إليهم جميعا فى الغيبه،و هذه الطريقه فى الأحكام و الفرامين المراد إيصالها إلى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم و الأمر.

و الآیه تتضـمن إنشاء الحکم و القضاء بالبراءه من هؤلاء المشرکین و لیس بتشریع محض بدلیل تشریکه النبی ص فی البراءه فإن دأب القرآن أن ینسب الحکم التشـریعی المحض إلی الله سبحانه وحده،و قـد قـال تعـالی:« وَ لاٰ یُشْرِکُ فِی حُکْمِهِ أَحَداً:» الکهف:-۲۶ و لا ینسب إلی النبی ص إلا الحکم بالمعنی الذی فی الولایه و السیاسه و قطع الخصومه.

فالمراد بالآیه القضاء برفع الأمان عن الـذین عاهدوهم من المشـرکین و لیس رفعا جزافیا و إبطالا للعهد من غیر سـبب یبیح ذلک فإن الله تعالی سیذکر بعد عده آیات أنهم لا وثوق بعهدهم الـذی عاهدوه و قد فسق أکثرهم و لم یراعوا حرمه العهد و نقضوا میثاقهم،و قـد أباح تعالی عنـد ذلک إبطال العهـد بالمقابله نقضا بنقض حیث قال:« وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیٰانَهً فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلیٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ الْخٰائِنِینَ:» الأنفال:-۵۸ فأباح إبطال العهد عند مخافه الخیانه و لم یرض مع ذلک إلا بإبلاغ النقض إلیهم لئلا یؤخذوا علی الغفله فیکون ذلک من الخیانه المحظوره.

و لو کان إبطالا لعهـدهم من غیر سبب مبیـح لـذلک من قبل المشـرکین لم یفرق بین من دام علی عهده منهم و بین من لم یدم علیه،و قد قال تعالی مستثنیا:« إِلاَّ الَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ثُمَّ لَمْ یَنْقُصُوکُمْ شَیْئاً وَ لَمْ یُظٰاهِرُوا عَلَیْکُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلیٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ ».

و لم یرض تعالی بنقض عهد هؤلاء المعاهدین الناقضین لعهدهم دون أن ضرب لهم أجلا لیفکروا فی أمرهم و یرتئوا رأیهم و لا یکونوا مأخوذین بالمباغته و المفاجأه.

فمحصل الآیه الحکم ببطلان العهد و رفع الأمان عن جماعه من المشرکین کانوا قد عاهدوا المسلمین ثم نقضه أکثرهم و لم یبق إلی من بقی منهم وثوق تطمئن به النفس إلی عهدهم و تعتمد علی یمینهم و تأمن شرهم و أنواع مکرهم.

قوله تعالی:« فَسِیحُوا فِی الْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللّٰهِ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُخْزِی الْکٰافِرِینَ » السیاحه هی السیر فی الأرض و الجری و لذلک یقال للماء الدائم الجریه فی ساحه:السائح.

و أمرهم بالسیاحه أربعه أشهر کنایه عن جعلهم فی مأمن فی هذه البرهه من الزمان و ترکهم بحیث لا یتعرض لهم بشر حتی یختاروا ما یرونه أنفع بحالهم من البقاء أو

الفناء مع ما فى قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللّهِ وَ أَنَّ اللّهَ مُخْزِى الْكافِرِينَ »من إعلامهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك،و الإقبال إلى دين التوحيد،و موعظتهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار و التعرض للخزى الإلهى.

و قد وجه فى الآيه الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبه إلى الخطاب لما فى توجيه الخطاب القاطع و الإراده الجازمه إلى الخصم من الدلاله على بسط الاستيلاء و الظهور عليه و استذلاله و استحقار ما عنده من قوه و شده.

و قد اختلفت أقوال المفسرين فى المراد بقوله:« أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ »و الذى يدل عليه السياق و يؤيده اعتبار إصدار الحكم و ضرب الأجل ليكونوا فى فسحه لاختيار ما وجدوه من الحياه أو الموت أنفع بحالهم:أن تبتدأ الأربعه الأشهر من يوم الحج الأكبر الذى يذكره الله تعالى فى الآيه التاليه فإن يوم الحج الأكبر هو يوم الإبلاغ و الإيذان و الأنسب بضرب الأجل الذى فيه نوع من التوسعه للمحكوم عليهم و إتمام الحجه،أن تبتدأ من حين الاعلام و الإيذان.

و قد اتفقت كلمه أهل النقل أن الآيات نزلت سنه تسع من الهجره فإذا فرض أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذى الحجه كانت الأربعه الأشهر هى عشرون من ذى الحجه و المحرم و صفر و ربيع الأول و عشره أيام من ربيع الآخر.

و عند قوم أن الأربعه الأشهر تبتدأ من يوم العشرين من ذى القعده و هو يوم الحج الأكبر عندهم فالأربعه الأشهر هى عشره أيام من ذى القعده و ذو الحجه و المحرم و صفر و عشرون من ربيع الأول،و سيأتى ما فيه.

و ذكر آخرون:أن الآيات نزلت أول شوال سنه تسع من الهجره فتكون الأربعه الأشهر هى شوال و ذو القعده و ذو الحجه و المحرم فتنقضى بانقضاء الأشهر الحرم،و قد حدأهم إلى ذلك القول بأن المراد بقوله تعالى فيما سيأتى:« فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا »الأشهر الحرم المعروفه:ذو القعده و ذو الحجه و المحرم فيوافى انسلاخ الأشهر الحرم انقضاء الأربعه الأشهر،و هذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق و قرينه المقام كما عرفت.

قوله تعالى:« وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِىءٌ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ

» الأذان هو الاعلام،و ليست الآيه تكرارا لقوله تعالى السابق « بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ »فإن الجملتين و إن رجعتا إلى معنى واحد و هو البراءه من المشركين إلا أن الآيه الأولى إعلام البراءه و إبلاغه إلى المشركين بدليل قوله فى ذيل الآيه:« إِلَى الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »بخلاف الآيه الثانيه فإن وجه الخطاب فيه إلى الناس ليعلموا براءه الله و رسوله من المشركين،و يستعدوا و يتهيئوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم بدليل قوله:« إِلَى النّٰاسِ و قوله تفريعا:« فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »إلى آخر الآيه.

و قد اختلفوا فى تعيين المراد بيوم الحج الأكبر على أقوال:

منها:أنه يوم النحر من سنه التسع من الهجره لأنه كان يوما اجتمع فيه المسلمون و المشركون و لم يحج بعد ذلك العام مشرك،و هو المؤيد بالأحاديث المرويه عن أئمه أهل البيت(ع)و الأنسب بأذان البراءه،و الاعتبار يساعد عليه لأنه كان أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون و المشركون من أهل الحج عامه بمنى و قد ورد من طرق أهل السنه روايات فى هذا المعنى غير أن مدلول جلها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنه و لم يثبت من طريق النقل تسميه على هذا النحو.

و منها:أنه يوم عرفه لأن فيه الوقوف،و الحج الأصغر هو الذى ليس فيه وقوف و هو العمره،و هو استحسان لا دليل عليه،و لا سبيل إلى تشخيص صحته.

و منها:أنه اليوم الثانى ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه و سقم هذا الوجه ظاهر.

و منها:أنه جميع أيام الحج كما يقال:يوم الجمل،و يوم صفين،و يوم بغاث، و يراد به الحين و الزمان،و هذا القول لا يقابل سائر الأقوال كل المقابله فإنه إنما يبين أن المراد باليوم جميع أيام الحج،و أما وجه تسميه هذا الحج بالحج الأكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما فى الأقوال السابقه كما فى القول الأول.

و كيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامه أهل الحج يتمكن فيه من أذان براءه كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله:« يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ »إلى نفسه،و يمنع شموله لسائر أيام الحج التى لا يجتمع فيها الناس ذاک الاجتماع.

ثم التفت سبحانه إلى المشركين ثانيا و ذكرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيره من أمرهم كما ذكرهم بذلك فى الآيه السابقه بقوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللّٰهِ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُخْزِى الْكٰافِرِينَ »غير أنه زاد عليه فى هذه الآيه قوله:« فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ليكون تصريحا بما لوح إليه فى الآيه السابقه فإن التذكير بأنهم غير معجزى الله إنما كان بمنزله العظه و بذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكه باختيار البقاء على الشرك و التولى عن الدخول فى دين التوحيد ففى الترديد تهديد و نصيحه و عظه.

ثم التفت سبحانه إلى رسوله فخاطبه أن يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال:

« وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ »و الوجه فى الالتفات الذى فى قوله:« فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »إلخ ما تقدم فى قوله:« فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ »إلخ،و فى الالتفات الذى فى قوله:

« وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا »إلخ إنه رساله لا تتم إلا من جهه مخاطبه النبى ص.

قوله تعالى:« إِلاَّ الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظٰاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً »إلخ،استثناء من عموم البراءه من المشركين،و المستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيما و لا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم و إتمام عهدهم إلى مدتهم.

و قد ظهر بذلك أن المراد من إضافه قوله:« وَ لَمْ يُظٰاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً »إلى قوله:

« لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً »استيفاء قسمى النقض و هما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين، و النقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض أعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركى مكه بنى بكر على خزاعه بالسلاح،و كانت بنو بكر فى عهد قريش و خزاعه فى عهد النبى ص فحاربوا فأعانت قريش بنى بكر على خزاعه و نقضت بذلك عهد حديبيه الذى عقدوه بينهم و بين النبى ص،و كان ذلك من أسباب فتح مكه سنه ثمان.

و قوله تعالى:« إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »فى مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك،و ذلك يجعل احترام العهد و حفظ الميثاق أحد مصاديق التقوى المطلق الذى لا يزال يأمر به القرآن و قد صرح به فى نظائر هذا المورد كقوله تعالى:

« وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ:» المائده:-٨ و قوله:« وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا،وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ:» المائده:-٢.

و بذلک یظهر ما فی قول بعضهم:إن المراد بالمتقین الذین یتقون نقض العهد من غیر سبب،و ذلک أن التقوی بمعنی الورع عن محارم الله عامه کالحقیقه الثانیه فی القرآن فیحتاج إراده خلافه إلی قرینه صارفه.

قوله تعالی:« فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ »أصل الانسلاخ من سلخ الشاه و هو نزع جلدها عنها،و انسلاخ الشهر نوع کنایه عن خروجه،و الحصر هو المنع من الخروج عن محیط،و المرصد اسم مکان من الرصد بمعنی الاستعداد للرقوب.

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقب یقال:رصد له و ترصد و أرصدته له،قال عز و جل:« وَ إِرْصٰاداً لِمَنْ حٰارَبَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ »،و قوله عز و جل:« إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصٰادِ تنبیها أنه لا ملجأ و لا مهرب،و الرصد یقال للراصد الواحد و الجماعه الراصدین و للمرصود واحدا کان أو جمعا،و قوله تعالی: « یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً »یحتمل کل ذلک،و المرصد موضع الرصد.انتهی.

و المراد بالأشهر الحرم هی الأربعه الأشهر:أشهر السیاحه التی ذکرها الله سبحانه فی قوله:« فَسِیحُوا فِی الْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ »و جعلها أجلا مضروبا للمشرکین لا یتعرض فیها لحالهم و أما الأشهر الحرم المعروفه أعنی ذا القعده و ذا الحجه و المحرم فإنها لا تنطبق علی أذان براءه الواقع فی یوم النحر عاشر ذی الحجه بوجه کما تقدمت الإشاره إلیه.

و علی هذا فاللام فی الأشهر الحرم للعهد الذکری أی إذا انسلخ هذه الأشهر التی ذکرناها و حرمناها للمشرکین لا یتعرض لحالهم فیها فاقتلوا المشرکین إلخ.

و یظهر بذلک أن لا وجه لحمل قوله:« فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ »علی انسلاخ ذی القعده و ذی الحجه و المحرم بأن یکون انسلاخ الأربعه الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثه منطبقا علیه أو یکون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذا علی نحو الإشاره إلی انقضاء الأربعه الأشهر و إن لم ینطبق الأشهر علی الأشهر فإن ذلک کله مما لا سبیل إلیه بحسب السیاق و إن کان لفظ الأشهر الحرم فی نفسه ظاهرا فی شهور رجب و ذی القعده و ذی الحجه و المحرم.

و قوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »محقق للبراءه منهم و رفع الاحترام

عن نفوسهم بإهدار الدماء فلا مانع من أى نازله نزلت بهم،و فى قوله:« حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا فى حل أو حرم بل و لو ظفر بهم فى الشهر الحرام-بناء على تعميم« حَيْثُ »للزمان و المكان كليهما-فيجب على المسلمين كائنين من كانوا إذا ظفروا بهم أن يقتلوهم،كان ذلك فى الحل أو الحرم فى الشهر الحرام أو غيره.

و إنما أمر بقتلهم حيث وجدوا للتوسل بذلك إلى إيرادهم مورد الفناء و الانقراض، و تطييب الأرض منهم،و إنجاء الناس من مخالطتهم و معاشرتهم بعد ما سمح و أبيح لهم ذلك فى قوله:« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ».

و لازم ذلك أن يكون كل من قوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »و قوله:

« وَ خُذُوهُمْ »و قوله:« وَ احْصُرُوهُمْ »و قوله:« وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ »بيانا لنوع من الوسيله إلى إفناء جمعهم و إنفاد عددهم،ليتفصى المجتمع من شرهم.

فإن ظفر بهم و أمكن قتلهم قتلوا،و إن لم يمكن ذلك قبض عليهم و أخذوا، و إن لم يمكن أخذهم حصروا و حبسوا فى كهفهم و منعوا من الخروج إلى الناس و مخالطتهم و إن لم يعلم محلهم قعد لهم فى كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا أو يؤخذوا.

و لعل هذا المعنى هو مراد من قال:إن المراد:فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أو خذوهم و احصروهم على وجه التخيير فى اعتبار الأصلح من الأمرين،و إن كان لا يخلو عن تكلف من جهه اعتبار الأخذ و الحصر و القعود فى كل مرصد أمرا واحدا فى قبال القتل،و كيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى.

و أما قول من قال:إن فى قوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ ، تقديما و تأخيرا،و التقدير:فخذوا المشركين حيث وجدتموهم و اقتلوهم فهو من التصرف فى معنى الآيه من غير دليل مجوز،و الآيه و خاصه ذيلها يدفع ذلك سياقا.

و معنى الآيه:فإذا انسلخ الأشهر الحرم و انقضى الأربعه الأشهر التى أمهلناهم بها بقولنا:« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ »فأفنوا المشركين بأى وسيله ممكنه رأيتموها أقرب و أوصل إلى إفناء جمعهم و إمحاء رسمهم من قتلهم أينما وجدتموهم من حل أو حرم

و متی ما ظفرتم بهم فی شهر حرام أو غیره و من أخذهم أو حصرهم أو القعود لهم فی کل مرصد حتی یفنوا عن آخرهم.

قوله تعالی:« فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »اشتراط فی معنی الغایه للحکم السابق،و المراد بالتوبه معناها اللغوی و هو الرجوع أی إن رجعوا من الشرک إلی التوحید بالإیمان و نصبوا لذلک حجه من أعمالهم و هی الصلاه و الزکاه و التزموا أحکام دینکم الراجعه إلی الخالق جمیعا فخلوا سبیلهم.

و تخلیه السبیل کنایه عن عدم التعرض لسالکیه و إن عادت مبتذله بکثره التداول کان سبیلهم مسدوده مشغوله بتعرض المتعرضین فإذا خلی عنها کان ذلک ملازما أو منطبقا علی عدم التعرض لهم.

و قوله:« إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »تعلیل لقوله:« فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ »إما من جهه الأمر الذی یدل علیه بصورته أو من جهه المأمور به الذی یدل علیه بمادته أعنی تخلیه سبیلهم.

و المعنی علی الأول:و إنما أمر الله بتخلیه سبیلهم لأنه غفور رحیم یغفر لمن تاب إلیه و یرحمه.

و علی الثانی:خلوا سبیلهم لأن تخلیتکم سبیلهم من المغفره و الرحمه،و هما من صفات الله العلیا فتتصفون بذلک بصفه ربکم و أظهر الوجهین هو الأول.

قوله تعالی:« وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّی يَسْمَعَ كَلامَ اللّهِ » إلی آخر الآیه،الآیه تتضمن حکم الإجاره لمن استجار من المشرکین لأن یسمع کلام الله،و هی بما تشتمل علیه من الحکم و إن کانت معترضه أو کالمعترضه بین ما یدل علی البراءه و رفع الأمان عن المشرکین إلا أنها بمنزله دفع الدخل الواجب الذی لا یجوز إهماله فإن أساس هذه الدعوه الحقه و ما یصاحبها من الوعد و الوعید و التبشیر و الإنذار، و ما یترتب علیه من عقد العقود و إبرام العهود أو النقض و البراءه و أحکام القتال کل ذلک إنما هو لصرف الناس عن سبیل الغی و الضلال إلی صراط الرشد و الهدی، و إنجائهم من شقاء الشرک إلی سعاده التوحید.

و لازم ذلک الاعتناء التام بکل طریق یرجی فیه الوصول إلی هدایه ضال و الفوز بإحیاء حق و إن کان یسیرا قلیلا فإن الحق حق و إن کان یسیرا،و المشرک غیر المعاهد

و إن أبرأ الله منه الـذمه و أهدر دمه و رفع الحرمه عن كل ما يعود إليه من مال و عرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق و يبطل باطل فإذا رجى منه الخير منع ذلك من أى قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس من هدايته و إنجائه.

فإذا اسـتجار المشـرك لينظر فيما تندب إليه الدعوه الحقه و يتبعها إن اتضحت له كان من الواجب إجارته حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهـل و تتم عليه الحجه فإذا تمادى بعـد ذلك فى ضـلاله و أصـر فى اسـتكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان و برئت منه الـذمه و وجب تطييب الأـرض من قـذاره وجوده بـأيه وسـيله أمكنت و أى طريق كان أقرب و أسـهل و هـذا هو الـذى يفيـده قوله تعـالى:« وَ إِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ »الآيه بما يكتنف به من الآيات.

فمعنى الآيه:إن طلب منك بعض هؤلاء المشـركين الـذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه فى جوارك ليحضـر عندك و يكلمك فيما تـدعو إليه من الحق الـذى يتضـمنه كلاـم الله فـأجره حتى يسـمع كلاـم الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل ثم أبلغه مأمنه حتى يملك منك أمنا تاما كاملا،و إنما شـرع الله هذا الحكم و بذل لهم هذا الأمن التام لأنهم قوم جاهلون و لا بأس على جاهل إذا رجى منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

و هذا غايه ما يمكن مراعاته من أصول الفضـيله و حفظ الكرامه و نشـر الرحمه و الرأفه و شـرافه الإنسانيه اعتبره القرآن الكريم،و ندب إليه الدين القويم.

و قـد بان بما قـدمناه أولا:أن الآيه مخصـصه لعموم قوله فى الآيه السابقه:« فَاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ .» و ثانيا:أن قوله:« حَتّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللّهِ »غايه للاسـتجاره و الإجاره فيتغيا به الحكم،فالاستئمان إنما كان لسـمع كلام الله و اسـتفسار ما عند الرسول من مواد الرساله فيتقدر الأمان الذى يعطاه المسـتجير المستأمن بقدره فإذا سمع من كلام الله ما يتبين به الرشد من الغى و يتميز به الهدى من الضـلال انتهت مده الاسـتجاره و حان أن يرد المسـتجير إلى مأمنه و المكان الخاص به الذى هو فى أمن فيه،لا يهدده فيه سيوف المسلمين ليرجع إلى حاله الذى فارقه،و يختار لنفسه ما يشاء على حريه من المشيه و الإراده.

ص :۱۵۴

و ثالثا:أن المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم،نعم يتقيد بما ينفع المستجير من الآيات التى توضح له أصول المعارف الإلهيه و معالم الدين و الجواب عما يختلج فى صدره من الشبهات كل ذلک بدلاله المقام و السياق.

و بذلک يظهر فساد ما قيل:إن المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن، و كذا ما قيل:إن المراد به سوره براءه أو خصوص ما بلغوه فى الموسم من آيات صدر السوره فإن ذلک كله تخصيص من غير مخصص.

و رابعا:أن المراد بسمع كلام الله الوقوف على أصول الدين و معالمه و إن أمكن أن يقال:إن لاستماع نفس كلام الله فيما إذا كان المستجير عربيا يفهم الكلام الإلهى دخلا فى ذلک أما إذا كان غير عربى و لا يفهم الكلام العربى فالمستفاد من السياق أن الغايه فى حقه مجرد تفقه أصول الدين و معالمه.

و خامسا:أن الآيه محكمه غير منسوخه و لا قابله له لأن من الضرورى البين من مذاق الدين،و ظواهر الكتاب و السنه أن لا مؤاخذه قبل تمام الحجه،و لا تشديد أى تشديد كان إلا بعد البيان فالجاهل السالک فى سبيل الفحص أو المستعلم للحق المستفهم للحقيقه لا يرد خائبا و لا يؤخذ غافلا فعلى الإسلام و المسلمين أن يعطوا كل الأمان لمن استأمنهم ليستحضر معارف الدين و يستعلم أصول الدعوه حتى يتبعها إن لاحت له فيها لوائح الصدق،و هذا أصل لا يقبل بطلانا و لا تغييرا ما دام الإسلام إسلاما فالآيه محكمه غير قابله للنسخ إلى يوم القيامه.

و من هنا يظهر فساد قول من قال:إن قوله:« وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجٰارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلاٰمَ اللّٰهِ »الآيه منسوخه بالآيه الآتيه:« وَ قٰاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمٰا يُقٰاتِلُونَكُمْ كَافَّةً »الآيه.

و سادسا:أن الآيه إنما توجب إجاره المستجير إذا استجار لأمر دينى يرجى فيه خير الدين،و أما مطلق الاستجاره لا لغرض دينى و لا نفع عائد إليه فلا دلاله لها عليه أصلا بل الآيات السابقه الآمره بالتشديد عليهم فى محلها.

و سابعا:أن قوله فى تتميم الأمر بالإجاره:« ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ »مع تمام قوله:

« فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ »بدونه فى الدلاله على المقصد يدل على كمال العنايه بفتح باب

الهـدايه على وجوه الناس،و التحفظ على حريه الناس فى حياتهم و أعمالهم الحيويه، و الإغماض فى طريقه عن كل حكم حتمى و عزيمه قاطعه ليهلك من هلك عن بينه و يحيا من حى عن بينه،و لا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل.

و ثامنا:أن الآيه-كما قيل-تـدل على أن الاعتقاد بأصل الـدين يجب أن يكون عن علم يقينى لا يداخله شك و لا يمازجه ريب و لا يكفى فيه غيره و لو كان الظن الراجح،و قد ذم الله تعالى اتباع الظن،و ندب إلى اتباع العلم فى آيات كثيره كقوله تعالى:« وَ لا تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ:» إسراء:-٣۶ و قوله:« إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً:» النجم:-٢٨ و قوله:« مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ:» الزخرف:-٢٠.

و لو كفى فى أصل الـدين الاعتقاد التقليدى لم يستقم الحكم بإجاره من استجار لتفهم أصول الدين و معارفه لجواز أن يكلف بالتقليد و الكف عن البحث عن أنه حق أو باطل هذا.

و لكن المقدار الواجب فى ذلك أن يكون عن علم قطعى سواء كان حاصـلا عن الاسـتدلال بطرق فنيه أو بغير ذلك من الوجوه المفيـده للعلم و لو على سبيـل الاتفـاق، و هـذا غير القول بـأن الاسـتدلال على أصول المعـارف لا يصـح إلا من طريق العقل فإن صحه الاستدلال أمر،و جواز الاعتماد على العلم بأى طريق حصل أمر آخر.

قوله تعـالى:« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْـرِكِينَ عَهْـدٌ عِنْـدَ اللّٰهِ وَ عِنْـدَ رَسُولِهِ »الآـيه،تبيين و توضـيح لمـا مر إجمالا من الحكم بنقض عهد المشـركين ممن لا وثوق بوفائه بعهده، و قتلهم إلى أن يؤمنوا بالله و يخضـعوا لدين التوحيد،و اسـتثناء من لم ينقض العهد و بقى على الميثاق حتى ينقضى مده عهدهم.

فالآيه و ما يتلوها إلى تمام ست آيات تبين ذلك و توضح الحكم و استثناء ما استثنى منه و الغايه و المغيا جميعا.

فقوله:« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْـرِكِينَ عَهْـدٌ عِنْـدَ اللّٰهِ وَ عِنْـدَ رَسُولِهِ »اسـتفهام فى مقـام الإنكـار،و قـد بـادرت الآـيه إلى اسـتثناء الـذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهدا و لم يساهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى:« فَمَا اسْتَقٰامُوا

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ

»و ذلـك أن الاسـتقامه لمن اسـتقام و السـلم لمن يسالم من لوازم التقوى الـدينى،و لـذلك علل قوله ذلك بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »كما جاء مثله بعينه فى الآيه السابقه:« فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ».

قوله تعـالى:« كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاٰ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّةً »إلى آخر الآـيه،قـال الراغب فى المفردات:، الإل كل حاله ظاهره من عهد حلف،و قرابه تئل:

تلمع فلا يمكن إنكاره،قال تعالى: لاٰ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّةً ،و آل الفرس:

أسرع،حقيقته لمع، و ذلك استعاره فى باب الإسراع نحو برق و طار.انتهى.

و قال أيضا: الـذمام -بكسـر الـذال-ما يـذم الرجل على إضاعته من عهد ،و كذلك الذمه و المذمه،و قيل:لى مذمه فلا تهتكها،و أذهب مـذمتهم بشـىء:أى أعطهم شيئا لما لهم من الـذمام.انتهى.و هو ظاهر فى أن الـذمه مأخوذه من الـذم بالمعنى الـذى يقابل المدح.

و لعـل إلقـاء المقابله فى الآيه بين الإل و الـذمه للـدلاله على أنهم لا يحفظون فى المؤمنين شـيئا من المواثيق التى يجب رقوبها و حفظهـا سواء كـانت مبنيه على أصول واقعيه تكوينيه كـالقرابه التى توجب بوجه على القريب رعـايه حـال قريبه،أو على الجعل و الاصطلاح كالعهود و المواثيق المعقوده بحلف و نحوه.

و قد كررت لفظه«كيف»للتأكيد و لرفع الإبهام فى البيان الناشـئ من تخلل قوله:« إِلاَّ الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ »الآيه بطولها بين قوله:« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ »الآيه و قوله:« وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ »الآيه.

فمعنى الآيه:كيف يكون للمشـركين عهد عند الله و عند رسوله و الحال أنهم إن يظهروا عليكم و يغلبوكم على الأمر لا يحفظوا و لا يراعوا فيكم قرابه و لا عهدا من العهود يرضونكم بالكلام المدلس و القول المزوق،و يأبى ذلك قلوبهم،و أكثرهم فاسقون.

و من هنا ظهر أن قوله: «يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ »من المجاز العقلى نسب فيه الإرضاء إلى الأفواه و هو فى الحقيقه منسوب إلى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكون فيها.

و قوله:« يُرْضُونَكُمْ »الآيه تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين و لذلك

جیء به بالفصل،و التقدیر:کیف یکون لهم عهد و هم یرضونکم بأفواههم و تأبی قلوبهم و أکثرهم فاسقون.

و أما قوله:« وَ أَکْثَرُهُمْ فاسِقُونَ »ففیه بیان أن أکثرهم ناقضون للعهد و المیثاق بالفعل من غیر أن ینتظروا ظهورهم جمیعا علیکم فالآیه توضح حال آحادهم و جمیعهم بأن أکثرهم فاسقون بنقض العهد من غیر أن یرقبوا فی مؤمن إلا و لا ذمه،و لو أنهم ظهروا علیکم جمیعا لم یرقبوا فیکم الإل و الذمه.

قوله تعالی:« اِشْتَرَوْا بِآیاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِیلاً »إلی آخر الآیتین،بیان و تفسیر لقوله فی الآیه السابقه:« وَ أَکْثَرُهُمْ فاسِقُونَ »و کان قوله:« اِشْتَرَوْا بِآیاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِیلاً »إلی آخر الآیه توطئه و تمهید لقوله فی الآیه الثانیه:« لا یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّهً ».

و بذلک یظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد و الذمه دون الفسق بمعنی الخروج عن زی عبودیه الله سبحانه و إن کان الأمر کذلک.

و قوله:« وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ »کالتفسیر لجمیع ما مر من أحوالهم الروحیه و أعمالهم الجسمیه،و تفید الجمله مع ذلک جوابا عن سؤال مقدر أو ما یجری مجراه و المعنی:إذا کان هذا حالهم و هذه أفعالهم فلا تحسبوا أن لو نقضتم عهدهم اعتدیتم علیهم فأولئک هم المعتدون علیکم لما أضمروه من العداوه و البغضاء و لما أظهره أکثرهم فی مقام العمل من الصد عن سبیل الله،و عدم رعایه قرابه و لا عهد فی المؤمنین.

قوله تعالی:« فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاهَ »إلی آخر الآیتین،الآیتان بیان تفصیلی لقوله فیما تقدم:« فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللّهِ ».

و المراد بالتوبه بدلاله السیاق الرجوع إلی الإیمان بالله و آیاته،و لذلک لم یقتصر علی التوبه فقط بل عطف علیها إقامه الصلاه التی هی أظهر مظاهر عباده الله،و إیتاء الزکاه الذی هو أقوی أرکان المجتمع الدینی،و قد أشیر بهما إلی نوع الوظائف الدینیه التی بإتیانها یتم الإیمان بآیات الله بعد الإیمان بالله عز اسمه فهذا معنی قوله:« تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاهَ وَ آتَوُا الزَّکاهَ ».

و أما قوله:« فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ »فالمراد به بیان التساوی بینهم و بین سائر المؤمنین

فی الحقوق التی یعتبرها الإسلام فی المجتمع الإسلامی:لهم ما للمسلمین و علیهم ما علی المسلمین.

و قد عبر فی الآیه عن ذلک بالأخوه فی الدین،و قال فی موضع آخر:« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ:» الحجرات:-۱۰ اعتبارا بما بینهم من التساوی فی الحقوق الدینیه فإن الأخوین شقیقان اشتقا من ماده واحده و هما لذلک متساویان فی الشئون الراجعه إلی ذلک فی مجتمع المنزل عند والدهما الذی هو رب البیت،و فی مجتمع القرابه عند الأقرباء و العشیره.

و إذ کان لهذا المعنی المسمی بلسان الدین أخوه أحکام و آثار شرعیه اعتنی بها قانون الإسلام فهو اعتبار حقیقه لنوع من الأخوه بین أفراد المجتمع الإسلامی لها آثار مترتبه کما أن الأخوه الطبیعیه فیما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتبه عقلائیه و دینیه و لیست تسمیه ذلک أخوه مجرد استعاره لفظیه عن عنایه مجازیه،

و فیما نقل عن النبی ص:

قوله: «المؤمنون إخوه یسعی بذمتهم أدناهم،و هم ید واحده علی من سواهم».

و قوله:« وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ »الآیه یدل السیاق أنهم غیر المشرکین الذین أمر الله سبحانه فی الآیه السابقه بنقض عهدهم و ذکر أنهم هم المعتدون لا یرقبون فی مؤمن إلا و لا ذمه فإنهم ناکثون للأیمان ناقضون للعهد،فلا یستقیم فیهم الاشتراط الذی ذکره الله سبحانه بقوله:« وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ »الآیه.

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولی الأمر من المسلمین عهود و أیمان ینکثون أیمانهم من بعد عهدهم،أی ینقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم و ألغی أیمانهم و سماهم أئمه الکفر لأنهم السابقون فی الکفر بآیات الله یتبعهم غیرهم ممن یلیهم، یقاتلون جمیعا لعلهم ینتهون عن نکث الأیمان و نقض العهود.

قوله تعالی:« أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ »الآیه و ما بعدها إلی تمام أربع آیات تحریض للمؤمنین و تهییج لهم علی قتال المشرکین ببیان ما أجرموا به فی جنب الله و خانوا به الحق و الحقیقه،و عد خطایاهم و طغیاناتهم من نکث الأیمان و الهم بإخراج الرسول و البدء بالقتال أول مره.

ثم بتعریف المؤمنین أن لازم إیمانهم بالله الذی یملک کل خیر و شر و نفع و ضر

أن لا ـ يخشوا إلا ـ إياه إن كانوا مؤمنين به ففى ذلك تقويه لقلوبهم و تشجيعهم عليهم، و ينتهى إلى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له و القطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقق فى إيمانه.

قوله تعالى:« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ »إلى آخر الآيتين.أعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهه ما تقدم من التحريض و التحضيض أوقع فى القبول فإن الأمر الأول كان ابتدائيا غير مسبوق بتمهيد و توطئه بخلاف الأمر الثانى الوارد بعد اشتداد الاستعداد و كمال التهيؤ من المأمورين.

على أن ما اتبع به الأمر من قوله:« يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ »إلى قوله:

« وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ »يؤكد الأمر و يغرى المأمورين على امتثاله و إجرائه على المشركين فإن تذكرهم إن قتل المشركين عذاب إلهى لهم بأيدى المؤمنين،و إن المؤمنين أياد مجريه لله سبحانه و إن فى ذلك خزيا للمشركين و نصره من الله للمؤمنين عليهم و شفاء لصدور قوم مؤمنين و إذهابا لغيظ قلوبهم،يجرئهم للعمل و ينشطهم و يصفى إرادتهم.

و قوله:« وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ »الآيه بمنزله الاستثناء لئلا يجرى حكم القتال على إطلاقه.

قوله تعالى:« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّٰا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جٰاهَدُوا مِنْكُمْ »إلى آخر الآيه بمنزله تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال و فيه بيان حقيقه الأمر،و محصله أن الدار دار الامتحان و الابتلاء فإن نفوس الآدميين تقبل الخير و الشر و السعاده و الشقاوه فهى فى أول كينونتها ساذجه مبهمه،و مراتب القرب و الزلفى إنما تبذل بإزاء الإيمان الخالص بالله و آياته،و لا يظهر صفاء الإيمان إلا بالامتحان الذى يورد المؤمن مقام العمل،ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث،و الصافى الإيمان ممن ليس عنده إلا مجرد الدعوى أو المزعمه.

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدعون أنهم باعوا أنفسهم و أموالهم لله بأن لهم الجنه،و يبتلوا بمثل القتال الذى يميز به الصادق من الكاذب و يفصل الذى قطع روابط المحبه و الصله من أعداء الله سبحانه ممن فى قلبه بقايا من ولايتهم و مودتهم حتى يحيا هؤلاء و يهلك أولئك.

ص :۱۶۰

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا إليه و يتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقه إيمانهم و يحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجه الحق.

فقوله:« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا »أى بل أ ظننتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من الحال و لما تظهر حقيقه صدقكم فى دعوى الإيمان بالله و بآياته.

و قوله:« وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ »الآيه أى و لما يظهر فى الخارج جهادكم و عدم اتخاذكم من دون الله و لا رسوله و لا المؤمنين وليجه فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها و قد مر نظير الكلام مع بسط ما فى تفسير قوله تعالى:« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ» Xالآيه:Xآل عمران:-١٤٢ فى الجزء الرابع من الكتاب.و من الدليل على هذا الذى ذكرنا فى معنى العلم قوله فى ذيل الآيه:« وَ اللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ».

و الوليجه على ما فى مفردات الراغب،كل ما يتخذه الإنسان معتمدا عليه و ليس من أهله.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى:« بَراءَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ »:حدثنى أبى عن محمد بن الفضل عن ابن أبى عمير عن أبى الصباح الكنانى عن أبى عبد الله(ع)قال: نزلت هذه الآيه بعد ما رجع رسول الله ص من غزوه تبوك-فى سنه تسع من الهجره.

قال": و كان رسول الله ص لما فتح مكه- لم يمنع المشركين الحج فى تلك السنه، و كان سنه من العرب فى الحج أنه من دخل مكه-و طاف البيت فى ثيابه لم يحل له إمساكها،و كانوا يتصدقون بها و لا يلبسونها بعد الطواف-فكان من وافى مكه يستعير ثوبا و يطوف فيه ثم يرده،و من لم يجده عاريه و لا كرى-و لم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عريانا-.

فجاءت امرأه من العرب وسيمه جميله-فطلبت ثوبا عاريه أو كرى فلم تجده-فقالوا لها:إن طفت فى ثيابك-احتجت أن تتصدقى بها-فقالت:كيف أتصدق و ليس لى غيرها؟فطافت بالبيت عريانه و أشرف لها الناس-فوضعت إحدى يديها على قبلها- و الأخرى على دبرها و قالت شعرا:

اليوم يبدو بعضه أو كله

-فما بدا منه فلا أحله-

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعه-فقالت:إن لى زوجا-.

و كانت سيره رسول الله ص قبل نزول سوره براءه-أن لا يقاتل إلا من قاتله و لا يحارب إلا من حاربه و أراده،و قد كان أنزل عليه[فى]ذلك« فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ-فَمَا جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا »فكان رسول الله ص لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه-و اعتزله حتى نزلت عليه سوره براءه-و أمره بقتل المشركين من اعتزله و من لم يعتزله-إلا الذين قد عاهدهم رسول الله ص يوم فتح مكه إلى مده:منهم صفوان بن أميه و سهيل بن عمرو-فقال الله عز و جل:« بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ-إِلَى الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ- فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ »ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد.هذه أشهر السياحه:-عشرين من ذى الحجه و المحرم و صفر-و شهر ربيع الأول و عشرا من ربيع الآخر-.

فلما نزلت الآيات من سوره براءه-دفعها رسول الله ص إلى أبى بكر-و أمره أن يخرج إلى مكه-و يقرأها على الناس بمنى يوم النحر-فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ص-فقال:يا محمد لا يؤدى عنك إلا رجل منك-.

فبعث رسول الله ص أمير المؤمنين(ع)-فى طلب أبى بكر فلحقه بالروحاء- و أخذ منه الآيات فرجع أبو بكر إلى رسول الله ص- فقال:يا رسول الله،أنزل الله فى شيئا؟فقال:لا-إن الله أمرنى أن لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى.

و فى تفسير العياشى،عن حرير عن أبى عبد الله(ع): أن رسول الله بعث أبا بكر مع براءه إلى الموسم-ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل-فقال:لا يبلغ عنك إلا على- فدعا رسول الله ص عليا-و أمر أن يركب ناقته العضباء،و أمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءه-و يقرأها على الناس بمكه-فقال أبو بكر:أ سخط؟فقال:لا-إلا أنه أنزل عليه أنه لا يبلغ إلا رجل منك-.

فلما قدم على مكه و كان يوم النحر بعد الظهر-و هو يوم الحج الأكبر قام ثم قال:

إنى رسول رسول الله إليكم فقرأها عليهم:« بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ- فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ »عشرين من ذى الحجه و المحرم و صفر-و شهر ربيع الأول و عشرا من شهر ربيع الآخر،و قال:لا يطوف بالبيت عريان و لا عريانه-

و لا مشرک بعد هذا العام،و من کان له عهد عند رسول الله ص-فمدته إلی هذه الأربعه أشهر.

أقول:المراد تعیین المده للعهود التی لا مده لها بقرینه ما سیأتی من الروایه، و أما العهود التی لها مده فاعتبارها إلی مدتها مدلول لنفس الآیات الکریمه.

و فی تفسیری العیاشی،و المجمع،عن أبی بصیر عن أبی جعفر(ع)قال: خطب علی(ع)بالناس و اخترط سیفه-و قال:لا یطوفن بالبیت عریان،و لا یحجن بالبیت مشرک،و من کانت له مده فهو إلی مدته،و من لم یکن له مده فمدته أربعه أشهر، و کان خطب یوم النحر،و کانت عشرون من ذی الحجه و المحرم و صفر-و شهر ربیع الأول و عشر من شهر ربیع الآخر،و قال:یوم النحر یوم الحج الأکبر.

أقول:و الروایات من طرق أئمه أهل البیت(ع)فی هذه المعانی فوق حد الإحصاء.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فی زوائد المسند و أبو الشیخ و ابن مردویه عن علی رضی الله عنه قال: لما نزلت عشر آیات من براءه علی النبی ص- دعا أبا بکر رضی الله عنه لیقرأها علی أهل مکه-ثم دعانی فقال:لی أدرک أبا بکر-فحیثما لقیته فخذ الکتاب منه-.

و رجع أبو بکر رضی الله عنه-فقال:یا رسول الله نزل فی شیء؟قال:لا- و لکن جبرئیل جاءنی فقال:-لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن سعد بن أبی وقاص رضی الله عنه: أن رسول الله ص بعث أبا بکر رضی الله عنه-ببراءه إلی أهل مکه-ثم بعث علیا رضی الله عنه علی أثره فأخذها منه-فکأن أبا بکر وجد فی نفسه فقال النبی ص:یا أبا بکر-إنه لا یؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن أبی رافع رضی الله عنه قال: بعث رسول الله ص أبا بکر رضی الله عنه ببراءه-إلی الموسم فأتی جبرئیل(ع) فقال:إنه لا یؤدیها إلا أنت أو رجل منک-فبعث علیا رضی الله عنه علی أثره-حتی لحقه بین مکه و المدینه- فأخذها فقرأها علی الناس فی الموسم.

و فیه،أخرج ابن حبان و ابن مردویه عن أبی سعید الخدری قال: بعث رسول الله ص أبا بکر رضی الله عنه-یؤدی عنه براءه-فلما أرسله بعث إلی علی رضی الله عنه-فقال:یا علی لا یؤدی عنی إلا أنا أو أنت،فحمله علی ناقته العضباء-فسار حتی لحق بأبی بکر رضی الله عنه-فأخذ منه براءه.

فأتی أبو بکر النبی ص و قد دخله من ذلک مخافه-أن یکون قد أنزلت فیه شیء-فلما أتاه قال:ما لی یا رسول الله؟قال:خیر أنت أخی و صاحبی فی الغار-و أنت معی علی الحوض-غیر أنه لا یبلغ عنی إلا رجل منی.

أقول:و هناک روایات أخری فی معنی ما تقدم،

و قد نقل فی تفسیر البرهان، عن ابن شهرآشوب أنه رواه الطبرسی،و البلاذری،و الترمذی،و الواقدی،و الشعبی، و السدی،و الثعلبی،و الواحدی،و القرطبی،و القشیری،و السمعانی،و أحمد بن حنبل، و ابن بطه،و محمد بن إسحاق،و أبو یعلی الموصلی،و الأعمش،و سماک بن حرب فی کتبهم عن عروه بن الزبیر،و أبی هریره،و أنس،و أبی رافع،و زید بن نفیع،و ابن عمر، و ابن عباس،و اللفظ له: أنه لما نزل:« بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ »إلی تسع آیات أنفذ النبی ص أبا بکر إلی مکه-لأدائها فنزل جبرئیل و قال:إنه لا یؤدیها إلا أنت أو رجل منک-فقال النبی ص لأمیر المؤمنین:ارکب ناقتی العضباء و الحق أبا بکر- و خذ براءه من یده-.

قال:و لما رجع أبو بکر إلی النبی ص جزع-و قال:یا رسول الله-إنک أهلتنی لأمر طالت الأعناق فیه- فلما توجهت إلیه رددتنی منه؟فقال(ص):الأمین هبط إلی عن الله تعالی:أنه لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک؛و علی منی و لا یؤدی عنی إلا علی.

و فیما نقلناه من الروایات و ما ترکناه منها و هو أکثر و فیما سیجیء فی هذا الباب نکتتان أصلیتان.

إحداهما:أن بعث النبی ص علیا ببراءه و عزله أبا بکر إنما کان بأمر من ربه بنزول جبرئیل:«أنه لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»و لم یقید الحکم فی شیء من الروایات ببراءه أو نقض العهد فلم یرد فی شیء منها:لا یؤدی براءه أو لا ینقض العهد إلا أنت أو رجل منک فلا دلیل علی تقییده ببراءه علی ما وقع فی کثیر

من التفاسير؛و يؤيد الإطلاق ما سيأتى.

و ثانيتهما:أن عليا(ع)كما كان ينادى ببراءه،كـذلك كان ينادى بحكم آخر و هو أن من كان له مده فهو إلى مدته و من لم يكن له مده فمدته أربعه أشهر: و هذا أيضا مما يدل عليه آيات براءه.

و بحكم آخر و هو أنه لا يطوفن بـالبيت عريـان،و هو أيضا حكم إلهى مـدلول عليه بقوله تعالى:« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ:» الأعراف:-٣١ و قد ورد فى بعض الروايات ذكر الآيه مع الحكم كما سيجىء.

و حكم آخر أنه لا يطوف أو لا يحج البيت مشـرك بعـد هذا العام و هو مدلول قوله تعالى:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْـرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا:» التوبه:-٢٨.

و هنـاك أمر خامس ذكر فى بعض روايات الباب أنه(ع) كان ينادى به و هو أنه لا يـدخل الجنه إلا مؤمن و هـذا و إن لم يـذكر فى سـائر الروايـات،و الاعتبـار لا يساعـد على ذلـك لنزول آيـات كثيره مكيه و مـدنيه فى ذلـك و خفـاء الأمر فى ذلـك على المشـركين إلى سـنه تسع من الهجره كالمحال عاده لكن ذلك أيضا مدلول للآيات الكريمه (١)،و على أى حـال لم تكن رساله على(ع)مقصورا على تـأديه آيـات براءه بل لها و لتبليغ ثلاثه أو أربعه أحكام قرآنيه أخرى،و الجميع مشـمول لما أنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله ص:أنه لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك،إذ لا دليل على تقييد الكلام على إطلاقه أصلا.

و فى الدر المنثور،أخرج الترمذى و حسنه و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضـى الله عنه: أن رسول الله ص بعث أبا بكر رضى الله عنه-و أمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات-ثم أتبعه عليا رضى الله عنه و أمره أن ينـادى بهـا-فانطلقـا فحجا فقام على رضـى الله عنه فى أيام التشـريق-فنادى:أن الله برىء من المشـركين و رسوله-فسـيحوا فى الأرض أربعه أشهر و لا يحجن بعد العام مشرك،

١- ١) و أمـا على مـا فى بعضـها بـدلا من ذلـك:«لا يـدخل الكعبه-أو البيت-إلا مؤمن»فالحكم المسـتفاد منه نظير الحكم بأنه لا يطوفن بالبيت مشرك حكم ابتدائى.

و لا يطوفن بالبيت عريان،و لا يدخل الجنه إلا مؤمن-فكان على رضى الله عنه ينادى بها.

أقول:و الخبر قريب المضمون مما استفدناه من الروايات.

و فيه،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن المسيب عن أبى هريره": أن أبا بكر رضى الله عنه أمره أن يؤذن ببراءه-فى حجه أبى بكر.

قال أبو هريره: ثم أتبعنا النبى ص عليا رضى الله عنه-أمره أن يؤذن ببراءه و أبو بكر رضى الله عنه-على الموسم كما هو-أو قال:على هيئته -.

أقول:و قد ورد فى عده من طرق أهل السنه:أن النبى استعمل أبا بكر على الحج عامه ذلك فكان هو أمير الحاج و على ينادى ببراءه و قد روت الشيعه أنه(ص) استعمل للإماره عليا كما أنه حمله تأديه آيات براءه و قد ذكر ذلك الطبرسى فى مجمع البيان و رواه العياشى عن زراره عن أبى جعفر(ع)،و ربما تأيد ذلك بما ورد أن عليا كان يقضى فى سفره ذلك و أن النبى ص دعا له فى ذلك،إذ من المعلوم أن مجرد الرساله بتأديه براءه لا تتضمن الحكم بالقضاء بين الناس،و أوفق ما يكون ذلك فى تلك الأيام بالإماره،و الروايه ما سيأتى:

فى تفسير العياشى،عن الحسن عن على ع: أن النبى(ص)حين بعثه ببراءه-قال:يا نبى الله إنى لست بلسن و لا بخطيب-قال(ص):يأبى الله ما بى إلا أن أذهب بها أو تذهب أنت- قال:فإن كان لا بد فسأذهب أنا-قال:فانطلق فإن الله يثبت لسانك و يهدى قلبك-ثم وضع يده على فمه-فقال:انطلق و اقرأها على الناس،و قال(ص):الناس سيتقاضون إليك-فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد-حتى تسمع الآخر فإنه أجدر أن تعلم الحق.

أقول:و هذا المعنى مروى من طرق أهل السنه

كما فى الدر المنثور،عن أبى الشيخ عن على رضى الله عنه قال: بعثنى رسول الله ص إلى اليمن ببراءه-فقلت:يا رسول الله تبعثنى و أنا غلام حديث السن-و أسأل عن القضاء و لا أدرى ما أجيب؟قال:ما بد من أن تذهب بها أو أذهب بها.قلت:إن كان لا بد أنا أذهب،قال:انطلق فإن الله يثبت لسانك و يهدى قلبك،ثم قال:انطلق و اقرأها على الناس.

إلا أن اشتمال الروايه على لفظ اليمن يسىء الظن بها إذ من البين من لفظ آيات براءه أنها مقره على أهل مكه يوم الحج الأكبر بمكه و أين ذلك من اليمن و أهلها

ص :۱۶۶

و كان لفظ الروايه كان:«إلى مكه»فوضع موضعه«إلى اليمن»تصحيحا لما اشتملت عليه من حديث القضاء.

و فى الـدر المنثور،أخرج أحمد و النسائى و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريره قال": كنت مع على رضـى الله عنه حين بعثه رسول الله ص،بعث عليا بأربع:

لاـ يطوف بـالبيت عريـان،و لاـ يجتمع المسـلمون و المشـركون بعـد عـامهم،-و من كـان بينه و بين رسول الله ص عهـد فهو إلى عهده،و إن الله و رسوله برىء من المشركين.

أقول:و هذا المعنى مروى عن أبى هريره بعده طرق بألفاظ مختلفه لا تخلو من شـىء فى متنها-على ما سـيجىء-و أمتن الروايات متنا هذه التى أوردناها.

و فيه،أخرج أحمـد و النسـائى و ابن المنـذر و ابن مردويه عن أبى هريره قـال": كنت مع على حين بعثه رسول الله إلى أهـل مكه ببراءه-فكنـا ننـادى أنه لا يـدخل الجنه إلا مؤمن،و لا يطوف بالبيت عريان،و من كان بينه و بين رسول الله ص عهـد-فإن أمره أو أجله إلى أربعه أشهر-فإذا مضت الأربعه أشهر-فإن الله برىء من المشركين و رسوله- و لا يحج هذا البيت بعد العام مشرك.

أقول: و فى متن الروايه اضـطراب بين،أما أولا:فلاشـتمالها على النـداء بأنه لا يدخل الجنه إلا مؤمن،و قد سـبق أنه نزلت فى معناه آيات كثيره مكيه و مدنيه منذ سـنين و قد سـمعها الحضـرى و البدوى و المشرك و المؤمن فأى حاجه متصوره إلى إبلاغها أهل الجمع.

و أمـا ثانيـا:فلأن النـداء الثانى أعنى قوله:و من كان بينه و بين رسول الله ص عهـد إلـخ،لا ينطبق لا على مضامين الآيات و لا على مضامين الروايات المتظافره السابقه، على أنه قد جعل فيه البراءه بعد مضى أربعه أشهر.

و أما ثالثا:فلما سنذكره ذيلا.

و فيه،أخرج البخارى و مسـلم و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريره قال": بعثنى أبو بكر رضـى الله عنه فى تلـك الحجه-فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى-أن لاـ يحـج بعـد هـذا العـام مشـرك،و لاـ يطوف بالبيت عريان-ثم أردف النبى ص بعلى بن أبى طـالب رضـى الله عنه-فـأمره أن يؤذن ببراءه-فـأذن معنـا على فى أهل منى يوم النحر ببراءه،و أن لا يحج بعد العام مشرك-و لا يطوف بالبيت عريان.

و فی تفسیر المنار،عن الترمذی عن ابن عباس": أن النبی ص بعث أبا بکر-إلی أن قال-فقام علی أیام التشریق فنادی:ذمه الله و ذمه رسوله بریئه من کل مشرک-فسیحوا فی الأرض أربعه أشهر،و لا یحجن بعد العام مشرک،و لا یطوفن بالبیت عریان-و لا یدخل الجنه إلا کل مؤمن-فکان علی ینادی بها فإذا بح-قام أبو هریره فنادی بها.

و فیه،أیضا عن أحمد و النسائی-من طریق محرز بن أبی هریره عن أبیه قال": کنت مع علی حین بعثه رسول الله ص إلی مکه-ببراءه فکنا ننادی-أن لا یدخل الجنه إلا کل نفس مسلمه،و لا یطوف بالبیت عریان،و من کان بینه و بین رسول الله ص عهد فعهده إلی مدته،و لا یحج بعد العام مشرک-فکنت أنادی حتی صحل صوتی.

أقول:قد عرفت أن الذی وقع فی الروایات علی کثرتها فی قصه بعث علی و عزل أبی بکر من کلمه الوحی الذی نزل به جبرئیل علی النبی ص هو قوله:

«لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»و کذا ما ذکره النبی ص حین أجاب أبا بکر لما سأله عن سبب عزله،إنما هو متن ما أوحی إلیه الله سبحانه،أو قوله -و هو فی معناه-:«لا یؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی».

و کیفما کان فهو کلام مطلق یشمل تأدیه براءه و کل حکم إلهی احتاج النبی ص إلی أن یؤدیه عنه مؤد غیره،و لا دلیل لا من متون الروایات و لا غیرها یدل علی اختصاص ذلک ببراءه،و قد اتضح أن المنع عن طواف البیت عریانا و المنع عن حج المشرکین بعد ذلک العام و کذا تأجیل من له عهد إلی مده أو من غیر مده کل ذلک أحکام إلهیه نزل بها القرآن فما معنی إرجاع أمرها إلی أبی بکر أو نداء أبی هریره بها وحده أو ندائه ببراءه و سائر الأحکام المذکوره فی الجمع إذا بح علی(ع)حتی یصحل صوته من کثره النداء؟و لو جاز لأبی هریره أن یقوم بها و الحال هذه فلم لم یجز لأبی بکر ذلک؟.

نعم أبدع بعض المفسرین کابن کثیر و أترابه هنا وجها وجهوا به ما تتضمنه هذه الروایات انتصارا لها و هو أن قوله:«لا یؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی» مخصوص بتأدیه براءه فقط من غیر أن یشمل سائر الأحکام التی کان ینادی بها علی(ع)، و أن تعیینه(ص)علیا بتبلیغ آیات براءه أهل الجمع إنما هو لما کان من عاده العرب أن لا ینقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بیته و مراعاه هذه العاده الجاریه هی

التی دعت النبی ص أن یأخذ براءه و فیها نقض ما للمشرکین من عهد-من أبی بکر و یسلمها إلی علی لیستحفظ بذلک السنه العربیه فیؤدیها عنه بعض أهل بیته.

قالوا:و هذا معنی قوله(ص)لما سأله أبو بکر قائلا:یا رسول الله هل نزل فی شیء؟قال:«لا و لکن لا یؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی»و معناه أنی إنما عزلتک و نصبت علیا لذلک لئلا أنقض هذه السنه العربیه الجاریه.

و لذلک لم ینفصل أبو بکر من شأنه فقد کان قلده إماره الحاج و کان لأبی بکر مؤذنون یؤذنون بهذه الأحکام کأبی هریره و غیره من الرجال الذین لم یذکر أسماؤهم فی الروایات،و کان علی أحد من عنده لهذا الشأن،و لذا ورد فی بعضها:أنه خطب بمنی و لما فرغ من خطبته التفت إلی علی و قال:قم یا علی و أد رساله رسول الله ص.

و هذا ما ذکروه و وجهوا به الروایات.

و الباحث الناقد إذا راجع هذه الآیات و الروایات ثم تأمل ما جرت من المشاجرات الکلامیه بین الفریقین:أهل السنه و الشیعه فی باب الأفضلیه لم یرتب فی أنهم خلطوا بین البحث التفسیری الذی شأنه تحصیل مدالیل الآیات القرآنیه،و البحث الروائی الذی شأنه نقد معانی الأحادیث و تمییز غثها من سمینها،و بین البحث الکلامی الناظر فی أن أبا بکر أفضل من علی أو علیا أفضل من أبی بکر؟و فی أن إماره الحاج أفضل أو الرساله فی تبلیغ آیات براءه؟و لمن کان إماره الحج إذ ذاک لأبی بکر أو لعلی؟ أما البحث الکلامی فلسنا نشتغل به فی هذا المقام فهو خارج عن غرضنا،و أما البحث الروائی أو التفسیری فیما یرتبط به الآیات إلی أسباب نزولها مما یتعلق بمعانی الآیات فالذی ینبغی أن یقال بالنظر إلیه أنهم أخطئوا فی هذا التوجیه.

فلیت شعری من أین تسلموا أن هذه الجمله التی نزل بها جبرئیل:«أنه لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»مقیده بنقض العهد لا یدل علی أزید من ذلک،و لا دلیل علیه من نقل أو عقل فالجمله ظاهره أتم ظهور فی أن ما کان علی رسول الله ص أن یؤدیه لا یجوز أن یؤدیه إلا هو أو رجل منه سواه،کان نقض عهد من جانب الله کما فی مورد براءه أو حکما آخر إلهیا علی رسول الله ص أن یؤدیه و یبلغه.

و هذا غیر ما کان من أقسام الرساله منه(ص)مما لیس علیه أن یؤدیه بنفسه

الشریفه کالکتب التی أرسل بها إلی الملوک و الأمم و الأقوام فی الدعوه إلی الإسلام و کذا سائر الرسالات التی کان یبعث بها رجالا من المؤمنین إلی الناس فی أمور یرجع إلی دینهم و الإمارات و الولایات و نحو ذلک.

ففرق جلی بین هذه الأمور و بین براءه و نظائرها فإن ما تتضمنه آیات براءه و أمثال النهی عن الطواف عریانا،و النهی عن حج المشرکین بعد العام أحکام إلهیه ابتدائیه لم تبلغ بعد و لم تؤد إلی من یجب أن تبلغه،و هم المشرکون بمکه و الحجاج منهم،و لا رساله من الله فی ذلک إلا لرسوله،و أما سائر الموارد التی کان یکتفی النبی(ص)ببعث الرسل للتبلیغ فقد کانت مما فرغ((ص))فیها من أصل التبلیغ و التأدیه،بتبلیغه من وسعه تبلیغه ممن حضر کالدعوه إلی الإسلام و سائر شرائع الدین و کان یقول:«لیبلغ الشاهد منکم الغائب»ثم إذا مست الحاجه إلی تبلیغه بعض من لا وثوق عاده ببلوغ الحکم إلیه أو لا أثر لمجرد البلوغ إلا أن یعتنی لشأنه بکتاب أو رسول أو توسل عند ذلک إلی رساله أو کتاب کما فی دعوه الملوک.

و لیتأمل الباحث المنصف قوله«لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»فقد قیل:«لا یؤدی عنک إلا أنت»و لم یقل:«لا یؤدی إلا أنت أو رجل منک»حتی یفید اشتراک الرساله،و لم یقل:«لا یؤدی منک إلا رجل منک»حتی یشمل سائر الرسالات التی کان((ص))یقلدها کل من کان من صالحی المؤمنین فإنما مفاد قوله:«لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»أن الأمور الرسالیه التی یجب علیک نفسک أن تقوم بها لا یقوم بها غیرک عوضا منک إلا رجل منک أی لا یخلفک فیما علیک کالتأدیه الابتدائیه إلا رجل منک.

ثم لیت شعری ما الذی دعاهم إلی أن أهملوا کلمه الوحی التی هی قول الله نزل به جبرئیل علی النبی(ص):«لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»و ذکروا مکانها أنه «کانت السنه الجاریه عند العرب أن لا ینقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بیته» تلک السنه العربیه التی لا خبر عنها فی أیامهم و مغازیهم و لا أثر إلا ما ذکره ابن کثیر و نسبه إلی العلماء عند البحث عن آیات براءه!.

ثم لو کانت سنه عربیه جاهلیه علی هذا النعت فما وزنها فی الإسلام و ما هی قیمتها عند النبی(ص)و قد کان ینسخ کل یوم سنه جاهلیه و ینقض کل حین عاده قومیه، و لم تکن من جمله الأخلاق الکریمه أو السنن و العادات النافعه بل سلیقه قبائلیه تشبه

و قد قال((ص)) يوم فتح مكه عند الكعبه على ما رواه أصحاب السير:

«إلا كل مأثره أو دم أو مال يدعى-فهو تحت قدمى هاتين-إلا سدانه البيت و سقايه الحاج».

ثم لو كانت سنه عربيه غير مذمومه فهل كان رسول الله(ص)ذهل عنها و نسيها حين أسلم الآيات إلى أبى بكر و أرسله،و خرج هو إلى مكه حتى إذا كان فى بعض الطريق ذكر((ص))ما نسيه أو ذكره بعض من عنده بما أهمله و ذهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته؟و هو((ص))المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق و اعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم و حسن التدبير،و كيف جاز لهؤلاء المذكرين أن يغفلوا عن ذلك و ليس من الأمور التى يغفل عنها و تخفى عاده فإنما الذهول عنه كغفله المقاتل عن سلاحه؟.

و هل كان ذلك بوحى من الله إليه أنه يجب له أن لا يلغى هذه السنه العربيه الكريمه،و أن ذلك أحد الأحكام الشرعيه فى الباب و أنه يحرم على ولى أمر المسلمين أن ينقض عهدا إلا بنفسه أو بيد أحد من أهل بيته؟و ما معنى هذا الحكم؟.

أو أنه حكم أخلاقى اضطر إلى اعتباره لما أن المشركين ما كانوا يقبلون هذا النقض إلا بأن يسمعوه من النبى(ص)نفسه أو من أحد من أهل بيته؟و قد كانت السيطره يومئذ له((ص))عليهم،و الزمام بيده دونهم،و الإبلاغ إبلاغ.

أو أن المؤمنين المخاطبين بقوله:« عَاهَدْتُمْ »و قوله:« وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النّاسِ » و قوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »ما كانوا يعتبرون هذا النقض نقضا دون أن يسمعوه منه(ص)أو من واحد من أهل بيته و إن علموا بالنقض إذا سمعوا الآيات من أبى بكر؟.

و لو كان كذلك فكيف قبله و اعتبره نقضا من سمعه من أبى هريره الذى كان ينادى به حتى صحل صوته؟و هل كان أبو هريره أقرب إلى على و أمس به من أبى بكر إلى رسول الله ص فالحق أن هذه الروايات الحاكيه لنداء أبى هريره و غيره غير سديده لا ينبغى الركون إليها.

قال صاحب المنار فى تفسيره:جمله الروايات تدل على أن النبى(ص)جعل أبا بكر أميرا على الحج سنه تسع و أمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ثم أردفه بعلى ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقه و إعطاءهم مهله أربعه أشهر لينظروا فى أمرهم،و إن العهود الموقته أجلها نهايه وقتها،و يتلو عليهم الآيات المتضمنه لمسأله نبذ العهود و ما يتعلق بها من أول سوره براءه.

و هی أربعون أو ثلاث و ثلاثون آیه،و ما ذکر فی بعض الروایات من التردد بین ثلاثین و أربعین فتعبیر بالأعشار مع إلغاء کسرها من زیاده و نقصان.

و ذلک لأن من عاده العرب أن العهود و نبـذها إنما تکون من عاقـدها أو أحـد عصـبته القریبه،و أن علیا کان مختصا بـذلک مع بقاء إماره الحج لأبی بکر الذی کان یساعده علی ذلک و یأمر بعض الصحابه کأبی هریره بمساعدته.انتهی.

و قال أیضا:إن بعض الشیعه یکبرون هذه المزیه لعلی(ع)کعادتهم و یضیفون إلیها ما لا تصح به روایه،و لا تؤیده درایه فیستدلون بهـا علی تفضـیله علی أبی بکر رضـی الله عنهمـا و کونه أحق بالخلافه منه،و یزعمون أن النـبی ص عزل أبـا بکر من تبلیغ سوره براءه لأـن جبرئیـل أمره بـذلک،و أنه لاـ یبلغ عنه إلاـ هو أو رجـل منه و لا یخصون هـذا النفی بتبلیغ نبـذ العهود و ما یتعلق به بل یجعلونه عاما لأمر الدین کله.

مع اسـتفاضه الأخبار الصحیحه بوجوب تبلیغ الدین علی المسلمین کافه کالجهاد فی حمایته و الدفاع عنه،و کونه فریضه لا فضیله فقـط و منهـا قـوله(ص)فی حجه الوداع علی مسـمع الأـلوف من النـاس:«ألاـ فلیبلغ الشاهـد الغـائب»و هو مکرر فی الصـحیحین و غیرهما،و فی بعض الروایات عن ابن عباس: فوالـذی نفسـی بیـده أنها لوصـیته إلی أمته«فلیبلغ الشاهد الغائب»إلخ و حدیث:«بلغوا عنی و لو آیه»رواه البخاری فی صحیحه و الترمذی،و لو لا ذلک لما انتشر الإسلام ذلک الانتشار السریع فی العالم.

بـل زعم بعضـهم-کمـا قیل- إنه(ص)عزل أبا بکر من إماره الحـج و ولاها علیا،و هـذا بهتان صـریح مخالف لجمیع الروایات فی مسأله عملیه عرفها الخاص و العام.

و الحق أن علیـا کرم الله وجهه کان مکلفا بتبلیغ أمر خاص،و کان فی تلک الحجه تابعا لأبی بکر فی إمارته العامه فی إقامه رکن الإسـلام الاجتمـاعی العـام حتی کـان أبو بکر یعین له الوقت الـذی یبلغ ذلک فیه فیقول:یا علی قم فبلغ رساله رسول الله ص کما تقدم التصـریح به فی الروایات الصـحیحه کما أمر بعض الصـحابه بمساعدته علی هذا التبلیغ کما تقدم فی حدیث أبی هریره فی الصحیحین و غیرهما.

ثم ساق الکلام و اسـتدل بإماره أبی بکر فی تلک الحجه و ضم إلیها صـلاته موضع النبی ص قبیل وفاته-علی تقـدمه و أفضـلیته من جمیع الصحابه علی من سواه انتهی.

أمـا قوله:مع اسـتفاضه الأخبـار بوجوب تبليغ الـدين على المسـلمين كـافه إلى آخر ما قال فيكشف عن أنه لم يحصل معنى كلمه الوحى:«لاـ يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»حق التحصـيل،و لم يفرق بين قولنا:«لا يؤدى منك إلا رجل منك» و بين قوله:«لا يؤدى عنـك إلاـ أنت أو رجـل منك»فزعم أن الكلام بإطلاقه يمنع عن كل تبليغ دينى يتصـداه غير النبى ص أو رجل منه فـدفع ذلك باستفاضه الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافه و قيد به إطلاق قوله:«لا يؤدى عنك»إلخ فجعله خاصا بتبليغ نبذ العهد بعد تحويل الحكم الإلهى إلى سنه عربيه جاهليه.

و قد ساقه اشـتباه معنى الكلمه إلى أن زعم أن إبقاء الكلام على إطلاقه منشؤه الغفله عن أمر هو كالضـرورى عند عامه المسلمين أعنى وجوب التبليغ العام حتى اسـتدل على ذلك بما فى الصـحيحين و غيرهما من قوله(ص):«فليبلغ الشاهـد الغائب»،و قد عرفت ما هو حق المعنى لكلمه الوحى.

و أما قوله:«بل زعم بعضهم كما قيل إنه عزل أبا بكر من إماره الحج و ولاها عليا و هذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات فى مسـأله عمليه عرفهـا العـام و الخـاص»فليس ذلـك زعما من البعض و لا بهتانا كما بهته بل روايه روتها الشـيعه و قـد أوردناها فى ضمن الروايات المتقدمه.

و ليس التوغل فى مسأله الإماره مما يهمنا فى تفهم معنى قوله:«لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»فإماره الحاج سواء صـحت لأبى بكر أو لعلى،دلت على فضل أو لم تـدل إنما هى من شـعب الولايه الإسـلاميه العامه التى شأنها التصـرف فى أمور المجتمع الإسـلامى الحيويه،و إجراء الأحكام و الشـرائع الـدينيه،و لا حكومه لها على المعارف الإلهيه و مواد الوحى النازله من السـماء فى أمر الدين.

إنمـا هى ولاـيه رسول الله ص ينصب يومـا أبـا بكر أو عليـا لإمـاره الحـاج،و يؤمر يومـا أسـامه على أبى بكر و عامه الصـحابه فى جيشه،و يولى يومـا ابن أم مكتوم على المـدينه و فيهـا من هو أفضـل منه،و يولى هـذا مكه بعـد فتحها،و ذاك اليمن،و ذلك أمر الصـدقات،و قـد اسـتعمل(ص)أبا دجانه الساعدى أو سـباع بن عرفطه الغفارى على ما فى سـيره ابن هشام على المدينه عام حجه الـوداع،و فيهـا أبـو بكر لـم يخرج إلى الحــج على مـا رواه البخـارى و مســلم و أبـو داود و النسـائى و غيرهـم و إنمـا تـدل على إذعانه(ص)بصلاحيه من نصبه لأمر لتصديه و إداره رحاه.

و أما الوحی السماوی بما یشتمل علیه من المعارف و الشرائع فلیس للنبی ص و لا لمن دونه صنع فیه و لا تأثیر فیه مما له من الولایه العامه علی أمور المجتمع الإسلامی بإطلاق أو تقیید أو إمضاء أو نسخ أو غیر ذلک،و لا تحکم علیه سنه قومیه أو عاده جاریه حتی توجب تطبیقه علی ما یوافقها أو قیام العصبه مقام الإنسان فیما یهمه من أمر.

و الخلط بین البابین یوجب نزول المعارف الإلهیه من أوج علوها و کرامتها إلی حضیض الأفکار الاجتماعیه التی لا حکومه فیها إلا للرسوم و العادات و الاصطلاحات، فیعود الإنسان یفسر حقائق المعارف بما یسعه الأفکار العامیه و یستعظم ما استعظمه المجتمع دون ما عظمه الله،و یستصغر ما استصغره الناس حتی یقول القائل فی معنی کلمه الوحی أنه عاده عربیه محترمه.

و أنت إذا تأملت هذه القصه-أخذ آیات براءه من أبی بکر و إعطاءها علیا علی ما تقصها الروایات-وجدت فیها من مساهله الرواه و توسعهم فی حفظ القصه بما لها من الخصوصیات-إن لم یستند إلی غرض آخر-أمرا عجیبا ففی بعضها -و هو الأکثر- أنه(ص)بعث أبا بکر بالآیات ثم بعث علیا و أمره أن یأخذها منه و یتلوها علی الناس فرجع أبو بکر إلخ،و فی بعضها أنه بعث أبا بکر بإماره الحج ثم بعث علیا بعده بآیات براءه و فی بعضها:أن أبا بکر أمره بالتبلیغ و أمر بعض الصحابه أن یشارکه فی النداء حتی آل الأمر إلی مثل ما رواه الطبری و غیره عن مجاهد فی قوله تعالی:« بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی الَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ »إلی أهل العهد خزاعه و مدلج و من کان له عهد و غیرهم.أقبل رسول الله ص من تبوک حین فرغ منها فأراد الحج ثم قال:إنه یحضر البیت مشرکون یطوفون عراه فلا أحب أن أحج حتی لا یکون ذلک فأرسل أبا بکر و علیا فطافا فی الناس بذی المجاز و بأمکنتهم التی کانوا یبیعون بها و بالموسم کله فأذنوا أصحاب العهد أن یأمنوا أربعه أشهر و هی الأشهر الحرم المنسلخات المتوالیات:عشرون من آخر ذی الحجه إلی عشر تخلو من ربیع الأول (1)ثم عهد لهم و آذن الناس کلهم بالقتال إلی أن یموتوا.

و إذا کان هذا هو الحال فما معنی قوله:«بهتان صریح مخالف لجمیع الروایات

۱- ۱) کذا

فی مسأله عملیه عرفها العام و الخاص»؟فإن کان یعنی: عرفها العام و الخاص فی عصر النبی ص ممن شاهد الأمر أو سمع ذلک ممن شاهده و وصفه فما ذا ینفعنا ذلک؟.

و إن کان یعنی: أن العام و الخاص ممن یلی عهد النبی ص أو یلی من یلیه عرفا ذلک و لم یشک أحد فی ذلک فهذا حال الروایات المنقوله عنهم لا یجتمع علی کلمه.

منها ما یحکی أن علیا اختص بتأدیه براءه و أخری تدل علی أن أبا بکر شارکه فیه،و أخری تدل علی أن أبا هریره شارکه فی التأدیه و رجال آخرون لم یسموا فی الروایات.

و منها ما یدل علی أن الآیات کانت تسع آیات،و أخری عشرا،و أخری ست عشره،و أخری ثلاثین،و أخری ثلاثا و ثلاثین،و أخری سبعا و ثلاثین،و أخری أربعین،و أخری سوره براءه.

و منها ما یدل علی أن أبا بکر ذهب لوجهه أمیرا علی الحاج و أخری علی أنه رجع حتی أوله بعضهم کابن کثیر أنه رجع بعد إتمام الحج،و آخرون أنه رجع لیسأل النبی ص عن سبب عزله،و فی روایه أنس الآتیه أنه(ص)بعث أبا بکر ببراءه ثم دعاه فأخذها منه.

و منها ما یدل علی أن الحجه وقعت فی ذی الحجه و أن یوم الحج الأکبر تمام أیام تلک الحجه أو یوم عرفه أو یوم النحر أو الیوم التالی لیوم النحر أو غیر ذلک و أخری أن أبا بکر حج فی تلک السنه فی ذی القعده.

و منها ما یدل علی أن أشهر السیاحه تأخذ من شوال،و أخری من ذی القعده، و أخری من عاشر ذی الحجه،و أخری من الحادی عشر من ذی الحجه و غیر ذلک.

و منها ما یدل علی أن الأشهر الحرم هی ذو القعده و ذو الحجه و المحرم من تلک السنه و،أخری علی أنها أشهر السیاحه تبتدأ من یوم التبلیغ أو یوم النزول.

فهذا حال اختلاف الروایات،و مع ذلک کیف یستقیم دعوی أنه أمر عرفه العام و الخاص،و بعض المحتملات السابقه و إن کان قولا من مفسری السلف إلا أن المفسرین یعاملون أقوالهم معامله الروایات الموقوفه.

و أما قوله:و الحق أن علیا کان مکلفا بتبلیغ أمر خاص و کان فی تلک الحجه

تابعا لأبی بکر فی إمارته إلی آخر ما قال فلا ریب أن الـذی بعث به النبی ص علیا من الأحکام کان أمرا خاصا و هو تلاوه آیات براءه و سائر ما یلحق بها من الأمور الأربعه المتقدمه غیر أن الکلام فی أن کلمه الوحی:«لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»لا تختص فی دلالتها بتأدیه آیات براءه علی ما تقدم بیانه فلا ینبغی الخلط بین ما یدل علیه الکلمه و بین ما أمر به علی فی خصوص تلک السفره.

و أما قوله:و کان فی تلک الحجه تابعا«إلخ»فأمر استفاده من کلام أبی هریره و ما یشبه،و قد عرفت الکلام فیه.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه و أحمد و الترمذی و حسنه و أبو الشیخ و ابن مردویه عن أنس(رضی الله عنه)قال: بعث النبی(ص)ببراءه مع أبی بکر(رضی الله عنه)ثم دعاه فقال: لا ینبغی لأحد أن یبلغ هذا-إلا رجل من أهلی فدعا علیا فأعطاه إیاه.

أقول:ذکر صاحب المنار فی بعض کلامه:أن قوله(ص):«أو رجل منی فی روایه السدی قد فسرتها الروایات الأخری عند الطبری و غیره بقوله((ص)):«أو رجل من أهل بیتی» و هذا النص الصریح یبطل تأویل کلمه«منی»بأن معناها أن نفس علی کنفس رسول الله(ص)و أنه مثله و أنه أفضل من کل أصحابه-انتهی-.

و الذی أشار إلیه من الروایات هو ما رواه قبلا بقوله:و أخرج أحمد بسند حسن عن أنس أن النبی(ص)بعث ببراءه مع أبی بکر فلما بلغ ذا الحلیفه قال:لا یبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بیتی فبعث بها مع علی.

و هذه بعینها-علی ما لا یخفی-هی الروایه السابقه التی أوردناها عن أنس، و قد وقع فیها«أو رجل من أهلی»و إن اختلف لفظا الروایتین بما عملت فیهما ید النقل بالمعنی.

و أول ما فی کلامه:أن اللفظ:«أو رجل منی»لم یقع إلا فی روایه واحده موقوفه هی روایه السدی التی استضعفها قبیل ذلک بل الأصل فی ذلک کلمه الوحی التی أثبتتها معظم الروایات الصحیحه علی بلوغ کثرتها،و الروایات الآخر المشتمله علی قوله:«من أهل بیتی»و هو یستکثرها إنما هی روایه أنس-علی ما عثرنا علیها- و قد وقع فی بعض ألفاظها قوله«من أهلی»مکان«من أهل بیتی».

و الثانی:أن الروایه-کما اتضح لک-منقوله بالمعنی،و مع ذلک لا یصلح ما وقع فیها من بعض الألفاظ لتفسیر ما اتفقت علیه معظم الروایات الصحیحه الوارده من طرق الفریقین من لفظ الوحی المنقول فیها.

علی أن قوله:«من أهل بیتی»فی هذه لو صلح لتفسیر ما وقع فی سائر الروایات من«لفظ رجل منک»أو«رجل منی»لکان الواقع فی روایه فی سائر الروایات من لفظ رجل منک أو رجل منی لکان الواقع فی روایه أبی سعید الخدری السابقه من قوله(ع):«یا علی إنه لا یؤدی عنی إلا أنا أو أنت»مفسرا لما فی روایه أنس:«إلا رجل من أهل بیتی»أو«إلا رجل من أهلی»و ما فی سائر الروایات:«إلا رجل منک»أو«إلا رجل منی».

فیعود هذه الألفاظ کنایه عن شخص علی(ع)،بل الکنایه بما لها من المعنی مشیره إلی أنه من نفس النبی(ع)و من أهله و من أهل بیته جمیعا،و هذا عین ما فر منه و زیاده.

و الثالث:أن استفاده کونه(ع)بمنزله نفسه(ع)لیست بمستنده إلی مجرد قوله(ص):«رجل منی»کما حسبه فإن مجرد قول القائل:فلان منی لا یدل علی تنزیله منزلته فی جمیع شئون وجوده و مماثلته إیاه،و إنما یدل علی نوع من الاتصال و الاتباع کما فی قول إبراهیم(ع):« فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی:» إبراهیم:-۳۶ إلا بنوع من القرینه الداله علی عنایه کلامیه کقوله تعالی:« وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ».

بل إنما استفید ذلک من قوله:«رجل منی»أو«رجل منک»بمعونه قوله:

«لا یؤدی عنک إلا أنت»علی البیان الذی تقدم و علی هذا فلو کان هناک قوله:«لا یؤدی عنی إلا رجل من أهلی أو رجل من أهل بیتی»لاستفید منه عین ما استفید من قوله:«لا یؤدی عنک إلا أنت أو رجل منک»و قوله:«لا یؤدی عنی إلا أنا أو رجل منی»مضافا (۱)إلی أنه(ص)عده منه فی خطابه أبا بکر و هو أیضا منه بالاتباع.

۱- ۱) و فی روایه الحاکم الآتیه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبیه عنه صلی الله علیه و آله فیما قاله لأهل الطائف:«و الذی نفسی بیده لتقیمن الصلاه و لتؤتن الزکاه أو لأبعثن علیکم رجلا منی أو کنفسی» فرأی الناس أنه یعنی أبا بکر أو عمر فأخذ بید علی فقال:«هذا»دلاله علی هذا الفهم من جهه ما فیها من التردید.

و الرابع:أنه أهمل فی البحث الروایات الصحیحه المستفیضه أو المتواتره التی تدل علی أن أهل بیت النبی ص هم:علی و فاطمه و الحسنان علی ما تقدم فی أخبار آیه المباهله و سیجیء معظمها فی أخبار آیه التطهیر إن شاء الله تعالی.

و لا رجل فی أهل بیته(ص)إلا علی(ع)فیئول الأمر إلی کون اللفظ کنایه عن علی(ع)فیرجع إلی ما تقدم من الوجه.

و أما ما احتمله من المعنی فهو أن المراد بأهل بیته عامه أقربائه من بنی هاشم أو بنو هاشم و نساؤه فینزل اللفظ منزله عادیه من غیر أن یحمل شیئا من المزیه،و المعنی لا یؤدی نبذ العهد عنی إلا رجل من بنی هاشم،و القوم یرجعون غالبا فی مفاهیم أمثال هذه الألفاظ إلی ما یعطیه العرف اللغوی فی ذلک من غیر توجه إلی ما اعتبره الشرع،و قد تقدم نظیر ذلک فی معنی الابن و البنت حیث حسبوا أن کون ابن البنت ابنا للرجل و عدمه مرجعه إلی بحث لغوی یعین کون الابن یصدق بحسب الوضع اللغوی علی ابن البنت مثلا أو لا یصدق علیه،و جمیع ذلک یرجع إلی الخلط بین الأبحاث اللفظیه و الأبحاث المعنویه،و کذا الخلط بین الأنظار الاجتماعیه و الأنظار الدینیه السماویه علی ما تقدمت الإشاره إلیه.

و أعجب من الجمیع قوله:و هذا النص الصریح یبطل تأویل کلمه«منی»فإن مراده بدلاله السیاق أن کلمه«من أهل بیتی»نص صریح فی أن المراد برجل منی رجل من بنی هاشم،و لا ندری أی نصوصیه أو صراحه لکلمه«أهل البیت»فی بنی هاشم بعد ما تکاثرت الروایات أن أهل بیت النبی ص هم علی و فاطمه و الحسنان(ع) ثم فی قوله:«أهل بیتی»بمعنی بنی هاشم أن المراد بکلمه«منی»هو ذلک!.

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره و حمران و محمد بن مسلم عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع): « فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ »قال:عشرین من ذی الحجه و المحرم و صفر-و شهر ربیع الأول و عشرا من ربیع الآخر.

أقول:و قد استفاضت الروایات من طرق الشیعه عن أئمه أهل البیت(ع) أن المراد من الأربعه الأشهر هو ذلک،روی ذلک الکلینی و الصدوق و العیاشی و القمی و غیرهم فی کتبهم،و روی ذلک من طرق أهل السنه،و هناک روایات أخری

من طرقهم فی غیر هـذا المعنی حتی وقع فی بعضـها أن أبـا بکر حـج بالنـاس عـام تسع فی شـهر ذی القعـده،و هی غیر متأیـده و لذلک أغمضنا عنها.

و فی تفسیر العیاشی،عن حکیم بن جبیر عن علی بن الحسین(ع): فی قوله تعالی:

« وَ أَذٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ »قال:الأذان أمیر المؤمنین(ع).

أقول:و روی هـذا المعنی أیضا عن حریز عن أبی عبـد الله(ع)،و عن جابر عن جعفر بن محمـد و أبی جعفر(ع)،و رواه القمی عن أبیه عن فضاله عن أبان بن عثمان عن حکیم بن جبیر عن علی بن الحسین(ع)قال:و فی حدیث آخر قال:

کنت أنا الأذان فی الناس:،و رواه الصدوق أیضا بإسـناده عن حکیم عنه(ع)، و رواه فی الدر المنثور عن ابن أبی حاتم عن حکیم بن حمید عن علی بن الحسین(ع)،

و قال فی تفسیر البرهان:،قال السدی و أبو مالک و ابن عباس و زین العابدین: الأذان هو علی بن أبی طالب فأدی به.

و فی تفسـیر البرهان،عن الصـدوق بإسـناده عن الفضـیل بن عیاض عن أبی عبد الله (ع)قال: سألته عن الحج الأکبر-فقال: عندک فیه شیء؟فقلت:نعم-کان ابن عباس یقول:الحج الأکبر یوم عرفه-یعنی أنه من أدرک یوم عرفه-إلی طلوع الشمس من یوم النحر فقـد أدرک الحـج-و من فـاته ذلـک فاته الحـج-فجعل لیله عرفه لما قبلها و لما بعـدها، و الـدلیل علی ذلک-أنه من أدرک لیله النحر إلی طلوع الفجر-فقد أدرک الحج و أجزی عنه من عرفه.

فقال أبو عبـد الله(ع):قال أمیر المؤمنین(ع)-الحـج الأکبر یوم النحر و احتـج بقول الله عز و جل:« فَسِیحُوا فِی الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْـهُرٍ »فهی عشـرون من ذی الحجه و المحرم و صـفر-و شـهر ربیع الأول و عشـر من شـهر ربیع الآخر،و لو کان الحـج الأکبر یوم عرفه لکان السـیح أربعه أشـهر و یوما،و احتـج بقوله عز و جل:« وَ أَذٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النّٰاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الْأَکْبَرِ »و کنت أنا الأذان فی الناس.

قلت:فمـا معنی هـذه اللفظه:الحـج الأـکبر؟فقال:إنما سـمی الأکبر-لأنها کانت سـنه حـج فیها المسـلمون و المشـرکون،و لم یحج المشرکون بعد تلک السنه.

و فیه،عنه بإسناده عن معاویه بن عمار قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن یوم

الحج الأكبر-فقال:يوم النحر و الأصغر العمره.

أقول: و فی الروایه مضافا إلی تفسیر الیوم بیوم النحر إشاره إلی وجه تسمیه الحج بالأکبر،و قد أطبقت الروایات عن أئمه أهل البیت(ع)إلا ما شذ علی أن المراد بیوم الحج الأکبر فی الآیه هو یوم الأضحی عاشر ذی الحجه و هو یوم النحر، و رووا ذلک عن علی(ع).

و روی هذه الروایه الکلینی فی الکافی،عن علی بن إبراهیم عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن معاویه بن عمار عن أبی عبد الله(ع)،و روی ذلک أیضا بإسناده عن ذریح عنه(ع)،و کذا الصدوق بإسناده إلی ذریح عنه(ع)،و رواه العیاشی عن عبد الرحمن و ابن أذینه و الفضیل بن عیاض عنه(ع).

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن ابن أبی أوفی عن النبی ص:أنه قال یوم الأضحی:هذا یوم الحج الأکبر.

و فیه،أیضا أخرج البخاری تعلیقا و أبو داود و ابن ماجه و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه و أبو نعیم فی الحلیه عن ابن عمر: أن رسول الله (ص)وقف یوم النحر بین الجمرات-فی الحجه التی حج فقال:أی یوم هذا؟قالوا:

یوم النحر-قال:هذا یوم الحج الأکبر.

أقول:و روی ذلک بطرق مختلفه عن علی(ع)و ابن عباس و مغیره بن شعبه و أبی جحیفه و عبد الله بن أبی أوفی،و قد روی بطرق مختلفه أخری عن النبی(ص) أنه یوم عرفه،و کذا روی ذلک عن علی و ابن عباس و ابن الزبیر،و روی عن سعید بن المسیب أنه الیوم التالی لیوم النحر،و روی أنه أیام الحج کلها،و روی أنه الحج فی العام الذی حج فیها أبو بکر،و هذا الوجه الأخیر لا یأبی الانطباق علی ما تقدم

من الحدیث عن الصادق(ع): أنه سمی الحج الأکبر-لما حج فی تلک السنه المسلمون و المشرکون جمیعا.

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره عن أبی جعفر(ع): فی قول الله:« فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ-فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »قال:هی یوم النحر إلی عشر مضین من شهر ربیع الآخر.

و فی الدر المنثور،:فی قوله تعالی:« فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاهَ وَ آتَوُا الزَّکاهَ :»أخرج الحاکم و صححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبیه رضی الله عنه قال: افتتح رسول الله(ص)مکه-ثم انصرف إلی الطائف فحاصرهم ثمانیه أو سبعه-ثم ارتحل غدوه و روحه ثم نزل ثم هجر.

ثم قال: أیها الناس إنی لکم فرط،و إنی أوصیکم بعترتی خیرا موعدکم الحوض، و الذی نفسی بیده لتقیمن الصلاه-و لتؤتن الزکاه أو لأبعثن علیکم رجلا منی أو کنفسی- فلیضربن أعناق مقاتلهم و لیسبین ذراریهم.فرأی الناس أنه یعنی أبا بکر أو عمر رضی الله عنهما-فأخذ بید علی رضی الله عنه فقال:هذا.

أقول:یعنی ص به الکفر.

و فی تفسیر العیاشی،فی حدیث جابر عن أبی جعفر(ع): « فَإِنْ تابُوا »یعنی فإن آمنوا فإخوانکم فی الدین.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی:« وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ » الآیه-قال:قال،اقرأ علیه و عرفه-ثم لا تتعرض له حتی یرجع إلی مأمنه.

و فی تفسیر البرهان،عن ابن شهرآشوب عن تفسیر القشیری: أن رجلا قال لعلی یا ابن أبی طالب-فمن أراد منا أن یلقی رسول الله فی بعض الأمر-من بعد انقضاء الأربعه فلیس له عهد؟قال علی: بلی لأن الله قال:« وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ »الآیه.

و فی الدر المنثور،":فی قوله تعالی:« وَ إِنْ نَکَثُوا أَیْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ »الآیه":

أخرج ابن أبی شیبه و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه عن حذیفه رضی الله عنه":

أنهم ذکروا عنده هذه الآیه-فقال:ما قوتل أهل هذه الآیه بعد.

و فیه،أخرج ابن أبی شیبه و البخاری و ابن مردویه عن زید بن وهب: فی قوله:

« فَقاتِلُوا أَئِمَّهَ الْکُفْرِ »قال:کنا عند حذیفه رضی الله عنه فقال:ما بقی من أصحاب هذه الآیه إلا ثلاثه-و لا من المنافقین إلا أربعه.فقال أعرابی:إنکم أصحاب محمد-تخبروننا بأمور لا ندری ما هی؟فما بال هؤلاء الذین یبقرون بیوتنا و یسرقون أعلاقنا؟قال:أولئک الفساق،أجل لم یبق منهم إلا أربعه-أحدهم شیخ کبیر لو شرب الماء البارد لما وجد برده

و فی قرب الإسناد،للحمیری:حدثنی عبد الحمید و عبد الصمد بن محمد جمیعا عن حنان بن سدیر قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول: دخل علی أناس من أهل البصره-فسألونی عن طلحه و الزبیر-فقلت لهم:کانوا (۱)من أئمه الکفر-أن علیا یوم البصره لما صف الخیل-قال لأصحابه لا تعجلوا علی القوم-حتی أعذر فیما بینی و بین الله و بینهم.

فقام إلیهم فقال: یا أهل البصره-هل تجدون علی جورا فی حکم؟قالوا: لا.

قال: فحیفا فی قسم؟قالوا:لا.قال:فرغبه فی دنیا أخذتها لی و لأهل بیتی دونکم-فنقمتم علی فنکثتم بیعتی؟قالوا:لا،قال فأقمت فیکم الحدود و عطلتها فی غیرکم؟ قالوا:لا.قال: فما بال بیعتی تنکث و بیعه غیری لا تنکث-إنی ضربت الأمر أنفه و عینه-فلم أجد إلا الکفر أو السیف.

ثم ثنی إلی أصحابه فقال-إن الله تبارک و تعالی یقول فی کتابه:« وَ إِنْ نَکَثُوا أَیْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِی دِینِکُمْ-فَقٰاتِلُوا أَئِمَّهَ الْکُفْرِ إِنَّهُمْ لاٰ أَیْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ یَنْتَهُونَ »فقال أمیر المؤمنین(ع):و الذی فلق الحبه و برأ النسمه-و اصطفی محمدا بالنبوه-إنهم لأصحاب هذه الآیه و ما قوتلوا مذ نزلت:

أقول:و رواه العیاشی عن حنان بن سدیر عنه(ع).

و فی أمالی المفید،بإسناده عن أبی عثمان مؤذن بنی قصی قال:سمعت علی بن أبی طالب(ع) حین خرج طلحه و الزبیر علی قتاله:عذرنی الله من طلحه و الزبیر، بایعانی طائعین غیر مکرهین-ثم نکثا بیعتی من غیر حدث أحدثته-ثم تلا هذه الآیه:

« وَ إِنْ نَکَثُوا أَیْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ-وَ طَعَنُوا فِی دِینِکُمْ فَقٰاتِلُوا أَئِمَّهَ الْکُفْرِ-إِنَّهُمْ لاٰ أَیْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ یَنْتَهُونَ :» أقول: و رواه العیاشی فی تفسیره عن أبی عثمان المؤذن و أبی الطفیل و الحسن البصری:مثله،و رواه الشیخ فی أمالیه،عن أبی عثمان المؤذن.و فی حدیثه قال بکیر:

فسألت عنها أبا جعفر(ع)-فقال: صدق الشیخ هکذا قال علی.هکذا کان.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و البیهقی فی الدلائل عن مروان بن الحکم

۱- ۱) کانا ظ.

و المسور بن مخرمه قال": كان فی صلح رسول الله ص یوم الحدیبیه بینه و بین قریش- أن من شاء أن یدخل فی عقد النبی ص و عهده دخل فیه،و من شاء أن یدخل فی عهد قریش و عقدهم دخل فیه-فتواثبت خزاعه فقالوا:-ندخل فی عهد محمد و عقده.

و تواثبت بنو بکر فقالوا:ندخل فی عقد قریش و عهدهم-فمکثوا فی تلک الهدنه-نحو السبعه عشر أو الثمانیه عشر شهرا.

ثم إن بنی بکر الذین کانوا دخلوا فی عقد قریش و عهدهم-وثبوا علی خزاعه الذین دخلوا فی عقد رسول الله ص و عهده-لیلا بماء لهم یقال له:الوتیر قریب من مکه- فقالت قریش ما یعلم بنا محمد و هذا اللیل-و ما یرانا أحد فأعانوهم علیهم بالکراع و السلاح- فقاتلوهم معهم للضغن علی رسول الله ص.

و رکب عمرو بن سالم-عند ما کان من أمر خزاعه و بنی بکر بالوتیر-حتی قدم المدینه علی رسول الله ص بأبیات أنشده إیاها:

-یا رب (۱)إنی ناشد محمدا

حلف أبینا و أبیه الأتلدا

قد کنتم ولدا و کنا والدا

ثمت أسلمنا فلم ننزع یدا

فانصر هداک الله نصرا أعتدا

و ادع عباد الله یأتوا مددا

فیهم رسول الله قد تجردا

إن سیم خسفا وجهه تربدا

فی فیلق کالبحر یجری مزبدا

إن قریشا أخلفوک الموعدا

و نقضوا میثاقک المؤکدا

و جعلوا لی فی کداء رصدا

و زعموا أن لست أدعو أحدا

و هم أذل و أقل عددا

هم بیتونا بالوتیر هجدا

و قتلونا رکعا و سجدا (۲)

فقال رسول الله ص:نصرت یا عمرو بن سالم-فما برح حتی مرت غمامه فی السماء-فقال رسول الله ص:إن هذه السحابه لتشهد (۳)بنصر بنی کعب،و أمر رسول الله ص الناس بالجهاد و کتمهم مخرجه،و سأل الله أن یعمی علی قریش خبره-حتی یبغتهم فی بلادهم.

۱- ۱) فی الدر المنثور:لا هم.
۲- ۲) الأبیات منقوله علی ما یطابق نسخه السیره لابن هشام لکثر- الغلط فی نسخه الدر المنثور
۳- ۳) لتستهل.نسخه سیره النبی.

أقول:أورد الروایه فی الدر المنثور،بعد ما روی بطرق عن مجاهد و عکرمه أن قصه نقض قریش عهد الحدیبیه و إعانتهم بنی بکر علی خزاعه حلفاء رسول الله ص کان هو السبب لنزول قوله تعالی:« أَ لاٰ تُقٰاتِلُونَ قَوْماً »إلی قوله:« وَ یَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِینَ »و هم خزاعه.

و لو کان الأمر علی ما ذکروا کانت الآیه:« أَ لاٰ تُقٰاتِلُونَ قَوْماً نَکَثُوا أَیْمٰانَهُمْ » -إلی تمام ثلاث آیات بل أربع-علی ما یعطیه السیاق مما نزل قبل فتح مکه فتکون نازله قبل آیات براءه لا محاله.

لکن القصه التی رواها ابن إسحاق و البیهقی علی اعتبارها لمکان المسور بن مخرمه لا تصرح بنزول الآیات فی ذلک،و ما رواها مجاهد و عکرمه لا اعتماد علیه لمکان الوقف و الانقطاع،و سیاق الآیات لا یأبی نزولها مع ما تقدم علیها و اتصالها بها علی ما لا یخفی.

و الذی ذکر فیها من قوله:« نَکَثُوا أَیْمٰانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ »و إن کان یشیر إلی صفات قریش الخاصه بهم لکن من الجائز أن تکون الآیه مشیره إلی حلفاء قریش و جیرانهم ممن لم یؤمنوا بعد فتح مکه و هم لاتحادهم مع قریش و اتصالهم بهم وصفوا بما یوصف به قریش بالأصاله.

و اعلم أن هناک روایات متفرقه من طرق أهل البیت(ع)تطبق الآیات علی ظهور المهدی(ع)،و هی من الجری.

(کلام فی معنی العهد و أقسامه و و هی من أحکامه [فی أربعه فصول])

قدمنا فی أوائل الجزء السادس من الکتاب کلاما فی معنی العقد و العهد و نستأنف البیان هاهنا فی معنی ما تقدم و ما یستتبعه من الأقسام و الأحکام بتقریر آخر فی فصول:

۱-قد لاح لک من تضاعیف الأبحاث المتقدمه فی هذا الکتاب أن الإنسان فی مسیر حیاته لا یزال یصور أعماله و ما یتعلق به أعماله من الماده تصور الأمور الکونیه و یمثلها بها و یجری بینها أحکام الأمور الکونیه و آثارها من القوانین العامه الجاریه فی الکون بحسب ما یناسب أغراضه الحیویه کما أنه یأخذ مثلا أصواتا متفرقه هی الزای

و الیاء و الدال،و یؤلفها بشکل مخصوص و یعمل لفظ«زید»ثم یفترض أنه زید الإنسان الخارجی فیسمیه به ثم کلما أراد أن یحضر زیدا فی ذهن مخاطبه ألقی إلیه لفظ«زید»فکان ممثلا لعین زید عنده،و حصل بذلک غرضه.

و إذا أراد أن یدیر أمرا لا یدور إلا بعمل عده مؤتلفه من الناس اختار جماعه و افترضهم واحدا کالإنسان الواحد،و فرض واحدا منهم للباقین کما یفرض الرأس لبدن الإنسان و یسمیه رئیسا،و فرض کلا من الباقین کما یفرض العضو من البدن ذی الأعضاء و یسمیه عضوا ثم یرتب علی الرأس أحکام الرأس الخارجی،و علی العضو آثار العضو الخارجی و علی هذا القیاس.

و إلی هذا یئول جمیع أفکار الإنسان الاجتماعیه بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط من التصورات و التصدیقات إذا حللت تحلیلا صحیحا کما تئول إلیه أنظاره الفردیه فیما یرتبط بأعماله و أفعاله.

الإنسان شدید الاهتمام بعقد العقود و تمثیل العهود و ما یرتبط بها من الحلف و الیمین و البیعه و نحو ذلک،و العامل الأولی فی ذلک أن الإنسان لا ـ هم له إلا ـ التحفظ علی حیاته و الوصول إلی مزایاها و التمتع بالسعاده التی تستعقبها لو جرت علی حقیقه مجراها.

فأی بغیه من مبتغیاته وجدها و سلط علیها أخذ فی التمتع منها بما یناسبها من التمتع کالأکل و الشرب و غیرهما بما جهز به من أدوات التمتع،و دفع کل ما یمنعه من التمتع لو عرض هناک مانع عارض و رأی أنه إنما وفق لذلک فی ضوء ما أوتیه من السلطه.

و قد أوتی الإنسان سلعه الفکر و بذلک یدبر أمر حیاته و یصلح شأن معاشه فیعمل لیومه و یمهد لغده،و أعماله التی هی تصرفات منه فی الماده أو عائده إلی ذلک فی عین أنها جمیعا متوقفه علی انبساط سلطته علی الفعل و إحاطته بکل ما یتعلق به عمله،مختلفه فی أن بعضها یتم بالسلطه المقصوره علی الفعل مقدار زمانه کمن صادف غذاء و هو جوعان فتناوله فأکله،فإنه لا یتوقف علی سلطه أوسع من زمان العمل، و لا علی تمهید و تقدمه.

و بعضها-و هو جل الأعمال الإنسانیه الاجتماعیه-یتوقف علی سلطه وسیعه تنبسط علی العمل فی وقته و علی زمان قبله فقط أو علی زمان قبله و بعده،لحاجته

إلى مقدمات يمهدها له،و تدبير سابق يقدمه لوجوده،فما كل عمل يعمله الإنسان بصدفه،بل جل الأمور الحيويه من شأنها أن يتهيأ الإنسان له قبل أوانه.

و من التهيؤ له أن يتهيأ لجمع أسبابه و نظم الوسائل التى يتوسل بها إليه و أن يتهيأ لرفع موانعه التى من شأنها أن تزاحمه فى وجوده و عند حصوله،فالإنسان لا يوفق لعمل و لا ينجح فى مسعاه إلا إذا كان فى أمن من أن تفوته الأسباب أو تعارضه الموانع و المزاحمات.

و التنبه لهذه الحقيقه هو الذى بعث الإنسان إلى أن يأخذ أمنا من رقبائه فى الحياه:أن يعينوه فيما يحتاج من الأمور إلى معين مشارك،أو أن لا يمانعوه من العمل فيما يتوقف إلى ارتفاع الموانع و زوالها.

فالإنسان و هو يريد أن يتخذ لباسا يلبسه من ماده بسيطه كالقطن أو الصوف، و الأمر متوقف على أعمال كثيره يعملها الغزال و النساج و الخياط و من يصنع لهم أدوات الغزل و النسج و الخياطه،لا يتم له ما يريده من اتخاذ اللباس و لا ينجح سعيه إلا إذا كان فى أمن من ناحيه هؤلاء الرقباء:أن يعملوا على ما يريده و لا يخلوه وحده فيخيب سعيه و يخسر فى عمله.

و كذا الإنسان القاطن فى أرض أو الساكن فى دار لا يتم له سكناه إلا مع الأمن من ممانعه الناس و مزاحمتهم له فى سكناه و التصرف فيه بما يصلح به لذلك.

و هذا هو الذى هدى الإنسان إلى اعتبار العقد و إبرام العهد، فهو يأخذ ما يريده من العمل و يربطه بما يعينه عليه من عمل غيره و يعقدهما:يمثل به عقد الحبال الذى يفيد اتصال بعض أجزائها ببعض و عدم تخلف بعضها عن بعض،و مثله العهد الذى يعهده إليه غيره أن يساعده فى ما يريده من الأمر أو أن لا يمانعه فى ذلك.

و إلى ذلك يئول أمر عامه العقود لعقد النكاح و عقد البيع و الشرى و عقد الإجاره،و يصدق عليها العهد بمعناها العام و هو أن يعطى الإنسان لغيره قولا أو كتابا أن يعينه على كذا أو أن لا يمنعه من كذا إلى أجل مضروب أو لا إلى أجل.

و الكلام فى المقام فى العهد الذى لم يختص باسم خاص كعقد البيع و النكاح و غيرهما من عقود المعاملات فهى خارجه من غرضنا و لها فى المجتمعات الإنسانيه أحكام

خاصه و آثار و خواص مخصوصه بل الكلام فى العهد بمعنى ما يعقده الإنسان لغيره من الإعانه أو عدم الممانعه فى متفرقات المقاصد الاجتماعيه،و ما يجعله لذلک من الآثار كمن يعاهد غيره أن يعطيه كل سنه كذا مالا ليستعين به على حوائجه،و يأخذ منه كذا مالاـ أو نفعا،أو يعاهده أن لا يزاحمه فى عمله أو لا يمانعه فى مسيره إلى أجل كذا أو لا إلى أجل،و هو نوع إحكام و إبرام لا ينتقض إلا بنقض أحد الطرفين أو بنقضهما معا.

و ربما زيد على إحكام العهد بالحلف و هو أن يقيد المعاهد ما يعطيه من العهد و يربطه بأمر عظيم شأنه يقدسه و يحترمه كأنه يجعل ما له من الحرمه و العزه رهنا يرهن به عهده يمثل به أنه لو نقضه فقد أذهب حرمته يقول المعاهد:و الله لا أخوننک،و لعمرى لأساعدنک،و أقسم لأنصرنک،يمثل به أنه لو أخلف وعده و نقض عهده فقد أبطل حرمه ربه،أو حرمه عمره أو حرمه قسمه فلا مروه له.

و ربما أبرم العهد و الميثاق بالبيعه و الصفقه يضع المعاهد يده فى يد معاهده يمثل به أنه أعطاه يده التى بها يفعل ما يفعل فلا يفعل ما يكره معاهده لأن يده قبضه يده.۲-العهود و المواثيق كما تمسها حياه الإنسان الذى هو فرد المجتمع كذلک تمسها حياه المجتمع فليس المجتمع إلاـ المجتمع من أفراد الإنسان،حياته مجموع حياه أجزائه، و أعماله الحيويه مجموع أعمال أجزائه و له من الخير و الشر و النفع و الضر و الصحه و السقم و النشوء و الرشد و الاستقامه و الانحراف و السعاده و الشقاوه و البقاء و الزوال مجموع ما لأجزائه من ذلک.

فالمجتمع إنسان كبير له من مقاصد الحياه ما للإنسان الصغير،و نسبه المجتمع إلى المجتمع تقرب من نسبه الإنسان الفرد إلى الإنسان الفرد فهو يحتاج فى ركوب مقاصده و إتيان أعماله من الأمن و السلامه إلى مثل ما يحتاج إليه الإنسان الفرد بل الحاجه فيه أشد و أقوى لأن العمل يعظم بعظمه فاعله و عظمه غرضه،و المجتمع فى حاجه إلى الأمن و السلام من قبل أجزائه لئلا يتلاشى و يتفرق،و إلى الأمن و السلام من قبل رقبائه من سائر المجتمعات.

و على هذا جرى ديدن المجتمعات الإنسانيه على ما بأيدينا من تاريخ الأمم و الأقوام الماضيه،و ما نسمعه أو نشاهده من الملل الحاضره فلم يزل و لا يزال المجتمع من المجتمعات الإنسانيه فى حاجه قائمه إلى أن يعاهد غيره فى بعض شئون حياته السياسيه و الاقتصاديه

أو الثقافيه أو غيرها،فلا يصفو الجو للإقدام على شيء من مقاصد الحياه أو التقدم فى شيء من مآربها إلا بالاعتضاد بالأعضاد و الأمن من معارضه الموانع.

۳-الإسلام بما أنه متعرض لأمر المجتمع كالفرد،و يهتم بإصلاح حياه الناس العامه كاهتمامه بإصلاح حياه الفرد الخاصه قنن فيه كليات ما يرجع إلى شئون الحياه الاجتماعيه كالجهاد و الدفاع و مقاتله أهل البغى و النكث و الصلح و السلم و العهود و المواثيق و غير ذلک.

و العهد الذى نتكلم فيه قد اعتبره اعتبارا تاما و أحكمه إحكاما يعد نقضه من طرف أهله من أكبر الإثم إلا أن ينقضه المعاهد الآخر فيقابل بالمثل فإن الله سبحانه أمر بالوفاء بالعهود و العقود، و ذم نقض العهود و المواثيق ذما بالغا فى آيات كثيره جدا قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ:» المائده:-۱،و قال:« وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ -Xإلى أن قالX- أُولئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ:» الرعد:-۲۵،و قال:

« وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً:» إسراء:-۳۴ إلى غير ذلک.

و لم يبح نقض العهود و المواثيق إلا فيما يبيحه حق العدل و هو أن ينقضه المعاهد المقابل نقضا بالبغى و العتو أو لا يؤمن نقضه لسقوطه عن درجه الاعتبار،و هذا مما لا اعتراض فيه لمعترض و لا لوم للائم،قال تعالى:« وَ إِمّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَهً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ:» الأنفال:-۵۸ فأجاز نقض العهد عند خوف الخيانه و لم يرض بالنقض من غير إخبارهم به و اغتيالهم و هم غافلون دون أن قال:« فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ »فأوجب أن يخبروهم بالنقض المتقابل احترازا من رذيله الخيانه.

و قال:« بَراءَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ:» براءه:-۲ فلم يرض بالبراءه دون أن وسع عليهم أربعه أشهر حتى يكونوا على مهل من التفكر فى أمرهم و التروى فى شأنهم فيروا رأيهم على حريه من الفكر فإن شاءوا آمنوا و نجوا و إن لم يشاءوا قتلوا و فنوا،و قد كان من حسن أثر هذا التأجيل أن آمنوا فلم يفنوا.

و قد تمم سبحانه هذه الفائده أحسن إتمام بقوله بعد إعلام البراءه:« وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ:» التوبه:-۶.

و قال مستثنيا الموفين بعهدهم من المشركين: « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ

اللّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاّـ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ:»

التوبه:-٨ و قد علل الاستقامه لمن استقام بأنه من التقوى-ذاك التقوى الذى لا دعوه فى الدين إلا إليه-و إن الله يحب المتقين،و هذا تعليل حى إلى يوم القيامه.

و قال تعالى:« فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ:» البقره:-١٩۴ و قال:« وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ:» المائده:-٢.

و أما النقض الابتدائى من غير نقض من العدو المعاهد فلا مجوز له فى هذا الدين الحنيف أصلا،و قد تقدم قوله تعالى:« فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ »الآيه و قال:« وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ:» البقره:-١٩٠.

و على ذلک جرى عمل النبى ص أيام حياته فقد عاهد بنى قينقاع و بنى قريظه و غيرهم من اليهود و لم ينقض إلاـ بعد ما نقضوا،و عاهد قريشا فى الحديبيه و لم ينقض حتى نقضوا بإظهار بنى بكر على خزاعه و قد كانت خزاعه فى عهد النبى ص،و بنو بكر فى عهد قريش.

و أما النقض من غير نقض فلا مبيح له فى الإسلام و إن كان الوفاء مما يفوت على المسلمين بعض منافعهم،و يجلب إليهم بعض الضرر و هم على قدره من حفظ منافعهم بالبأس و القوه أو أمكنهم الاعتذار ببعض ما تصور لهم الحجه ظاهرا و تصرف عنهم اللوم و العذل فإن مدار الأمر على الحق،و الحق لا يستعقب شرا و لا ضرا إلا على من انحرف عنه و آوى إلى غيره.

۴-المجتمعات الإنسانيه سيما الراقيه المتمدنه منها غير المجتمع الدينى لا هدف لاجتماعهم و لا غرض لسننهم الجاريه إلا التمتع من مزايا الحياه الماديه ما قدروا عليه فلا موجب لهم للتحفظ على شىء أزيد مما بأيديهم من القوانين العمليه الناظمه لشتات مقاصدهم الحيويه.

و من الضرورى أن الظرف الذى هذا شأنه لا قيمه فيها للمعنويات إلا بمقدار

ما يوافق المقاصد الحيويه الماديه فالفضائل و الرذائل المعنويه كالصدق و الفتوه و المروه و نشر الرحمه و الرأفه و الإحسان و أمثال ذلك لا اعتبار لها إلا بمقدار ما درت بها منافع المجتمع،و لم يتضرروا بها لو لم تعتبر،و أما فيما ينافى منافع القوم فلا موجب للعمل بها بل الموجب لخلافها.

و لذلك ترى المؤتمرات الرسميه و أولياء الأمور فى المجتمعات لا يرون لأنفسهم وظيفه إلا التحفظ على منافع المجتمع الحيويه،و ما يعقد فيها من العهود و المواثيق إنما يعقد على حسب مصلحه الوقت،و يوزن بزنه ما عليه الدوله المعاهده من القوه و العده، و ما عليه المعاهد المقابل من القوه و العده فى نفسه و بما يضاف إليه من سائر المقتضيات المنضمه إليه المعينه له.

فما كان التوازن على حاله التعادل كان العهد على حاله،و إذا مالت كفه الميزان للدوله المعاهده على خصمه أبطلت اعتبار العهد بأعذار مصطنعه و اتهامات مفتعله للتوسل إلى نقضه،و إنما يراد بتقديم الأعذار أن يتحفظ على ظاهر القوانين العالميه التى لا عقبى لنقضها و التخلف عنها إلا ما يهدد حياه المجتمع أو بعض منافع حياتهم،و لو لا ذلك لم يكن ما يمنع النقض و لو من غير عذر إذا اقتضته منافع المجتمع القوى الحيويه.

و أما الكذب أو الخيانه أو التعدى لما يتخذه الغير منافع لنفسه فليس مما يمنع مجتمعا من المجتمعات من حيازه ما يراه نافعا لشأنه إذ الأخلاق و المعنويات لا أصاله لها عندهم و إنما تعتبر على حسب ما تقدره غايه المجتمع و غرضه الحيوى و هو التمتع من الحياه.

و أنت إذا تتبعت الحوادث العامه بين المجتمعات سابقها و لاحقها و خاصه الحوادث العالميه الجاريه فى هذا العصر الأخير عثرت على شىء كثير من العهود الموثقه و نقوضها على ما وصفناه.

و أما الإسلام فلم يعد حياه الإنسان الماديه حياه له حقيقيه،و لا التمتع من مزاياها سعاده له واقعيه،و إنما يرى حياته الحقيقيه حياته الجامعه بين الماده و المعنى، و سعادته الحقيقيه اللازم إحرازها ما يسعده فى دنياه و أخراه.

و يستوجب ذلك أن يبنى قوانين الحياه على الفطره و الخلقه دون ما يعده الإنسان صالحا لحال نفسه،و يؤسس دعوته الحقه على اتباع الحق و الاهتداء به دون اتباع الهوى

و الاقتداء بما يميل إليه الأكثريه بعواطفهم و إحساساتهم الباطنه قال تعالى:« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»:

الروم:-۳۰ و قال:« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ (۱)الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ:» التوبه:-۳۳،و قال:« بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ:» المؤمنون:-۹۰،و قال:

« وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ:» المؤمنون:-۷۱.

و من لوازم ذلك أن يراعى حق الاعتقاد و فضيله الخلق و صالح العمل جميعا فلا غنى للماده عن المعنى و لا غنى للمعنى عن الماده فمن الواجب رعايه جانب الفضائل الإنسانيه نفعت أو ضرت و التجنب عن الرذائل نفعت أو ضرت لأن ذلك من اتباع الحق،و حاشا أن يضر إلا من انحرف عن ميزانه و تخطى ما يخط له الحق.

و من هنا ما نرى أن الله سبحانه ينقض عهد المشركين لنقضهم عهده و يستعمل الرحمه بإمهالهم أربعه أشهر، و يأمر بالاستقامه لمن استقام فى عهده من المشركين و قد استذلهم الحوادث يومئذ و ضعفوا دون شوكه الإسلام،و كذا يأمر نبيه ص إن خاف من قوم خيانه أن ينقض عهدهم لكن يأمره بإعلامهم ذلك و يعلله بأنه لا يحب الخيانه.

(كلام فى نسبه الأعمال إلى الأسباب طولا)

تقدم فى مواضع من هذا الكتاب أن الذى تنتجه الأبحاث العقليه أن الحوادث كما أن لها نسبه إلى أسبابها القريبه المتصله بها كذلك لها نسبه إلى أسبابها القصوى التى هى أسباب لهذه الأسباب فالحوادث أفعال لها فى عين أنها من أفعال أسبابها القريبه المباشره للعمل فإن الفعل كالحركه مثلا- يتوقف على فاعله المحرك و يتوقف على محرك محركه بعين ما يتوقف على محركه،نظير العجله المحركه للأخرى المحركه لثالثه و ليست من الحركه بالعرض.

فللفعل نسبه إلى فاعله،و له انتساب إلى فاعل فاعله بعين هذه النسبه التى إلى فاعله لا بنسبه أخرى منفصله عنها مستقله بنفسها غير أنه إذا انتسب إلى فاعل الفاعل عاد الفاعل القريب بمنزله الإله بالنسبه إلى فاعل الفاعل أى واسطه محضه لا استقلال لها

۱- ۱) ظاهر الآيه كون الإضافه حقيقيه لا من إضافه الموصوف إلى صفته.

فی العمل بمعنی أنه لا یستغنی فی تأثیره عن فاعل الفاعل إذ فرض عدمه یساوق انعدام الفاعل و انعدام أثره.

و لیس من شرط الواسطه أن تکون غیر ذات شعور بفعلها أو غیر مختاره فإن الشعور الذی یؤثر به الفاعل الشاعر فی فعله لم یوجده هو لنفسه و إنما أوجده فیه فاعله الذی أوجد الفاعل و شعوره،و کذلک الاختیار لم یوجده الفاعل المختار لنفسه و إنما أوجده الفاعل الذی أوجد الفاعل المختار،و کما یتوقف الفعل فی غیر موارد الشعور و الاختیار إلی فاعله، و یتوقف بعین هذا التوقف إلی فاعل فاعله،کذلک یتوقف الفعل الشعوری و الفعل الاختیاری إلی فاعله و یتوقف بعین هذا التوقف إلی فاعل فاعله الذی أوجد لفاعله الشعور و الاختیار.

ففاعل الفاعل الشاعر أو المختار أراد من الفاعل الشاعر أو المختار أن یفعل من طریق شعوره فعلا کذا أو یفعل باختیاره فعلا اختیاریا کذا فقد أرید الفعل من طریق الاختیار لأنه أرید الفعل و أهمل الاختیار الذی ظهر به فاعله فافهم ذلک فلا تزل قدم بعد ثبوتها.

و علی هذه الحقیقه یجری الناس بحسب فهمهم الغریزی فینسبون الفعل إلی السبب البعید کما ینسبونه إلی السبب القریب المباشر بما أنه أثر مترشح منه یقال:بنی فلان دارا،و حفر بئرا و إنما باشر ذلک البناء و الحفار،و یقال:جلد الأمیر فلانا،و قتل فلانا،و أسر فلانا،و حارب قوما کذا،و إنما باشر الجلد جلاده،و القتل سیافه، و الأسر جلاوزته،و المحاربه جنده،و یقال،أحرق فلان ثوب فلان،و إنما أحرقه النار،و شفی فلان مریضا کذا و إنما شفاه الدواء الذی ناوله و أمره بشربه و استعماله.

ففی جمیع ذلک یعتبر أمر الآمر أو توسل المتوسل تأثیرا منه فی الفاعل القریب ثم ینسب الفعل المنسوب إلی الفاعل القریب إلی الفاعل البعید،و لیس أصل النسبه إلا نسبه حقیقه من غیر مجاز قطعا.

و من قال من علماء الأدب و غیرهم إن ذلک کله من المجاز فی الکلمه لصحه سلب الفعل عن الفاعل البعید فإن مالک البناء لم یضع لبنه علی لبنه و إنما هو شأن البناء الذی باشر العمل! إنما أراد الفعل بخصوصیه صدوره عن الفعل المباشر و من المسلم أن المباشره إنما هو شأن الفاعل القریب،و لا کلام لنا فیه،و إنما الکلام فیما یتصور له

من الوجود المتوقف إلى فاعل موجد،و هذا المعنى كما يقوم بالفاعل المباشر كذلك يقوم بعين هذا القيام بفاعل الفاعل.

و اعتبار هذه النكته هو الذى أوجب لهم أن يميزوا بين الأعمال و ينسبوا بعضها إلى الفاعل القريب و البعيد معا،و لا ينسبوا بعضها إلا إلى الفاعل القريب المباشر للعمل فما كان منها يكشف بمفهومه عن خصوصيات المباشره و الاتصال بالعمل كالأكل بمعنى الالتقام و البلع و الشرب بمعنى المص و التجرع و القعود بمعنى الجلوس و نحو ذلك لم ينسب إلا إلى الفاعل المباشر فإذا أمر السيد خادمه أن يأكل غذاء كذا و يشرب شرابا كذا و يقعد على كرسى كذا،قيل:أكل الخادم و شرب و قعد و لا يقال:أكله سيده و شربه و قعد عليه،و إنما يقال:تصرف فى كذا إذا استعمل كذا أو أنفق كذا و نحو ذلك لما ذكرناه.

و أما الأعمال التى لا تعتبر فيها خصوصيات المباشره و الحركات الماديه التى تقوم بالفاعل المباشر للحركه كالقتل و الأسر و الإحياء و الإماته و الإعطاء و الإحسان و الإكرام و نظائر ذلك فإنها تنسب إلى الفاعل القريب و البعيد على السويه بل ربما كانت نسبتها إلى الفاعل البعيد أقوى منها إلى الفاعل القريب كما إذا كان الفاعل البعيد أقوى وجودا و أشد سلطه و إحاطه.

فهذا ما ينتجه البحث العقلى و يجرى عليه الإنسان بفهمه الغريزى،و القرآن الكريم يصدق ذلك أوضح تصديق كقوله تعالى فى الآيات السابقه:« قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » الآيتان.حيث نسب التعذيب الذى تباشره أيدى المؤمنين إلى نفسه بجعل أيديهم بمنزله الآله.

و نظيره قوله تعالى:« وَ اللّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ:» الصافات:-٩۶ فإن المراد بما تعملون إما الأصنام التى كانوا يعملونها من الحجاره أو الأخشاب أو الفلزات فإنما أريد به الماده بما عليها من عمل الإنسان ففيه نسبه الخلق إلى الأعمال كنسبته إلى فواعلها، و أما نفس الأعمال فالأمر أوضح.

و يقرب من ذلك قوله تعالى:« وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ:»

الزخرف-١٢،ففيه نسبه الخلق إلى الفلك و الفلك بما هى من عمل الإنسان.

هذا فيما نسب فيه الخلق إلى الأعمال الصادره عن الشعور و الإراده،و أما الأفعال التى لا تتوقف فى صدورها على شعور و إراده كالأفعال الطبيعيه فقد ورد نسبتها إلى الله سبحانه فى آيات كثيره جدا لا حاجه إلى إحصائها كإحياء الأرض و إنبات النبات و إخراج الحب و إمطار السماء و إجراء الأنهار و تسيير الفلك التى تجرى فى البحر بأمره إلى غير ذلك.

و لا منافاه فى جميع هذه الموارد بين انتساب الأمر إليه تعالى و انتسابه إلى غيره من الأسباب و العلل الطبيعيه و غيرها إذ ليست النسبه عرضيه تزاحم إحدى النسبتين الأخرى بل هى طوليه لا محذور فى تعلقها بأزيد من طرف واحد.

و قد تقدم فى مطاوى أبحاثنا السابقه دفع ما اشتبه على الماديين من إسناد الحوادث العامه كالسيول و الزلازل و الجدب و الوباء و الطاعون إلى الله سبحانه مع الحصول على أسبابها الطبيعيه اليوم حيث خلطوا بين العلل و الأسباب العرضيه و الطوليه، و حسبوا أن استنادها إلى عللها الطبيعيه يبطل ما أثبته الكتاب العزيز و أذعن به الإلهيون من استنادها إلى مسبب الأسباب الذى إليه يرجع الأمر كله.

و للأشاعره و المعتزله بحث غريب فى الآيه السابقه:« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ » و ما يناظرها من الآيات،أورده الرازى فى تفسيره نورده ملخصا.

قال:استدلت الأشاعره بقوله تعالى:« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ »الآيه على أن أفعال العباد مخلوقه لله،و أن الناس مجبرون فى أفعالهم غير مختارين فإن الله سبحانه يخبر فيها أنه هو الذى يعذب المشركين بقتل بعضهم و جرح آخرين بأيدى المؤمنين و يدل ذلك على أن أيدى المؤمنين كسيوفهم و رماحهم آلات محضه لا تأثير لها أصلا و إنما الفعل لله سبحانه،و أن الكسب الذى يعد مناطا للتكليف اسم لا مسمى له.

و هذه الآيه أقوى دلاله على المطلوب من دلاله مثل قوله تعالى:« وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ رَمىٰ »إذ فيه إثبات الرمى على النبى ص-و إن كان مع ذلك نفى عنه-و إثبات لإسناده إلى الله سبحانه لكن الآيه أعنى قوله:« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ »إثبات للتعذيب على الله سبحانه و جعل أيدى المؤمنين التى لهم آلات

فى الفعل لا تأثير لها و فيها أصلا.

و أجاب عنه الجبائى من المعتزله:بأنه لو جاز أن يقال:إن الله يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين بحقيقه ما ادعى له من المعنى لجاز أن يقال:إنه يعذب المؤمنين بأيدى الكافرين،و أنه تعالى يكذب أنبياءه بألسنتهم،و يلعن المؤمنين و يسبهم بأفواههم لأنه تعالى خالق لذلك كله،و إذ لم يجز ذلك علمنا أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد،و إنما أعمالهم خلق أنفسهم.

و بذلك يعلم أن إسناد التعذيب فى الآيه إليه تعالى بنوع من التوسع لأنه إنما تحقق عن أمره و لطفه كما أنه تعالى ينسب جميع الطاعات و الحسنات إلى نفسه لتحققها عن أمره و توفيقه.

و أجاب عنه الرازى بأن أصحابنا يلتزمون جميع ما ألزم به الجبائى و أصحابه من لزوم إسناد القبائح إليه تعالى و يعتقدون به لبا و إن كانوا لا ينطقون به لسانا أدبا مع الله سبحانه،انتهى ملخصا.

و الأبحاث التى قدمناها فى هذا الكتاب حول هذه المعانى تكفى لإيضاح الحق و إنارته فى هذا المقام،و الكشف عما وقع فيه الفريقان جميعا.

أما ما ذكرته الأشاعره و التزموا به فإنما أوقعهم فى ذلك ما ذهبوا إليه من نفى رابطه العليه و المعلوليه من بين الأشياء و قصرها فيما بينه تعالى و بين خلقه عامه فلا سبب فى الوجود لا استقلالا و لا بالوساطه غيره تعالى،و أما رابطه السببيه التى بين الأشياء أنفسها فإنما هى سببيه بالاسم فقط لا بالحقيقه، و إنما هى العاده الإلهيه جرت بإيجاد ما نسميها مسببات عقيب ما نسميها أسبابا فما بينها و بينه تعالى سببيه حقيقيه،و ما بينها أنفسها يعود إلى الاتفاق الدائم أو الأكثرى.

و لازم ذلك إبطال العليه و السببيه من أصلها،و ببطلانها يبطل ما أثبتوه من انحصار السببيه فيه تعالى إذ لو جاز أن يكون نسبه كل شیء إلى كل شیء نسبه واحده من غير اختلاف بالتأثير و التأثر لم يبق للإنسان ما يتنبه به لأصل معنى السببيه فلا سبيل له إلى إثبات سببيته تعالى لكل شیء.

على أن الإنسان يترقب حوادث من حوادث أخرى،و يقطع بالنتائج عن

مقدماتها و يبنى حياته على التعليم و التربيه،و على تقديم الأسباب طمعا فى مسبباتها سواء اعترف بالصانع أو لم يعترف،و لا يتم له شيء من ذلك إلا عن إذعان فطرى بأصل العليه و المعلوليه،و لو أجازت الفطره الإنسانيه بطلان ذلك و جريان الحوادث على مجرد الاتفاق اختل نظام حياته ببطلان سعيه الفكرى و العملى،و انسد طريق إثبات سبب ما فوق طبيعه الحوادث.

على أن الكتاب العزيز يجرى فى بياناته على تصديق أصل العليه و المعلوليه، و ينسب كل حسنه إليه تعالى و ينفى استناد السيئات و المعاصى إليه و يسميه بكل اسم أحسن و يصفه بكل وصف جميل،و ينفى عنه كل هزل و عبث و لغو و لهو و جزاف، و لا يتم شيء من ذلك إلا على أصل العليه و المعلوليه،و قد تقدم فى الأبحاث السابقه ما يتبين به ذلك كله.

و قد ذهب طائفه من الماديين و خاصه أصحاب الماديه المتحوله إلى عين ما ذهب إليه الأشاعره من ثبوت الجبر و نفى الاختيار عن الأفعال الإنسانيه،و إنما الفارق بين قولى الطائفتين هو أن الأشاعره بنوا ذلك على سببيه الواجب تعالى المنحصره و استنتجوا من ذلك بطلان السببيه الاختياريه و انتفاءها عن الإنسان،و الماديون بنوه على معلوليه الأفعال الإنسانيه لمجموع الحوادث المحتفه بالفعل التى هى عله حدوثه،و لا معنى للعليه إلا بالإيجاب،فالإنسان موجب فى فعله مجبر عليه.

و قد فات منهم أن الذى نسبه المعلول إليه بالإيجاب إنما هو العله التامه،و هى مجموع الحوادث المتقدمه على المعلول التى لا يتوقف هو فى وجوده على شيء وراءها، و بوجودها جميعا لا يبقى له إلا أن يوجد،و أما بعض أجزاء العله التامه فإنما نسبه المعلول إليه بالإمكان لا بالوجوب لتوقف وجوده على أشياء أخر وراءه فلا يتحقق بوجود الجزء المفروض جميع ما يتوقف عليه وجوده حتى يعود واجبا وجوده.

و الأفعال الإنسانيه يتوقف فى وجودها على الإنسان و إرادته و على أمور غير محصوره أخرى من الماده و الشرائط الزمانيه و المكانيه فهى إذا نسب إليها جميعا كانت النسبه الحاصله نسبه الوجوب و الضروره،و أما إذا نسبت إلى الإنسان وحده أو إلى الإنسان المريد فقد نسبت إلى جزء العله التامه و عادت النسبه إلى الإمكان دون الوجوب، فالأفعال الإراديه الإنسانيه اختياريه أى أنه يمكنه أن يفعل و أن لا يفعل فإن فعل

فبمشیته و إرادته،و إن لم یفعل فلم یختره و لم یرده و إنما اختار و أراد شیئا آخر، لکنها لا تقع فی الخارج إلا واجبه لاستنادها حینئذ إلی جمیع أجزاء عللها.

فهؤلاء خلطوا فی کلامهم بین النسبتین فوضعوا النسبه الوجوبیه التی للفعل إلی مجموع أجزاء علتها التامه موضع النسبه الإمکانیه التی للفعل إلی بعض أجزاء علته التامه و هی التی تسمی فی الإنسان بالاختیار علی نحو من العنایه.

و أما ما ذکره المعتزله أنه لو جاز کونه تعالی هو الفاعل للفعل الذی أتی به المؤمنون و هو التعذیب،و لیس لهم إلا مقام الآلیه المحضه من غیر تأثیر لجاز إسناد تعذیب الکفار للمؤمنین و تکذیبهم للأنبیاء و لعنهم المؤمنین أیضا إلیه،و هو باطل قطعا فأفعال العباد مخلوقه لهم لا صنع لله تعالی فیها.

ففیه أن الملازمه حقه لکن بطلان التالی لا یستلزم کون الأفعال مخلوقه لهم لا نسبه لها إلی الله سبحانه أصلا لجواز کونها منسوبه إلیه تعالی بعین ما ینتسب به إلیهم فإنهم فاعلون لها و هو فاعل الفاعلین فینتسب إلیهم بالصدور عن الفاعل المباشر، و ینتسب إلیه بالصدور عن الفاعل الذی هو فاعله و النسبتان فی الحقیقه نسبه واحده مختلفه بالقرب و البعد و انتفاء الواسطه و ثبوتها،و لا یستلزم ذلک اجتماع فاعلین مستقلین علی فعل واحد لکونهما طولیین لا عرضیین.

فإن قلت:فیبقی محذور استناد الحسنات و السیئات و الإیمان و الکفر إلیه تعالی فی محله.

قلت:کلا-و إنما ینتسب إلیه أصل وجودها،و أما عنوان الفعل الذی یشیر إلی جهه قیام الحرکه و السکون بالموضوع المتحرک کالنکاح و الزنا و الأکل المحرم و المحلل فإنما ینسب إلی الإنسان لکونه هو الموضوع المادی الذی یتحرک بهذه الحرکات:و أما الذی یوجد هذا المتحرک الذی من جمله آثاره حرکته و لیس بنفسه متحرکا بها و إنما یوجدها إیجادا إذا تمت شرائطها و أسبابها فلا یتصف بأنواع هذه الحرکات حتی یتصف بفعل النکاح أو الزنا أو أی فعل قائم بالإنسان.

نعم هناک عناوین عامه لا تستتبع معنی الحرکه و الماده،لا مانع من إسنادها إلی الإنسان و إلیه سبحانه إذا لم یستلزم محذورا کالهدایه و الإضلال إذا لم یکن إضلالا ابتدائیا،و کالتعذیب و الابتلاء،فقتل المؤمن للکافر تعذیب إلهی للکافر،و قتل

الکافر للمؤمن بلاء حسن للمؤمن يستوجب به أجرا حسنا عند الله،و على هذا القياس.

على أن الـذى ذهب إليه المعتزله يوقعهم فيمـا وقعت فيه الأشـاعره و هو انسـداد طريق إثبات الصانع عليهم فإنه لو جاز أن يوجد فى العـالم حـادث من الحوادث عن سـبب له و ينقطع عمـا وراء سـببه ذلـك انقطاعـا تاما لا تأثير له فيه جاز فى کل ما فرض من الحوادث أن يستند إلى ما يليه من غير أن يرتبط بشىء آخر وراءه،و من الجائز أن يفنى الفاعل و يبقى أثره فمن الجائز أن يستند کـل مـا فرض معلولاـ إلى فاعل له غير واجب الوجود و من الجائز أن يسـتند کل عالم مفروض إلى عالم قبله هو فاعله و قـد فنى قبله على ما هو المشـهود من حوادث هذا العالم المولد بعضـها بعضا:و المتولد بعضـها من بعض،و لا يلزم محذور التسـلسل لعدم تحقق سلسله ذات أجزاء فى وقت من الأوقات إلا فى الذهن.

و فى کلامهم مفاسد کثيره أخرى مبينه فى المحل المربوط به،و قد تقدم فى الکلام على نسـبه الخلق إليه تعالى فى الجزء السابع من الکتاب ما ينفع فى هذا المقام.

و کيف يسع لمسـلم موحـد أن يثبت مع الله سـبحانه خالقـا آخر بحقيقه معنى الخلق و الإيجـاد و قـد قال الله سـبحانه:« ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» :المؤمن:-۶۲ و قـد کرر ذلـک فى کلامه،و ليس فى تجاهه إلا نسـبه أفعال الإنسان إليه من غير قطع رابطتهـا إليه تعـالى بـل مع إثبـات النسـبه بـدليل آيـات القـدر و دلاـله العقل على أن لفعل الفاعل نسـبه إلى فاعل فاعله بحسب ما يليق بساحته.

فـالحق أن للأفعـال الإنسـانيه نسـبه إلى فواعلها بالمباشـره،و نسـبه إليه تعالى بما يليق بساحه قـدسه،قال تعالى:« کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً :إسراء:-۲۰.

[سوره التوبه (۹): الآيات ۱۷ الى ۲۴]

اشاره

مٰا کٰانَ لِلْمُشْرِکِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اَللّٰهِ شٰاهِدِينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْکُفْرِ أُولٰئِکَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ وَ فِی اَلنّٰارِ هُمْ خٰالِدُونَ (۱۷) إِنَّمٰا يَعْمُرُ مَسٰاجِدَ اَللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ أَقٰامَ اَلصَّلاٰةَ وَ آتَى اَلزَّکٰاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اَللّٰهَ فَعَسىٰ أُولٰئِکَ أَنْ يَکُونُوا مِنَ اَلْمُهْتَدِينَ (۱۸) أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَةَ اَلْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ کَمَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ جٰاهَدَ فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ لاٰ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۹) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اَللّٰهِ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوٰانٍ وَ جَنّٰاتٍ لَهُمْ فِيهٰا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً إِنَّ اَللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَکُمْ وَ إِخْوٰانَکُمْ أَوْلِيٰاءَ إِنِ اِسْتَحَبُّوا اَلْکُفْرَ عَلَى اَلْإِيمٰانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ کٰانَ آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ وَ إِخْوٰانُکُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ وَ عَشِيرَتُکُمْ وَ أَمْوٰالٌ اِقْتَرَفْتُمُوهٰا وَ تِجٰارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسٰادَهٰا وَ مَسٰاکِنُ تَرْضَوْنَهٰا أَحَبَّ إِلَيْکُمْ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهٰادٍ فِی سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِیَ اَللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ (۲۴)

(بيان)

آيـات تبين أن الأعمال إنما تكون حيه مرضـيه إذا صـدرت عن حقيقه الإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر و إلا فإنما هى حبط لا تهدى صاحبها إلى سعاده،و إن من لوازم الإيمان بحقيقته قصر الولايه و الحب و الوداد فى الله و رسوله.

و هى ظـاهره الاتصـال و الارتباط فيما بينها أنفسـها،و أما اتصالها بما تقـدمها من الآيات فليس بـذاك الوضوح،و ما ذكره بعض المفسرين فى وجه اتصالها بما قبلها لا يخلو من تكلف.

ص:۱۹۹

قوله تعالی:« مٰا کٰانَ لِلْمُشْرِکِینَ أَنْ یَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اللّٰهِ شٰاهِدِینَ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْکُفْرِ » العماره ضد الخراب یقال:عمر الأرض إذا بنی بها بناء،و عمر البیت إذا أصلح ما أشرف منها علی الفساد،و التعمیر بمعناه و منه العمر لأنه عماره البدن بالروح، و العمره بمعنی زیاره البیت الحرام لأن فیها تعمیره.

و المسجد اسم مکان بمعنی المحل الذی یتعلق به السجده کالبیت الذی یبنی لیسجد فیه الله تعالی،و أعضاء السجده التی تتعلق بها السجده نوع تعلق و هی الجبهه و الکفان و الرکبتان و رءوس إبهامی القدمین.

و قوله:« مٰا کٰانَ لِلْمُشْرِکِینَ »الآیه لنفی الحق و الملک فإن اللام للملک و الحق، و النفی الحالی للکون السابق یفید أنه لم یتحقق منهم سبب سابق یوجب لهم أن یملکوا هذا الحق و هو حق أن یعمروا مساجد الله و یرموا ما استرم منها أو یزوروها کقوله تعالی:« مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ:» الأنفال:-۶۷ و قوله:« وَ مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَغُلَّ:» آل عمران:-۱۶۱.

و المراد بالعماره فی قوله:« أَنْ یَعْمُرُوا »إصلاح ما أشرف علی الخراب من البناء و رم ما استرم منه دون عماره المسجد بالزیاره فإن المراد بمساجد الله هی المسجد الحرام و کل مسجد لله و لا عمره فی غیر المسجد الحرام،و الدخول فی المساجد للعباده فیها و إن أمکن أن یسمی عماره و زیاره لکن التعبیر المعهود من القرآن فیه الدخول.

علی أن فی قوله فی الآیه الآتیه:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَةَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ » تأییدا ما لکون المراد بالعماره هو إصلاح البناء دون زیاره البیت الحرام.

و المراد بمساجد الله بیوت العباده المبنیه لله لکن السیاق یدل علی أن المراد نفی جواز عمارتهم للمسجد الحرام،و یؤیده قراءه من قرأ« أن یعمروا مسجد الله »بالإفراد.

و لا ضیر فی التعبیر بالجمع و المقصود الأصیل بیان حکم فرد خاص من أفراده لأن الملاک عام،و التعلیل الوارد فی الآیه غیر مقید بخصوص المسجد الحرام فالکلام فی معنی:

ما کان لهم أن یعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد و المساجد من شأنها ذلک.

و قوله:« شٰاهِدِینَ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْکُفْرِ »المراد بالشهاده أداؤها و هو الاعتراف إما قولا کمن یعترف بالکفر لفظا،و إما فعلا کمن یعبد الأصنام و یتظاهر بکفره

فکل ذلک من الشهاده و الملاک واحد.

فمعنی الآیه:لا یحق و لا یجوز للمشرکین أن یرموا ما استرم من المسجد الحرام کسائر مساجد الله و الحال أنهم معترفون بالکفر بدلاله قولهم أو فعلهم.

قوله تعالی:« أُولئِکَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِی النّارِ هُمْ خالِدُونَ »فی مقام التعلیل لما أفید من الحکم فی قوله:« ما کانَ »إلخ و لذلک جیء به بالفصل دون الوصل.

و المراد بالجمله الأولی بیان بطلان الأثر و ارتفاعه عن أعمالهم،و العمل إنما یؤتی به للتوسل به إلی أثر مطلوب،و إذ کانت أعمالهم حابطه لا أثر لها لم یکن ما یجوز لهم الإتیان بها،و الأعمال العبادیه کعماره مساجد الله إنما تقصد لما یطمع فیه و یرجی من أثرها و هو السعاده و الجنه،و العمل الحابط لا یتعقب سعاده و لا جنه البته.

و المراد بالجمله الثانیه بیان ظرفهم الذی یستقرون فیه لو لا السعاده و الجنه و هو النار فکأنه قیل:أولئک لا یهدیهم أعمالهم العبادیه إلی الجنه بل هم فی النار الخالده، و لا تفید لهم سعاده بل هم فی الشقاوه المؤبده.

و فی الآیه دلاله علی أصلین لطیفین من أصول التشریع:

أحدهما:أن تشریع الجواز بالمعنی الأعم الشامل للواجبات و المستحبات و المباحات یتوقف علی أثر فی الفعل ینتفع به فاعله فلا لغو مشروعا فی الدین،و هذا أصل یؤیده العقل،و هو منطبق علی الناموس الجاری فی الکون:أن لا فعل إلا لنفع عائد إلی فاعله.

و ثانیهما:أن الجواز فی جمیع موارده مسبوق بحق مجعول من الله لفاعله فی أن یأتی بالفعل من غیر مانع.

قوله تعالی:« إِنَّما یَعْمُرُ مَساجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ »الآیه السیاق کاشف عن أن الحصر من قبیل قصر الإفراد کان متوهما یتوهم أن للمشرکین و المؤمنین جمیعا أن یعمروا مساجد الله فأفرد و قصر ذلک فی المؤمنین،و لازم ذلک أن یکون المراد بقوله:« یَعْمُرُ »إنشاء الحق و الجواز فی صوره الإخبار دون الإخبار،و هو ظاهر.

و قد اشترط سبحانه فی ثبوت حق العماره و جوازها أن یتصف العامر بالإیمان بالله و الیوم الآخر قبال ما نفی عن المشرکین أن یکون لهم ذلک و لم یقنع بالإیمان بالله

وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به،و بذلك يختص حق العماره و جوازها بأهل الدين السماوى من المؤمنين.

و لم يقنع بذلك أيضا بل ألحق به قوله:« وَ أَقٰامَ الصَّلاٰةَ وَ آتَى الزَّكٰاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّٰهَ »لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك أن يقترفه،و من كان تاركا للفروع المشروعه فى الدين و خاصه الركنين:الصلاه و الزكاه فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن كان مسلما،إذا لم ينكرها بلسانه، و لو أنكرها بلسانه أيضا كان كافرا غير مسلم.

و قد خص من بينها الصلاه و الزكاه بالذكر لكونهما الركنين الذين لا غنى عنهما فى حال من الأحوال.

و بما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر أن المراد بقوله:« وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّٰهَ »الخشيه الدينيه و هى العباده دون الخشيه الغريزيه التى لا يسلم منها إلا المقربون من أولياء الله كالأنبياء قال تعالى:« اَلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ:» الأحزاب:-٣٩.

و الوجه فى التكنيه عن العباده بالخشيه أن الأعرف عند الإنسان من علل اتخاذ الإله للعباده الخوف من سخطه أو الرجاء لرحمته و رجاء الرحمه،أيضا يعود بوجه إلى الخوف من انقطاعها و هو السخط فمن عبد الله سبحانه أو عبد شيئا من الأصنام فقد دعاه إلى ذلك أما الخوف من شمول سخطه أو الخوف من انقطاع نعمته و رحمته فالعباده ممثله للخوف و الخشيه مصداق لها لتمثيلها إياها،و بينهما حاله الاستلزام،و لذلك كنى بها عنها،فالمعنى-و الله أعلم-و لم يعبد أحدا من دون الله من الآلهه.

و قوله:« فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »أى أولئك الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و لم يعبدوا أحدا غير الله سبحانه يرجى فى حقهم أن يكونوا من المهتدين، و هذا الرجاء قائم بأنفسهم أو بأنفس المخاطبين بالآيه،و أما هو تعالى فمن المستحيل أن يقوم به الرجاء الذى لا يتم إلا مع الجهل بتحقق الأمر المرجو الحصول.

و إنما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله و اليوم الآخر حقيقه و حققه أعماله العباديه فقد اهتدى حقيقه لأن حصول الاهتداء مره أو مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين،و استقرار صفه الاهتداء و لزومها له،

فالتلبس بالفعل الواقع مره أو مرات غير التلبس بالصفه اللازمه فأولئك حصول الاهتداء لهم محقق،و أما حصول صفه المهتدين فهو مرجو التحقق لا محقق.

و قد تحصل من الآيه أن عماره المساجد لا تحق و لا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله و اليوم الآخر،و أما أهل الكتاب فلأن القرآن لا يعد إيمانهم بالله إيمانا قال تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا:» النساء:-١٥١،و قال أيضا فى آيه ٢٩ من السوره:« قٰاتِلُوا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ »الآيه.

قوله تعالى:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَةَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جٰاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ »الآيه، السقايه كالحكايه و الجنايه و النكايه مصدر يقال:

سقى يسقى سقايه.

و السقايه أيضا الموضع الذى يسقى فيه الماء،و الإناء الذى يسقى به قال تعالى:

« جَعَلَ السِّقٰايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ:» يوسف:-٧٠،و قد رووا فى الآثار أن سقايه الحاج كانت إحدى الشئونات الفاخره و المآثر التى يباهى بها فى الجاهليه،و أن السقايه كانت حياضا من آدم على عهد قصى بن كلاب أحد أجداد النبى ص توضع بفناء الكعبه، و يستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل،و يسقى الحاج فجعل قصى أمر السقايه عند وفاته لابنه عبد مناف و لم يزل فى ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب.

و سقايه العباس هو الموضع الذى كان يسقى فيه الماء فى الجاهليه و الإسلام و هو فى جهه الجنوب من زمزم بينهما أربعون ذراعا،و قد بنى عليه بناء هو المعروف اليوم بسقايه العباس.

و المراد بالسقايه فى الآيه-على أى حال-معناها المصدرى و هو السقى،و يؤيده مقابلتها فى الآيه عماره المسجد الحرام و المراد بها المعنى المصدرى قطعا بمعنى الشغل.

و قد قوبل فى الآيه سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام بمن آمن بالله و اليوم الآخر و جاهد فى سبيل الله،و لا معنى لدعوى المساواه بين الإنسان و بين عمل من الأعمال كالسقايه و العماره أو نفيها فالمعادله و المساواه إما بين عمل و عمل أو بين إنسان ذى عمل و إنسان ذى عمل.

و لذلک اضطر المفسرون إلی القول بأن تقدیر الکلام:أ جعلتم أهل سقایه الحاج و أهل عماره المسجد الحرام کمن آمن بالله و الیوم الآخر حتی یستقیم السیاق.

و أوجب منه النظر فی قیود الکلام المأخوذه فی الآیه الکریمه فقد أخذ فی أحد الجانبین سقایه الحاج و عماره المسجد الحرام وحدهما من غیر أی قید زائد،و فی الجانب الآخر الإیمان بالله و الیوم الآخر و الجهاد فی سبیل الله و إن شئت فقل:الجهاد فی سبیل الله مع اعتبار الإیمان معه.

و هو یدل علی أن المراد:السقایه و العماره خالیتین من الإیمان،و یؤیده قوله تعالی فی ذیل الآیه:« وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ »علی تقدیر کونه تعریضا لأهل السقایه و العماره لا تعریضا لمن یسوی بینهما کما یتبادر من السیاق.

و هذا یکشف أولا-عن أن هؤلاء الذین کانوا یسوون بین کذا و کذا و بین کذا إنما کانوا یسوون بین عمل جاهلی خال عن الإیمان بالله و الیوم الآخر کالسقایه و العماره من غیر أن یکون عن إیمان،و بین عمل دینی عن إیمان بالله و الیوم الآخر کالجهاد فی سبیل الله عن إیمان،أی کانوا یسوون بین جسد عمل لا حیاه فیه و بین عمل حی طیب نفعه فأنکره الله علیهم.

و ثانیا:أن هؤلاء المسوین کانوا من المؤمنین یسوون بین عمل من غیر إیمان،کان صدر عنهم قبل الإیمان أو صدر عن مشرک غیرهم، و بین عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإیمان حال إیمانه کما یشهد به سیاق الإنکار و بیان الدرجات فی الآیات.

بل یشعر بل یدل ذکر نفس السقایه و العماره من غیر ذکر صاحبهما علی أن صاحبیهما کانا من أهل الإیمان عند التسویه فلم یذکرا حفظا لکرامتهما و هما مؤمنان حین الخطاب و وقایه لهما بالنظر إلی التعریض الظاهر الذی فی آخر الآیه من أن یسمیا ظالمین.

بل یدل قوله تعالی فی الآیه التالیه فی مقام بیان أجر هؤلاء المجاهدین فی سبیل الله عن إیمان:« اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ »علی أن طرفی التسویه فی قوله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَهَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ کَمَنْ آمَنَ »الآیه کانا من أهل مکه، و أن أهل أحد الطرفین و هو الذی آمن و جاهد کان ممن أسلم و هاجر،و أهل الطرف الآخر أسلم و لم یهاجر فإن هذا هو الوجه فی ذکره تعالی أولا الإیمان و الجهاد فی أحد

الطرفين ثم إضافه الهجره إلى ذلك عند ما أعيد ثانيا،و قد ذكر تعالى السقايه و العماره فى الجانب الآخر و لم يزد على ذلك شيئا لا أولا و لا ثانيا فما هذه القيود بلاغيه فى قوله الفصل.

و هذا كله يؤيد ما ورد فى سبب نزول الآيه أن الآيات نزلت فى العباس و شيبه و على (ع)حين تفاخروا فذكر العباس سقايه الحاج،و شيبه عماره المسجد الحرام،و على الإيمان و الجهاد فى سبيل الله فنزلت الآيات و ستجىء الروايه فى البحث الروائى المتعلق بالآيات.

و كيف كان فالآيه و ما يتلوها من الآيات تبين أن الزنه و القيمه إنما هو للعمل إذا كان حيا بولوج روح الإيمان فيه و أما الجسد الخالى الذى لا روح فيه و لا حياه له فلا وزن له فى ميزان الدين و لا قيمه له فى سوق الحقائق فليس للمؤمنين أن يعتبروا مجرد هياكل الأعمال،و يجعلوها ملاكات للفضل و أسبابا للقرب منه تعالى إلا بعد اعتبار حياتها بالإيمان و الخلوص.

و من هذه الجهه ترتبط الآيه:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَةَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ »و ما بعدها من الآيات بالآيتين اللتين قبلها:« مٰا كٰانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اللّٰهِ شٰاهِدِينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ »إلى آخر الآيتين.

و بذلك كله يظهر أولا- أن قوله:« وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »جمله حاليه تبين وجه الإنكار لحكمهم بالمساواه فى قوله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَةَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ كَمَنْ آمَنَ »الآيه.

و ثانيا:أن المراد بالظلم هو ما كانوا عليه من الشرك فى حال السقايه و العماره لا حكمهم بالمساواه بين السقايه و العماره و بين الجهاد عن إيمان.

و ثالثا:أن المراد نفى أن ينفعهم العمل و يهديهم إلى السعاده التى هى عظم الدرجه و الفوز و الرحمه و الرضوان و الجنه الخالده.

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ »إلى آخر الآيه بيان لحق الحكم الذى عند الله فى المسأله بعد إنكار المساواه،و هو أن الذى آمن و هاجر و جاهد فى سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال و نفس،أعظم درجه عند الله و إنما عبر فى صوره الجمع-الذين آمنوا إلخ-إشاره إلى أن ملاك الفصل هو الوصف دون الشخص.

و ما تقدم من دلاله الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها و لا درجه

لصاحبها عند الله،قرينه على أن ليس المراد بالقياس الذى يدل عليه أفعل التفضيل فى قوله:« أَعْظَمُ دَرَجَةً »إلخ هو أن بين الفريقين اشتراكا فى الدرجات غير أن درجه من جاهد عن إيمان أعظم ممن سقى و عمر.

بل المراد بيان أن النسبه بينهما نسبه الأفضل إلى من لا فضل له كالمقايسه المأخوذه بين الأكثر و الأقل فإنها تستدعى وجود حد متوسط بينهما يقاسان إليه فهناك ثلاثه أمور أمر متوسط يؤخذ مقياسا معدلا و آخر يكون أكثر منه،و آخر يكون أقل منه فإذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيسا إلى ما لا كثره فيه أصلا.

فقوله:« أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّٰهِ »أى بالقياس إلى هؤلاء الذين لا درجه لهم أصلا،و هذا نوع من الكنايه عن أن لا نسبه حقيقه بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلا.

و يدل على ذلك أيضا قوله:« وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْفٰائِزُونَ »بما يدل على انحصار الفوز فيهم و ثبوتها لهم على نهج الاستقرار.

قوله تعالى:« يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوٰانٍ وَ جَنّٰاتٍ »إلى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل فى حقهم بيان و تفصيل لما ذكر فى الآيه السابقه من فوزهم جىء به بلسان التبشير.

فالمعنى« يُبَشِّرُهُمْ »أى هؤلاء المؤمنين« رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ »عظيمه لا يقدر قدرها « وَ رِضْوٰانٍ »كذلك« وَ جَنّٰاتٍ لَهُمْ فِيهٰا »فى تلك الجنات« نَعِيمٌ مُقِيمٌ »لا يزول و لا ينفد حالكونهم« خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً »لا ينقطع خلودهم بأجل و لا أمد.

ثم لما كان المقام مقام التعجب و الاستبعاد لكونها بشاره بأمر عظيم لم يعهد فى ما نشاهده من أنواع النعيم الذى فى الدنيا،رفع الاستبعاد بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ».

و سيوافيك الكلام فى توضيح معنى رحمته تعالى و رضوانه فيما سيمر من موضع مناسب و قد تقدم بعض الكلام فيهما.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَكُمْ وَ إِخْوٰانَكُمْ أَوْلِيٰاءَ »إلى آخر الآيه نهى عن تولى الكفار و لو كانوا آباء و إخوانا فإن الملاك عام،و الآيه التاليه

تنهى عن تولى الجميع غير أن ظاهر لفظ الآيه النهى عن اتخاذ الآباء و الإخوان أولياء إن استحبوا الكفر و رجحوه على الإيمان.

و إنما ذكر الآباء و الإخوان دون الأبناء و الأزواج مع كون القبيلين و خاصه الأبناء محبوبين عندهم كالآباء و الإخوان لأن التولى يعطى للولى أن يداخل أمور وليه و يتصرف فى بعض شئون حياته،و هذا هو المحذور الذى يستدعى النهى عن تولى الكفار حتى لا يداخلوا فى أمورهم الداخليه و لا يأخذوا بمجامع قلوبهم،و لا يكف المؤمنون و لا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم و يضرهم،و من المعلوم أن النساء و الذرارى لا يترقب منهم هذا الأثر السيئ إلا بواسطه،فلذلك خص النهى عن التولى بالآباء و الإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم فى قلوب المؤمنين و تصرفهم فى شئونهم.

و قد ورد النهى عن اتخاذ الكفار أولياء فى مواضع من كلامه تقدم بعضها فى سوره المائده و آل عمران و النساء و الأعراف و فيها إنذار شديد و تهديدات بالغه كقوله تعالى:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ:» المائده:-۵۱،و قوله:« وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ» :آل عمران:-۲۸،و قوله:« وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ:» آل عمران:-۲۸، و قوله:« أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً مُبِيناً:» النساء:-۱۴۴.

و أنذرهم فى الآيه التى نحن فيها بقوله:«و من يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون» و لم يقل:«و من يتولهم منكم فإنه منهم»إذ من الجائز أن يتوهم بعض هؤلاء أنه منهم لأنهم آباؤه و إخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثرا جديدا يبعثه نحو رفض الولايه.

و كيف كان فقوله:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ »بما فى الجمله من المؤكدات كاسميه الجمله،و دخول اللام على الخبر و ضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم و استقراره فيهم،و قد كرر الله فى كلامه أن الله لا يهدى القوم الظالمين،و قال فى نظير الآيه من سوره المائده:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »فهؤلاء محرومون من الهدايه الإلهيه لا ينفعهم شيء من أعمالهم الحسنه فى جلب السعاده إليهم،و السماحه بالفوز و الفلاح عليهم.

قوله تعالى:« قُلْ إِنْ كٰانَ آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ وَ إِخْوٰانُكُمْ »إلى آخر الآيه التفت من مخاطبتهم إلى مخاطبه النبى ص إيماء إلى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن

قلوبهم مائله إلى الاشتغال بما لا ينفع معه النهى عن تولى آبائهم و إخوانهم الكافرين، و إيجاد الداعى فى نفوسهم إلى الصدور عن أمر الله و رسوله،و قتال الكافرين جهادا فى سبيل الله و إن كانوا آباءهم و إخوانهم.

و الذى يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله و رسوله و الجهاد فى سبيل الله، و قد عد الله سبحانه أصول ما يتعلق به الحب النفسانى من زينه الحياه الدنيا،و هى الآباء و الأبناء و الإخوان و الأزواج و العشيره-و هؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعى بقرابه نسبيه قريبه أو بعيده أو سببيه-و الأموال التى اكتسبوها و جمعوها، و التجاره التى يخشون كسادها و المساكن التى يرضونها-و هذه أصول ما يقوم به المجتمع فى المرتبه الثانيه-.

و ذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين،و قدموا حكم هؤلاء الأمور على حب الله و رسوله و الجهاد فى سبيله فليتربصوا و لينتظروا حتى يأتى الله بأمره و الله لا يهدى القوم الفاسقين.

و من المعلوم أن الشرط أعنى قوله:« إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ »إلى قوله:« فِي سَبِيلِهِ » فى معنى أن يقال:إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء و الإخوان الكافرين أولياء باتخاذكم سببا يؤدى إلى خلاف ما يدعوكم إليه،و إهمالكم فى أمر غرض الدين و هو الجهاد فى سبيل الله.

فقوله فى الجزاء:« فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ »لا محاله إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمه و سقوط غرض فى ظرف مخالفتهم،و إما عذاب يأتيهم عن مخالفه أمر الله و رسوله و الإعراض عن الجهاد فى سبيله.

غير أن قوله تعالى فى ذيل الآيه:« وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ »يعرض لهم أنهم خارجون حينئذ عن زى العبوديه،فاسقون عن أمر الله و رسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم و يوفقهم لنصره الله و رسوله،و إعلاء كلمه الدين و إمحاء آثار الشرك.

فذيل الآيه يهدى إلى أن المراد بهذا الأمر الذى يأمرهم الله أن يتربصوا له حتى يأتى به أمر منه تعالى،متعلق بنصره دينه و إعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى

فی سوره المائده بعد آیات ینهی فیها عن تولی الکافرین:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ ذلِکَ فَضْلُ اللّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ:» المائده:-۵۴.و الآیه بقیودها و خصوصیاتها-کما تری-تنطبق علی ما تفیده الآیه التی نحن فیها.

فالمراد-و الله أعلم-إن اتخذتم هؤلاء أولیاء،و استنکفتم عن إطاعه الله و رسوله و الجهاد فی سبیل الله فتربصوا حتی یأتی الله بأمره،و یبعث قوما لا یحبون إلا الله،و لا یوالون أعداءه و یقومون بنصره الدین و الجهاد فی سبیل الله أفضل قیام فإنکم إذا فاسقون لا ینتفع بکم الدین،و لا یهدی الله شیئا من أعمالکم إلی غرض حق و سعاده مطلوبه.

و ربما قیل:إن المراد بقوله:« فَتَرَبَّصُوا حَتّی یَأْتِیَ اللّهُ بِأَمْرِهِ »الإشاره إلی فتح مکه،و لیس بسدید فإن الخطاب فی الآیه للمؤمنین من المهاجرین و الأنصار و خاصه المهاجرین،و هؤلاء هم الذین فتح الله مکه بأیدیهم،و لا معنی لأن یخاطبوا و یقال لهم:إن کان آباؤکم و أبناؤکم«إلخ»أحب إلیکم من الله و رسوله و جهاد فی سبیله فوالیتموهم و استنکفتم عن إطاعه الله و رسوله و الجهاد فی سبیله فتربصوا حتی یفتح الله مکه بأیدیکم و الله لا یهدی القوم الفاسقین،أو فتربصوا حتی یفتح الله مکه و الله لا یهدیکم لمکان فسقکم فتأمل.

(بحث روائی)

فی تفسیر البرهان،:فی قوله تعالی:« أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ »الآیه:عن أمالی الشیخ بإسناده عن الأعمش عن سالم بن أبی الجعد یرفعه إلی أبی ذر-فی حدیث الشوری-:

فیما احتج به علی(ع)علی القوم:و قال لهم فی ذلک:فهل فیکم أحد نزلت فیه هذه الآیه« أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ-کَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِیلِ اللّهِ »غیری؟قالوا:لا.

و فی تفسیر القمی،قال:و فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع)قال:

نزلت هذه الآیه فی علی بن أبی طالب(ع):« اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا -إلی قوله- اَلْفٰائِزُونَ »ثم وصف ما لعلی(ع)عنده فقال. یُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَهٍ مِنْهُ وَ رِضْوٰانٍ وَ جَنّٰاتٍ لَهُمْ فِیهٰا نَعِیمٌ مُقِیمٌ ».

و فی المجمع،روی الحاکم أبو القاسم الحسکانی بإسناده عن أبی بریده عن أبیه قال:

بینما شیبه و العباس یتفاخران-إذ مر علیهما علی بن أبی طالب قال:بما تفتخران؟ قال العباس:لقد أوتیت من الفضل ما لم یؤت أحد سقایه الحاج،و قال شیبه:

أوتیت عماره المسجد الحرام،و قال علی:و أنا أقول لکما لقد أوتیت علی صغری ما لم تؤتیا-فقالا:و ما أوتیت یا علی؟قال:ضربت خراطیمکما بالسیف-حتی آمنتما بالله تبارک و تعالی و رسوله.

فقام العباس مغضبا یجر ذیله-حتی دخل علی رسول الله ص فقال:أ ما تری ما استقبلنی به علی؟فقال:ادعوا لی علیا،فدعی له فقال:ما حملک یا علی علی ما استقبلت به عمک؟فقال: یا رسول الله صدقته الحق فإن شاء فلیغضب،و إن شاء فلیرض.

فنزل جبرئیل(ع)و قال:یا محمد ربک یقرأ علیک السلام و یقول:اتل علیهم:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَهَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ- کَمَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ » إلی قوله:« إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ ».

و فی تفسیر الطبری،بإسناده عن محمد بن کعب القرظی قال: افتخر طلحه بن شیبه و العباس و علی بن أبی طالب-فقال طلحه:أنا صاحب البیت معی مفتاحه، و قال العباس:و أنا صاحب السقایه و القائم علیها،فقال علی:ما أدری ما تقولان- لقد صلیت إلی القبله سته أشهر قبل الناس،و أنا صاحب الجهاد،فأنزل الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَهَ الْحٰاجِّ »الآیه کلها.

و فی الدر المنثور،أخرج الفاریابی عن ابن سیرین قال: قدم علی بن أبی طالب مکه فقال للعباس:أی عم أ لا تهاجر؟أ لا تلحق برسول الله ص؟فقال:أعمر المسجد الحرام و أحجب البیت فأنزل الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَهَ الْحٰاجِّ »الآیه،و قال لقوم قد سماهم:أ لا تهاجرون؟أ لا تلحقون برسول الله ص؟فقالوا:نقیم مع إخواننا و عشائرنا و مساکننا-فأنزل الله تعالی:« قُلْ إِنْ کٰانَ آبٰاؤُکُمْ »الآیه کلها

و فیه،أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال": قال العباس حین أسر یوم بدر:إن کنتم سبقتمونا بالإسلام و الهجره و الجهاد-لقد کنا نعمر المسجد الحرام و نسقی الحاج و نفک العانی (۱)فأنزل الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَهَ الْحٰاجِّ » الآیه،یعنی أن ذلک کان فی الشرک فلا أقبل ما کان فی الشرک.

و فیه،أخرج مسلم و أبو داود و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن حبان و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن النعمان بن بشیر قال: کنت عند منبر رسول الله ص فی نفر من أصحابه-فقال رجل منهم:ما أبالی أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقی الحاج،و قال آخر:بل عماره المسجد الحرام،و قال آخر:بل الجهاد فی سبیل الله خیر مما قلتم-.

فزجرهم عمر و قال:لا ترفعوا أصواتکم عند منبر رسول الله ص،و ذلک یوم الجمعه،و لکن إذا صلیتم الجمعه دخلت علی رسول الله ص-فاستفتیته فیما اختلفتم فیه فأنزل الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰایَهَ الْحٰاجِّ »إلی قوله:« وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ ».

أقول:قال صاحب المنار فی تفسیره بعد إیراد هذه الروایات الأربع الأخیره:

و المعتمد من هذه الروایات حدیث النعمان لصحه سنده و موافقه متنه لما دلت علیه الآیات من کون موضوعها فی المفاضله أو المساواه بین خدمه البیت و حجابته-من أعمال البر البدنیه الهینه المستلذه-و بین الإیمان و الجهاد بالمال و النفس و الهجره،و هی أشق العبادات النفسیه البدنیه المالیه،و الآیات تتضمن الرد علیها کلها.انتهی.

أما ما ذکره من رجحان روایه النعمان علی غیرها بصحه السند ففیه أولا أن روایه القرظی أیضا فی مضمونها موافقه لروایه الحاکم فی المستدرک و قد صححها.

و ثانیا:أن روایات التفسیر إذا کانت آحادا لا حجیه لها إلا ما وافق مضامین الآیات بقدر ما یوافقها علی ما بین فی فن الأصول فإن الحجیه الشرعیه تدور مدار الآثار الشرعیه المترتبه فتنحصر فی الأحکام الشرعیه و أما ما وراءها کالروایات الوارده فی القصص و التفسیر الخالی عن الحکم الشرعی فلا حجیه شرعیه فیها.

و أما الحجیه العقلیه أعنی العقلائیه فلا مسرح لها بعد توافر الدس و الجعل فی

۱- ۱) العانی:الأسیر.

الأخبار سيما أخبار (۱)التفسير و القصص إلا ما تقوم قرائن قطعيه يجوز التعويل عليها على صحه متنه،و من ذلك موافقه متنه لظواهر الآيات الكريمه.

فالذى يهم الباحث عن الروايات غير الفقهيه أن يبحث عن موافقتها للكتاب فإن وافقتها فهى الملاك لاعتبارها و لو كانت مع ذلك صحيحه السند فإنما هى زينه زينت بها و إن لم توافق فلا قيمه لها فى سوق الاعتبار.

و أما ترك البحث عن موافقه الكتاب،و التوغل فى البحث عن حال السند -إلا ما كان للتوسل إلى تحصيل القرائن-ثم الحكم باعتبار الروايه بصحه سندها ثم تحميل ما يدل عليه متن الروايه على الكتاب،و اتخاذه تبعا لذلك كما هو دأب كثير منهم فمما لا سبيل إليه من جهه الدليل.

و أما ما ذكره من رجحان روايه النعمان على غيرها من جهه المتن مبينا ذلك بأن الآيات تدل على أن موضوع المساواه أو المفاضله كان بين خدمه البيت أو حجابته و هى من أعمال البر البدنيه الهينه المستلذه،و بين الإيمان و الجهاد و الهجره و هى من أعمال البر النفسيه و البدنيه الشاقه،و الآيات تتضمن الرد عليها كلها.انتهى.

ففيه أولا:أن الذى ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من الروايات:

أما روايه ابن عباس التى مضمونها وقوع الكلام فى المساواه أو المفاضله حين أسر العباس يوم بدر بين العباس و بين المسلمين حيث عيروه فقد ذكر فيها صريحا المقايسه بين الإسلام و الهجره و الجهاد و بين سقايه الحاج و عماره المسجد و فك العانى، و هناك روايات أخر فى معناه.

و أما روايه ابن سيرين الداله على وقوع النزاع بين على و العباس بمكه حين دعاه إلى الهجره و اللحوق بالنبى ص فأجابه بأن له عماره المسجد الحرام و حجابه البيت

و قد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبى و فيها": أن العباس قال لعلى:أنا عم النبى ص،و أنت ابن عمه،و إلى سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام،فأنزل الله:

« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَةَ اَلْحٰاجِّ »الآيه.

۱- ۱) و قد اعترف فى مواضع من كلامه و نقل عن أحمد أنه قال:لا أصل لها.

و رواه أيضا ابن أبى شيبه و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد الله بن عبيده و فيها":

أن العباس قال لعلى:أ و لست فى أفضل من الهجره؟أ لست أسقى الحاج و أعمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآيه.

و على أى حال فالواقع فى هذه الروايه أيضا المقايسه بين السقايه و العماره و بين الهجره و ما يترتب عليا مما يستلزمه اللحوق بالنبى ص كالجهاد و غيره من الأعمال الشريفه الدينيه.

و أما روايه القرظى و ما فى معناها كالذى رواه الحاكم و صححه،و ما رواه عبد الرزاق عن الحسن قال:نزلت فى على و العباس و عثمان و شيبه (۱)تكلموا فى ذلک،و كذا روايه النعمان التى تقدمت فكون المنازعه فيها فى السقايه و العماره و الإيمان و الجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأى مزيه فى روايه النعمان بن بشير توجب اختصاصها بموافقه الكتاب من بين سائر الروايات.

و ثانيا:أن قوله:إن موضوع المفاضله هى أعمال البر الهينه المستلذه كالسقايه و الحجابه و أعمال البر الشاقه كالإيمان و الهجره و الجهاد لا يوافق ما يدل عليه الآيات فإنها كما تقدم ظاهره الدلاله على أن المقايسه كانت بينهم بين أجساد الأعمال الخاليه عن روح الإيمان و ليست من البر حينئذ و بين أعمال حيه بولوج روح الإيمان فيها كالهجره و الجهاد عن إيمان بالله و اليوم الآخر.

فالآيات تدل على أنهم كانوا يسوون أو يفضلون غير أعمال البر كالسقايه و العماره من غير إيمان على أعمال البر كالجهاد عن إيمان و هجره و الهجره عن إيمان فأين ما ذكره من أعمال البر الهينه قبال أعمال البر الشاقه (۲)؟ و دلاله الآيات-بما فيها من القيود المأخوذه-على ذلک بمكان من الظهور و الجلاء فقد قيد الجهاد فيها بالإيمان بالله و اليوم الآخر،و أطلق السقايه و العماره من غير تقييد بالإيمان ثم قال تعالى:« لاٰ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ »ثم زاد:« وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »

۱- ۱) ابن شيبه ظ.

۲- ۲) نعم زعم هو أن السقايه و العماره من العباس فى حال شركه من أعمال البر كما زعمه العباس غير أن الآيات بنزولها نبهت العباس أنه كان قد أخطأ فى مزعمته كما يشعر به ذيل روايه ابن عباس و لم يتنبه هو لما تنبه له العباس رضى الله عنه.

و حاشا أن يكون الآتى بأعمال البر عند الله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمه الهدايه الإلهيه.

حتى لو فرض أن المراد بالظالمين أولئك المسوون أو المفضلون من المؤمنين للسقايه و العماره على الجهاد فإن المؤمن على إيمانه إذا حكم بمثل هذا الحكم فإنما هو خاط يهتدى إذا دل على الصواب لا ظالم محروم من الهدايه فافهم ذلك.

و ثالثا:ما تقدم من أن قوله:« كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ »الآيه و قوله:« لا يَسْتَوُونَ » الآيه دليل على أن للشخص دخلا فيما تتضمن الآيات من الحكم.

و التدبر فى الآيات الكريمه و التأمل فيما ذكرناه هنا و هناك يوضح للباحث الناقد أن أضعف الروايات و أبعدها من الانطباق على مضمون الآيات هى روايه النعمان بن بشير فإنها لا تقبل الانطباق على الآيات الكريمه بما فيها من القيود المأخوذه.

و يليها فى الضعف روايه ابن سيرين و ما فى معناها من الروايات فإن ظاهرها أن العباس إنما دعى إلى الهجره و هو مسلم فافتخر بالسقايه و الحجابه و الآيات لا تساعد على ذلك كما مر.

على أن الواقع فى روايه ابن سيرين ذكر العباس للسقايه و حجابه البيت و لم يكن له حجابه إنما هى السقايه.

و يليها فى الضعف روايه ابن عباس فظاهرها أن المقايسه إنما كانت بين الأعمال فقط و الآيه لا تساعد على ذلك.

على أن فيها أن العباس ذكر فيما ذكر سقايه الحاج و عماره المسجد و فك العانى و هو الأسير.و لو كان لذكر فى الآيه،

و قد وقع فى روايه ابن جرير و أبى الشيخ عن الضحاك فى هذا المعنى قال": أقبل المسلمون على العباس و أصحابه-الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك.فقال العباس:أما و الله لقد كنا نعمر المسجد الحرام،و نفك العانى،و نحجب البيت و نسقى الحاج-فأنزل الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ »الآيه، و الكلام فى فك العانى و حجابه البيت الواقعين فيها كالكلام فى سابقها.

فأسلم الروايات فى الباب و أقربها إلى الانطباق على الآيات مضمونا روايه القرظى و ما فى معناها كروايه الحاكم فى المستدرك و روايه عبد الرزاق عن الحسن و روايه أبى

نعیم و ابن عساکر عن أنس الآتیه و قد تقدم توضیح ذلک.

و فی الدر المنثور،أخرج أبو نعیم فی فضائل الصحابه و ابن عساکر عن أنس قال:

قعد العباس و شیبه صاحب البیت یفتخران-فقال العباس:أنا أشرف منک أنا عم رسول الله ص،و وصی أبیه،و ساقی الحجیج،فقال شیبه:أنا أشرف منک أنا أمین الله علی بیته و خازنه-أ فلا ائتمنک کما ائتمننی؟.

فاطلع علیهما علی فأخبراه بما قالا-فقال علی:أنا أشرف منکما أنا أول من آمن و هاجر-فانطلق ثلاثتهم إلی النبی ص-فأخبروه فما أجابهم بشیء-فانصرفوا فنزل علیه الوحی بعد أیام-فأرسل إلیهم فقرأ علیهم:«- أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ »إلی آخر العشر.

و فی تفسیر القمی،عن أبیه عن صفوان عن ابن مسکان عن أبی بصیر عن أبی جعفر (ع):قال: نزلت فی علی و العباس و شیبه.قال العباس:أنا أفضل لأن سقایه الحاج بیدی،و قال شیبه:أنا أفضل لأن حجابه البیت بیدی،و قال علی:أنا أفضل فإنی آمنت قبلکما-ثم هاجرت و جاهدت فرضوا برسول الله ص فأنزل الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ -إلی قوله -إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ »:

أقول:و رواه العیاشی عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع)مثله،و فیه عثمان بن أبی شیبه مکان شیبه .

و فی الکافی،عن أبی علی الأشعری عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن یحیی عن ابن مسکان عن أبی بصیر عن أحدهما(ع): فی قول الله:« أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ-کَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ »نزلت فی حمزه و علی و جعفر و العباس و شیبه،إنهم فخروا بالسقایه و الحجابه-فأنزل الله عز ذکره:« أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ-کَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ »و کان علی و حمزه و جعفر هم الذین آمنوا بالله و الیوم الآخر-و جاهدوا فی سبیل الله.لا یستوون عند الله:

أقول:و رواه أیضا العیاشی فی تفسیره عن أبی بصیر عن أحدهما(ع)مثله .

و الروایه لا تلائم ما یثبته النقل القطعی فقد کان حمزه من المهاجرین الأولین لحق برسول(ص)ثم استشهد فی غزوه أحد فی السنه الثالثه من الهجره،و قد کان جعفر

هاجر إلى الحبشه قبل هجره النبی ص ثم رجع إلى المدينه أيام فتح خيبر و قد استشهد حمزه قبل ذلک بمده فلو کان من الخمسه اجتماع على التفاخر فقد کان قبل الهجره النبويه و حينئذ فما معنى ما وقع فی الروايه:«و کان على و حمزه و جعفر هم الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و جاهدوا فی سبيل الله»؟.

و إن کان المراد بالنزول فيهم انطباق الآيه عليهم على سبيل الجرى فقد کان العباس مثلهم فإنه آمن يوم أسر ببدر ثم حضر بعض غزوات النبی ص.

و فی تفسير البرهان،عن الجمع بين الصحاح السته للعبدی فی الجزء الثانی من صحيح النسائی بإسناده قال: افتخر طلحه بن شيبه من بنی عبد الدار-و العباس بن عبد المطلب و على بن أبی طالب-فقال طلحه:بيدی مفتاح البيت و لو أشاء بت فيه،و قال العباس:

أنا صاحب السقايه و القائم عليها-و لو أشاء بت فی المسجد،و قال على:ما أدری ما تقولان؟لقد صليت إلى القبله سته أشهر قبل الناس-و أنا صاحب الجهاد فأنزل الله:

« أَ جَعَلْتُمْ سِقٰايَهَ الْحٰاجِّ وَ عِمٰارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ »الآيه.

أقول:المراد بالصلاه سته أشهر قبل الناس التقدم فی الإيمان بالله على ما تعرضت له الآيه و إلا کان من الواجب أن تذکر فی الآيه،و قد ذکر ثالث القوم طلحه بن شيبه،و قد تقدم فی بعضها أنه شيبه،و فی بعضها أنه عثمان بن أبی شيبه.

و فی تفسير البرهان،عن ابن شهرآشوب عن أبی حمزه عن أبی جعفر(ع): فی قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَکُمْ وَ إِخْوٰانَکُمْ أَوْلِيٰاءَ-إِنِ اسْتَحَبُّوا الْکُفْرَ عَلَى الْإِيمٰانِ »قال:الإيمان ولايه على بن أبی طالب.

أقول: هو من باطن القرآن مبنی على تحليل معنى الإيمان إلى مراتب کماله.

و فی تفسير القمی،: لما أذن أمير المؤمنين- أن لا يدخل المسجد الحرام مشرک بعد ذلک-جزعت قريش جزعا شديدا،و قالوا:ذهبت تجارتنا و ضاعت عيالنا- و خربت دورنا فأنزل الله فی ذلک:« قُلْ -يا محمد- إِنْ کٰانَ آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ وَ إِخْوٰانُکُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ وَ عَشِيرَتُکُمْ -إلى قوله- وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ ».

أقول:و على هذا کان من الجرى أن يفسر قوله فی الآيه:« حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ »بتدارک ما ينزل بهم من الکساد و فتح باب الرزق عليهم من وجه آخر کما

وقع مثله فی قوله تعالی فی ضمن الآیات التالیه:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ فَلاٰ یَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَیْلَهً فَسَوْفَ یُغْنِیکُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شٰاءَ إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ:» التوبه:-٢٨.

بل اتحد حینئذ موردا الآیتین،و لسان الرفق و کرامه الخطاب بمثل قوله:

« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »یأبی أن یکون الخطاب بقوله:« إِنْ کٰانَ آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ » الآیه متوجها إلیهم بأعیانهم علی ما فی آخرها من الخشونه فی قوله:« وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ ».

علی أن الآیه تذکر حب الآباء و الإخوان و العشیره و الأموال التی اقترفوها، و لم یذکر شیء منها فی الروایه،و لا حسبت قریش ضیعه بالنسبه إلیها فما معنی ذکرها فی الآیه و التهدید علی اختیار حبها علی حب الله و رسوله؟و ما معنی ذکر الجهاد فی سبیله فی الآیه؟فافهم ذلک.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و البخاری عن عبد الله بن هشام قال: کنا مع رسول الله ص و هو آخذ بید عمر بن الخطاب- فقال:و الله لأنت یا رسول الله أحب إلی من کل شیء إلا من نفسی.فقال النبی ص:لا یؤمن أحدکم حتی أکون أحب إلیه من نفسه.

[سوره التوبه (٩): الآیات ٢۵ الی ٢٨]

اشاره

لَقَدْ نَصَرَکُمُ اَللّٰهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْکُمْ شَیْئاً وَ ضٰاقَتْ عَلَیْکُمُ اَلْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ (٢۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اَللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا وَ عَذَّبَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلْکٰافِرِینَ (٢۶) ثُمَّ یَتُوبُ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (٢٧) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا اَلْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ فَلاٰ یَقْرَبُوا اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَیْلَهً فَسَوْفَ یُغْنِیکُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شٰاءَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (٢٨)

(بيان)

تشير الآيات إلى قصه غزوه حنين و تمتن بما نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات التى نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم و قلتهم،و أظهر أعاجيب آياته بتأييد نبيه ص و إنزال جنود لم يروها و إنزال السكينه على رسوله و المؤمنين و تعذيب الكافرين بأيدى المؤمنين.

و فيها الآيه التى تحرم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجره،و هى العام الذى أذن فيه على(ع)ببراءه،و منع طواف البيت عريانا،و دخول المشركين فى المسجد الحرام.

قوله تعالى:« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِي مَوٰاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ -إلى قوله- ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ » المواطن جمع موطن و هو الموضع الذى يسكنه الإنسان و يتوطن فيه.

و حنين اسم واد بين مكه و الطائف وقع فيه غزوه حنين قاتل فيه النبى ص هوازن و ثقيف و كان يوما شديدا على المسلمين انهزموا أولا ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا.

و الإعجاب الإسرار و العجب سرور النفس بما يشاهده نادرا،و الرحب السعه فى المكان و ضده الضيق.

و قوله:« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِي مَوٰاطِنَ كَثِيرَةٍ »ذكر لنصرته تعالى لهم فى مواطن كثيره و مواضع متعدده يدل السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر و أحد و الخندق و خيبر و غيرها،و يدل السياق أيضا أن الجمله كالمقدمه الممهده لقوله:« وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ »الآيه فإن الآيات الثلاث مسوقه لتذكير قصه وقعه حنين، و عجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته و خصهم به من تأييده فيها.

و قد استظهر بعض المفسرين كون الآيه و ما يتلوها إلى تمام الآيات الثلاث تتمه لقول النبى ص فيما أمره ربه أن يواجه به المؤمنين فى قوله:« قُلْ إِنْ كٰانَ آبٰاؤُكُمْ »

الآیه و تکلف فی توجیه الفصل الذی فی قوله:« لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ ».

و لا دلیل من جهه اللفظ علی ذلک بل الدلیل علی خلافه فإن قصه حنین و ما یشتمل علیه من الامتنان بنصر الله و إنزال السکینه و إنزال الجنود و تعذیب الکافرین و التوبه علی من یشاء أمر مستقل فی نفسه ذو أهمیه فی ذاته و هو أهم هدفا من قوله تعالی:« قُلْ إِنْ کٰانَ آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ »الآیه أو هو مثله لا یقصر عنه فلا معنی لاتباعه إیاه و عطفه علیه فی المعنی.

و حینئذ لو کان مما یجب أن یخاطب به القوم لکان من الواجب أن یقال.و قل لهم لقد نصرکم الله فی مواطن کثیره الآیه،علی ما جری علیه القرآن فی نظائره کقوله تعالی:« قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحیٰ إِلَیَّ أَنَّمٰا إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ -Xإلی أن //قالX- قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ:» حم السجده:-۹ و غیره من الموارد.

علی أن سیاق الآیات و ما یجب أن تشتمل علیه من الالتفات و غیره-لو کانت الآیات مقوله للقول-لا تلائم کونها مقوله للقول السابق.

و الخطاب فی قوله:« لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّهُ »و ما یتلوه من قوله:« إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ »الآیه،للمسلمین و هم الذین یؤلفون مجتمعا إسلامیا واحدا حضروا بوحدتهم هذه الوحده أمثال وقائع بدر و أحد و الخندق و خیبرا و حنینا و غیرها.

و هؤلاء فیهم المنافقون و الضعفاء فی الإیمان و المؤمنون صدقا علی اختلافهم فی المنازل إلا أن الخطاب متوجه إلی الجمیع باعتبار اشتماله علی من یصح أن یخاطب بمثل قوله:« إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ »إلی آخر الآیه.

و قوله:« وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ »أی و یوما وقعت فیه القتال بینکم و بین أعدائکم بوادی حنین،و إضافه الیوم إلی أمکنه الوقائع العظیمه شائع فی العرف کما یقال:یوم بدر و یوم أحد و یوم الخندق نظیر إضافته إلی الجماعه المتلبسین بذلک کیوم الأحزاب و یوم تمیم،و إضافته إلی نفس الحادثه کیوم فتح مکه.

و قوله:« إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ »أی أسرتکم الکثره التی شاهدتموها فی أنفسکم فانقطعتم عن الاعتماد بالله و الثقه بأیده و قوته و استندتم إلی الکثره فرجوتم أن ستدفع عنکم کید العدو و تهزم جمعهم،و إنما هو سبب من الأسباب الظاهریه

لا أثر فيها إلا ما شاء الله الذى إليه تسبيب الأسباب.

و بالنظر إلى هذا المعنى أردف قوله:« إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ »بقوله:« فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً »أى اتخذتموها سببا مستقلا دون الله فأنساكم الاعتماد بالله،و ركنتم إليها فبان لكم ما فى وسع هذا السبب الموهوم و هو أن لا غنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئا لا نصرا و لا شيئا آخر.

و قوله:« وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ »أى مع ما رحبت،و هو كنايه عن إحاطه العدو بهم إحاطه لا يجدون مع ذلك مأمنا من الأرض يستقرون فيه و لا كهفا يأوون إليه فيقيهم من العدو،أى فررتم فرارا لا تلوون على شىء.

فهو قريب المعنى من قوله تعالى فى قصه الأحزاب:« إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا» الأحزاب:-١٠.

و قول بعضهم:أى ضاقت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعا تفرون إليه. غير سديد.

و قوله:« ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ »أى جعلتم العدو يلى أدباركم و هو كنايه عن الانهزام و هذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم و الانقطاع من ربهم،قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ -Xإلى أن قالX- فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» الأنفال:-١۶ و قال:« وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُلاً» الأحزاب:-١۵.

فهذا كله أعنى ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم،و وقوفهم هذا الموقف الذى يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم و اطمئنانهم إلى هذه الأسباب السرابيه التى لا تغنى عنهم شيئا.

و الله سبحانه بسعه رحمته و عظم منه امتن عليهم بنصره و إنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها،و تعذيب الكافرين و وعد مجمل بمغفرته وعدا ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفه الخوف من قلوبهم،و لا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفه الرجاء من نفوسهم بل وعدا يحفظ فيهم الاعتدال و التوسط بين صفتى الخوف

و الرجاء،و يربيهم تربيه حسنه تعدهم و تهيئهم للسعاده الواقعيه.

و قد أغرب بعض المفسرين فى تفسير الآيه مستظهرا بما جمع به بين الروايات على اختلافها فأصر على ما ملخصه أن المسلمين لم يفروا على جبن،و إنما انكشفوا عن موضعهم لما فاجأهم من شد كتائب ثقيف و هوازن عليهم شد رجل واحد فاضطربوا اضطرابه زلزلتهم و كشفتهم عن موضعهم دفعه واحده و هذا أمر طبيعى فى الإنسان إذا فاجأه الخطر و دهمته بليه دفعه و من غير مهل اضطربت نفسه و خلى عن موضعه.

و يشهد به نزول السكينه على رسول الله ص و عليهم جميعا فقد كان الاضطراب شمله و إياهم جميعا،غير أن النبى ص أصابه ما أصابه من الاضطراب و القلق حزنا و أسفا مما وقع،و المسلمون شملهم ذلك لما فوجئوا به من حمله الكتائب حمله رجل واحد.

و من الشواهد أنهم بمجرد ما سمعوا نداء الرسول ص و نداء العباس بن عبد المطلب رجعوا من فورهم و هزموا الكفار بالسكينه النازله عليهم من عند الله تعالى.

ثم ذكر ما نزل من الآيات فى صفه الصحابه كآيه بيعه الرضوان،و قوله تعالى:

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى الْكُفّٰارِ »الآيه،و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّهَ »الآيه،و ما ورد من طريق الروايه فى مدح صحابه النبى ص.انتهى.

و الذى أورده من الخلط بين البحث التفسيرى الذى لا هم له إلا الكشف عما يدل عليه الآيات الكريمه،و بين البحث الكلامى الذى يرام به إثبات ما يدعيه المتكلم فى شىء من المذاهب من أى طريق أمكن من عقل أو كتاب أو سنه أو إجماع أو المختلط منها و البحث التفسيرى لا يبيح لباحثه شيئا من ذلك،و لا تحميل أى نظر من الأنظار العلميه على الكتاب الذى أنزله الله تبيانا.

أما قوله:إنهم لم يفروا جبنا و لا خذلانا للنبى ص،و إنما كان انكشافا لأمر فاجأهم فاضطربوا و زلزلوا ففروا ثم كروا فهذا مما لا يندفع به صريح قوله تعالى:

« ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ »مع اندراج هذا الفعل منهم تحت كليه قوله تعالى فى آيه تحريم الفرار من الزحف:« فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبٰارَ وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ -إلى أن قال- فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ »الآيه.

و لم يقيد سبحانه النهى عن توليه الأدبار بأنه يجب أن يكون عن جبن أو لغرض الخذلان،و لا أستثنى من حكم التحريم كون الفرار عن اضطراب مفاجئ، و لا أورد فى استثنائه إلا ما ذكره بقوله:« إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ » و ليس هذان المستثنيان فى الحقيقه من الفرار من الزحف.

و لم يورد تعالى أيضا فيما حكى من عهدهم شيئا من الاستثناء إذ قال:« وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ وَ كٰانَ عَهْدُ اللّٰهِ مَسْؤُلاً:» الأحزاب:-١۵.

و أما استشهاده على ذلك بأن الاضطراب كان مشتركا بينهم و بين النبى ص، و استدلاله على ذلك بقوله تعالى:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » حيث إن نزول السكينه بعد انكشافهم بزمان-على ما تدل عليه كلمه ثم-يلازم نزول الاضطراب عند ذلك على النبى ص و إن كان عن حزن و أسف إذ لا يتصور فى حقه(ص)التزلزل فى ثباته و شجاعته.

فلننظر فيما اعتبره للنبى ص من الحزن و الأسف هل كان ذلك حزنا و أسفا على ما وقع من الأمر من انهزام المسلمين و ما ابتلاهم الله به من الفتنه و المحنه جزاء لما أعجبوا من كثره عددهم،و بالجمله حزنا مكروها عند الله؟فقد نزهه الله عن ذلك و أدبه بما نزل عليه من كتابه و علمه من علمه،و قد أنزل عليه مثل قوله عز من قائل:« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ:» آل عمران:-١٢٨،و قال:« سَنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسىٰ:» الأعلى:-۶.

و لم يرد فى شيء من روايات القصه أنه(ص)زال عن مكانه يومئذ أو اضطرب اضطرابا مما نزل على المسلمين من الوهن و الانهزام.

و إن كان ذلك حزنا و أسفا على المسلمين لما أصابهم من ناحيه خطئهم فى الاعتماد بغير الله و الركون إلى سراب الأسباب الظاهره،و الذهول عن الاعتصام بالله سبحانه حتى أوقعهم فى خطيئه الفرار من الزحف لما كان هو(ص)عليه من الرأفه و الرحمه بالمؤمنين فهذا أمر يحبه الله سبحانه و قد مدح رسوله ص به إذ قال:« بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ:» التوبه:-١٢٨.

و ليس يزول مثل هذا الأسف و الحزن بنزول السكينه عليه،و لا أن السكينه لو فرض نزولها لأجله مما حدث بعد وقوع الانهزام حتى يكون النبى ص خاليا عنها

قبل ذلک بل کان(ص)علی بینه من ربه منذ بعثه الله إلی أن قبضه إلیه،و کانت السکینه بهذا المعنی نازله علیه حینا بعد حین.

ثم السکینه التی نزلت علی المؤمنین ما هی؟و ما ذا یحسبها؟أ کانت هی الحاله النفسانیه التی تحصل من السکون و الطمأنینه کما فسرها بها و استشهد علیه بقول صاحب المصباح:أنها تطلق علی الرزانه و المهابه و الوقار حتی کانت ثبات الکفار و سکونهم فی مواقفهم الحربیه عن سکینه نازله إلیهم؟فإن کانت السکینه هی هذه فقد کانت فی أول الوقعه عند کفار هوازن و ثقیف خصماء المسلمین ثم ترکتهم و نزلت علی عامه جیش المسلمین من مؤمن ثبت مع رسول الله ص و من مؤمن لم یثبت و اختار الفرار علی القرار، و من منافق و من ضعیف الإیمان مریض القلب فإنهم جمیعا رجعوا ثانیا إلی النبی ص، و ثبتوا معه حتی هزموا العدو فهم جمیعا أصحاب السکینه أنزلها الله إلیهم فما باله تعالی یقصر إنزال السکینه علی رسوله و علی المؤمنین إذ یقول:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ ».

علی أنه إن کانت السکینه هی هذه،و هی مبتذله مبذوله لکل مؤمن و کافر فما معنی ما امتن الله به علی المؤمنین بما ظاهره أنها عطیه خاصه غیر مبتذله؟و لم یذکرها فی کلامه إلا فی موارد معدوده-بضعه موارد-لا تبلغ تمام العشره.

و بذلک یظهر أن السکینه أمر وراء السکون و الثبات لا أن لها معنی فی اللغه أو العرف وراء مفهوم الحاله النفسانیه الحاصله من السکون و الطمأنینه بل بمعنی أن الذی یریده تعالی من السکینه فی کلامه له مصداق غیر المصداق الذی نجده عند کل شجاع باسل له نفس ساکنه و جاش مربوط،و إنما هی نوع خاص من الطمأنینه النفسانیه له نعت خاص و صفه مخصوصه.

کیف؟و کلما ذکرها الله سبحانه فی کلامه امتنانا بها علی رسوله و علی المؤمنین خصها بالإنزال من عنده فهی حاله إلهیه لا ینسی العبد معها مقام ربه لا کما علیه عامه الشجعان أولوا الشده و البساله المعجبون ببسالتهم المعتمدون علی أنفسهم.

و قد احتفت فی کلامه بأوصاف و آثار لا تعم کل وقار و طمأنینه نفسانیه کما قال فی حق رسوله:« إِذْ یَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ إِنَّ اللّٰهَ مَعَنٰا فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ

وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا:» التوبه:-۴۰ و قال تعالی فی المؤمنین« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَهَ عَلَيْهِمْ:» الفتح:-۱۸ فذکر أنه إنما أنزل السکینه علیهم لما علمه من قلوبهم فنزولها یحتاج إلی حاله قلبیه طاهره سابقه یدل السیاق علی أنها الصدق و نزاهه القلب عن إبطان نیه الخلاف.

و قال أیضا:« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَهَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ:» الفتح:-۴ فذکر أن من أثرها زیاده الإیمان مع الإیمان و قال أیضا:« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّهَ حَمِيَّهَ الْجَاهِلِيَّهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَهَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا :الفتح:-۲۶.

و الآیه-کما تری-تذکر أن نزول السکینه من عنده تعالی مسبوق باستعداد سابق و أهلیه و أحقیه قبلیه و هو الذی أشیر إلیه فی الآیه السابقه بقوله:« فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَهَ ».و تذکر أن من آثارها لزوم کلمه التقوی،و طهاره ساحه الإنسان عن مخالفه الله و رسوله باقتراف المحارم و ورود المعاصی.

و هذا کالمفسر یفسر قوله فی الآیه الأخری:« لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ »فازدیاد الإیمان مع الإیمان بنزول السکینه هو أن یکون الإنسان علی وقایه إلهیه من اقتراف المعاصی و هتک المحارم مع إیمان صادق بأصل الدعوه الحقه.

و هذا نعم الشاهد یشهد أولا:أن المراد بالمؤمنین فی قوله فی الآیه المبحوث عنها« ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »غیر المنافقین و غیر مرضی القلوب و ضعفاء الإیمان،و لا یبقی إلا من ثبت من المؤمنین مع النبی ص،و هم ثلاثه أو أربعه أو تسعه أو عشره أو ثمانون أو دون المائه علی اختلاف الروایات فی إحصائهم،و من فر و انکشف عن النبی ص أولا ثم رجع و قاتل ثانیا و فیهم جل أصحاب النبی ص و عده من خواصهم.

فهل المراد بالمؤمنین الذین نزلت علیهم،جمیع من ثبت مع النبی ص و من فر أولا ثم رجع ثانیا،أو أنهم هم الذین ثبتوا معه من المؤمنین حتی نزل النصر؟.

الذی یستفاد من آیات السکینه أن نزولها متوقف علی طهاره قلبیه و صفاء نفسی سابق حتی یقرها الله تعالی بالسکینه،و هؤلاء کانوا مقترفین لکبیره الفرار من الزحف

آثمين قلوبا،و لا محل لنزول السكينه على من هذا شأنه فإن كانوا ممن نزلت عليهم السكينه كان من الواجب أن يندموا على ما فعلوا،و يتوبوا إلى ربهم توبه نصوحا بقلوب صادقه حتى يعلم الله ما فى قلوبهم فينزل السكينه عليهم فيكونون أذنبوا أولا ثم تابوا و رجعوا ثانيا،فأنزل الله سكينته عليهم و نصرهم على عدوهم،و لعل هذا هو الذى يشير إليه التراخى المفهوم من قوله تعالى« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »حيث عبر بثم».

لكن يبقى عليه أولا:أنه كان من اللازم على هذا أن يتعرض فى الكلام لتوبتهم فيختص حينئذ قوله:« ثُمَّ يَتُوبُ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »على الكفار الذين أسلموا بعد منهم،و لا أثر من ذلك فى الكلام و لا قرينه تخص قوله:« ثُمَّ يَتُوبُ اللّٰهُ »إلخ بالكافرين الذين أسلموا بعد،فافهم ذلك.

و ثانيا:أن فى ذلك غمضا عن جميل المسعى و المحنه الحسنه التى امتحن بها أولئك النفر القليل الذين ثبتوا مع النبى ص حين تركه جموع المسلمين بين الأعداء و انهزموا فارين لا يلوون على شىء،و من المستبعد من دأب القرآن أن يهمل أمر من تحمل محنه فى ذات الله،و ألقى نفسه فى أشق المهالك ابتغاء مرضاته-و هو شاكر عليم-فلا يحمده و لا يشكر سعيه.

و المعهود من دأب القرآن أنه إذا عم قوما بعتاب أو توبيخ و ذم،و فيهم من هو برىء من استحقاق اللوم أو العتاب أو طاهر من دنس الإثم و الخطيئه أن يستثنيه منهم و يخصه بجميل الذكر،و يحمده على عمله و إحسانه كما نراه كثيرا فى الخطابات التى تعمم اليهود أو النصارى عتابا أو ذما و توبيخا فإنه تعالى يخاطبهم بما يخاطب و يوبخهم و ينسب إليهم الكفر بآياته و التخلف عن أوامره و نواهيه،ثم يمدح منهم الأقلين الذين آمنوا به و بآياته و أطاعوه فيما أراد منهم.

و أوضح من ذلك ما يتعرض من الآيات لوقعه أحد،و تمتن على المؤمنين بما أنزل الله عليهم من النصره و الكرامه،و يعاتبهم على ما أظهروه من الوهن و الفشل ثم يستثنى الثابتين منهم على أقدام الصدق،و يعدهم وعدا حسنا إذ قال مره بعد مره:

« وَ سَيَجْزِي اللّٰهُ الشّٰاكِرِينَ:» آل عمران:-۱۴۴،« وَ سَنَجْزِي الشّٰاكِرِينَ:» آل عمران:-۱۴۵.

و نجد مثله فى ما يذكره الله سبحانه من أمر وقعه الأحزاب فإن فى كلامه عتابا

شديدا لجمع من المؤمنين،و توبيخا و ذما للمنافقين و الذين فى قلوبهم مرض حتى قال فيما قال:« وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُلاً» :الأحزاب:-١٥،ثم إنه تعالى ختم القصه بمثل قوله:« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً:» الأحزاب:-٢٣.

فما باله تعالى لم يتعرض لحالهم فى قصه حنين،و ليست بأهون من غيرها،و لا خصهم بشىء من الشكر،و لا حمدهم بما يمتنون به من لطيف حمده تعالى كغيرهم فى غيرها.

فهذا الذى ذكرناه مما يقرب إلى الاعتبار أن يكون المراد بالمؤمنين الذين ذكر نزول السكينه عليهم هم الذين ثبتوا مع النبى ص،و أما سائر المؤمنين ممن رجع بعد الانكشاف فهم تحت شمول قوله:« ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »يشمل من شملته العنايه منهم كما يشمل من شملته العنايه و التوفيق من كفار هوازن و ثقيف و من الطلقاء و الذين فى قلوبهم مرض.هذا ما يهدى إليه البحث التفسيرى،و أما الروايات فلها شأنها و سيأتى طرف منها.

و أما ما ذكره من شهاده رجوعهم من فورهم حين سمعوا نداء النبى ص و نداء العباس فذلك مما لا يبطل ما قدمناه من ظهور قوله تعالى:« ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ » إذا انضم إلى قوله:« إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ »الآيه فى أن ما ظهر منهم فى الوقعه من الفعل كان فرارا من الزحف فعلوه عن جبن أو تعمد فى خذلان أو عن قلق و اضطراب و تزلزل.

و أما ما ذكره من الآيات التى تمدحهم و تذكر رضى الرب عنهم و استحقاقهم جزيل الأجر من ربهم.ففيه أن هذه المحامد مقيده فيها بقيود لا يتحتم معها لهم الأمر فإن الآيات إنما تحمد من تحمده منهم لما به من نعوت العبوديه كالإيمان و الإخلاص و الصدق و النصيحه و المجاهده الدينيه فالحمد باق ما بقيت الصفات،و الوعد الحسن على اعتباره ما لبث فيهم النعوت و الأحوال الموجبه له فإذا زالت لحادثه أو خطيئه زال بتبعه.

و ليس ما عندهم من مبادئ الخير و البركات بأعظم و لا أهم مما عند الأنبياء من صفه العصمه يستحيل معها صدور الذنب منهم،و قد قال الله تعالى بعد ثناء طويل عليهم:« وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ:» الأنعام:-٨٨.

و قد قال تعالى قبال ما ظنوا أنهم مصونون عن ما يكرهونه من أقسام المجازاه كرامه لإسلامهم كما ظن نظيره أهل الكتاب:« لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ:» النساء:-١٢٣.

و الذى ورد فى بيعه الرضوان من قوله:« لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ »فإنما رضاه تعالى من صفاته الفعليه التى هى عين أفعاله الخارجيه منتزعه منها فهو عين ما أفاض عليهم من الحالات الطاهره النفسيه التى تستعقب بطباعها جزيل الجزاء و خير الثواب إن بقيت أعمالهم على ما هى عليها و إن تغيرت تغير الرضى سخطا و النعمه نقمه و لم يأخذ أحد عليه تعالى عهدا أن لا يخلف عهده فيحمله على السعاده و الكرامه أحسن أو أساء،أطاع أو عصى،آمن أو كفر.

و ليس رضى الرب من صفاته الذاتيه التى يتصف بها فى ذاته فلا يعرضه تغير أو تبدل و لا يطرأ عليه زوال أو دثور.

قوله تعالى:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »إلى آخر الآيه السكينه -كما تقدم-حاله قلبيه توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمه لازدياد الإيمان مع الإيمان و لكلمه التقوى التى تهدى إلى الورع عن محارم الله على ما تفسرها الآيات.

و هى غير العداله التى هى ملكه نفسانيه تردع عن ركوب الكبائر و الإصرار على الصغائر فإن السكينه تردع عن الصغائر و الكبائر جميعا.

و قد نسب الله السكينه فى كتابه إلى نفسه نسبه تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح إلى نفسه دون العداله و وصفها بالإنزال فلها اختصاص عندى به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدها من جنوده كقوله تعالى:« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّماوٰاتِ وَ الْأَرْضِ:» الفتح:-۴.

و فى غير واحد من الآيات المشتمله على ذكر السكينه ذكر الجنود كقوله:« فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهٰا:» التوبه:-۴٠، و كما فى الآيه المبحوث عنها:

« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا ».

و الذى يفهم من السياق أن هذه الجنود هى الملائكه النازله إلى المعركه،أو أن يقال من جملتها الملائكه النازله و الذى ينتسب إلى السكينه و الملائكه أن يعذب بهم

الکفار و یسدد و یسعد بهم المؤمنون کما اشتملت علیه آیات آل عمران القاصه قصه أحد، و آیات فی أول سوره الفتح فراجعها حتی یتبین لک حقیقه الحال إن شاء الله تعالی.

و قد تقدم فی قوله تعالی:« فِیهِ سَکِینَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ:» البقره:-۲۴۸ فی الجزء الثانی من الکتاب بعض ما یتعلق بالسکینه الإلهیه من الکلام مما لا یخلو من نفع فی هذا المقام.

قوله تعالی:« ثُمَّ یَتُوبُ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ »قد تقدم مرارا أن التوبه من الله سبحانه هی الرجوع إلی عبده بالعنایه و التوفیق أولا ثم بالعفو و المغفره ثانیا،و من العبد الرجوع إلی ربه بالندامه و الاستغفار،و لا یتوب الله علی من لا یتوب إلیه.

و الإشاره فی قوله:« مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ »علی ما یعطیه السیاق إلی ما ذکره فی الآیتین السابقتین من خطیئتهم بالرکون إلی غیر الله سبحانه و معصیتهم بالفرار و التولی ثم إنزال السکینه و إنزال الجنود و تعذیب الذین کفروا.

و الملائم لذلک أن یکون الموصول فی« مَنْ یَشٰاءُ »شاملا للمسلمین و الکافرین جمیعا فقد ذکر من الفریقین جمیعا ما یصلح لأن یتوب الله علیهم فیه إن تابوا و هو من الکفار کفرهم و من المسلمین خطیئتهم و معصیتهم،و لا وجه لتخصیص التوبه علی بعضهم مع ما فی آیات التوبه من عموم الحکم و سعته و لم یقید فی هذه الآیه المبحوث عنها بما یوجب اختصاصها بأحد الفریقین:المسلمین أو الکافرین مع وجود المقتضی فیهما جمیعا.

و مما ذکرنا یظهر فساد ما فسر به بعضهم الآیه مع قصر الإشاره علی التعذیب إذ قال:إن معناها ثم یتوب الله تعالی بعد هذا التعذیب الذی یکون فی الدنیا علی من یشاء من الکافرین فیهدیهم إلی الإسلام و هم الذین لم یحط بهم خطیئات جهاله الشرک و خرافاته من جمیع جوانب أنفسهم،و لم یختم علی نفوسهم بالإصرار علی الجحود و التکذیب أو الجمود علی ما ألفوا بمحض التقلید.انتهی.

و قد عرفت أن تخصیص الآیه بما ذکر و التصرف فی سائر قیوده کقصر الإشاره علی التعذیب و غیر ذلک مما لا دلیل علیه البته.

و الوجه فی التعبیر بالاستقبال فی قوله:« ثُمَّ یَتُوبُ اللّٰهُ »الإشاره إلی انفتاح باب التوبه دائما،و جریان العنایه و فیضان العفو و المغفره الإلهیه مستمرا بخلاف ما

يشير إليه قوله:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ »الآيه،فإن ذلک أمور محدوده غير جاريه.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا »قال فی المجمع،:کل مستقذر نجس يقال:رجل نجس و امرأه نجس و قوم نجس لأنه مصدر،و إذا استعملت هذه اللفظه مع الرجس قيل:رجس نجس -بكسر النون-قال:و العيله الفقر يقال عال يعيل إذا افتقر.انتهى.

و النهى عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفى يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام،و فی تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجسا اعتبار نوع من القذاره لهم كاعتبار نوع من الطهاره و النزاهه للمسجد الحرام، و هى كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبه و غير ذلک.

و المراد بقوله:« عٰامِهِمْ هٰذٰا »سنه تسع من الهجره،و هى السنه التى أذن فيها على(ع)بالبراءه،و منع طواف البيت عريانا،و حج المشركين البيت.

و قوله:« وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً »الآيه،أى و إن خفتم فی إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج،و يتعطل أسواقكم،و تذهب تجارتكم فتفتقروا و تعيلوا فلا تخافوا فسوف يغنيكم الله من فضله،و يؤمنكم من الفقر الذى تخافونه.

و هذا وعد حسن منه تعالى فيه تطييب نفوس أهل مكه و من كان له تجاره هناک بالموسم،و كان حاضر العالم الإسلامى يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الإسلام تعلو كلمته،و ينتشر صيته حالا بعد حال،و كانت عامه المشركين فی عتبه الاستئصال بعد إيذان براءه لم يبق لهم إلا أربعه أشهر إلا شرذمه قليله من العرب كان النبى ص عاهدهم عند المسجد الحرام إلى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا فی معرض قبول الإسلام.

(بحث روائى)

اشاره

فی الكافى،عن على بن إبراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال: لما سم المتوكل نذر إن عوفى أن يتصدق بمال كثير-فلما عوفى سأل الفقهاء عن حد المال الكثير-فاختلفوا عليه فقال بعضهم:مائه ألف،و قال بعضهم:عشره آلاف-فقالوا فيه أقاويل مختلفه فاشتبه عليه الأمر-.

فقال رجل من ندمائه يقال له صفوان:أ لا تبعث إلى هذا الأسود فتسأله عنه؟.

فقال له المتوكل:من تعنى ويحك؟فقال:ابن الرضا.فقال له:و هو يحسن من هذا شيئا؟فقال:إن أخرجك من هذا فلى عليك كذا و كذا-و إلا فاضربنى مائه مقرعه فقال المتوكل:رضيت،يا جعفر بن محمود اذهب إلى أبى الحسن على بن محمد-فاسأله عن حد المال الكثير،فسأله فقال له:الكثير ثمانون-.

فقال له جعفر بن محمود:يا سيدى إنه يسألنى عن العله فيه-فقال له أبو الحسن(ع):إن الله عز و جل يقول:« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِي مَوٰاطِنَ كَثِيرَةٍ »فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين:

أقول:و رواه القمى أيضا فى تفسيره

و بعض أصحابه الذى ذكر فى الروايه أنه سماه هو محمد بن عمرو على ما ذكره فى التفسير.و معنى الروايه أن الثمانين من مصاديق الكثير بدلاله من الكتاب لا أن الكثير معناه الثمانون و هو ظاهر.

و فى المجمع،ذكر أهل التفسير و أصحاب السير": أن رسول الله ص لما فتح مكه خرج منها-متوجها إلى حنين لقتال هوازن و ثقيف-فى آخر شهر رمضان أو فى شوال فى سنه ثمان من الهجره،و قد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصرى، و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و نزلوا بأوطاس-.

قال:و كان دريد بن الصمه فى القوم،و كان رئيس جشم،و كان شيخا كبيرا- قد ذهب بصره من الكبر فقال:بأى واد أنتم؟قالوا:بأوطاس.قال:نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس،و لا سهل دهس،ما لى أسمع رغاء البعير و نهيق الحمير و خوار البقر- و ثغاء الشاه و بكاء الصبيان؟فقالوا:إن مالك بن عوف-ساق مع الناس أبناءهم و أموالهم و نساءهم-ليقاتل كل منهم عن أهله و ماله فقال دريد:راعى ضأن و رب الكعبه-.

ثم قال:ائتونى بمالك فلما جاءه قال:يا مالك-إنك أصبحت رئيس قومك،و هذا يوم له ما بعده،رد قومك إلى عليا بلادهم،و ألق الرجال على متون الخيل-فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه و فرسه-فإن كانت لك لحق بك من وراءك،و إن كانت عليك لا تكون قد فضحت فى أهلك و عيالك؛فقال له مالك:إنك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك-.

و عقد رسول الله ص لواءه الأكبر-و دفعه إلى على بن أبى طالب(ع)،و كل من دخل مكه برايه أمره أن يحملها،و خرج بعد أن أقام بمكه خمسه عشر يوما-و بعث إلى صفوان بن أميه فاستعار منه مائه درع-فقال صفوان:عاريه أم غصب؟فقال(ص):

عاريه مضمونه مؤداه،فأعاره صفوان مائه درع و خرج معه،و خرج من مسلمه الفتح ألفا رجل،و كان(ص)دخل مكه فى عشره آلاف رجل-و خرج منها فى اثنى عشر ألفا-.

و بعث رسول الله ص رجلا من أصحابه-فانتهى إلى مالك بن عوف و هو يقول لقومه:ليصير كل رجل منكم أهله و ماله خلف ظهره،و اكسروا جفون سيوفكم، و أكمنوا فى شعاب هذا الوادى و فى السحر-فإذا كان فى غبش الصبح-فاحملوا حمله رجل واحد فهدوا القوم-فإن محمدا لم يلق أحدا يحسن الحرب-.

و لما صلى رسول الله ص بأصحابه الغداه-انحدر فى وادى حنين-فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحيه،و انهزمت بنو سليم و كانوا على المقدمه و انهزم ما وراءهم، و خلى الله تعالى بينهم و بين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم-و بقى على(ع)و معه الرايه يقاتلهم فى نفر قليل-و مر المنهزمون برسول الله ص لا يلوون على شىء.

و كان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغله رسول الله ص-و الفضل عن يمينه، و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره،و نوفل بن الحارث و ربيعه بن الحارث فى تسعه من بنى هاشم،و عاشرهم أيمن بن أم أيمن،و فى ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعه

و قد فر من قد فر عنه فأقشعوا

و قولى إذا ما الفضل كر بسيفه

على القوم أخرى يا بنى ليرجعوا

و عاشرنا لاقى الحمام بنفسه

لما ناله فى الله لا يتوجع

و لما رأى رسول الله ص هزيمه القوم عنه-قال للعباس-و كان جهوريا صيتا-اصعد هذا الظرب-فناد:يا معشر المهاجرين و الأنصار-يا أصحاب سوره البقره- يا أهل بيعه الشجره إلى أين تفرون؟هذا رسول الله-.

فلما سمع المسلمون صوت العباس-تراجعوا و قالوا:لبيك لبيك،و تبادر الأنصار خاصه و قاتلوا المشركين-حتى قال رسول الله ص:الآن حمى الوطيس.

أنا النبى لا كذب (۱)أنا ابن عبد المطلب،و نزل النصر من عند الله،و انهزمت هوازن هزيمه قبيحه ففروا فى كل وجه،و لم يزل المسلمون فى آثارهم.

١- ١) غير كذب خ.

و فر مالک بن عوف فدخل حصن الطائف،و قتل منهم زهاء مائه رجل، و أغنم الله المسلمین أموالهم و نساءهم،و أمر رسول الله بالذراری و الأموال أن تحدر إلی الجعرانه،و ولی علی الغنائم بدیل بن ورقاء الخزاعی-.

و مضی(ص)فی أثر القوم-فوافی الطائف فی طلب مالک بن عوف-فحاصر أهل الطائف بقیه الشهر-فلما دخل ذو القعده انصرف و أتی الجعرانه،و قسم بها غنائم حنین و أوطاس-.

قال سعید بن المسیب:حدثنی رجل کان فی المشرکین یوم حنین قال:لما التقینا نحن و أصحاب رسول الله ص لم یقفوا لنا حلب شاه-فلما کشفناهم جعلنا نسوقهم-حتی إذ انتهینا إلی صاحب البغله الشهباء یعنی رسول الله ص-فتلقانا رجال بیض الوجوه فقالوا لنا:شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا-فرکبوا أکتافنا فکانوا إیاها یعنی الملائکه-.

قال الزهری:و بلغنی أن شیبه بن عثمان-قال:استدبرت رسول الله ص- و أنا أرید أن أقتله بطلحه بن عثمان و عثمان بن طلحه-و کانا قد قتلا یوم أحد فأطلع الله رسوله علی ما فی نفسی-فالتفت إلی و ضرب فی صدری،و قال:أعیذک بالله یا شیبه فأرعدت فرائصی-فنظرت إلیه و هو أحب إلی من سمعی و بصری-فقلت:أشهد أنک رسول الله،و أن الله أطلعک علی ما فی نفسی-.

و قسم رسول الله ص الغنائم بالجعرانه-و کان معه من سبی هوازن سته آلاف من الذراری و النساء،و من الإبل و الشاه ما لا یدری عدته.

قال أبو سعید الخدری: قسم رسول الله ص للمتألفین من قریش-و من سائر العرب ما قسم،و لم یکن فی الأنصار منها شیء قلیل و لا کثیر-فمشی سعد بن عباده إلی رسول الله ص-فقال:یا رسول الله إن هذا الحی من الأنصار-وجدوا علیک فی قسمک هذه الغنائم فی قومک-و فی سائر العرب و لم یکن فیهم من ذلک شیء-فقال (ص):فأین أنت من ذلک یا سعد؟فقال:ما أنا إلا امرؤ من قومی-فقال رسول الله ص:فاجمع لی قومک فی هذه الحظیره-فجمعهم فخرج رسول الله ص فقام فیهم خطیبا-فحمد الله و أثنی علیه ثم قال:

یا معشر الأنصار أ و لم آتکم ضلالا فهداکم الله،و عاله فأغناکم الله و أعداء فألف

بين قلوبكم؟قالوا:بلى يا رسول الله-.

ثم قال:أ لا تجيبونى يا معشر الأنصار؟فقالوا:و ما نقول؟و بما ذا نجيبك؟ المن لله و لرسوله.فقال رسول الله ص:أما و الله لو شئتم لقلتم فصدقتم: جئتنا طريدا فآويناك،و عائلا فآسيناك،و خائفا فآمناك،و مخذولا فنصرناك.فقالوا:

المن لله و لرسوله-.

فقال رسول الله ص:وجدتم فى أنفسكم-يا معشر الأنصار فى لعاعه من الدنيا-تألفت بها قوما ليسلموا-و وكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام.أ فلا ترضون يا معشر الأنصار- أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاه و البعير،و تذهبون برسول الله إلى رحالكم؟فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا-و سلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار-و لو لا الهجره لكنت امرأ من الأنصار-اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار-فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم،و قالوا:رضينا بالله و رسوله قسما ثم تفرقوا-.

و قال أنس بن مالك:و كان رسول الله ص أمر مناديا فنادى يوم أوطاس:

ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن،و لا غير الحبالى حتى يستبرأن بحيضه-.

ثم أقبلت وفود هوازن-و قدمت على رسول الله ص بالجعرانه مسلمين-فقام خطيبهم و قال:يا رسول الله-إنما فى الحظائر من السبايا خالاتك و حواضنك اللاتى- كن يكفلنك فلو أنا ملحنا ابن أبى شمر أو النعمان بن المنذر-ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك-رجونا عائدتهما و عطفهما و أنت خير المكفولين-ثم أنشد أبياتا-.

فقال(ص):أى الأمرين أحب إليكم:السبى أو الأموال؟قالوا:يا رسول الله خيرتنا بين الحسب و بين الأموال،و الحسب أحب إلينا و لا نتكلم فى شاه و لا بعير- فقال رسول الله ص:أما الذى لبنى هاشم فهو لكم- و سأكلم لكم المسلمين و أشفع لكم فكلموهم و أظهروا إسلامكم-.

فلما صلى رسول الله ص الهاجره قاموا فتكلموا-فقال النبى ص:قد رددت الذى لبنى هاشم-و الذى بيدى عليهم فمن أحب منكم أن يعطى غير مكره فليفعل-و من كره أن يعطى فليأخذ الفداء و على فداؤهم-فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم-إلا قليلا من الناس سألوا الفداء-.

و أرسل رسول الله ص إلى مالك بن عوف و قال:إن جئتنى مسلما رددت إليك أهلك و مالك-و لك عندى مائه ناقه فخرج إليه من الطائف-فرد عليه أهله و ماله و أعطاه مائه من الإبل-و استعمله على من أسلم من قومه).

أقول:و روى القمى فى تفسيره مثله

و لم يرو ما نسب من الرجز إليه(ص)و كذا ما أسنده إلى راو معين كالمسيب و الزهرى و أنس و أبى سعيد،و روى هذه المعانى بطرق كثيره من طرق أهل السنه.

و فى روايه على بن إبراهيم القمى زياده يسيره هى ما يأتى:

قال على بن إبراهيم": فلما رأى رسول الله ص الهزيمه-ركض يحوم على بغلته قد شهر سيفه (۱)فقال:يا عباس اصعد هذا الظرب-و ناد:يا أصحاب[سوره]البقره يا أصحاب الشجره-إلى أين تفرون؟هذا رسول الله-.

ثم رفع رسول الله ص يده و قال:اللهم لك الحمد و لك الشكر و إليك المشتكى- و أنت المستعان فنزل إليه جبرئيل-فقال:يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران- حين فلق الله له البحر و نجاه من فرعون-.

ثم قال رسول الله ص لأبى سفيان بن الحارث:ناولنى كفا من حصى فناوله فرماه فى وجوه المشركين- ثم قال:شاهت الوجوه.ثم رفع رأسه إلى السماء و قال:

اللهم إن تهلك هذه العصابه لم تعبد-و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد-.

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا-و كسروا جفون سيوفهم و هم ينادون:

لبيك و مروا برسول الله ص-و استحيوا أن يرجعوا إليه و لحقوا بالرايه-فقال رسول الله ص للعباس:من هؤلاء يا أبا الفضل؟فقال:يا رسول الله-هؤلاء الأنصار فقال رسول الله ص:الآن حمى الوطيس فنزل النصر من السماء و انهزمت هوازن.

و فى الدر المنثور،أخرج أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله بن عمير الليثى قال":

كان مع النبى ص أربعه آلاف من الأنصار-و ألف من جهينه،و ألف من مزينه-و ألف من أسلم و ألف من غفار و ألف من أشجع-و ألف من المهاجرين و غيرهم فكان معه عشره

۱- ۱) و فى نسخه البحار:ركض نحو على بغلته فرآه قد شهر سيفه.

آلاف-و خرج باثنی عشر ألفا و فیها قال الله تعالی فی کتابه:« وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً »

و فی سیره ابن هشام،عن ابن إسحاق قال": فلما انهزم الناس،و رأی من کان مع رسول الله ص من جفاه أهل مکه الهزیمه-تکلم رجال منهم بما فی أنفسهم من الضغن:

فقال أبو سفیان بن حرب:لا تنتهی هزیمتهم دون البحر.و إن الأزلام لمعه فی کنانته و صرخ جبله بن الحنبل-قال ابن هشام:کلده بن الحنبل-و هو مع أخیه صفوان بن أمیه مشرک فی المده-التی جعل له رسول الله ص-:أ لا بطل السحر الیوم،فقال له صفوان اسکت فض الله فاک-فوالله لأن یربنی رجل من قریش-أحب إلی من أن یربنی رجل من هوازن-.

قال ابن إسحاق:و قال شیبه بن عثمان بن أبی طلحه أخو بنی عبد الدار: قلت:

الیوم أدرک ثاری-و کان أبوه قتل یوم أحد-الیوم أقتل محمدا قال:فأدرت برسول الله ص لأقتله فأقبل شیء حتی تغشی فؤادی-فلم أطق ذاک فعلمت أنه ممنوع منی.

(فهرس أسماء شهداء حنین)

فی سیره ابن هشام،قال ابن إسحاق": و هذه تسمیه من استشهد یوم حنین من المسلمین:

من قریش ثم من بنی هاشم أیمن بن عبید-و من بنی أسد بن عبد العزی-یزید بن زمعه بن الأسود بن المطلب بن أسد-جمح به فرس یقال له الجناح فقتل-.

و من الأنصار سراقه بن الحارث بن عدی من بنی العجلان-و من الأشعریین أبو عامر الأشعری.

أقول:و أما الثباه مع رسول الله ص فقد عدوا فی بعض الروایات ثلاثه و فی بعضها أربعه و فی بعضها تسعه عاشرهم أیمن بن عبید-و هو ابن أم أیمن-و فی بعضها ثمانین و فی بعضها:دون المائه.

و المتعمد من بینها ما روی عن العباس أنهم کانوا تسعه عاشرهم أیمن و له فی ذلک شعر تقدم نقله و ذلک أنه کان ممن ثبت مع النبی ص طول الوقعه و شاهد ما کان من الأمر و هو الذی کان ینادی المنهزمین و یستلحقهم بأمر النبی ص و قد باهی بما قاله من الشعر.

و من الممکن أن یثبت جمع بعد انهزام الناس هنیئه ثم یلحقوا بالمنهزمین أو یرجع جمع قبل رجوع غیرهم فیلحقوا بالرایه فیعدوا ممن ثبت و قاتل فالحرب العوان لا یجری علی ما یجری علیه السلم من النظم.

و من هنا یعلم ما فی قول بعضهم:إن الأرجح روایه الثمانین کما عن عبد الله بن مسعود و إلیها یرجع ما رواه ابن عمر أنهم کانوا دون المائه فإن الحجه لمن حفظ علی من لم یحفظ،انتهی ملخصا.

و ذلک أن کون الحجه لمن حفظ علی من لم یحفظ حق لکن الحفظ فی حال الحرب علی ما فیه من التحول السریع فی الأوضاع الحاضره غیر الحفظ فی غیره فلا یعتمد إلا علی ما شهدت القرائن لصحته و أید الاعتبار وثاقه حفظه و قد کان العباس مأمورا بما من شأنه حفظ هذا الشأن و ما یرتبط به.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۲۹ الی ۳۵]

اشاره

قٰاتِلُوا اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لاٰ یُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ یَدِینُونَ دِینَ اَلْحَقِّ مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ حَتّٰی یُعْطُوا اَلْجِزْیَهَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ (۲۹) وَ قٰالَتِ اَلْیَهُودُ عُزَیْرٌ اِبْنُ اَللّٰهِ وَ قٰالَتِ اَلنَّصٰاری اَلْمَسِیحُ اِبْنُ اَللّٰهِ ذٰلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ یُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قٰاتَلَهُمُ اَللّٰهُ أَنّٰی یُؤْفَکُونَ (۳۰) اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ اَلْمَسِیحَ اِبْنَ مَرْیَمَ وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ سُبْحٰانَهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۳۱) یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اَللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ یَأْبَی اَللّٰهُ إِلاّٰ أَنْ یُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْکٰافِرُونَ (۳۲) هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ اَلْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی اَلدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْمُشْرِکُونَ (۳۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلْأَحْبٰارِ وَ اَلرُّهْبٰانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوٰالَ اَلنّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ یَکْنِزُونَ اَلذَّهَبَ وَ اَلْفِضَّهَ وَ لاٰ یُنْفِقُونَهٰا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۳۴) یَوْمَ یُحْمیٰ عَلَیْهٰا فِی نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُکْویٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هٰذٰا مٰا کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ فَذُوقُوا مٰا کُنْتُمْ تَکْنِزُونَ (۳۵)

ص: ۲۳۶

(بیان)

الآیات تأمر بقتال أهل الکتاب ممن یمکن تبقیته بالجزیه و تذکر أمورا من وجوه انحرافهم عن الحق فی الاعتقاد و العمل.

قوله تعالی:« قَاتِلُوا الَّذِینَ لاـ یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ لاـ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لاَ یُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاَ یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ »أهل الکتاب هم الیهود و النصاری علی ما یستفاد من آیات کثیره من القرآن الکریم و کذا المجوس علی ما یشعر أو یدل علیه قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هَادُوا وَ الصَّابِئِینَ وَ النَّصَاریٰ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا إِنَّ اللّهَ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیَامَهِ إِنَّ اللّهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ» :الحج:-١٧ حیث عدوا فی الآیه مع سائر أرباب النحل السماویه فی قبال الذین أشرکوا، و الصابئون کما تقدم طائفه من المجوس صبوا إلی دین الیهود فاتخذوا طریقا بین الطریقین.

و السیاق یدل علی أن لفظه« مِنَ »فی قوله:« مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ »بیانیه لا تبعیضیه فإن کلا من الیهود و النصاری و المجوس أمه واحده کالمسلمین فی إسلامهم و إن تشعبوا شعبا مختلفه و تفرقوا فرقا متشتته اختلط بعضهم ببعض و لو کان المراد قتال البعض و إثبات الجزیه علی الجمیع أو علی ذلک البعض بعینه لاحتاج المقام فی إفاده ذلک إلی بیان غیر هذا البیان یحصل به الغرض.

و حیث کان قوله:« مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ »بیانا لما قبله من قوله:« اَلَّذِینَ

ص :٢٣٧

لاّ يُؤْمِنُونَ

»الآيه فالأوصاف المذكوره أوصاف عامه لجميعهم و هى ثلاثه أوصاف وصفهم الله سبحانه بها:عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر،و عدم تحريم ما حرم الله و رسوله،و عدم التدين بدين الحق.

فأول ما وصفهم به قوله:« اَلَّذِينَ لاـ يُؤْمِنُونَ بِـاللّهِ وَ لاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »و هو تعالى ينسب إليهم فى كلامه أنهم يثبتونه إلها و كيف لا؟و هو يعدهم أهل الكتاب، و ما هو إلا الكتاب السماوى النازل من عند الله على رسول من رسله و يحكى عنهم القول أو لازم القول بالألوهيه فى مئات من آيات كتابه.

و كذا ينسب إليهم القول باليوم الآخر فى أمثال قوله:« وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَةً:» البقره:-٨٠و قوله:« وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى:» البقره:-١١١.

غير أنه تعالى لم يفرق فى كلامه بين الإيمان به و الإيمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله و الكفر بالله كفر بالأمرين جميعا،و حكم فيمن فرق بين الله و رسله فآمن ببعض دون بعض أنه كافر كما قال:« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً:» النساء:-١٥١.

فعد أهل الكتاب ممن لم يؤمن بنبوه محمد ص كفارا حقا و إن كان عندهم إيمان بالله و اليوم الآخر،لا بلسان أنهم كفروا بآيه من آيات الله و هى آيه النبوه بل بلسان أنهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله و اليوم الآخر كما أن المشركين أرباب الأصنام كافرون بالله إذ لم يوحدوه و إن أثبتوا إلها فوق الآلهه.

على أنهم يقررون أمر المبدإ و المعاد تقريرا لا يوافق الحق بوجه كقولهم بأن المسيح ابن الله و عزيرا ابن الله يضاهئون فى ذلك قول الذين كفروا من أرباب الأصنام و الأوثان أن من الآلهه من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله،و قول اليهود فى المعاد بالكرامه و قول النصارى بالتفديه.

فالظاهر أن نفى الإيمان بالله و اليوم الآخر عن أهل الكتاب إنما هو لكونهم لا يرون ما هو الحق من أمر التوحيد و المعاد و إن أثبتوا أصل القول بالألوهيه لا لأن

منهم من ينكر القول بألوهيه الله سبحانه أو ينكر المعاد فإنهم قائلون بذلک علی ما يحکيه عنهم القرآن و إن کانت التوراه الحاضره اليوم لا خبر فيها عن المعاد أصلا.) ثم وصفهم ثانيا بقوله:« وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »و ذلک کقول اليهود بإباحه أشياء عدها و ذکرها لهم القرآن فی سورتی البقره و النساء و غيرهما و قول النصاری بإباحه الخمر و لحم الخنزير،و قد ثبت تحريمهما فی شرائع موسی و عيسی و محمد(ع)و أکلهم أموال الناس بالباطل کما سينسبه إليهم فی الآيه الآتيه:

« إِنَّ کَثِيراً مِنَ الْأَحْبٰارِ وَ الرُّهْبٰانِ لَيَأْکُلُونَ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ ».

و المراد بالرسول فی قوله:« مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »أما رسول أنفسهم الذی قالوا بنبوته کموسی(ع)بالنسبه إلی اليهود،و عيسی(ع)بالنسبه إلی النصاری فالمعنی لا يحرم کل أمه منهم ما حرمه عليهم رسولهم الذی قالوا بنبوته، و اعترفوا بحقانيته و فی ذلک نهايه التجری علی الله و رسوله و اللعب بالحق و الحقيقه.

و أما النبی محمد ص الذی يجدونه مکتوبا عندهم فی التوراه و الإنجيل يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التی کانت عليهم.

و يکون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرم الله و رسوله بغرض تأنيبهم و الطعن فيهم و لبعث المؤمنين و تهييجهم علی قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرمه الله و رسوله فی شرعهم و استرسالهم فی الوقوع فی محارم الله و هتک حرماته.

و ربما أيد هذا الاحتمال أن لو کان المراد بقوله:« وَ رَسُولُهُ »رسول کل أمه بالنسبه إليها کموسی بالنسبه إلی اليهود و عيسی بالنسبه إلی النصاری کان من حق الکلام أن يقال:

«و لا يحرمون ما حرم الله و رسله»علی ما هو دأب القرآن فی نظائره للدلاله علی کثره الرسل کقوله:« وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ:» النساء:-۱۵۰،و قوله:« قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ:» إبراهيم:-۱۰،و قوله:« وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ:» يونس:-۱۳.

علی أن النصاری رفضوا محرمات التوراه و الإنجيل فلم يحرموا ما حرم موسی و عيسی((ع))،و ليس من حق الکلام فی مورد هذا شأنه:أنهم لا يحرمون ما حرم الله و رسوله.

علی أن المتدبر فی المقاصد العامه الإسلاميه لا يشک فی أن قتال أهل الکتاب حتی يعطوا الجزيه ليس لغرض تمتع أولياء الإسلام و لا المسلمين من متاع الحياه الدنيا و استرسالهم

و انهماكهم فى الشهوات على حد المترفين من الملوك و الرؤساء المسرفين من أقوياء الأمم.

و إنما غرض الدين فى ذلك أن يظهر دين الحق و سنه العدل و كلمه التقوى على الباطل و الظلم و الفسق فلا يعترضها فى مسيرها اللعب و الهوى فتسلم التربيه الصالحه المصلحه من مزاحمه التربيه الفاسده المفسده حتى لا ينجر إلى أن تجذب هذه إلى جانب،و تلك إلى جانب،فيتشوش أمر النظام الإنسانى إلا أن لا يرتضى واحد أو جماعه التربيه الإسلاميه لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحرارا فيما يرتضونه لأنفسهم من تربيه دينهم الخاصه على شرط أن يكونوا على شىء من دين التوحيد،و هو اليهوديه أو النصرانيه أو المجوسيه،و أن لا يتظاهروا بالمزاحمه،و هذا غايه العدل و النصفه من دين الحق الظاهر على غيره.

و أما الجزيه فهى عطيه ماليه مأخوذه منهم مصروفه فى حفظ ذمتهم و حسن إدارتهم و لا غنى عن مثلها لحكومه قائمه على ساقها حقه أو باطله.

و من هذا البيان يظهر أن المراد بهذه المحرمات:المحرمات الإسلاميه التى عزم الله أن لا تشيع فى المجتمع الإسلامى العالمى كما أن المراد بدين الحق هو الذى يعزم أن يكون هو المتبع فى المجتمع.

و لازم ذلك أن يكون المراد بالمحرمات:المحرمات التى حرمها الله و رسوله محمد ص الصادع بالدعوه الإسلاميه،و أن يكون الأوصاف الثلاثه:« اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »الآيه فى معنى التعليل تفيد حكمه الأمر بقتال أهل الكتاب.

و بذلك كله يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يعقل أن يحرم أهل الكتاب على أنفسهم ما حرم الله و رسوله علينا إلا إذا أسلموا،و إنما الكلام فى أهل الكتاب لا فى المسلمين العاصين.

وجه الفساد أنه ليس من الواجب أن يكون الغرض من قتالهم أن يحرموا ما حرم الإسلام و هم أهل الكتاب بل أن لا يظهر فى الناس التبرز بالمحرمات من غير مانع يمنع شيوعها و الاسترسال فيها كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير و أكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا فى الذمه فلا يتظاهروا بالفساد،و يحتبس الشر فيما بينهم أنفسهم.

و لعله إلى ذلك الإشاره بقوله:« وَ هُمْ صٰاغِرُونَ »على ما سيجىء فى الكلام على ذيل الآيه.

ثم وصفهم ثالثا بقوله:« وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ »أی لا يأخذونه دينا و سنه حيويه لأنفسهم.

و إضافه الدين إلى الحق ليست من إضافه الموصوف إلى صفته على أن يكون المراد الدين الذى هو حق بل من الإضافه الحقيقه،و المراد به الدين الذى هو منسوب إلى الحق لكون الحق هو الذى يقتضيه للإنسان و يبعثه إليه،و كون هذا الدين يهدى إلى الحق و يصل متبعيه إليه فهو من قبيل قولنا طريق الحق و طريق الضلال بمعنى الطريق الذى هو للحق و الطريق الذى هو للضلال أى إن غايته الحق أو غايته الضلال.

و ذلك أن المستفاد من مثل قوله تعالى:« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ:» الروم:-۳۰،و قوله:

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ:» آل عمران:-۱۹،و سائر ما يجرى هذا المجرى من الآيات أن لهذا الدين أصلا فی الكون و الخلقه و الواقع الحق؛يدعو إليه النبی ص، و يندب الناس إلى الإسلام و الخضوع له و يسمی اتخاذه سنه فی الحياه إسلاما لله تعالى فهو يدعو إلى ما لا مناص للإنسان عن استجابته و التسليم له و هو الخضوع للسنه العمليه الاعتباريه التی يهدی إليها السنه الكونيه الحقيقيه،و بعباره أخرى التسليم لإراده الله التشريعيه المنبعثه عن إرادته التكوينيه.

و بالجمله للحق الذى هو الواقع الثابت دين و سنه ينبعث منه كما أن للضلال و الغی دينا يدعو إليه،و الأول اتباع للحق كما أن الثانی اتباع للهوى،قال تعالى:

« وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ ».

و الإسلام دين الحق بمعنى أنه سته التكوين و الطريقه التی تنطبق عليها الخلقه و تدعو إليها الفطره فطره الله التی فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم.

فتلخص مما تقدم أولا:أن المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله و اليوم الآخر عدم تلبسهم بالإيمان المقبول عند الله،و بعدم تحريمهم ما حرم الله و رسوله عدم مبالاتهم فی التظاهر باقتراف المناهی التی يفسد التظاهر بها المجتمع البشری و يخيب بها سعی الحكومه الحقه الجاريه فيه،و بعدم تدينهم بدين الحق عدم استنانهم بسنه الحق المنطبقه على الخلقه و المنطبقه عليها الخلقه و الكون.

و ثانیا:أن قوله:« اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ »إلی آخر الأوصاف الثلاثه مسوق لبیان الحکمه فی الأمر بقتالهم و یترتب علیه فائده التحریض و التحضیض علیه.

و ثالثا:أن المراد قتال أهل الکتاب جمیعا لا بعضهم بجعل« مِنَ »فی قوله:

« مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ »للتبعیض.

قوله تعالی:« حَتّٰی یُعْطُوا الْجِزْیَهَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ »قال الراغب فی المفردات:، الجزیه ما یؤخذ من أهل الذمه،و تسمیتها بذلک للاجتزاء بها فی حقن دمهم.انتهی.

و فی المجمع:، الجزیه فعله من جزی یجزی مثل العقده و الجلسه و هی عطیه مخصوصه جزاء لهم علی تمسکهم بالکفر عقوبه لهم.عن علی بن عیسی.انتهی.

و الاعتماد علی ما ذکره الراغب فإنه المتأید بما ذکرناه آنفا أن هذه عطیه مالیه مصروفه فی جهه حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حسن إدارتهم.

و قال الراغب أیضا: الصغر و الکبر من الأسماء المتضاده التی تقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشیء قد یکون صغیرا فی جنب الشیء و کبیرا فی جنب آخر-إلی أن قال-یقال:صغر صغرا-بالکسر فالفتح-فی ضد الکبیر و صغر صغرا و صغارا-بالفتحتین فیهما-فی الذله.و الصاغر الراضی بالمنزله الدنیه:« حَتّٰی یُعْطُوا الْجِزْیَهَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ »انتهی.

و الاعتبار بما ذکر فی صدر الآیه من أوصافهم المقتضیه لقتالهم ثم إعطاؤهم الجزیه لحفظ ذمتهم یفید أن یکون المراد بصغارهم خضوعهم للسنه الإسلامیه و الحکومه الدینیه العادله فی المجتمع الإسلامی فلا یکافئوا المسلمین و لا یبارزوهم بشخصیه مستقله حره فی بث ما تهواه أنفسهم و إشاعه ما اختلقته هوساتهم من العقائد و الأعمال المفسده للمجتمع الإنسانی مع ما فی إعطاء المال بأیدیهم من الهوان.

فظاهر الآیه أن هذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم و السخریه بهم من جانب المسلمین أو أولیاء الحکومه الدینیه فإن هذا مما لا یحتمله السکینه و الوقار الإسلامی و إن ذکر بعض المفسرین.

و الید :الجارحه من الإنسان و تطلق علی القدره و النعمه فإن کان المراد به فی

قوله:« حَتّٰى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ »هو المعنى الأول فالمعنى حتى يعطوا الجزيه متجاوزه عن يدهم إلى يدكم،و إن كان المراد هو المعنى الثانى فالمعنى:حتى يعطوا الجزيه عن قدره و سلطه لكم عليهم و هم صاغرون غير مستعلين عليكم و لا مستكبرين.

فمعنى الآيه-و الله أعلم-قاتلوا أهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر إيمانا مقبولا-غير منحرف عن الصواب و لا يحرمون ما حرمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنسانى و لا يدينون دينا منطبقا على الخلقه الإلهيه قاتلوهم و دوموا على قتالهم حتى يصغروا عندكم و يخضعوا لحكومتكم،و يعطوا فى ذلك عطيه ماليه مضروبه عليهم يمثل صغارهم،و يصرف فى حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حاجه إداره أمورهم.

قوله تعالى:« وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ وَ قٰالَتِ النَّصٰارىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ » إلى آخر الآيه المضاهاه المشاكله.و الإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه فمعنى« يُؤْفَكُونَ »يصرفون فى اعتقادهم عن الحق إلى الباطل.

و قوله:« وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ » عزير هذا هو الذى يسميه اليهود عزرا غيرت اللفظه عند التعريب كما غير لفظ«يسوع»فصار بالتعريب«عيسى» و لفظ«يوحنا»فصار كما قيل«يحيى».

و عزرا هذا هو الذى جدد دين اليهود و جمع أسفار التوراه و كتبها بعد ما افتقدت فى غائله بخت نصر ملك بابل الذى فتح بلادهم و خرب هيكلهم و أحرق كتبهم و قتل رجالهم و سبى نساءهم و ذراريهم و الباقين من ضعفائهم و سيرهم معه إلى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن ثم لما فتح«كورش»ملك إيران بابل شفع لهم عنده عزرا و كان ذا وجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم و أن يكتب لهم التوراه ثانيا بعد ما افتقدوا نسخها و كان ذلك فى حدود سنه ۴۵۷ قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانيا ما جمعه عزرا من التوراه و إن كانوا افتقدوا أيضا فى زمن أنتيوكس صاحب سوريه الذى فتح بلادهم حدود سنه ۱۶۱ ق م و تتبع مساكنهم فأحرق ما وجده من نسخ التوراه و قتل من وجدت عنده أو أخذت عليه على ما فى كتب التاريخ.

و لما نالهم من خدمته عظموا قدره و احترموا أمره و سموه ابن الله و لا ندرى أ كان دعاؤه بالبنوه بالمعنى الذى يسمى به النصارى المسيح ابن الله-و المراد أن فيه شيئا من جوهر الربوبيه أو هو مشتق منه أو هو هو-أو أنها تسميه تشريفيه كما

قالوا:نحن أبناء الله و أحباؤه؟و إن كان ظاهر سياق الآيه التاليه:« اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ »الآيه يؤيد الثانى على ما سيأتى.

و قد ذكر بعض المفسرين:أن هذا القول منهم:« عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ »كلمه تكلم بها بعض اليهود ممن فى عصره(ص)لا جميع اليهود فنسب إلى الجميع كما أن قولهم:

« إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ »و كذا قولهم:« يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ »مما قاله بعض يهود المدينه ممن عاصر النبى ص فنسب فى كلامه تعالى إلى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر،و الجميع ذو رأى متوافق الأجزاء و رويه متشابهه التأثير.

و قوله:« وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ »كلمه قالتها النصارى،و قد تقدم الكلام فيها و فى ما يتعلق بها فى قصه المسيح(ع)من سوره آل عمران فى الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله:« يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ »تنبئ الآيه عن أن القول بالبنوه منهم مضاهاه و مشاكله لقول من تقدمهم من الأمم الكافره و هم الوثنيون عبده الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله و،من هى إلهه أم إله أو زوجه إله،و كذا القول بالثالوث مما كان دائرا بين الوثنيين من الهند و الصين و مصر القديم و غيرهم و قد مر نبذه من ذلك فيما تقدم من الكلام فى قصه المسيح فى ثالث أجزاء هذا الكتاب.

و تقدم هناك أن تسرب العقائد الوثنيه فى دين النصارى و مثلهم اليهود من الحقائق التى كشف عنها القرآن الكريم فى هذه الآيه:« يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ».

و قد اعتنى جمع (١)من محققى هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم أعنى العهدين:العتيق و الجديد على ما حصل من مذاهب البوذيين و البرهمائيين فوجدوا معارف العهدين منطبقه على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيرا من القصص و الحكايات الموجوده فى الأناجيل فلم يبق ذلك ريبا لأى باحث فى أصاله قوله تعالى:« يُضاهِؤُنَ » الآيه فى هذا الباب.

ثم دعا عليهم بقوله:« قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ »و ختم به الآيه.

۱- (۱) ۱۹۰۸. (Budhist and christian Gospels Edmuds A.J.۲V.Philadelphia

قوله تعالى:« اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » الأحبار جمع حبر بفتح الحاء و كسرها و هو العالم و غلب استعماله فی علماء الیهود و الرهبان جمع راهب و هو المتلبس بلباس الخشیه و غلب علی المتنسکین من النصاری.

و اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله هو إصغاؤهم لهم و إطاعتهم من غیر قید و شرط و لا یطاع کذلک إلا الله سبحانه.

و أما اتخاذهم المسیح بن مریم ربا من دون الله فهو القول بألوهیته بنحو کما هو المعروف من مذاهب النصاری،و فی إضافه المسیح إلی مریم إشاره إلی عدم کونهم محقین فی هذا الاتخاذ لکونه إنسانا ابن مرأه.

و لکون الاتخاذین مختلفین من حیث المعنی فصل بینهما فذکر اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله أولا،ثم عطف علیه قوله:« وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ».

و الکلام کما یدل علی اختلاف الربوبیتین کذلک لا یخلو عن دلاله علی أن قولهم ببنوه عزیر و بنوه المسیح علی معنیین مختلفین،و هو البنوه التشریفیه فی عزیر و البنوه بنوع من الحقیقه فی المسیح(ع)فإن الآیه أهملت ذکر اتخاذهم عزیرا ربا من دون الله،و لم یذکر مکانه إلا اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله.

فهو رب عندهم بهذا المعنی إما لاستلزام التشریف بالبنوه ذلک أو لأنه من أحبارهم و قد أحسن إلیهم فی تجدید مذهبهم ما لا یقاس به إحسان غیره،و أما المسیح فبنوته غیر هذه البنوه.

و قوله:« وَ مَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّ هُوَ »جمله حالیه أی اتخذوا لهم أربابا و الحال هذه.

و فی الکلام دلاله أولا:علی أن الاتخاذ بالربوبیه بواسطه الطاعه کالاتخاذ بها بواسطه العباده فالطاعه إذا کانت بالاستقلال کانت عباده،و لازم ذلک أن الرب الذی هو المطاع من غیر قید و شرط و علی نحو الاستقلال إله،فإن الإله هو المعبود الذی من حقه أن یعبد،یدل علی ذلک کله قوله تعالی:« وَ مَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً » حیث بدل الرب بالإله،و کان مقتضی الظاهر أن یقال و ما أمروا إلا لیتخذوا ربا واحدا فالاتخاذ للربوبیه بواسطه الطاعه المطلقه عباده،و اتخاذ الرب معبودا اتخاذ

له إلها فافهم ذلک.

و ثانيا:على أن الدعوه إلى عباده الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى:« لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدُونِ:» الأنبياء:-٢٥ و قوله فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ» :الشعراء:-٢١٣ و أمثال ذلک كما أريد بها قصر العباده بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلک أريد قصر الطاعه فيه تعالى،و ذلک أنه تعالى لم يؤاخذهم فی طاعتهم لأحبارهم و رهبانهم إلا بقوله عز من قائل:« وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ».

و على هذا المعنى يدل قوله تعالى:« أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِی هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ:» يس-٦١،و هذا باب ينفتح منه ألف باب.

و فی قوله:« لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ »تتميم لكلمه التوحيد التی يتضمنها قوله:« وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً »فإن كثيرا من عبده الأصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهه كثيره،و هم مع ذلک لا يخصون بالعباده إلا واحدا منها فعباده إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو.

و قد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشاره إلى مغايره ما بينهما و أن قصر العباده بكلا معنييها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذی لا مفر منه للإنسان؛فيما أمر به نبيه ص من دعوه أهل الكتاب بقوله:« قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ:» آل عمران:-٦۴.

و قوله تعالى فی ذيل الآيه:« سُبْحٰانَهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ »تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبيه الأحبار و الرهبان،و قولهم بربوبيه المسيح(ع)من الشرک.

و الآيه بمنزله البيان التعليلی لقوله تعالى فی أول الآيات:« اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »فإن اتخاذ إله أو آلهه دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله، و لا الإيمان بيوم لا ملک فيه إلا لله.

قوله تعالى:« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ إلى آخر الآيه، الإطفاء إخماد النار أو النور،و الباء فی قوله:« بِأَفْوٰاهِهِمْ »للآله أو السببيه.

و إنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذی يتوسل به إلى إخماد الأنوار و السرج يكون

بالأفواه،قال فی المجمع،:و هذا من عجیب البیان مع ما فیه من تصغیر شأنهم و تضعیف کیدهم لأن الفم یؤثر فی الأنوار الضعیفه دون الأقباس العظیمه.انتهی.

و قال فی الکشاف:،مثل حالهم فی طلبهم أن یبطلوا نبوه محمد ص بالتکذیب بحال من یرید أن ینفخ فی نور عظیم منبث فی الآفاق یرید الله أن یزیده،و یبلغه الغایه القصوی فی الإشراق و الإضاءه لیطفئه بنفخه و یطمسه.انتهی،و الآیه إشاره إلی حال الدعوه الإسلامیه،و ما یریده منه الکافرون،و فیها وعد جمیل بأن الله سیتم نوره.

قوله تعالی:« هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ » الهدی الهدایه الإلهیه التی قارنها برسوله لیهدی بأمره،و دین الحق هو الإسلام بما یشتمل علیه من العقائد و الأحکام المنطبقه علی الواقع الحق.

و المعنی أن الله هو الذی أرسل رسوله و هو محمد ص مع الهدایه-أو الآیات و البینات-و دین فطری لیظهر و ینصر دینه الذی هو دین الحق علی کل الأدیان و لو کره المشرکون ذلک.

و بذلک ظهر أن الضمیر فی قوله:« لِیُظْهِرَهُ »راجع إلی دین الحق کما هو المتبادر من السیاق،و ربما قیل:إن الضمیر راجع إلی الرسول،و المعنی لیظهر رسوله و یعلمه معالم الدین کلها و هو بعید.

و فی الآیتین من تحریض المؤمنین علی قتال أهل الکتاب و الإشاره إلی وجوب ذلک علیهم ما لا یخفی فإنهما تدلان علی أن الله أراد انتشار هذا الدین فی العالم البشری فلا بد من السعی و المجاهده فی ذلک،و أن أهل الکتاب یریدون أن یطفئوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتی یفنوا أو یستبقوا بالجزیه و الصغار،و أن الله سبحانه یأبی إلا أن یتم نوره،و یرید أن یظهر هذا الدین علی غیره فالدائره بمشیه الله لهم علی أعدائهم فلا ینبغی لهم أن یهنوا و یحزنوا و هم الأعلون إن کانوا مؤمنین.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْأَحْبٰارِ وَ الرُّهْبٰانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ »الظاهر أن الآیه إشاره إلی بعض التوضیح لقوله فی أول الآیات: وَ لاٰ یُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ »کما أن الآیه السابقه کالتوضیح لقوله فیها:« اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ ».

أما إيضاح قوله تعالى:« وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »بقوله:« إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبٰارِ وَ الرُّهْبٰانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ »فهو إيضاح بأوضح المصاديق و أهمها تأثيرا فى إفساد المجتمع الإنسانى الصالح،و إبطال غرض الدين.

فالقرآن الكريم يعد لأهل الكتاب و خاصه لليهود جرائم و آثاما كثيره مفصله فى سوره البقره و النساء و المائده و غيرها لكن الجرائم و التعديات الماليه شأنها غير شأن غيرها،و خاصه فى هذا المقام الذى تعلق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنسانى الصالح لو كانوا مبسوطى اليد و استقلالهم الحيوى قائما على ساق،و لا مفسد للمجتمع مثل التعدى المالى.

فإن أهم ما يقوم به المجتمع الإنسانى على أساسه هو الجهه الماليه التى جعل الله لهم قياما فجل المآثم و المساوى و الجنايات و التعديات و المظالم تنتهى بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقه و قطع الطرق و قتل النفوس و البخس فى الكيل و الوزن و الغصب و سائر التعديات الماليه،و إما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف و الإسراف فى المأكل و المشرب و الملبس و المنكح و المسكن،و الاسترسال فى الشهوات و هتك الحرمات،و بسط التسلط على أموال الناس و أعراضهم و نفوسهم.

و تنتهى جميع المفاسد الناشئه من الطريقين كليهما بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم فى حيازه الأموال و اقتناء الثروه،و الأحكام المشرعه لتعديل الجهات المملكه المميزه لأكل المال بالحق من أكله بالباطل،فإذا اختل ذلك و أذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال،و تتوق إليه من الثروه بأى طريق أمكن لقن ذلك إياها أن يظفر بالمال و يقبض على الثروه بأى طريق ممكن حق أو باطل، و أن يسعى إلى كل مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غير مشروع أدى إلى ما أدى، و عند ذلك يقوم البلوى بفشو الفساد و شيوع الانحطاط الأخلاقى فى المجتمع،و انقلاب المحيط الإنسانى إلى محيط حيوانى ردى لا هم فيه إلا البطن و ما دونه و لا يملك فيه إراده أحد بسياسه أو تربيه و لا تفقه فيه لحكمه و لا إصغاء إلى موعظه.

و لعل هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر،و خاصه من الأحبار و الرهبان الذين إليهم تربيه الأمه و إصلاح المجتمع.

و قد عد بعضهم من أكلهم أموال الناس بالباطل ما يقدمه الناس إليهم من المال

حبا لهم لتظاهرهم بالزهد و التنسک،و أکل الربا و السحت،و ضبطهم أموال مخالفیهم و أخذهم الرشا علی الحکم،و إعطاء أوراق المغفره و بیعها،و نحو ذلک.

و الظاهر أن المراد بها أمثال أخذ الرشوه علی الحکم کما تقدم من قصتهم فی تفسیر قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الرَّسُولُ لا یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ» XالآیهX :المائده:-۴۱،فی الجزء الخامس من الکتاب.

و لو لم یکن من ذلک إلا ما کانت تأتی به الکنیسه من بیع أوراق المغفره لکفی به مقتا و لوما.

و أما ما ذکره من تقدیم الأموال إلیهم لتزهدهم،و کذا تخصیصهم بأوقاف و وصایا و مبرات عامه فلیس بمعدود من أکل المال بالباطل،و کذا ما ذکره من أکل الربا و السحت فقد نسبه تعالی فی کلامه إلی عامه قومهم کقوله تعالی:« وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ:» النساء:-۱۶۱،و قوله:« سَمّاعُونَ لِلْکَذِبِ أَکّالُونَ لِلسُّحْتِ» :المائده:-۴۲،و إنما کلامه تعالی فی الآیه التی نحن فیها فیما یخص أحبارهم و رهبانهم من أکل المال بالباطل لا ما یعمهم و عامتهم.

إلا أن الحق أن زعماء الأمه الدینیه و مربیهم فی سلوک طریق العبودیه المعتنین بإصلاح قلوبهم و أعمالهم إذا انحرفوا عن طریق الحق إلی سبیل الباطل کان جمیع ما أکلوه لهذا الشأن و استدروه من منافعه سحتا محرما لا یبیحه لهم شرع و لا عقل.

و أما إیضاح قوله تعالی:« وَ لا یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ »بقوله:« وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ »فهو أیضا مبنی علی ما قدمناه من النکته فی توصیفهم بالأوصاف الثلاثه التی ثالثها قوله:« وَ لا یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ »و هو بیان ما یفسد من صفاتهم و أعمالهم المجتمع الإنسانی و یسد طریق الحکومه الدینیه العادله دون البلوغ إلی غرضها من إصلاح الناس و تکوین مجتمع حی فعال بما یلیق بالإنسان الفطری المتوجه إلی سعادته الفطریه.

و لذا خص بالذکر من مفاسد عدم تدینهم بدین الحق ما هو العمده فی إفساد المجتمع الصالح،و هو صدهم عن سبیل الله و منعهم الناس عن أن یسلکوه بما قدروا علیه من طرقه الظاهره و الخفیه،و لا یزالون مصرین علی هذه السلیقه منذ عهد النبی ص حتی الیوم.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ وَ لاٰ یُنْفِقُونَهٰا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ »قال الراغب: الکنز جعل المال بعضه علی بعض و حفظه، و أصله من کنزت التمر فی الوعاء،و زمن الکناز وقت ما یکنز فیه التمر،و ناقه کناز مکتنزه اللحم،و قوله:« وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ »أی یدخرونها،انتهی.

ففی مفهوم الکنز حفظ المال المکنوز و ادخاره و منعه من أن یجری بین الناس فی وجوه المعاملات فینمو نماء حسنا،و یعم الانتفاع به فی المجتمع فینتفع به هذا بالأخذ و ذاک بالرد،و ذلک بالعمل علیه و قد کان دأبهم قبل ظهور البنوک و المخازن العامه أن یدفنوا الکنوز فی الأرض سترا علیها من أن تقصد بسوء.

و الآیه و إن اتصلت فی النظم اللفظی بما قبلها من الآیات الذامه لأهل الکتاب و الموبخه لأحبارهم و رهبانهم فی أکلهم أموال الناس بالباطل و الصد عن سبیل الله إلا أنه لا دلیل من جهه اللفظ علی نزولها فیهم و اختصاصها بهم البته.

فلا سبیل إلی القول بأن الآیه إنما نزلت فی أهل الکتاب و حرمت الکنز علیهم، و أما المسلمون فهم و ما یقتنون من ذهب و فضه یصنعون بأموالهم ما یشاءون من غیر بأس علیهم.

و الآیه توعد الکانزین إیعادا شدیدا،و یهددهم بعذاب شدید غیر أنها تفسر الکنز المدلول علیه بقوله:« اَلَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ »بقوله:« وَ لاٰ یُنْفِقُونَهٰا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ »فتدل بذلک علی أن الذی یبغضه الله من الکنز ما یلازم الکف عن إنفاقه فی سبیل الله إذا کان هناک سبیل.

و سبیل الله علی ما یستفاد من کلامه تعالی هو ما توقف علیه قیام دین الله علی ساقه و أن یسلم من انهدام بنیانه کالجهاد و جمیع مصالح الدین الواجب حفظها،و شئون مجتمع المسلمین التی ینفسخ عقد المجتمع لو انفسخت،و الحقوق المالیه الواجبه التی أقام الدین بها صلب المجتمع الدینی،فمن کنز ذهبا أو فضه و الحاجه قائمه و الضروره عاکفه فقد کنز الذهب و الفضه و لم ینفقها فی سبیل الله فلیبشر بعذاب ألیم فإنه آثر نفسه علی ربه و قدم حاجه نفسه أو ولده الاحتمالیه علی حاجه المجتمع الدینی القطعیه.

و یستفاد هذا مما فی الآیه التالیه من قوله:« هٰذٰا مٰا کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ »فإنه یدل

على أن توجه العتاب عليهم لكونهم خصوه بأنفسهم و آثروها فيما خافوا حاجتها إليه على سبيل الله الذى به حياه المجتمع الإنسانى فى الدنيا و الآخره، و قد خانوا الله و رسوله فى ذلك من جهه أخرى و هى الستر و التغييب إذ لو كان ظاهرا جاريا على الأيدى كان من الممكن أن يأمره ولى الأمر بإنفاقه فى حاجه دينيه قائمه لكن إذا كنز كنزا و أخفى عن الأنظار لم يلتفت إليه،و بقيت الحاجه الضروريه قائمه فى جانب و المال المكنوز الذى هو الوسيله الوحيده لرفع الحاجه فى جانب مع عدم حاجه من كنزه إليه.

فالآيه إنما تنهى عن الكنز لهذه الخصيصه التى هى إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجه إليه على سبيل الله مع قيام الحاجه إليه،و ناهيك أن الإسلام لا يحد أصل الملك من جهه الكميه بحد فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كنزه من الذهب و الفضه و لم يدخرها كنزا بل وضعها فى معرض الجريان يستفيد به لنفسه ألوفا و ألوفا،و يفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل و غير ذلك لم يتوجه إليه نهى دينى لأنه حيث نصبها على أعين الناس و أجراها فى مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها و لم يمنعها من أن يصرف فى سبيل الله فهو و إن لم ينفقها فى سبيل الله إلا أنه بحيث لو أراد ولى أمر المسلمين لأمره بالإنفاق فيما يرى لزوم الإنفاق فيه فليس هو إذا لم ينفق و هو بمرأى و مسمع من ولى الأمر بخائن ظلوم.

فالآيه ناظره إلى الكنز الذى يصاحبه الامتناع عن الإنفاق فى الحقوق الماليه الواجبه لا بمعنى الزكاه الواجبه فقط بل بمعنى يعمها و غيرها من كل ما يقوم عليه ضروره المجتمع الدينى من الجهاد و حفظ النفوس من الهلكه و نحو ذلك.

و أما الإنفاق المستحب كالتوسعه على العيال،و إعطاء المال و بذله على الفقراء فى الزائد على ضروره حياتهم فهو و إن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق فى سبيل الله إلا أن نفس أدلته المبينه لاستحبابه تكشف عن أنه ليس من هذا الإنفاق فى سبيل الله المذكور فى هذه الآيه فكنز المال و عدم إنفاقه إنفاقا مندوبا مع عدم سبيل ضرورى ينفق فيه ليس من الكنز المنهى عنه فى هذه الآيه فهذا ما تدل عليه الآيه الكريمه، و قد طال فيها-لما يتعلق بها من بعض الأبحاث الكلاميه-المشاجره بين المفسرين، و سنورد فيه كلاما بعد الفراغ عن البحث الروائى المتعلق بالآيات إن شاء الله تعالى.

و قوله فى ذيل الآيه:« فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ »إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

قوله تعالى:« يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ »إلى آخر الآيه. إحماء الشيء جعله حارا في الإحساس،و الإحماء عليه الإيقاد ليتسخن و الإحماء فوق التسخين،و الكي إلصاق الشيء الحار بالبدن.

و المعنى:أن ذلك العذاب المبشر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماه بالنار فتلصق بجباههم و جنوبهم و ظهورهم و يقال لهم عند ذلك:« هٰذا مٰا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ »:فقد عاد عذابا عليكم تعذبون به.

و لعل تخصيص الجباه و الجنوب و الظهور لأنهم خضعوا لها و هو السجده التي تكون بالجباه و لاذوا إليها و اللواذ بالجنوب،و اتكئوا عليها و الاتكاء بالظهور،و قيل غير ذلك و الله أعلم.

(بحث روائي)

في الكافي،بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله(ع): في حديث الأسياف الذي ذكره عن أبيه-قال:و أما السيوف الثلاثه المشهوره فسيف على مشركي العرب،قال الله عز و جل:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ».

قال:و السيف الثاني على أهل الذمه-قال الله عز و جل:« وَ قُولُوا لِلنّٰاسِ حُسْناً »نزلت هذه الآيه في أهل الذمه-ثم نسخها قوله عز و جل:« قٰاتِلُوا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ-وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ-وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ-حَتّٰى يُعْطُوا الْجِزْيَهَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ »فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منه إلا الجزيه أو القتل-و مالهم فيء و ذراريهم سبي،و إذا قبلوا الجزيه على أنفسهم حرم علينا سبيهم،و حرمت أموالهم،و حلت لنا مناكحتهم، و من كان منهم في دار الحرب حل لنا سبيهم-و أموالهم و لم يحل مناكحتهم، و لم يقبل إلا الدخول في دار الإسلام أو الجزيه أو القتل.

و فيه،بإسناده عن طلحه بن زيد عن أبي عبد الله(ع)قال: جرت السنه أن لا تؤخذ الجزيه من المعتوه-و لا من المغلوب على عقله.

و فيه،بإسناده عن أبي يحيى الواسطي عن بعض أصحابنا قال: سئل أبو عبد الله

(ع)عن المجوس أ كان لهم شيء؟فقال:نعم-أ ما بلغك كتاب رسول الله ص إلى أهل مكه:أن أسلموا و إلا نابذتكم بحرب فكتبوا إلى رسول الله ص:أن خذ منا الجزيه و دعنا على عباده الأوثان.فكتب إليهم النبى ص:إنى لست آخذ الجزيه إلا من أهل الكتاب-.

فكتبوا إليه-يريدون بذلك تكذيبه-:زعمت أنك لا تأخذ الجزيه إلا من أهل الكتاب-ثم أخذت الجزيه من مجوس هجر.فكتب إليهم النبى ص-أن المجوس كان لهم نبى فقتلوه و كتاب أحرقوه.أتاهم نبيهم بكتابهم فى اثنى عشر ألف جلد ثور.

أقول:و فى هذه المعانى روايات أخرى مودعه فى جوامع الحديث و استيفاء الكلام فى مسائل الجزيه و الخراج و غيرهما فى الفقه.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن عساكر عن أبى أمامه عن رسول الله ص قال:

القتال قتالان:قتال المشركين-حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزيه عن يد و هم صاغرون، و قتال الفئه الباغيه حتى تفىء إلى أمر الله-فإذا فاءت أعطيت العدل.

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى سننه عن مجاهد": فى قوله:« قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ »الآيه-قال:

نزلت هذه حين أمر محمد ص و أصحابه بغزوه تبوك.

أقول:و قد تقدمت الروايات فى ذيل آيه المباهله أن النبى ص أقر الجزيه على نصارى نجران،و كان ذلك على ما دل عليه أمثل الروايات سنه ست من الهجره قبل غزوه تبوك بسنين،و كذا دعوته(ص)ملوك الروم و مصر و العجم و هم من أهل الكتاب كانت سنه ست.

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه عن الزهرى قال": أخذ رسول الله ص الجزيه من مجوس أهل هجر-و من يهود اليمن و نصاراهم من كل حالم دينار.

و فيه،أخرج مالك و الشافعى و أبو عبيد فى كتاب الأموال و ابن أبى شيبه عن جعفر عن أبيه أن عمر بن الخطاب استشار الناس فى المجوس فى الجزيه فقال عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله ص يقول:سنوا بهم سنه أهل الكتاب.

و فيه،أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن على بن أبى طالب: أنه سئل عن أخذ

الجزیه من المجوس فقال:و الله ما علی الأرض الیوم أحد أعلم بذلک منی-إن المجوس کانوا أهل کتاب یعرفونه،و علم یدرسونه فشرب أمیرهم الخمر فسکر-فوقع علی أخته فرآه نفر من المسلمین-فلما أصبح قالت أخته:إنک قد صنعت بها کذا و کذا،و قد رآک نفر لا یسترون علیک فدعا أهل الطمع-ثم قال لهم قد علمتم أن آدم(ع)قد أنکح بنیه بناته.

فجاء أولئک الذین رأوه فقالوا:ویل للأبعد إن فی ظهرک حد الله-فقتلهم أولئک الذین کانوا عنده-ثم جاءت امرأه فقالت له:بلی-قد رأیتک فقال لها:ویحا لبغی بنی فلان-قالت:أجل و الله قد کانت بغیه ثم تابت فقتلها،ثم أسری علی ما فی قلوبهم و علی کتبهم فلم یصبح عندهم شیء.

و فی تفسیر العیاشی،:فی قوله تعالی:« وَ قٰالَتِ اَلْیَهُودُ عُزَیْرٌ اِبْنُ اَللّٰهِ »الآیه:عن عطیه العوفی عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول الله ص: اشتد غضب الله علی الیهود حین قالوا:عزیر ابن الله،و اشتد غضب الله علی النصاری حین قالوا:

المسیح ابن الله،و اشتد غضب الله علی من أراق دمی و آذانی فی عترتی.

و فی الدر المنثور،أخرج البخاری فی تاریخه عن أبی سعید الخدری قال: لما کان یوم أحد شج رسول الله ص فی وجهه و کسرت رباعیته-فقام رسول الله ص یومئذ رافعا یدیه یقول:إن الله عز و جل اشتد غضبه علی الیهود-أن قالوا:عزیر ابن الله-و اشتد غضبه علی النصاری أن قالوا المسیح ابن الله-و إن الله اشتد غضبه علی من أراق دمی و آذانی فی عترتی.

أقول:و قد روی فی الدر المنثور،و غیره عن ابن عباس و کعب الأحبار و السدی و غیرهم روایات فی قصه عزیر هی أشبه بالإسرائیلیات،و الظاهر أن الجمیع تنتهی إلی کعب.

و فی الإحتجاج،للطبرسی عن علی(ع)قال: « قٰاتَلَهُمُ اَللّٰهُ أَنّٰی یُؤْفَکُونَ »أی لعنهم الله- أنی یؤفکون فسمی اللعنه قتالا،و کذلک:« قُتِلَ اَلْإِنْسٰانُ مٰا أَکْفَرَهُ »أی لعن الإنسان:

أقول:و روی ذلک من طرق أهل السنه عن ابن عباس

و هو علی أی حال تفسیر یلازم المعنی لا بالمراد اللفظی.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی بصیر،عن أبی عبد الله(ع)قال: قلت له:

« اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اَللّٰهِ »فقال:أما و الله ما دعوهم إلی عباده أنفسهم،و لو دعوهم إلی عباده أنفسهم ما أجابوهم،و لکن أحلوا لهم حراما-

و حرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

أقول:و روى هذا المعنى البرقى فى المحاسن،و رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير و عن جابر جميعا عن أبى عبد الله(ع)و عن حذيفه،و رواه فى الدر المنثور، عن عده من أصحاب الطرق عن حذيفه.

و فى تفسير القمى،قال:و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع): فى قوله:

« اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ »قال:أما المسيح فبعض عظموه فى أنفسهم-حتى زعموا أنه إله و أنه ابن الله،و طائفه منهم قالوا: ثالث ثلاثه،و طائفه منهم قالوا:هو الله-.

و أما قوله:« أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ »فإنهم أطاعوا و أخذوا بقولهم،و اتبعوا ما أمروهم به،و دانوا بما دعوهم إليه فاتخذوهم أربابا بطاعتهم لهم-و تركهم أمر الله و كتبه و رسله فنبذوه وراء ظهورهم،و ما أمرهم به الأحبار و الرهبان اتبعوهم-و أطاعوهم و عصوا الله. الحديث.

و فى تفسير البرهان،عن المجمع قال:و روى الثعلبى بإسناده عن عدى بن حاتم قال:

أتيت رسول الله ص و فى عنقى صليب من ذهب-فقال لى:يا عدى اطرح هذا الربق.

و فى تفسير البرهان،عن الصدوق بإسناده عن أبى بصير قال:قال أبو عبد الله (ع): فى قوله عز و جل:« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ »الآيه-و الله ما نزل تأويلها بعد و لا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم-فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله و لا مشرك بالإمام-إلا كره خروجه حتى لو كان الكافر فى بطن صخره قالت:

يا مؤمن فى بطنى كافر فاكسرنى و اقتله.

أقول:و روى ما فى معناه العياشى عن أبى المقدام عن أبى جعفر(ع)و عن سماعه عن أبى عبد الله(ع)،و كذا الطبرسى مثله عن أبى جعفر(ع)،و فى تفسير القمى،أنها نزلت فى القائم من آل محمد((ع))، و معنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدل عليه روايه الصدوق.

و فى الدر المنثور،أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن جابر": فى قوله:« لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »قال:لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودى و لا نصرانى صاحب مله-إلا الإسلام حتى تأمن الشاه الذئب،و البقره الأسد،و الإنسان الحيه،و حتى لا تقرض فأره جرابا،و حتى يوضع الجزيه و يكسر الصليب-و يقتل

الخنزير،و ذلک إذا نزل عیسی بن مریم(ع).

أقول:و المراد بوضع الجزیه أن تصیر متروکه لا حاجه إلیها لعدم الموضوع بقرینه صدر الحدیث،و ما دلت علیه هذه الروایات من عدم بقاء کفر و لا شرک یومئذ یؤیدها روایات أخری،و هناک روایات أخری تدل علی وضع المهدی(ع) الجزیه علی أهل الکتاب بعد ظهوره.

و ربما أیده قوله تعالی فی أهل الکتاب:« وَ أَلْقَیْنا بَیْنَهُمُ الْعَداوَهَ وَ الْبَغْضاءَ إِلی یَوْمِ الْقِیامَهِ:» المائده:-۶۴،« فَأَغْرَیْنا بَیْنَهُمُ الْعَداوَهَ وَ الْبَغْضاءَ إِلی یَوْمِ الْقِیامَهِ» :المائده:-۱۴،و ما فی معناه من الآیات فإنها لا تخلو من ظهور ما فی بقائهم إلی یوم القیامه إن لم تکن کنایه عن ارتفاع الموده بینهم ارتفاعا أبدیا،و قد تقدم فی ذیل الآیات بعض الکلام فی هذا المعنی.

و فی الدر المنثور،أیضا أخرج ابن الضریس عن علباء بن أحمر": أن عثمان بن عفان لما أراد أن یکتب المصاحف-أرادوا أن یلقوا الواو التی فی براءه:« وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ »قال أبی:لتلحقنها أو لأضعن سیفی علی عاتقی فألحقوها.

و فی أمالی الشیخ،قال:أخبرنا جماعه عن أبی المفضل و ساق إسناده قال:قال رسول الله ص: لما نزلت هذه الآیه:« وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ-وَ لا یُنْفِقُونَها فِی سَبِیلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ »کل ما یؤدی زکاته فلیس بکنز-و إن کان تحت سبع أرضین،و کل مال لا یؤدی زکاته فهو کنز و إن کان فوق الأرض.

أقول:و روی ما فی معناه فی الدر المنثور،عن ابن عدی و الخطیب عن جابر عن النبی ص و کذا بطرق أخری عن ابن عباس و غیره.

و فیه،أیضا بإسناده عن أبی عبد الله(ع)عن أبیه أبی جعفر(ع): أنه سئل عن الدنانیر و الدراهم و ما علی الناس.فقال أبو جعفر(ع):هی خواتیم الله فی أرضه-جعلها الله مصلحه لخلقه،و بها یستقیم شئونهم و مطالبهم-فمن أکثر له منها فقال بحق الله تعالی فیها-أدی زکاتها فذاک الذی طلبه،و خلص له،و من أکثر له منها فبخل بها و لم یؤد حق الله فیها-و اتخذ منها الأبنیه فذاک الذی حق علیه وعید الله عز و جل-فی کتابه یقول الله تعالی:« یَوْمَ یُحْمی عَلَیْها فِی نارِ جَهَنَّمَ فَتُکْوی بِها جِباهُهُمْ

وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ -هٰذٰا مٰا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ

».

أقول:و الروايه تؤيد ما استفدناه سابقا من الآيه.

و فى تفسير القمى،قال": كان أبو ذر الغفارى يغدو كل يوم-و هو فى الشام فينادى بأعلى صوته:بشر أهل الكنوز بكى فى الجباه،و كى فى الجنوب-و كى فى الظهور حتى يتردد الحر فى أجوافهم.

أقول:و قد استفاد الطبرسى فى المجمع،من الروايه الوجه فى تخصيص الجباه و الجنوب و الظهور من بين أعضاء الإنسان بالذكر فى الآيه،و أن الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حر النار فى أجوافهم و هى داخل الرءوس فتكوى جباههم و داخل الصدور و البطون فتكوى جنوبهم و ظهورهم.

و يمكن تتميم ما ذكره بأنهم يكبون على وجوههم و رءوسهم منكوسه على ما يشعر به الأخبار و بعض الآيات ثم تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كى الجباه و الجنوب و الظهور.

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن أبى ذر قال": بشر أصحاب الكنوز بكى فى الجباه و فى الجنوب و فى الظهور.

و فيه،أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبه و البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن وهب قال": مررت على أبى ذر بالربذه فقلت:ما أنزلك بهذه الأرض؟قال:كنا بالشام فقرأت:« وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ-وَ لاٰ يُنْفِقُونَهٰا فِى سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ »فقال معاويه:ما هذه فينا هذه فى أهل الكتاب.قلت أنا:إنها لفينا و فيهم.

و فيه،أخرج مسلم و ابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال": جاء أبو ذر فقال:

بشر الكانزين بكى من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم،و كى من جباههم يخرج من أقفائهم،فقلت:ما ذا؟قال:ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم(ص).

و فيه،أخرج أحمد فى الزهد عن أبى بكر المنكدر قال": بعث حبيب بن سلمه إلى أبى ذر-و هو أمير الشام بثلاثمائه دينار،و قال:استعن بها على حاجتك؛فقال

أبو ذر:أرجع بها إليه-أ ما وجد أحدا أغر بالله منا ما لنا إلا الظل نتوارى به، و ثلاثه من غنم تروح علينا،-و مولاه لنا تصدق علينا بخدمتها-ثم إنى لأنا أتخوف الفضل.

و فيه،أخرج البخارى و مسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملإ من قريش-فجاء رجل خشن الشعر و الثياب و الهيئه حتى قام عليهم فسلم-ثم قال:بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم-ثم يوضع على حلمه ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه،-و يوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمه ثديه فيتدلدل-.

ثم ولى و جلس إلى ساريه فتبعته-و جلست إليه و أنا لا أدرى من هو؟فقلت:

لا أرى القوم إلا قد كرهوا ما قلت،قال:إنهم لا يعقلون شيئا قال لى خليلى.

قلت:من خليلك؟قال:النبى ص،أ تبصر أحدا؟قلت:نعم.قال:ما أحب أن يكون لى مثل أحد ذهبا أنفقه كله-إلا ثلاثه دنانير و إن هؤلاء لا يعقلون-إنما يجمعون للدنيا و الله لا أسألهم دنيا،و لا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز و جل.

و فى تاريخ الطبرى،عن شعيب عن سيف عن محمد بن عوف عن عكرمه عن ابن عباس": أن أبا ذر دخل على عثمان و عنده كعب الأحبار-فقال لعثمان:لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف،و قد ينبغى لمؤدى الزكاه أن لا يقتصر عليها-حتى يحسن إلى الجيران و الإخوان و يصل القرابات-.

فقال:كعب من أدى الفريضه فقد قضى ما عليه،فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجه فاستوهبه عثمان فوهبه له-و قال:يا أبا ذر اتق الله و اكفف يدك و لسانك، و قد كان قال له:يا ابن اليهوديه ما أنت و ما هاهنا.

أقول:و قصص أبى ذر و اختلافه مع عثمان و معاويه معروفه مضبوطه فى كتب التاريخ و التدبر فيما مر من أحاديثه و ما قاله لمعاويه إن الآيه لا تختص بأهل الكتاب و ما خاطب به عثمان و واجه به كعبا يدل على أنه إنما فهم من الآيه ما قدمناه أنها توعد على الكف عن الإنفاق فى السبيل الواجب.

و يؤيده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين و تبعضوا شطرين عامه لا يقدرون على قوت اليوم،و لا يجدون ما يستر عوراتهم و ما لهم إلى أوجب حوائجهم سبيل،و خاصه أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال و منال

يكنزون مئات الألوف و ألوف الألوف من عطايا الخلافه و غنائم الحروب و مال الخراج.

و يكفيك فى التبصر فيه أن تراجع ما ضبطته التواريخ من أموال الصحابه من نقد و رقيق و ضيعه و شامخات القصور و ناجمات الدور،و ما أحدثه معاويه و سائر بنى أميه بالشام و غيره من أزياء قيصرانيه و كسروانيه.

و الإسلام لا يرتضى شيئا من ذلك و لا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون أن تتقارب الطبقات بالإنفاق،و تصلح عامه الأوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء، و الأقوياء على الضعفاء.

و ربما قيل:إن أبا ذر كان يرى باجتهاد منه أن الزائد على القدر الواجب من المال الذى ينفق لسد الجوع و ستر العوره كنز يجب إنفاقه فى سبيل الله أو أنه كان يدعو إلى الزهد فى الدنيا.

لكن الذى يوجد من بعض كلامه فى الروايات يكذبه فإنه لا يستند فى شىء مما قاله إلى اجتهاده و رأى نفسه بل بقوله:ما قلت لهم إلا ما سمعت من نبيهم،و قال خليلى كذا و كذا،

و قد صحت الروايه و استفاضت من طرق الفريقين عن النبى ص أنه قال: «ما أظلت الخضراء-و لا أقلت الغبراء ذا لهجه أصدق من أبى ذر».

و بذلك يظهر فساد ما ذكره شداد بن أوس

فيما روى عنه أحمد و الطبرانى قال:

«كان أبو ذر يسمع عن رسول الله ص-ثم يخرج إلى باديته ثم يرخص فيه رسول الله ص بعد ذلك-فيحفظ من رسول الله ص الرخصه فلا يسمعها أبو ذر-فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذى سمع قبل ذلك.

و ذلك أن الذى ذكر من أبى ذر أنما هو قوله:إن آيه الكنز لا تختص بأهل الكتاب بل يعمهم و المسلمين،و ليس هذا مصداقا لما ذكره فى الروايه من العزيمه و الرخصه،و كذا قوله:إن تأديه الزكاه فحسب لا يكفى فى جواز الكنز و عدم إنفاقه فى الواجب من سبيل الله،و كيف يتصور فى حقه أن لا يكون يسمع أن الإنفاق منه مستحب كما أن منه واجبا و أن لا يعلم أن أدله الإنفاق المندوب أحسن مبين لآيه الكنز.

و أوهن من ذلك ما تعلق به الطبرى فى تاريخه

فقد روى عن شعيب عن سيف عن عطيه عن يزيد الفقعسى قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال:يا

أبـا ذر أ لاـ تعجب إلى معـاويه يقـول:المـال مـال الله ألاـ إن كـل شـىء لله:كـأنه يريـد أن يحتجبه دون المسـلمين،و يمحـو اسـم المسلمين-.

فأتاه أبو ذر فقال:ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله؟قال:

يرحمك الله يا أبا ذر-أ لسنا عباد الله و المال ماله و الخلق خلقه و الأمر أمره؟قال:

فلا تقله،قال:فإنى لا أقول:إنه ليس لله،و لكن سأقول:مال المسلمين-.

قال:و أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له:من أنت؟أظنك و الله يهوديا؟فأتى عباده بن الصامت فتعلق به فأتى به معاويه-فقال:هذا و الله الذى بعث عليك أبا ذر-.

و قام أبو ذر بالشام و جعل يقول:يا معشر الأغنياء و أسوأ الفقراء-بشر الذين يكنزون الذهب و الفضه-و لا ينفقونها فى سبيل الله بمكان من نار-تكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم. الحديث.

و محصله أن أبا ذر إنما بادر إلى ما بادر و ألح عليه بتسويل من ابن السوداء و هـذان اللذان روى عنهما الحديث و عنهما يروى جل قصص عثمان أعنى شعيبا و سيفا هما من الكذابين الوضاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال و قدحوا فيهما.

و الـذى اختلقاه من حـديث ابن السوداء و هو الـذى سـموه عبد الله بن سـبإ،و إليهما ينتهى حديثه،من الأحاديث الموضوعه،و قد قطع المحققون من أصحاب البحث أخيرا أن ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافيه التى لا أصل لها.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن جابر قال:قال رسول الله ص: ما من ذى كنز لا يؤدى حقه-إلا جىء به يوم القيامه تكوى به جبينه و جبهته،و قيل له:هذا كنزك الذى بخلت به.

و فيه،أخرج الطبرانى فى الأوسط و أبـو بكر الشـافعى فى الغيلانيـات عن على قـال:قـال رسول الله ص: إن الله فرض على أغنيـاء المسـلمين فى أمـوالهم-القـدر الـذى يسع فقراءهـم،و لن يجهـد الفقراء إذا جـاعوا أو عروا إلاـ بمـا يمنـع أغنياؤهم.ألاـ و إن الله يحاسبهم حسابا شديدا-أو يعذبهم عذابا أليما.

و فيه،أخرج الحاكم و صححه و ضعفه الذهبى عن أبى سعيد الخدرى عن بلال

قـال:قـال رسول الله ص: يـا بلاـل الق الله فقيرا و لاـ تلقه غنيـا.قلت:و كيف لى بـذلك؟قـال:إذا رزقت فلاـ تخبـأ،و إذا سـئلت فلا تمنع،قلت:و كيف لى بذلك؟قال:هو ذاك و إلا فالنار.

(كلام فى معنى الكنز)

لاـ ريب أن المجتمع الـذى أوجـده الإنسـان بحسب طبعه الأولى إنما يقوم بمبادله المال و العمل،و لو لا ذلك لم يعش المجتمع الإنسـانى و لاـ طرفه عين فإنمـا يتزود الإنسـان من مجتمعه بأن يحرز أمورا من أوليات الماده الأرضـيه و يعمل عليها ما يسـعه من العمـل ثم يقتنى من ذلـك لنفسه مـا يحتـاج إليه،و يعوض مـا يزيـد على حـاجته من سـائر مـا يحتاج إليه مما عنـد غيره من أفراد المجتمع كالخبـاز يأخـذ لنفسه من الخبز مـا يقتـات به و يعوض الزائـد عليه من الثوب الـذى نسـجه النساج و هكـذا فإنما أعمال المجتمعين فى ظرف اجتماعهم بيع و شرى و مبادله و معاوضه.

و الـذى يتحصـل من الأبحـاث الاقتصـاديه أن الإنسـان الأـولى كـان يعوض فى معاملاـته العين بالعين من غير أن يكونوا متنبهين لأزيـد من ذلـك غير أن النسب بين الأعيـان كـانت تختلف عنـدهم باشـتداد الحـاجه و عـدمه،و بوفور الأعيـان المحتـاج إليها و اعوازهـا فكلمـا كـانت العين أمس بحـاجه الإنسان أو قل وجودها توفرت الرغبات إلى تحصـيلها، و ارتفعت نسـبتها إلى غيرها،و كلما بعدت عن مسـيس الحاجه أو ابتذلت بالكثره و الوفور انصـرفت النفوس عنها و انخفضت نسـبتها إلى غيرها و هذا هو أصل القيمه.

ثم إنهم عمـدوا إلى بعض الأعيـان العزيزه الوجود عنـدهم فجعلوهـا أصـلا فى القيمه تقـاس إليه سـائر الأعيـان المـاليه بمالها من مختلف النسب كـالحنطه و البيضه و الملـح فصـارت مـدارا تـدور عليهـا المبادلاـت السوقيه،و هـذه السـليقه دائره بينهم فى بعض المجتمعات الصغيره فى القرى و بين القبائل البدويه حتى اليوم.

و لم يزالـوا على ذلـک حـتى ظفروا ببعض الفلزات كـالـذهب و الفضه و النحـاس و نحوهـا فجعلوهـا أصـلا إليه يعود نسب سـائر الأعيان من جهه قيمها،و مقياسا واحدا يقاس إليها غيرها فهى النقود القائمه بنفسها و غيرها يقوم بها.

ثم آل الأمر إلى أن یحوز الذهب المقام أول و الفضه تتلوه،و یتلوها غیرهما، و سکت الجمیع بالسکک الملوکیه أو الدولیه فصارت دینارا و درهما و فلسا و غیر ذلک بما یطول شرحه علی خروجه من غرض البحث.

فلم یلبث النقدان حتی عادا أصلا فی القیمه بهما یقوم کل شیء،و إلیهما یقاس ما عند الإنسان من مال أو عمل،و فیهما یرتکز ارتفاع کل حاجه حیویه،و هما ملاک الثروه و الوجد کالمتعلق بهما روح المجتمع فی حیاته یختل أمره باختلال أمرهما،إذا جریا فی سوق المعاملات جرت المعاملات بجریانهما،و إذا وقفا وقفت.

و قد أوضحت ما علیهما من الوظیفه المحوله إلیهما فی المجتمعات الإنسانیه من حفظ قیم الأمتعه و الأعمال،و تشخیص نسب بعضها إلی بعض،الأوراق الرسمیه الدائره الیوم فیما بین الناس کالبوند و الدولار و غیرهما و الصکوک البنجیه المنتشره فإنها تمثل قیم الأشیاء من غیر أن تتضمن عینیه لها قیمه فی نفسها فهی قیم خالصه مجرده تقریبا.

فالتأمل فی مکانه الذهب و الفضه الاجتماعیه بما هما نقدان حافظان للقیم و مقیاسان یقاس إلیهما الأمتعه و الأموال بما لها من النسب الدائره بینها تنور أنهما ممثلان لنسب الأشیاء بعضها إلی بعض،و إذ کانت بحسب الاعتبار ممثلات للنسب-و إن شئت فقل:

نفس النسب-تبطل النسب ببطلان اعتبارها،و تحبس بحبسها و منع جریانها و تقف بوقوفها.

و قد شاهدنا فی الحربین العالمیین الأخیرین ما ذا أوجده بطلان اعتبار نقود بعض الدول؟کالمنات فی الدوله التزاریه و المارک فی الجرمن من البلوی و سقوط الثروه و اختلال أمر الناس فی حیاتهم،و الحال فی کنزهما و منع جریانهما بین الناس هذا الحال.

و إلی ذلک یشیر قول أبی جعفر(ع)فی روایه الأمالی المتقدمه:«جعلها الله مصلحه لخلقه و بها یستقیم شئونهم و مطالبهم».

و من هنا یظهر أن کنزهما إبطال لقیم الأشیاء و إماته لما فی وسع المکنوز منهما من إحیاء المعاملات الدائره و قیام السوق فی المجتمع علی ساقه،و ببطلان المعاملات و تعطل الأسواق تبطل حیاه المجتمع،و بنسبه ما لها من الرکود و الوقوف تقف و تضعف.

لست أرید خزنهما فی مخازن تختص بهما فإن حفظ نفائس الأموال و کرائم الأمتعه

من الضـيعه من الواجبات التى تهدى إليه الغريزه الإنسانيه و يستحسـنه العقل السليم فكلما جرت وجوه النقد فى سبيل المعاملات كيفمـا كـان فهو و إذا رجعت فمن الواجب أن تختزن و تحفـظ من الضـيعه و مـا يهـددها من أيادى الغصب و السـرقه و الغيله و الخيانه.

و إنمـا أعنى به كنزهمـا و جعلهما فى معزل عن الجريان فى المعاملات السوقيه و الـدوران لإصـلاح أى شأن من شـئون الحياه و رفع الحوائج العاكفه على المجتمع كإشـباع جائع و إرواء عطشان و كسوه عريان و ربح كاسب و انتفاع عامل و نماء مال و علاج مريض و فك أسير و إنجاء غريم و الكشف عن مكروب و التفريج عن مهموم و إجابه مضطر و الدفع عن بيضه المجتمع الصالح و إصلاح ما فسد من الجو الاجتماعى.

و هى موارد لا تحصـى واجبه أو منـدوبه أو مباحه لا يتعـدى فيها حـد الاعتدال إلى جانبى الإفراط و التفريط و البخل و التبذير،و المنـدوب من الإنفـاق و إن لم يكن فى تركه مأثم و لا إجرام شـرعا و لا عقلا غير أن التسبب إلى إبطال المنـدوبات من رأس و الاحتيال لرفع موضوعها من أشد الجرم و المعصيه.

اعتبر ذلک فيما بين يديک من الحياه اليوميه بما يتعلق به من شـئون المسـكن و المنكح و المأكل و المشـرب و الملبس تجد أن ترك النفل المسـتحب من شئون الحياه و المعاش و الاقتصار دقيقا على الضرورى منها-الذى هو بمنزله الواجب الشرعى-يوجب اختلال أمر الحياه اختلالا لا يجبره جابر و لا يسد طريق الفساد فيه ساد.

و بهـذا البيـان يظهر أن قوله تعـالى:« وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الـذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ »ليس من البعيـد أن يكون مطلقا يشـمل الإنفاق المنـدوب بالعنايه التى مرت فإن فى كنز الأموال رفعا لموضوع الإنفاق المنـدوب كالإنفاق الواجب لا مجرد عدم الإنفاق مع صلاحيه الموضوع لذلک.

و بـذلک يتبين أيضـا معنى مـا خـاطب به أبو ذر عثمـان بن عفـان لمـا دخل عليه على ما تقـدم فى روايه الطبرى حيث قال له:«لا ترضوا من النـاس بكف الأـذى حتى يبـذلوا المعروف،و قـد ينبغى لمؤدى الزكـاه أن لاـ يقتصـر عليها حتى يحسن إلى الجيران و الإخوان و يصل القرابات».

فإن لفظه كالصريح أو هو صريح فى أنه لا يرى كل إنفاق فيما يفضل من المئونه

بعد الزکاه واجبا،و أنه یقسم الإنفاق فی سبیل الله إلی ما یجب و ما ینبغی غیر أنه یعترض بانقطاع سبیل الإنفاق من غیر جهه الزکاه و انسداد باب الخیرات بالکلیه و فی ذلک إبطال غرض التشریع و إفساد المصلحه العامه المشرعه.

یقول:لیست هی حکومه استبدادیه قیصرانیه أو کسروانیه،لا وظیفه لها إلا بسط الأمن و کف الأذی بالمنع عن إیذاء بعض الناس بعضا ثم الناس أحرار فیما فعلوا غیر ممنوعین عن ما اشتهوا من عمل أفرطوا أو فرطوا،أصلحوا أو أفسدوا،اهتدوا أو ضلوا و تاهوا،و المتقلد لحکومتهم حر فیما عمل و لا یسأل عما یفعل.

و إنما هی حکومه اجتماعیه دینیه لا ترضی عن الناس بمجرد کف الأذی بل تسوق الناس فی جمیع شئون معیشتهم إلی ما یصلح لهم و یهیئ لکل من طبقات المجتمع من أمیرهم و مأمورهم و رئیسهم و مرءوسهم و مخدومهم و خادمهم و غنیهم و فقیرهم و قویهم و ضعیفهم ما یسع له من سعاده حیاتهم فترفع حاجه الغنی بإمداد الفقیر و حاجه الفقیر بمال الغنی و تحفظ مکانه القوی باحترام الضعیف و حیاه الضعیف برأفه القوی و مراقبته،و مصدریه العالی بطاعه الدانی و طاعه الدانی بنصفه العالی و عدله، و لا یتم هذا کله إلا بنشر المبرات و فتح باب الخیرات،و العمل بالواجبات علی ما یلیق بها و المندوبات علی ما یلیق بها و أما القصر علی القدر الواجب،و ترک الإنفاق المندوب من رأس فإن فیه هدما لأساس الحیاه الدینیه،و إبطالا لغرض الشارع، و سیرا حثیثا إلی نظام مختل و هرج و مرج و فساد عریق لا- یصلحه شیء کل ذلک عن المسامحه فی إحیاء غرض الدین،و المداهنه مع الظالمین إلا تفعلوه تکن فتنه فی الأرض و فساد کبیر.

و کذلک قول أبی ذر لمعاویه فیما تقدم من روایه الطبری:«ما یدعوک إلی أن تسمی مال المسلمین مال الله؟قال:یرحمک الله یا أبا ذر أ لسنا عباد الله و المال ماله و الخلق خلقه و الأمر أمره قال:فلا تقله».

فإن الکلمه التی کان یقولها معاویه و عماله و من بعده من خلفاء بنی أمیه و إن کانت کلمه حق و قد رویت عن النبی ص و یدل علیها کتاب الله لکنهم کانوا یستنتجون منه خلاف ما یریده الله سبحانه فإن المراد به أن المال لا یختص به أحد بعزه أو قوه أو سیطره و إنما هو لله ینفق فی سبیله علی حسب ما عینه من موارد

إنفاقه فإن كان مما اقتناه الفرد بكسب أو إرث أو نحوهما فله حكمه،و إن كان مما حصلته الحكومه الإسلاميه من غنيمه أو جزيه أو خراج أو صدقات أو نحو ذلك فله أيضا موارد إنفاق معينه فی الدين،و ليس فی شیء من ذلك لوالی الأمر أن يخص نفسه أو واحدا من أهل بيته بشیء يزيد على لازم مئونته فضلا أن يكنز الكنوز و يرفع به القصور و يتخذ الحجاب و يعيش عيشه قيصر و كسرى.

و أما هؤلاء فإنما كانوا يقولونه دفعا لاعتراض الناس عليهم فی صرف مال المسلمين فی سبيل شهواتهم و بذله فيما لا يرضى الله،و منعه أهليه و مستحقيه أن المال للمسلمين تصرفونه فی غير سبيلهم!فيقولون:إن المال مال الله و نحن أمناءه نعمل فيه بما نراه فيستبيحون بذلك اللعب بمال الله كيف شاءوا و يستنتجون به صحه عملهم فيه بما أرادوا و هو لا ينتج إلا خلافه،و مال الله و مال المسلمين بمعنى واحد،و قد أخذوهما لمعنيين اثنين يدفع أحدهما الآخر.

و لو كان مراد معاويه بقوله:«المال مال الله»هو الصحيح من معناه لم يكن معنى لخروج أبی ذر من عنده و ندائه فی الملإ من الناس:بشر الكانزين بكی فی الجباه و كی فی الجنوب و كی فی الظهور.

على أن معاويه قد قال لأبی ذر إنه يرى أن آيه الكنز خاصه بأهل الكتاب و ربما كان من أسباب سوء ظنه بهم إصرارهم عند كتابه مصحف عثمان أن يحذفوا الواو من قوله:« وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ »إلخ حتى هددهم أبی بالقتال إن لم يلحقوا الواو فألحقوها و قد مرت الروايه.

فالقصه فی حديث الطبری عن سيف عن شعيب و إن سيقت بحيث تقضی على أبی ذر بأنه كان مخطئا فی ما اجتهد به كما اعترف به الطبری فی أول كلامه غير أن أطراف القصه تقضی بإصابته.

و بالجمله فالآيه تدل على حرمه كنز الذهب و الفضه فيما كان هناك سبيل لله يجب إنفاقه فيه و ضروره داعيه إليه لمستحقی الزكاه مع الامتناع من تأديتها،و الدفاع الواجب مع عدم النفقه و انقطاع سبيل البر و الإحسان بين الناس.

و لا فرق فی تعلق وجوب الإنفاق بين المال الظاهر الجاری فی الأسواق و بين

الکنز المـدفون فی الأـرض غیر أن الکنز یختص بشـیء زائـد و هو خیـانه ولی الأـمر فی ستر المال و غروره کما تقـدم ذکره فی البیان المتقدم.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

إِنَّ عِـدَّهَ اَلشُّهُورِ عِنْدَ اَللّهِ اِثْنا عَشَـرَ شَـهْراً فِی کِتابِ اَللّهِ یَوْمَ خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَهٌ حُرُمٌ ذلِکَ اَلدِّینُ اَلْقَیِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَـکُمْ وَ قاتِلُوا اَلْمُشْرِکِینَ کَافَّهً کَما یُقاتِلُونَکُمْ کَافَّهً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّهَ مَعَ اَلْمُتَّقِینَ (۳۶) إِنَّمَا اَلنَّسِیءُ زِیادَهٌ فِی اَلْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً لِیُواطِؤُا عِدَّهَ ما حَرَّمَ اَللّهُ فَیُحِلُّوا ما حَرَّمَ اَللّهُ زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اَللّهُ لا یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکافِرِینَ (۳۷)

(بیان)

فی الآـیتین بیـان حرمه الأشـهر الحرم ذی القعـده و ذی الحجه و المحرم و رجب الفرد و تثبیت حرمتها و إلغاء نسـیء الجاهلیه،و فیها الأمر بقتال المشرکین کافه.

قوله تعالی:« إِنَّ عِدَّهَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنا عَشَـرَ شَـهْراً فِی کِتابِ اللّهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ » الشـهر کالسـنه و الأسـبوع مما یعرفه عـامه النـاس منـذ أقـدم أعصار الإنسانیه،و کان لبعضـها تأثیرا فی تنبههم للبعض فقـد کان الإنسان یشاهـد تحول السـنین و مرورها بمضـی الصـیف و الشـتاء و الربیع و الخریف و تکررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها إلی أقسام هی أقصر منها مده حسب ما ساقهم إلیه مشاهده اختلاف أشکال القمر من الهلال إلی الهلال،و ینطبق علی ما یقرب من ثلاثین یوما و تنقسم بذلک السنه إلی اثنی عشر شهرا.

و السنه التی ینالها الحس شمسیه تتألف من ثلاثمائه و خمسه و ستین یوما و بعض

يوم لا- تنطبق على اثنى عشر شهرا قمريا هى ثلاثمائه و أربعه و خمسون يوما تقريبا إلا برعايه حساب الكبيسه غير أن ذلک هو الذى يناله الحس و ينتفع به عامه الناس من الحاضر و البادى و الصغير و الكبير و العالم و الجاهل.

ثم قسموا الشهر إلى الأسابيع و إن كان هو أيضا لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحس غلب هناک أيضا الحساب الدقيق،و هو الذى أثبت اعتبار الأسبوع و أبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرأ على حساب السنه من الدقه من جهه الإرصاد، و على حساب الشهور من التغيير فبدلت الشهور القمريه شمسيه تنطبق عليها السنه الشمسيه تمام الانطباق.

و هذا بالنسبه إلى النقاط الاستوائيه و ما يليها من النقاط المعتدله أو ما يتصل بها من الأرض إلى عرض سبع و ستين الشمالى و الجنوبى تقريبا،و فيها معظم المعموره و أما ما وراء ذلک إلى القطبين الشمالى و الجنوبى فيختل فيها حساب السنه و الشهر و الأسبوع،و السنه فى القطبين يوم و ليله،و قد اضطر ارتباط بعض أجزاء المجتمع الإنسانى ببعض سكان هذه النقاط-و هم شرذمه قليلون-أن يراعوا فى حساب السنه و الشهر و الأسبوع و اليوم ما يعتبره عامه سكان المعموره فحساب الزمان الدائر بيننا إنما هو بالنسبه إلى جل سكان المعموره من الأرض.

على أن هذا إنما هو بالنسبه إلى أرضنا التى نحن عليها،و أما سائر الكواكب فالسنه-و هى زمان الحركه الانتقاليه من الكوكب حول الشمس دوره واحده كامله- فيها تختلف و تتخلف عن سنتنا نحن،و كذلک الشهر القمرى فيما كان له قمر أو أقمار منها على ما فصلوه فى فن الهيئه.

فقوله تعالى:« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً »إلخ ناظر إلى الشهور القمريه التى تتألف منها السنون و هى التى لها أصل ثابت فى الحس و هو التشكلات القمريه بالنسبه إلى أهل الأرض.

و الدليل على كون المراد بها الشهور القمريه-أولا-قوله بعد:« مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ »لقيام الضروره على أن الإسلام لم يحرم إلا أربعه من الشهور القمريه التى هى ذو القعده و ذو الحجه و المحرم و رجب،و الأربعه من القمريه دون الشمسيه.

و ثانيا:قوله:« عِنْدَ اللّهِ »و قوله:« فِی کِتٰابِ اللّهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ »فإن هذه القيود تدل على أن هذه العده لا سبيل للتغير و الاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك و لا يتغير علمه،و كونها فى كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات و الأرض فجعل الشمس تجرى لمستقر لها،و القمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل فى فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب فى كتاب التكوين،و لا معقب لحكمه تعالى.

و من المعلوم أن الشهور الشمسيه وضعيه اصطلاحيه و إن كانت الفصول الأربعه و السنه الشمسيه على غير هذا النعت فالشهور الاثنا عشر التى هى ثابته ذات أصل ثابت هى الشهور القمريه.

فمعنى الآيه إن عده الشهور اثنا عشر شهرا تتألف منها السنون،و هذه العده هى التى فى علم الله سبحانه،و هى التى أثبتها فى كتاب التكوين يوم خلق السماوات و الأرض و أجرى الحركات العامه التى منها حركه الشمس و حركه القمر حول الأرض و هى الأصل الثابت فى الكون لهذه العده.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بكتاب الله فى الآيه القرآن أو كتاب مكتوب فيه عده الشهور على حد الكتب و الدفاتر التى عندنا المؤلفه من قراطيس و أوراق يضبط فيها الألفاظ بخطوط خاصه وضعيه.

قوله تعالى:« مِنْهٰا أَرْبَعَهٌ حُرُمٌ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ فَلاٰ تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ » الحرم جمع حرام و هو الممنوع منه،و القيم هو القائم بمصلحه الناس المهيمن على إداره أمور حياتهم و حفظ شئونها.

و قوله:« مِنْهٰا أَرْبَعَهٌ حُرُمٌ »هى الأشهر الأربعه:ذو القعده و ذو الحجه و المحرم و رجب بالنقل القطعى،و الكلمه كلمه تشريع بدليل قوله:« ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ »إلخ.

و إنما جعل الله هذه الأشهر الأربعه حرما ليكف الناس فيها عن القتال و ينبسط عليهم بساط الأمن،و يأخذوا فيها الأهبه للسعاده،و يرجعوا إلى ربهم بالطاعات و القربات.

و كانت حرمتها من شريعه إبراهيم،و كانت العرب تحترمها حتى فى الجاهليه

حینما کانوا یعبدون الأوثان غیر أنهم ربما کانوا یحولون الحرمه من شهر إلی شهر سنه أو أزید منها بالنسیء الذی تتعرض له الآیه التالیه.

و قوله:« ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ »،الإشاره إلی حرمه الأربعه المذکوره،و الدین کما تطلق علی مجموع ما أنزله الله علی أنبیائه تطلق علی بعضها فالمعنی أن تحریم الأربعه من الشهور القمریه هو الدین الذی یقوم بمصالح العباد.کما یشیر إلیه فی قوله:« جَعَلَ اللّٰهُ الْکَعْبَهَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ قِیٰاماً لِلنّٰاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ» Xالآیه X:المائده:-٩٧ و قد تقدم الکلام فیه فی الجزء السادس من الکتاب.

و قوله:« فَلاٰ تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ »الضمیر إلی الأربعه إذ لو کان راجعا إلی « اِثْنٰا عَشَرَ »المذکور سابقا لکان الظاهر أن یقال«فیها»کما نقل عن الفراء،و أیضا لو کان راجعا إلی« اِثْنٰا عَشَرَ »و هی تمام السنه لکان قوله:« فَلاٰ تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ » کما قیل فی معنی قولنا:فلا تظلموا أبدا أنفسکم،و کان الکلام متفرعا علی کون عده الشهور عند الله اثنی عشر شهرا،و لا تفرع له علیه ظاهرا فالمعنی لما کانت هذه الأربعه حرما تفرع علی حرمتها عند الله أن تکفوا فیها عن ظلم أنفسکم رعایه لحرمتها و عظم منزلتها عند الله سبحانه.

فالنهی عن الظلم فیها یدل علی عظم الحرمه و تأکدها لتفرعها علی حرمتها أولا و لأنها نهی خاص بعد النهی العام کما یفیده قولنا:لا تظلم أبدا و لا تظلم فی زمان کذا.

و الجمله أعنی قوله:« فَلاٰ تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ »و إن کانت بحسب إطلاق لفظها نهیا عن کل ظلم و معصیه لکن السیاق یدل علی کون المقصود الأهم منها النهی عن القتال فی الأشهر الحرم.

قوله تعالی:« وَ قٰاتِلُوا الْمُشْرِکِینَ کَافَّهً کَمٰا یُقٰاتِلُونَکُمْ کَافَّهً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ » قال الراغب فی المفردات،: الکف کف الإنسان و هی ما بها یقبض و یبسط،و کففته أصبت کفه،و کففته أصبته بالکف و دفعته بها،و تعورف الکف بالدفع علی أی وجه کان،بالکف کان أو غیرها حتی قیل:رجل مکفوف لمن قبض بصره.

و قوله:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ کَافَّهً لِلنّٰاسِ أی کافا لهم عن المعاصی،و الهاء فیه للمبالغه کقولهم:راویه و علامه و نسابه،و قوله:« وَ قٰاتِلُوا الْمُشْرِکِینَ کَافَّهً کَمٰا یُقٰاتِلُونَکُمْ

كَافَّةً

»قيل:معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين و قيل معناه جماعه كما يقاتلونكم جماعه،و ذلك أن الجماعه يقال لهم:الكافه كما يقال لهم:الوازعه لقوتهم باجتماعهم، و على هذا قوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً »انتهى.

و قال فى المجمع،: كافه بمعنى الإحاطه مأخوذ من كفه الشىء و هى طرفه و إذا انتهى الشىء إلى ذلك كف عن الزياده،و أصل الكف المنع.انتهى.

و قوله:« كَافَّةً »فى الموضعين حال عن الضمير الراجع إلى المسلمين أو المشركين أو فى الأول عن الأول و فى الثانى عن الثانى أو بالعكس فهناك وجوه أربعه،و المتبادر إلى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظى الذى بين الحال و ذى الحال حينئذ،و معنى الآيه على هذا:و قاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

فالآيه توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيره قوله تعالى:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »الآيه ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تتخصص أو تتقيد بما تخصص أو تقيد به هى.

و الآيه مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين و هم عبده الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن و إن كان ربما نسب الشرك تصريحا أو تلويحا إلى أهل الكتاب لكنه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلا على عبده الأوثان،و أما الكفر فعلا أو وصفا فقد نسب إلى أهل الكتاب و أطلق عليهم كما نسب و أطلق إلى عبده الأوثان.

فالآيه أعنى قوله:« وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً »الآيه لا هى ناسخه لآيه أخذ الجزيه من أهل الكتاب،و لا هى مخصصه أو مقيده بها.و قد قيل فى الآيه بعض وجوه أخر تركناه لعدم جدوى فى التعرض له.

و قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »تعليم و تذكير و فيه حث على الاتصاف بصفه التقوى يترتب عليه من الفائده:أولا:الوعد الجميل بالنصر الإلهى و الغلبه و الظفر فإن حزب الله هم الغالبون.

و ثانيا:منعهم أن يتعدوا حدود الله فى الحروب و المغازى بقتل النساء و الصبيان و من ألقى إليهم السلام كما قتل خالد فى غزوه حنين مرأه فأرسل إليه النبى ص ينهاه عن ذلك و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد أسلموا فوداهم النبى ص و تبرأ إلى

الله من فعله ثلاثا (۱)،و قتل أسامه يهوديا أظهر له الإسلام فنزل قوله تعالى:« وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ السَّلاٰمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا فَعِنْدَ اللّٰهِ مَغٰانِمُ كَثِيرَةٌ :النساء:-۹۴ و قد تقدم.

قوله تعالى:« إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيٰادَةٌ فِي الْكُفْرِ »إلى آخر الآيه يقال: نسأ الشيء ينسؤه نسأ و منسأه و نسيئا إذا أخره تأخيرا،و قد يطلق النسيء على الشهر الذى أخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله فى الجاهليه فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمه بعض الأشهر الحرم إلى غيره و أما أنه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

و الذى يظهر من خلال الكلام المسرود فى الآيه أنه كانت لهم فيما بينهم سنه جاهليه فى أمر الأشهر الحرم و هى المسماه بالنسيء،و هو يدل بلفظه على تأخير الحرمه من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرمه الذى بعده،و أنهم إنما كانوا يؤخرون الحرمه و لا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفظوا على سنه قوميه ورثوها عن أسلافهم عن إبراهيم(ع).

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغى و إنما يؤخرونه إلى غير الشهر سنه أو أزيد ليواطئوا عده ما حرم الله،و هى الأربعه ثم يعودون و يعيدون الحرمه إلى مكانها الأول.

و هذا نوع تصرف فى الحكم الإلهى بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى و تقدس،و لذا عده الله سبحانه فى كلامه زياده فى الكفر.

و قد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمه الأشهر الحرم النهى عن ظلم الأنفس حيث قال:« فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ »و أظهر مصاديقه القتال كما أنه المصداق الوحيد الذى استفتوا فيه النبى ص فحكاه الله سبحانه بقوله:« يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرٰامِ قِتٰالٍ فِيهِ» XالآيهX:البقره:-۲۱۷ و كذا ما فى معناه من قوله:« لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ:» المائده:-۲ و قوله:« جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ قِيٰاماً لِلنّٰاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلاٰئِدَ:» المائده:-۹۷.

و كذلك الأثر الظاهر من حرمه البيت أو الحرم هو جعل الأمن فيه كما قال:

« وَ مَنْ دَخَلَهُ كٰانَ آمِناً:» آل عمران:-۹۷ و قال:« أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً :القصص:-۵۷.

فالظاهر أن النسيء الذى تذكره الآيه عنهم إنما هو تأخير حرمه الشهر الحرام.

۱- ۱) القصتان الأوليان مذكرتان فى كتب السير و المغازى و الثالثه تقدمت فى تفسير الآيه سابقا.

للتوسل بذلک إلی قتال فیه لا لتأخیر الحج الذی هو عباده دینیه مختصه ببعضها.

و هـذا کله یؤید ما ذکروه أن العرب کانت تحرم هـذه الأشـهر الحرم، و کان ذلک مما تمسکت به من مله إبراهیم و إسماعیل(ع)،و هم کانوا أصحاب غارات و حروب فربما کان یشق علیهم أن یمکثوا ثلاثه أشهر متوالیه لا یغزون فیها فکانوا یؤخرون تحریم المحرم إلی صفر فیحرمونه و یستحلون المحرم فیمکثون بذلک زمانا ثم یعود التحریم إلی المحرم،و لا یفعلون ذلک أی إنساء حرمه المحرم إلی صفر إلا فی ذی الحجه.

و أما ما ذکره بعضهم أن النسیء هو ما کانوا یؤخرون الحج من شهر إلی شهر فمها لا ینطبق علی لفظ الآیه البته،و سیجیء تفصیل الکلام فیه فی البحث الروائی الآتی إن شاء الله.و لنرجع إلی ما کنا فیه.

فقوله تعالی:« إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیٰادَهٌ فِی الْکُفْرِ »أی تأخیر الحرمه التی شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها إلی شهر غیر حرام زیاده فی الکفر لأنه تصرف فی حکم الله المشروع و کفر بآیاته بعد الکفر بالله من جهه الشرک فهو زیاده فی الکفر.

و قوله:« یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا »أی ضلوا فیه بإضلال غیرهم إیاهم بذلک، و فی الکلام إشعار أو دلاله علی أن هناک من یحکم بالنسیء،و قد ذکروا أن المتصدی لذلک کان بعض بنی کنانه،و سیجیء تفصیله فی البحث الروائی إن شاء الله.

و قوله:« یُحِلُّونَهُ عٰاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عٰاماً لِیُوٰاطِؤُا عِدَّهَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ فَیُحِلُّوا مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ فی موضع التفسیر للإنساء،و الضمیر للشهر الحرام المعلوم من سیاق الکلام أی و هو أنهم یحلون الشهر الحرام الذی نسئوه بتأخیر حرمته عاما و یحرمونه عاما،أی یحلونه عاما بتأخیر حرمته إلی غیره،و یحرمونه عاما بإعاده حرمته إلیه.

و إنما یعملون علی هذه الشاکله بالتأخیر سنه و الإثبات أخری لیواطئوا و یوافقوا عده ما حرم الله فیحلوا ما حرم الله فی حال حفظهم أصل العدد أی إنهم یریدون التحفظ علی حرمه الأشهر الأربعه بعددها مع التغییر فی محل الحرمه لیتمکنوا مما یریدونه من الحروب و الغارات مع الاستنان بالحرمه.

و قوله:« زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمٰالِهِمْ وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْکٰافِرِینَ »المزین هو الشیطان کما وقع فی آیات من الکتاب،و ربما نسب إلی الله سبحانه کما فی آیات أخر،

و لا ينسب الشر إليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى:« يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ:» البقره:-۲۶.

و ذلک بأن یفسق العبد فیمنعه الله الهدایه فیکون ذلک إذنا لداعی الضلال و هو الشیطان أن یزین له سوء عمله فیغویه و یضله،و لذلک قال تعالى:« زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمٰالِهِمْ » ثم عقبه بقوله:« وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ »كأنه لما قيل:زين لهم سوء أعمالهم قيل:كيف أذن الله فيه و لم يمنع ذلك قيل:إن هؤلاء كافرون و الله لا يهدى القوم الكافرين.

(بحث روائی)

فی تفسیر العیاشی،عن أبی خالد الواسطی فی حدیث ثم قال-یعنی أبا جعفر(ع)- حدثنی أبی عن علی بن الحسین عن أمیر المؤمنین(ع): أن رسول الله ص لما ثقل فی مرضه-قال:أیها الناس إن السنه اثنا عشر شهرا منها أربعه حرم-ثم قال بیده:

رجب مفرد-و ذو القعده و ذو الحجه و المحرم ثلاث متوالیات.

أقول:و قد ورد فی عده روایات تأویل الشهور الاثنی عشر،بالأئمه الاثنی عشر، و تأویل الأربعه الحرم بعلی أمیر المؤمنین و علی بن الحسین و علی بن موسى و علی بن محمد(ع)، و تأویل السنه برسول الله ص،و انطباقها على الآیه بما لها من السیاق لا یخلو عن خفاء.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و البخاری و مسلم و أبو داود و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه و البیهقی فی شعب الإیمان عن أبی بکره: أن النبی ص خطب فی حجته فقال:ألا إن الزمان قد استدار کهیئته-یوم خلق الله السماوات و الأرض السنه اثنا عشر شهرا منها أربعه حرم-ثلاثه متوالیات ذو القعده و ذو الحجه و المحرم،و رجب مفرد الذی بین جمادى و شعبان.

أقول:و هی من خطب النبی ص المشهوره،و قد رویت بطرق أخرى عن أبی هریره و ابن عمر و ابن عباس و عن أبی حمزه الرقاشی عن عمه و کانت له صحبه و غیرهم.

و المراد باستداره الزمان کهیئته یوم خلق الله السماوات و الأرض استقرار الأحکام الدینیه على ما تقتضیه الفطره و الخلقه و تمکن الدین القیم من الرقابه فی أعمال الناس،و من

ذلک حرمه الأشهر الأربعه الحرم و إلغاء النسیء الذی هو زیاده فی الکفر.

و فیه،أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ص بالعقبه-فقال:إن النسیء من الشیطان زیاده فی الکفر-یضل به الذین کفروا یحلونه عاما-و یحرمونه عاما فکانوا یحرمون المحرم عاما-و یحرمون صفر عاما و یستحلون و هو النسیء.

و فیه،أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس قال": کان جناده بن عوف الکنانی یوفی الموسم کل عام-و کان یکنی أبا ثمامه فینادی:

ألا إن أبا ثمامه لا یخاف و لا یعاب-ألا إن صفر الأول حلال-.

و کان طوائف من العرب-إذا أرادوا أن یغیروا علی بعض عدوهم أتوه-فقالوا:أحل لنا هذا الشهر یعنون صفر،و کانت العرب لا تقاتل فی الأشهر الحرم فیحله لهم عاما، و یحرمه علیهم فی العام الآخر،و یحرم المحرم فی قابل لیواطئوا عده ما حرم الله یقول:

لیجعلوا الحرم أربعه-غیر أنهم جعلوا صفر عاما حلالا و عاما حراما.

و فیه،أخرج ابن المنذر عن قتاده": فی قوله:« إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیٰادَهٌ فِی الْکُفْرِ »الآیه-قال:

عمد أناس من أهل الضلاله فزادوا صفر فی الأشهر الحرم،و کان یقوم قائمهم فی الموسم فیقول:إن آلهتکم قد حرمت صفر فیحرمونه ذلک العام-و کان یقال لهما الصفران.

و کان أول من نسأ النسیء بنو مالک من کنانه،و کانوا ثلاثه أبو ثمامه صفوان بن أمیه-و أحد بنی فقیم بن الحارث،ثم أحد بنی کنانه.

و فیه،أخرج ابن أبی حاتم عن السدی": فی الآیه قال:کان رجل من بنی کنانه- یقال له جناده بن عوف یکنی أبا أمامه ینسئ الشهور،و کانت العرب یشتد علیهم أن یمکثوا ثلاثه أشهر-لا یغیر بعضهم علی بعض-فإذا أراد أن یغیر علی أحد قام یوما بمنی-فخطب فقال:إنی قد أحللت المحرم-و حرمت صفر مکانه فیقاتل الناس فی المحرم- فإذا کان صفر عمدوا و وضعوا الأسنه-ثم یقوم فی قابل فیقول:إنی قد أحللت صفر و حرمت المحرم-فیواطئوا أربعه أشهر فیحلوا المحرم.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن ابن عباس": فی قوله:« یُحِلُّونَهُ عٰاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عٰاماً »قال:هو صفر کانت هوازن و غطفان یحلونه سنه و یحرمونه سنه.

أقول:محصل الروايات-كما ترى-أن العرب كانت تدين بحرمه الأشهر الحرم الأربعه رجب و ذى القعده و ذى الحجه و المحرم ثم إنهم ربما كانوا يتحرجون من القعود عن الحروب و الغارات ثلاثه أشهر متواليات فسألوا بعض بنى كنانه أن يحل لهم ثالث الشهور الثلاثه فقام فيهم بعض أيام الحج بمنى و أحل لهم المحرم و نسأ حرمته إلى صفر فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدو ثم رد الحرمه إلى مكانه فى قابل و هذا هو النسىء.

و كان يسمى المحرم صفر الأول و صفر الثانى و هما صفران كالربيعين و الجماديين و النسىء إنما ينال صفر الأول و لا يتعدى صفر الثانى فلما أقر الإسلام الحرمه لصفر الأول عبروا عنه بشهر الله المحرم ثم لما كثر الاستعمال خففت و قيل:المحرم،و اختص اسم صفر بصفر الثانى فالمحرم من الألفاظ الإسلاميه كما ذكره السيوطى فى المزهر.

و فيه،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد": فى قوله:

« إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ »قال:-فرض الله الحج فى ذى الحجه،و كان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجه و المحرم-و صفر و ربيع و ربيع و جمادى و جمادى-و رجب و شعبان و رمضان و شوال-و ذا القعده و ذا الحجه ثم يحجون فيه-.

ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه-ثم يعودون فيسمون صفر صفر-ثم يسمون رجب جمادى الآخره-ثم يسمون شعبان رمضان و رمضان شوال،و يسمون ذا القعده شوال ثم يسمون ذا الحجه ذا القعده-ثم يسمون المحرم ذا الحجه-ثم يحجون فيه و اسمه عندهم ذو الحجه-.

ثم عادوا إلى مثل هذه القصه فكانوا يحجون فى كل شهر عاما-حتى وافق حجه أبى بكر الآخره من العام فى ذى القعده-ثم حج النبى ص حجته التى حج فيها فوافق ذو الحجه-فذلك حين يقول(ص)فى خطبته:إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض.

أقول:و محصله على ما فيه من التشويش و الاضطراب أن العرب كانت قبل الإسلام يحج البيت فى ذى الحجه غير أنهم أرادوا أن يحجوا كل عام فى شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهرا بعد شهر و كل شهر وصلت إليه النوبه عامهم ذلك سموه ذا الحجه و سكتوا عن اسمه الأصلى.

ص :۲۷۵

و لازم ذلك أن يتألف كل سنه فيها حجه من ثلاثه عشر شهرا و أن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين أو أزيد كما يشعر به الروايه،و لذا ذكر الطبرى أن العرب كانت تجعل السنه ثلاثه عشر شهرا،و فى روايه اثنى عشر شهرا و خمسه و عشرين يوما.

و لازم ذلك أيضا أن تتغير أسماء الشهور كلها،و أن لا يواطئ اسم الشهر نفس الشهر إلا فى كل اثنتى عشره سنه مره إن كان التأخير على نظام محفوظ،و ذلك على نحو الدوران.

و مثل هذا لا يقال له الإنساء و التأخير فإن أخذ السنه ثلاثه عشر و تسميه آخرها ذا الحجه تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقه.

على أنه مخالف لسائر الأخبار و الآثار المنقوله و لا مأخذ لذلك إلا هذه الروايه و ما ضاهاها

كروايه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت العرب يحلون عاما شهرا و عاما شهرين،و لا يصيبون الحج إلا فى كل سته و عشرين سنه مره-و هو النسىء الذى ذكر الله تعالى فى كتابه-فلما كان عام الحج الأكبر-ثم حج رسول الله ص من العام المقبل-فاستقبل الناس الأهله فقال رسول الله ص-إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض،و هو فى الاضطراب كخبر مجاهد.

على أن الذى ذكره من حجه أبى بكر فى ذى القعده هو الذى ورد من طرق أهل السنه أن النبى ص جعل أبا بكر أميرا للحج عام تسع فحج بالناس،و قد ورد فى بعض روايات أخر أيضا أن الحجه عامئذ كانت فى ذى القعده.

و هذه الحجه على أى نعت فرضت كانت بأمر من النبى ص و إمضائه،و لا يأمر بشىء و لا يمضى أمرا إلا ما أمر به ربه تعالى،و حاشا أن يأمر الله سبحانه بحجه فى شهر نسىء ثم يسميها زياده فى الكفر.

فالحق أن النسىء هو ما تقدم أنهم كانوا يتحرجون من توالى شهور ثلاثه محرمه فينسئون حرمه المحرم إلى صفر ثم يعيدونها مكانها فى العام المقبل.

و أما حجهم فى كل شهر سنه أو فى كل شهر سنتين أو فى شهر سنه و فى شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به،و ليس من البعيد أن تكون عرب الجاهليه مختلفين فى ذلك لكونهم قبائل شتى و عشائر متفرقه كل متبع لهوى نفسه غير أن الحج كان عباده ذات موسم لا يتخلفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم و حرمه لدمائهم،

و ما كانوا يتمكنون من ذلك لو كان أحل الشهر بعضهم و حرمه آخرون على اختلاف فى شاكله التحريم،و هو ظاهر.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ اِنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اَللَّهِ اِثَّاقَلْتُمْ إِلَى اَلْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا مِنَ اَلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ اَلْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا فِي اَلْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اَللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اَللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي اَلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اَللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اَللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلسُّفْلىٰ وَ كَلِمَةُ اَللَّهِ هِيَ اَلْعُلْيَا وَ اَللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) اِنْفِرُوا خِفَافاً وَ ثِقَالاً وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اَللَّهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ اَلشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اِسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اَللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اَللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكَ اَلَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ اَلْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اَللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ اَلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ اِرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا اَلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لٰكِنْ كَرِهَ اَللَّهُ اِنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اُقْعُدُوا مَعَ اَلْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ اَلْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمّٰاعُونَ لَهُمْ وَ اَللَّهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ اِبْتَغَوُا اَلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ اَلْأُمُورَ حَتّٰى جٰاءَ اَلْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اَللَّهِ وَ هُمْ كٰارِهُونَ (٤٨)

(بیان)

تعرض للمنافقین و فیه بیان لجمل أوصافهم و علائمهم،و شرح ما لقی الإسلام و المسلمون من کیدهم و مکرهم و ما قاسوه من المصائب من جهه نفاقهم،و فی مقدمها عتاب المؤمنین فی تثاقلهم عن الجهاد،و حدیث خروج النبی ص من مکه و ذکر الغار.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مٰا لَکُمْ إِذٰا قِیلَ لَکُمُ انْفِرُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ اثّٰاقَلْتُمْ إِلَی الْأَرْضِ »الآیه اِثّٰاقَلْتُمْ أصله تثاقلتم علی وزان ادارکوا و غیره،و کأنه أشرب معنی المیل و نحوه فعدی بإلی و قیل:اثاقلتم إلی الأرض أی ملتم إلی الأرض متثاقلین أو تثاقلتم مائلین إلی الأرض و المراد بالنفر فی سبیل الله الخروج إلی الجهاد.

و قوله:« أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا مِنَ الْآخِرَهِ »کان الرضا أشرب معنی القناعه فعدی بمن کما یقال:رضیت من المال بطیبه،و رضیت من القوم بخله فلان،و علی هذا ففی الکلام نوع من العنایه المجازیه کأن الحیاه الدنیا نوع حقیر من الحیاه الآخره قنعوا بها منها، و یشعر بذلک قوله بعده:« فَمٰا مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا فِی الْآخِرَهِ إِلاّٰ قَلِیلٌ ».

فمعنی الآیه:یا أیها الذین آمنوا ما لکم إذا قال لکم النبی ص-لم یصرح باسمه صونا و تعظیما-اخرجوا إلی الجهاد أبطأتم کأنکم لا تریدون الخروج أقنعتم بالحیاه الدنیا راضین بها من الآخره فما متاع الحیاه الدنیا بالنسبه إلی الحیاه الآخره إلا قلیل.

ص: ۲۷۸

و فی الآیه و ما یتلوها عتاب شدید للمؤمنین و تهدید عنیف و هی تقبل الانطباق علی غزوه تبوک کما ورد ذلک فی أسباب النزول.

قوله تعالی:« إِلاّ تَنْفِرُوا یُعَذِّبْکُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ »إلی آخر الآیه العذاب الذی أنذروا به مطلق غیر مقید فلا وجه لتخصیصه بعذاب الآخره بل هو علی إبهامه،و ربما أید السیاق کون المراد به عذاب الدنیا أو عذاب الدنیا و الآخره جمیعا.

و قوله:« یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ »أی یستبدل بکم قوما غیرکم لا یتثاقلون فی امتثال أوامر الله و النفر فی سبیل الله إذا قیل لهم:انفروا،و الدلیل علی هذا المعنی قرینه المقام.

و قوله:« وَ لا تَضُرُّوهُ شَیْئاً »إشاره إلی هوان أمرهم علی الله سبحانه لو أراد أن یذهب بهم و یأتی بآخرین فإن الله لا ینتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم علی أنفسهم،و قوله:

« وَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ »تعلیل لقوله:« یُعَذِّبْکُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ ».

قوله تعالی:« إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ کَفَرُوا ثانِیَ اثْنَیْنِ إِذْ هُما فِی الْغارِ »ثانی اثنین أی أحدهما،و الغار الثقبه العظیمه فی الجبل،و المراد به غار جبل ثور قرب منی و هو غیر غار حراء الذی ربما کان النبی ص یأوی إلیه قبل البعثه للأخبار المستفیضه،و المراد بصاحبه هو أبو بکر للنقل القطعی.

و قوله:« إِذْ یَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنا »أی لا تحزن خوفا مما تشاهده من الوحده و الغربه و فقد الناصر و تظاهر الأعداء و تعقیبهم إیای فإن الله سبحانه معنا ینصرنی علیهم.

و قوله:« فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها »أی أنزل الله سکینته علی رسوله و أید رسوله بجنود لم تروها یصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجمیع العوامل التی عملت فی انصراف القوم عن دخول الغار و الظفر به(ص)، و قد روی فی ذلک أشیاء ستأتی فی البحث الروائی إن شاء الله تعالی.

و الدلیل علی رجوع الضمیر فی قوله:« فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ »إلی النبی ص أولا:رجوع الضمائر التی قبله و بعده إلیه(ص)کقوله:« إِلاّ تَنْصُرُوهُ »و« نَصَرَهُ » و« أَخْرَجَهُ »و« یَقُولُ »و« لِصاحِبِهِ »و« أَیَّدَهُ »فلا سبیل إلی رجوع ضمیر« عَلَیْهِ » من بینها وحده إلی غیره من غیر قرینه قاطعه تدل علیه.

و ثانيا:أن الكلام في الآيه مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه ص حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته إذ يقول تعالى:« إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ » الآيه و إنزال السكينه و التقويه بالجنود من النصر فذاك له(ص)خاصه.

و يدل على ذلك تكرار« إِذْ »و ذكرها في الآيه ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »بيان لوقت قوله:« فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ »و قوله:

« إِذْ هُما فِي الْغارِ »بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله:« ثانِيَ اثْنَيْنِ »و قوله:

« إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ »بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله:« إِذْ هُما فِي الْغارِ ».

و ثالثا:أن الآيه تجري في سياق واحد حتى يقول:« وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيا »و لا ريب أنه بيان لما قبله،و أن المراد بكلمه الذين كفروا هي ما قضوا به في دار الندوه و عزموا عليه من قتله(ص)و إطفاء نور الله، و بكلمه الله هي ما وعده من نصره و إتمام نوره،و كيف يجوز أن يفرق بين البيان و المبين و جعل البيان راجعا إلى نصره تعالى إياه(ص)، و المبين راجعا إلى نصره غيره.

فمعنى الآيه:إن لم تنصروه أنتم أيها المؤمنون فقد أظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له أحد ينصره و يدفع عنه و قد تظاهرت عليه الأعداء و أحاطوا به من كل جهه و ذلك إذ هم المشركون به و عزموا على قتله فاضطر إلى الخروج من مكه في حال لم يكن إلا أحد رجلين اثنين،و ذلك إذ هما في الغار إذ يقول النبي ص لصاحبه و هو أبو بكر:لا تحزن مما تشاهده من الحال إن الله معنا بيده النصر فنصره الله.

حيث أنزل سكينته عليه و أيده بجنود غائبه عن أبصاركم،و جعل كلمه الذين كفروا-و هي قضاؤهم بوجوب قتله و عزيمتهم عليه-كلمه مغلوبه غير نافذه و لا مؤثره،و كلمه الله-و هي الوعد بالنصر و إظهار الدين و إتمام النور-هي العليا العاليه القاهره و الله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل و لا يغلط في ما شاءه و فعله.

و قد تبين مما تقدم أولا أن قوله:« فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ »متفرع على قوله:« فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ »في عين أنه متفرع على قوله:« إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ » فإن الظرف ظرف للنصره على ما تقدم،و الكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه (ص)لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله:« فَقَدْ نَصَرَهُ

اللّهُ

»لا على قوله:« يَقُولُ لِصاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ ».

و ربما استدل لذلك بأن النبى ص لم يزل على سكينه من ربه فإنزال السكينه فى هذا الظرف خاصه يكشف عن نزوله على صاحبه.

و يدفعه أولا قوله تعالى:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » فى قصه حنين،و القول بأن نفسه الشريفه اضطربت بعض الاضطراب فى وقعه حنين فناسب نزول السكينه بخلاف الحال فى الغار.يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآيه لا تذكر منه(ص)حزنا و لا اضطرابا و لا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين.

على أنه يبطل أصل الاستدلال أن النبى ص لم يزل على سكينه من ربه لا يتجدد له شىء منها فكيف جاز له أن يضطرب فى حنين فتنزل عليه سكينه جديده اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل فى الغار كذلك.

و نظيرتها الآيه الناطقه بنزول السكينه عليه(ص)و على المؤمنين فى سوره الفتح:« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّهَ حَمِيَّهَ الْجاهِلِيَّهِ فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ:» الفتح:-۲۶.

و يدفعه ثانيا:لزوم تفرع قوله:« وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهٰا »على أثر تفرع قوله:« فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ »لأنهما فى سياق واحد،و لازمه عدم رجوع التأييد بالجنود إليه(ص)أو التفكيك فى السياق الواحد من غير مجوز يجوزه.

و ربما التزم بعضهم-فرارا من شناعه لزوم التفكيك-أن الضمير فى قوله تعالى:« وَ أَيَّدَهُ »أيضا راجع إلى صاحبه،و لازمه كون إنزال السكينه و التأييد بالجنود عائدين إلى أبى بكر دون النبى ص.

و ربما أيده بعض آخر بأن الوقائع التى تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعه حنين و الأحزاب و كذا نزول الملائكه لوقعه بدر و إن لم تذكر نزولهم على المؤمنين و لم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا إنما نزلوا للنصر و فيه نصر المؤمنين و إمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التى لم يروها إنما أيدت أبا بكر،و تأييدهم المؤمنين جميعا أو أبا بكر خاصه تأييد منهم فى الحقيقه للنبى ص.

و الأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذى هو قوله:« وَ جَعَلَ كَلِمَهَ

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلىٰ

»الآيه مترتبا على ما تقدمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك فى السياق.

و لا يخفى عليك أن هذا الذى التزموا به يخرج الآيه عن مستقر معناها الوحدانى إلى معنى متهافت الأطراف يدفع آخره أوله،و ينقض ذيله صدره فقد بدئت الآيه بأن النبى ص أكرم على الله و أعز من أن يستذله و يحوجه إلى نصره هؤلاء بل هو تعالى وليه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم إذا شرعت فى بيان نصره تعالى إياه بين نصره غيره بإنزال السكينه عليه و تأييده بجنود لم يروها إلى آخر الآيه.

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به(ص)أو جميعهم نصر منه له بالحقيقه لكن الآيه فى مساق يدفعه البته فإن الآيه السابقه يجمع المؤمنين فى خطاب واحد-يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا -و يعاتبهم و يهددهم على التثاقل عن إجابه النبى ص إلى ما أمرهم به من النفر فى سبيل الله و الخروج إلى الجهاد ثم الآيه الثانيه تهددهم بالعذاب و الاستبدال إن لم ينفروا و تبين لهم أن الله و رسوله فى غنى عنهم و لا يضرونه شيئا،ثم الآيه الثالثه توضح أن النبى ص فى غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليه الناصر له،و قد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه و هو نصره إياه إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

و من البين الذى لا مريه فيه أن مقتضى هذا المقام بيان نصره(ص)الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصه من دون صنع لأحد من المؤمنين فى ذلك لا بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم و قد جمعهم فى خطاب المعاتبه،و لا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه.

و لا أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله:« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثٰانِيَ اثْنَيْنِ » إشاره إجماليه إلى نصره العزيز لنبيه(ص)ثم يؤخذ فى تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصه بإنزال السكينه و التأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يأبى ذلك.

و يدفعه ثالثا:أن فيه غفله عن حقيقه معنى السكينه و قد تقدم الكلام فيها فى ذيل قوله تعالى:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ:» توبه:-۲۶.

و الأمر الثانى:أن المراد بتأييده(ص)بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على

ما يفيده السياق،و أما قول بعضهم:إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب و يوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البته.

و الأمر الثالث:أن المراد بالكلمه فى قوله:« وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‌ »هو ما قضوا به فى دار الندوه و عزموا عليه من قتله(ص)و إبطال دعوته الحقه بذلك،و بقوله:

« وَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيا »هو ما وعد الله نبيه ص من النصر و إظهار دينه على الدين كله.

و ذلك أن هذه الآيه بما تتضمنه من قوله:« فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » تشير إلى ما يقصه قوله تعالى:« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» :الأنفال:-٣٠،و الذى فى ذيل الآيه من إبطال كلمتهم و إحقاق الكلمه الإلهيه مرتبط بما فى صدر الآيه من حديث الإخراج أى الاضطرار إلى الخروج لا محاله،و الذى اضطره(ص)إلى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هى الكلمه التى أبطلها الله سبحانه و جعلها السفلى و تقابلها كلمه الله و ليست إلا النصر و الإظهار.

و من هنا يظهر أن قول بعضهم إن المراد بكلمه الذين كفروا الشرك و الكفر، و بكلمه الله تعالى التوحيد و الإيمان غير سديد فإن الشرك و إن كان كلمه لهم،و التوحيد كلمه لله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينه على الخلاف.

قوله تعالى:« اِنْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »الخفاف و الثقال جمعا خفيف و ثقيل،و الثقل بقرينه المقام كنايه عن وجود الموانع الشاغله الصارفه للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثره المشاغل الماليه و حب الأهل و الولد و الأقرباء و الأصدقاء الذى يوجب كراهه مفارقتهم،و فقد الزاد و الراحله و السلاح و نحو ذلك،و الخفه كنايه عن خلاف ذلك.

فالأمر بالنفر خفافا و ثقالا و هما حالان متقابلان فى معنى الأمر بالخروج على أى حال،و عدم اتخاذ شىء من ذلك عذرا يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال و الأنفس فى الذكر فى معنى الأمر بالجهاد بأى وسيله أمكنت.

و قد ظهر بذلك أن الأمر فى الآيه مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التى يسقط

معها وجوب الجهاد كالمرض و العمى و العرج و نحو ذلك فإن المراد بالخفه و الثقل أمر وراء ذلك.

قوله تعالى:« لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لاَتَّبَعُوكَ »إلى آخر الآيه.

العرض ما يسرع إليه الزوال و يطلق على المال الدنيوى و هو المراد فى الآيه بقرينه السياق،و المراد بقربه كونه قريبا من التناول،و القاصد من القصد و هو التوسط فى الأمر،و المراد بكون السفر قاصدا كونه غير بعيد المقصد سهلا على المسافر،و الشقه:

المسافه لما فى قطعها من المشقه.

و الآيه كما يلوح من سياقها تعيير و ذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبى ص إلى الجهاد فى غزوه تبوك إذ الغزوه التى خرج فيها النبى ص و تخلف عنه المنافقون و هى على بعد من المسافه هى غزوه تبوك لا غيرها.

و معنى الآيه:لو كان ما أمرتهم به و دعوتهم إليه عرضا قريب التناول و غنيمه حاضره و سفرا قاصدا قريبا هينا لاتبعوك يا محمد و خرجوا معك طمعا فى الغنيمه و لكن بعدت عليهم الشقه و المسافه فاستصعبوا السير و تثاقلوا فيه.

و سيحلفون بالله إذا رجعتم إليهم و لمتموهم على تخلفهم:لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم بما أخذوه من الطريقه:من الخروج إلى القتال طمعا فى عرض الدنيا إذا استيسروا القبض عليه،و التخلف عنه إذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعذر الكاذب على نبيهم و الحلف فى ذلك بالله كاذبين،أو يهلكون أنفسهم بهذا الحلف الكاذب،و الله يعلم إنهم لكاذبون.

قوله تعالى:« عَفَا اللّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ »الجمله الأولى دعاء للنبى ص بالعفو نظير الدعاء على الإنسان بالقتل فى قوله:« قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ:» عبس:-١٧،و قوله:« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ» :المدثر:-١٩ و قوله:« قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ:» التوبه:-٣٠.

و الجمله متعلقه بقوله:« لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ »أى فى التخلف و القعود،و لما كان الاستفهام للإنكار أو التوبيخ كان معناه:كان ينبغى أن لا تأذن لهم فى التخلف و القعود،و يستقيم به تعلق الغايه التى يشتمل عليها قوله:« حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ

صَدَقُوا

»الآیه.بقوله:« لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ »فالتعلق إنما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام و إلا أفاد خلاف المقصود،و الکلام مسوق لبیان ظهور کذبهم و أن أدنی الامتحان کالکف عن إذنهم فی القعود یکشف عن فصاحتهم.

و معنی الآیه:عفا الله عنک لم أذنت لهم فی التخلف و القعود؟و لو شئت لم تأذن لهم-و کانوا أحق به-حتی یتبین لک الذین صدقوا و تعلم الکاذبین فیتمیز عندک کذبهم و نفاقهم.

و الآیه-کما تری و تقدمت الإشاره إلیه-فی مقام دعوی ظهور کذبهم و نفاقهم و أنهم مفتضحون بأدنی امتحان یمتحنون به،و من مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلی المخاطب و توبیخه و الإنکار علیه کأنه هو الذی ستر علیهم فضائح أعمالهم و سوء سریرتهم،و هو نوع من العنایه الکلامیه یتبین به ظهور الأمر و وضوحه لا یراد أزید من ذلک فهو من أقسام البیان علی طریق:«إیاک أعنی و اسمعی یا جاره».

فالمراد بالکلام إظهار هذه الدعوی لا الکشف عن تقصیر النبی ص و سوء تدبیره فی إحیاء أمر الله،و ارتکابه بذلک ذنبا-حاشاه-و أولویه عدم الإذن لهم معناها کون عدم الإذن أنسب لظهور فضیحتهم و أنهم أحق بذلک لما بهم من سوء السریره و فساد النیه لا لأنه کان أولی و أحری فی نفسه و أقرب و أمس بمصلحه الدین.

و الدلیل علی هذا الذی ذکرنا قوله تعالی بعد ثلاث آیات:« لَوْ خَرَجُوا فِیکُمْ مٰا زٰادُوکُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَکُمْ یَبْغُونَکُمُ الْفِتْنَهَ وَ فِیکُمْ سَمّٰاعُونَ لَهُمْ »إلی آخر الآیتین،فقد کان الأصلح أن یؤذن لهم فی التخلف لیصان الجمع من الخبال و فساد الرأی و تفرق الکلمه،و المتعین أن یقعدوا فلا یفتنوا المؤمنین بإلقاء الخلاف بینهم و التفتین فیهم و فیهم ضعفاء الإیمان و مرضی القلوب و هم سماعون لهم یسرعون إلی المطاوعه لهم و لو لم یؤذن لهم فأظهروا الخلاف کانت الفتنه أشد و التفرق فی کلمه الجماعه أوضح و أبین.

و یؤکد ذلک قوله تعالی بعد آیتین:« وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّهً وَ لٰکِنْ کَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِیلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِینَ »فقد کان تخلفهم و نفاقهم ظاهرا لائحا من عدم إعدادهم العده یتوسمه فی وجوههم کل ذی لب،و لا یخفی مثل ذلک علی مثل النبی ص و قد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السوره کرارا فکیف

يصح أن يعاتب هاهنا عتابا جديا بأنه لم لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم و يميز المنافقين من المؤمنين،فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه.

و مما تقدم يظهر فساد قول من قال:إن الآيه تدل على صدور الذنب عنه(ص) لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب،و إن الإذن كان قبيحا منه(ص)و من صغائر الذنوب لأنه لا يقال فی المباح لم فعلته؟انتهی.

و هذا من لعبهم بكلام الله سبحانه،و لو اعترض معترض على ما يهجون به فی مثل المقام الذی سيقت الآيه فيه لم يرضوا بذلك،و قد أوضحنا أن الآيه مسوقه لغرض غير غرض الجد فی العتاب.

على أن قولهم:إن المباح لا يقال فيه:لم فعلت؟فاسد فإن من الجائز إذا شوهد من رجح غير الأولى على الأولى أن يقال له:لم فعلت ذلك و رجحته على ما هو أولى منه؟على أنك قد عرفت أن الآيه غير مسوقه لعتاب جدی.

و نظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال:إن بعض المفسرين و لا سيما الزمخشری قد أساءوا الأدب فی التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ص فی هذه الآيه،و كان يجب أن يتعلموا أعلى الأدب معه(ص)إذ أخبره ربه و مؤدبه بالعفو قبل الذنب، و هو منتهی التكريم و اللطف.

و بالغ آخرون كالرازی فی الطرف الآخر فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب،و غايته أن الإذن الذی عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى.

و هو جمود مع الاصطلاحات المحدثه و العرف الخاص فی معنى الذنب و هو المعصيه،و ما كان ينبغی لهم أن يهربوا من إثبات ما أثبته الله فی كتابه تمسكا باصطلاحاتهم و عرفهم المخالف له و المدلول اللغه أيضا.

فالذنب فی اللغه كل عمل يستتبع ضررا أو فوت منفعه أو مصلحه،مأخوذ من ذنب الدابه،و ليس مرادفا للمعصيه بل أعم منها.و الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه فی الآيه و هی تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين،و قد قال تعالى:

« إِنّٰا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ» XالآيهX:الفتح:-٢.

ثم ذكر فی كلام له طويل أن ذلك كان اجتهادا منه(ص)فيما لا وحی فيه من

الله و هو جائز و واقع من الأنبياء(ع)و ليسوا بمعصومين من الخطإ فيه و إنما العصمه المتفق عليها خاصه بتبليغ الوحی ببيانه و العمل به فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطئ فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل.

و منه ما تقدم فی سوره الأنفال من عتابه تعالى لرسوله(ص)فی أخذ الفديه من أسارى بدر حيث قال:« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيٰا وَ اللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ:» الأنفال:-٦٧ ثم بين أنه كان مقتضيا لنزول عذاب أليم لو لا كتاب من الله سبق فكان مانعا انتهى كلامه بنوع من التلخيص.

و ليت شعری ما الذی زاد فی كلامه على ما تفصى به الرازی و غيره حيث ذكروا أن ذلك من ترك الأولى،و لا يسمونه ذنبا فی عرف المتشرعين و هو الذی يستتبع عقابا،و ذكر هو أنه من ترك الأصلح و سماه ذنبا لغه.

على أنك قد عرفت فيما تقدم أنه لم يكن ذنبا لا عرفا و لا لغه بدلاله ناصه من الآيات على أن عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائله وقوع الفتنه و اختلاف الكلمه،و كانت هذه العله بعينها موجوده لو لم يأذن لهم النبی ص و ظهر منهم ما كانوا أبطنوه من الكفر و الخلاف و أن الذی ذكره الله بقوله:« وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً »إن عدم إعدادهم العده كان يدل على عدم إرادتهم الخروج،كان رسول الله ص أجل من أن يخفى عليه ذلك و هم بمرأى منه و مسمع.

مضافا إلى أنه(ص)كان يعرفهم فی لحن القول كما قال تعالى:« وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ:» سوره محمد:-٣٠ و كيف يخفى على من سمع من أحدهم مثل قوله:« اِئْذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي »أو يقول للنبی ص:« هُوَ أُذُنٌ »أو يلمزه فی الصدقات و لا ينصح له(ص)إن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم و ما وراءه إلا كفر و خلاف.

فقد كان النبی ص يتوسم منهم النفاق و الخلاف و يعلم بما فی نفوسهم،و مع ذلك فعتابه(ص)بأنه لم لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم و لم يميزهم من غيرهم؟ ليس إلا عتابا غير جدی للغرض الذی ذكرناه.

و أما قوله:«إن الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه فی

الآیه و هی تبین الذین صدقوا و العلم بالکاذبین»ففیه أن الذی تشتمل علیه الآیه من المصلحه هو تبین الذین صدقوا للنبی ص و علمه هو بالکاذبین لا مطلق تبینهم و لا مطلق العلم بالکاذبین،و قد ظهر مما تقدم أنه(ص)لم یکن یخفی علیه ذلک،و أن حقیقه المصلحه إنما کانت فی الإذن و هی سد باب الفتنه و اختلاف الکلمه فإنه(ص) کان یعلم من حالهم أنهم غیر خارجین البته سواء أذن لهم فی القعود أم لم یأذن فبادر إلی الإذن حفظا علی ظاهر الطاعه و وحده الکلمه.

و لیس لک أن تتصور أنه لو بان نفاقهم یومئذ و ظهر خلافهم بعدم إذن النبی لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتینهم و إلقائهم الخلاف لما فی الإسلام یومئذ-و هو یوم خروج النبی ص إلی غزوه تبوک-من الشوکه و القوه،و له(ص)من نفوذ الکلمه.

فإن الإسلام یومئذ إنما کان یملک القوه و المهابه فی أعین الناس من غیر المسلمین کانوا یرتاعون شوکته و یعظمون سواد أهله و یخافون حد سیوفهم،و أما المسلمون فی داخل مجتمعهم و بین أنفسهم فلم یخلصوا بعد من النفاق و مرض القلوب،و لم یستول علیهم بعد وحده الکلمه و جد الهمه و العزیمه،و الدلیل علی ذلک نفس هذه الآیات و ما یتلوها إلی آخر السوره تقریبا.

و قد کانوا تظاهروا بمثل ذلک یوم أحد و قد هجم علیهم العدو فی عقر دارهم فرجع ثلث الجیش الإسلامی من المعرکه و لم یؤثر فیهم عظه و لا إلحاح حتی قالوا:

لو نعلم قتالا لاتبعناکم،فکان ذلک أحد الأسباب العامله فی انهزام المسلمین.

و أما قوله:و من عتابه تعالی لرسوله(ص)فی خطئه فی اجتهاده ما تقدم فی سوره الأنفال من عتابه فی أخذ الفدیه من أساری بدر حیث قال:«مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »الآیه.

ففیه أولا:أنه من سوء الفهم فمن البین الذی لا یرتاب فیه أن الآیه بلفظها لا تعاتب علی أخذ الفدیه من الأسری و إنما تعاتب علی نفس أخذ الأسری-ما کان لنبی أن یکون له أسری-و لم تنزل آیه و لا وردت روایه فی أن النبی ص کان أمرهم بالأسر بل روایات القصه تدل علی أن النبی ص لما أمر بقتل بعض الأسری خاف الناس أن یقتلهم عن آخرهم فکلموه و ألحوا علیه فی أخذ الفدیه منهم لیتقووا بذلک علی

أعداء الدين و قد رد الله عليهم ذلك بقوله:« تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ».

و هـذا من أحسن الشواهد على أن العتاب فى الآيه متوجه إلى المؤمنين خاصه من غير أن يختص به النبى ص أو يشاركهم فيه و أن أكثر ما ورد من الأخبار فى هذا المعنى موضوعه أو مدسوسه.

و ثانيا:أن العتاب فى الآيه لو اختص بالنبى ص أو شـمله و غيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الـذنب بمعناه اللغوى و هو تفويت المصلحه بوجه فإن هـذا العتاب مـذيل بقوله تعالى فى الآيه التاليه:« لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ:» الأنفال:-۶۸ فلا يرتاب ذو لب فى أن التهديـد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المهدد عليه من المعصـيه المصـطلحه بل و من كبائر المعاصى،و هذا أيضا من الشواهد على أن العتاب فى الآيه متوجه إلى غير النبى ص.

قوله تعالى:« لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ »إلى آخر الآيتين تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق و يتميز به من المؤمن و هو الاستيذان فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله.

و قـد بين الله سـبحانه ذلـك بـأن الجهـاد فى سبيـل الله بالأموال و الأنفس من لوازم الإيمان بالله و اليوم الآخر بحقيقه الإيمان لما يورثه هذا الإيمان من صـفه التقوى،و المؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله و اليوم الآخر كان على بصـيره من وجوب الجهاد فى سبيل الله بماله و نفسه.و لا يـدعه ذلك أن يتثاقل عنه فيسـتأذن فى القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله و اليوم الآخر فقد صفه التقوى فارتاب قلبه و لا يزال يتردد فى ريبه فيحب التطرف،و يستأذن فى التخلف و القعود عن الجهاد.

قوله تعالى:« وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً »إلى آخر الآيه، العـده الأهبه،و الانبعاث -على ما فى المجمع،-الانطلاق بسـرعه فى الأمر،و التثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه.

و الآيه معطوفه على مـا تقـدم من قوله:« وَ اللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ »بحسب المعنى أى هم كاذبون فى دعواهم عـدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه و لو

أرادوه لأعـدوا له عده لأن من آثار من يريد أمرا من الأمور أن يتأهب له بما يناسبه من العده و الأهبه و لم يظهر منهم شـىء من ذلك.

و قوله:« وَ لٰكِنْ كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ »أى جزاء بنفاقهم و امتنانا عليك و على المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم،و يفرقوا كلمتكم بالتفتين و إلقاء الخلاف.

و قوله:« وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ » أمر غير تشريعى لا ينافى الأمر التشريعى بالنفر و الخروج،فقد أمرهم الله بلسان نبيه ص بالنفر و الخروج-و هـو أمر تشـريعى-و أمرهم من نـاحيه سـريرتهم الفاسـده و الريب المـتردد فى قلـوبهم و سـجاياهم البـاطنيه الخـبيثه بالقعود-و هو أمر غير تشريعى-و لا تنافى بينهما.

و لم ينسب قول:« اُقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ »إلى نفسه تنزيهـا لنفسه عن الأـمر بمـا لاـ يرتضـيه و هنـاك أسـباب متخلله آمره بـذلك كالشيطان و النفس،و إنما ينسب إليه تعالى بالواسطه لانطباق معنى الجزاء و الامتنان على المؤمنين عليه.

و ليتوافق الأمران المتخالفان صوره فى السياق أعنى قوله:« قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ »و قوله:« قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقٰاعِدِينَ ».

قوله تعـالى:« لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مٰا زٰادُوكُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ »الآـيه الخبـال هو الفساد و اضـطراب الرأى،و الإيضاح :الإسـراع فى الشر،و الخلاـل :البين! و البغى هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنه أى يطلبون لكم أو فيكم الفتنه على ما قيل، و الفتنه هى المحنه كالفرقه و اختلاف الكلمه على ما يناسب الآيه من معانيها،و السماع السريع الإجابه و القبول.

و الآيه فى مقام التعليل لقوله:« وَ لٰكِنْ كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ »امتنانا، و لذا جىء بالفصل من غير عطف،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَهَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتّٰى جٰاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللّٰهِ وَ هُمْ كٰارِهُونَ »أى أقسم لقد طلبوا المحنه و اختلاـف الكلمه و تفرق الجمـاعه من قبـل هـذه الغزوه-و هى غزوه تبوك-كمـا فى غزوه أحـد حين رجع عبـد الله بن أبى بن سلول بثلث القوم و خـذل النبى ص،و قلبوا لـك الأـمور بـدعوه الناس إلى الخلاف و تحريضـهم على المعصـيه و خـذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود و المشركين

على قتال المؤمنين و التجسس و غير ذلك حتى جاء الحق-و هو الحق الـذى يجب أن يتبع-و ظهر أمر الله-و هو الذى يريده من الدين-و هم كارهون لجميع ذلك.

و الآيه تستشهد على الآيه السابقه بـذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله، و توجيه الخطاب إلى النبى ص خاصه بعد عمومه فى الآيه السابقه لاختصاص الأمر فيه بالنبى ص أعنى تقليب الأمور عليه بخلاف ما فى الآيه السابقه من خروجهم فى الناس.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور،:فى قوله تعالى:« إِلّاٰ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّٰهُ »الآيه:أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ص من الليل لحق بغار ثور-قال:و تبعه أبو بكر-فلما سمع رسول الله ص حسه خلفه- خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحنح-فلما سمع ذلك رسول الله ص عرفه-فقام له حتى تبعه فأتيا الغار-.

فأصبحت قريش فى طلبه فبعثوا إلى رجل من قافه بنى مدلـج-فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار-و على بابه شجره فبال فى أصلها القائف-ثم قال:ما جاز صاحبكم الذى تطلبون هذا المكان-قال فعند ذلك حزن أبو بكر-فقال له رسول الله ص:

لاٰ تَحْزَنْ إِنَّ اللّٰهَ مَعَنٰا

-.

قال:فمكث هو و أبو بكر فى الغار ثلاثه أيام-يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيره و على يجهزهم-فاشتروا ثلاثه أباعر من إبل البحرين-و استأجر لهم دليلا- فلما كان بعض الليل من الليله الثالثه-أتاهم على بالإبل و الدليل فركب رسول الله ص راحلته- و ركب أبو بكر أخرى فتوجهوا نحو المدينه،و قد بعثت قريش فى طلبه.

و فيه،أخرج ابن سعد عن ابن عباس و على و عائشه بنت أبى بكر و عائشه بنت قدامه و سراقه بن جعشم-دخل حديث بعضهم فى بعض-قالوا": خرج رسول الله ص و القوم جلوس على بابه-فأخذ حفنه من البطحاء فجعل يذرها على رءوسهم- و يتلو:« يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ »الآيات و مضى-.

فقال لهم قائل ما تنتظرون؟قالوا:محمدا.قال:قد و الله مر بكم قالوا:

و الله ما أبصرناه و قاموا ينفضون التراب من رءوسهم،و خرج رسول الله(ص)و أبو بكر إلى غار ثور-فدخلاه و ضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض-.

و طلبته قريش أشد الطلب-حتى انتهوا إلى باب الغار فقال بعضهم:إن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد.

و فی إعلام الوری،-":فی حدیث سراقه بن جعشم مع النبی ص-قال: الذی اشتهر فی العرب یتقاولون فیه الأشعار-و یتفاوضونه فی الدیار أنه تبعه-و هو متوجه إلی المدینه طالبا لغرته(ص)لیحظی بذلک عند قریش،حتی إذا أمکنته الفرصه فی نفسه- و أیقن أن قد ظفر ببغیته ساخت قوائم فرسه-حتی تغیبت بأجمعها فی الأرض و هو بموضع جدب-و قاع صفصف فعلم أن الذی أصابه أمر سماوی-فنادی یا محمد:ادع ربک یطلق لی فرسی-و ذمه الله أن لا أدل علیک أحدا،فدعا له فوثب جواده کأنه أفلت من أنشوطه و کان رجلا داهیه،و علم بما رأی أنه سیکون له نبأ فقال:اکتب لی أمانا فکتب له و انصرف-.

قال محمد بن إسحاق:إن أبا جهل قال فی أمر سراقه أبیاتا فأجابه سراقه نظما:

أبا حکم و اللات (۱)لو کنت شاهدا

لأمر جوادی إذ تسیخ قوائمه

عجبت و لم تشکک بأن محمدا

نبی ببرهان فمن ذا یکاتمه؟

علیک بکف الناس عنه فإننی

أری أمره یوما ستبدو معالمه":

أقول:و رواه فی الکافی،بإسناده عن معاویه بن عمار عن أبی عبد الله(ع)، و فی الدر المنثور،بعده طرق،و أورده الزمخشری فی ربیع الأبرار.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن سعد و ابن مردویه عن ابن مصعب قال": أدرکت أنس بن مالک و زید بن أرقم-و المغیره بن شعبه فسمعتهم یتحدثون:أن النبی ص لیله الغار أمر الله شجره-فنبتت فی وجه النبی ص فسترته،و أمر الله العنکبوت فنسجت فی وجه النبی ص فسترته-و أمر الله حمامتین وحشیتین فوقفتا بفم الغار-.

و أقبل فتیان قریش من کل بطن رجل-بعصیهم و أسیافهم و هراویهم-حتی إذا

۱- ۱) و الله.

كـانوا مـن النبى ص قـدر أربعيـن ذراعـا-فعجـل بعضـهم فنظر فى الغـار فرجع إلى أصـحابه- فقـالوا:مـا لـك لـم تنظر فى الغار؟فقال:رأيت حمامتين بفم الغار-فعرفت أن ليس فيه أحد. الحديث.

و فى الـدر المنثور،أخرج عبـد الرزاق و ابن المنـذر عن الزهرى": فى قوله:« إِذْ هُمٰا فِى الْغٰارِ »قـال:الغـار الـذى فى الجبل الـذى يسمى ثورا.

أقول:و قد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور فى القرآن الكريم هو غار جبل ثور،و هو على أربعه فراسخ من مكه تقريبا.

و فى إعلام الورى،و قصص الأنبياء،": و بقى رسول الله ص فى الغـار ثلاثه أيـام-ثم أذن الله تعالى له بالهجره،و قال:اخرج من مكه يا محمد-فليس لك بها ناصر بعد أبى طالب فخرج رسول الله ص-.

و أقبـل راع لبعض قريش يقـال له:ابن أريقـط-فـدعاه رسـول الله ص فقـال له:يـا ابن أريقـط آتمنـك على دمى؟فقـال:إذن و الله أحرسك و أحفظك و لا أدل عليك،فأين تريد يا محمد؟قال: يثرب.قال:لأسلكن بك مسلكا لا يهتدى فيها أحد-فقال له رسول الله ص:ائت عليا-و بشره بأن الله قد أذن لى فى الهجره فهيئ لى زادا و راحله-.

و قـال له أبو بكر:ائت أسـماء ابنتى-و قـل لهـا:تهيئى لى زادا و راحلتين، و أعلم عـامر بن فهيره أمرنا،و كان من موالى أبى بكر و كان قد أسلم،-و قل له:

ائتنا بالزاد و الراحلتين-.

فجـاء ابن أريقـط إلى على(ع)فـأخبره بـذلك-فبعث على بن أبى طـالب إلى رسـول الله ص بزاد و راحله،و بعث ابن فهيره بزاد و راحلـتين،و خرج رسول الله ص من الغـار-و أخـذ به ابن أريقـط على طريق نخله بين الجبـال-فلم يرجعوا إلى الطريق إلا بقـديد فنزلوا على أم معبد هناك-.

قال:و قد كانت الأنصار بلغهم خروج رسول الله ص إليهم-و كانوا يتوقعون قدومه إلى أن وافى مسجد قبا-و نزل فخرج الرجال و النساء يستبشرون بقدومه.

أقول:و الأخبار فى تفاصيل قصص الهجره بالغه فى الكثره رواها أصحاب

النقل و أرباب السير من الشيعه و أهل السنه،و هی علی کثرتها متدافعه مضطربه لا یسع نقدها و استخراج الصافی منها مجال هذا الکتاب،و للدلاله علی إجمال القصه فیما أوردناه کفایه و هو کالمتفق علیه بین أخبار الفریقین.

و فی الدر المنثور،أخرج خیثمه بن سلیمان الطرابلسی فی فضائل الصحابه و ابن عساکر عن علی بن أبی طالب قال: إن الله ذم الناس کلهم و مدح أبا بکر فقال:

إِلاّٰ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّٰهُ-إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ کَفَرُوا ثٰانِیَ اثْنَیْنِ إِذْ هُمٰا فِی الْغٰارِ-إِذْ یَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ إِنَّ اللّٰهَ مَعَنٰا

.

أقول:نقد البحث فی مضامین الآیات الحافه بالقصه و ما ینضم إلیها من النقل الصحیح یوجب سوء الظن بهذه الروایه فإن الآیات التی تذم المؤمنین-أو الناس کلهم کما فی الروایه-و إلیها تشیر آیه الغار بما فیها من قوله:« إِلاّٰ تَنْصُرُوهُ »هی قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مٰا لَکُمْ إِذٰا قِیلَ لَکُمُ انْفِرُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ اثّٰاقَلْتُمْ إِلَی الْأَرْضِ »الآیه،و النقل القطعی یدل علی أن التثاقل المذکور لم یکن من عامه المؤمنین و جمیعهم،و إن کثیرا منهم سارع إلی إجابه الرسول ص فیما أمر به من النفر،و إنما تثاقل جماعه من الناس من مؤمن و منافق.

فخطاب« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »الشامل لجمیع المؤمنین،و الذم المتعقب له إنما هو من خطاب الجماعه بشأن بعضهم کخطاب الیهود بقوله:« فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِیٰاءَ اللّٰهِ:» البقره:-۹۱ و غیره،و هو کثیر فی القرآن غیر أن دیدن القرآن فی مثل هذه الموارد أن لا یضیع حق الصالحین و لا أجر المحسنین أعنی الأقلین الذین تعمهم أمثال هذه الخطابات العامه بالذم و التوبیخ فیتدارک أمرهم و یستثنیهم و یذکرهم بالجمیل کما فعل ذلک فیما سیأتی فی هذه السوره من الآیات المادحه للمؤمنین الشاکره لجمیل مساعیهم بقوله:

« وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ »الآیه،و غیره.

و إذا کانت الآیات-و قد نزلت فی غزوه تبوک-تعم المؤمنین جمیعا المسارعین فی الخروج و المتثاقلین فیه من غیر استثناء فهی تشمل عامه الصحابه و المؤمنین و فیهم أبو بکر نفسه غیر أنه تعالی تدارک ما لحق بالمسارعین فی الطاعه و الإجابه منهم فی آیات تالیه و شکر سعیهم.

فلو کان قوله فی الآیه:« إِلاّٰ تَنْصُرُوهُ »و هو یشیر إلی ما تقدم من حدیث

التثاقل و یومئ إلیه ذما للناس کلهم کان ذما لأبی بکر کما هو ذم لغیره بعدم نصرتهم للنبی(ص)أو تثاقلهم فی نصره،و مع ذلک لا تسمح الآیه بالدلاله علی نصر أبی بکر له((ص))بما فیها من قوله:« فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ کَفَرُوا ثانِیَ اثْنَیْنِ إِذْ هُما فِی الْغارِ إِذْ یَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنا »بل لو دل لدل علی نصر النبی(ص) لأبی بکر حیث طیب قلبه و سلاه بقوله:« لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنا ».

علی أنک قد عرفت فی البیان السابق أن الآیه بمقتضی المقام لا تتعرض إلا لنصر الله سبحانه وحده نبیه(ص)بعینه و شخصه،قبال ما یفرض من عدم نصر کافه المؤمنین له و خذلانهم إیاه فدلاله الآیه علی أن النبی(ص)یوم الغار لم ینصره إلا الله سبحانه وحده دلاله قطعیه.

و هذا المعنی فی نفسه أدل شاهد علی أن الضمائر فی تتمه جمل الآیه:« فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ کَلِمَهَ الَّذِینَ کَفَرُوا السُّفْلی وَ کَلِمَهُ اللّهِ هِیَ الْعُلْیا » للنبی(ص)،و الجمل مسوقه لبیان قیامه تعالی وحده بنصره نصرا عزیزا غیبیا لا صنع فیه لأحد من الناس،و هو إنزال السکینه علیه و تأییده بجنود غائبه عن الأبصار، و جعل کلمه الذین کفروا السفلی و إعلاء کلمه الحق و الله عزیز حکیم.

و أما غیر نصره النبی ص من المناقب التی یمدح الإنسان علیها فلو کان هناک شیء من ذلک لکان هو ما فی قوله:« ثانِیَ اثْنَیْنِ »و ما فی قوله:« لِصاحِبِهِ »فلنسلم أن کون الإنسان ثانیا لاثنین أحدهما النبی ص،و کونه صاحبا للنبی ص مذکورا فی القرآن بالصحبه من المفاخر التی یتنفس لها لکنها من المناقب الاجتماعیه التی تقدر لها فی المجتمعات قیمه و نفاسه،و أما القرآن الکریم فللقیمه فیه ملاک آخر،و للفضل و الشرف فی منطقه معنی آخر متکئ علی حقیقه هی أعلی من المقاصد الوضعیه الاجتماعیه،و هی کرامه العبودیه و درجات القرب و الزلفی.

و مجرد الصحابه الجسمانیه و الدخول فی العدد لا یدل علی شیء من ذلک،و قد تکرر فی کلامه تعالی أن التسمی بمختلف الأسماء و التلبس بما یتنفس فیه عامه الناس و یستعظمه النظر الاجتماعی لا قیمه له عند الله سبحانه،و أن الحساب علی ما فی القلوب دون ما یتراءی من ظواهر الأعمال و تقدمه الأحساب و الأنساب.

و قد أفصح عنه فی مورد أصحاب النبی ص و ملازمیه خاصه بأبلغ الإفصاح

قوله تعالی:« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً -Xإلی أن قالX- وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِیماً:» الفتح:-۲۹ فانظر إلی ما فی صدر الآیه من المدح و ما فی ذیله من القید و تدبر.

هذه نبذه مما یتعلق بالآیه و الروایه من البحث،و الزائد علی هذا المقدار یخرجنا من البحث التفسیری إلی البحث الکلامی الذی هو خارج عن غرضنا.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه و البیهقی فی الدلائل و ابن عساکر فی تاریخه عن ابن عباس": فی قوله:« فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ » قال:علی أبی بکر لأن النبی(ص)لم یزل السکینه معه.

و فیه،أخرج الخطیب فی تاریخه عن حبیب بن أبی ثابت": « فَأَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ »قال:علی أبی بکر فأما النبی(ص)فقد کانت علیه السکینه.

أقول:قد حقق فیما تقدم أن الضمیر راجع إلی النبی ص علی ما یهدی إلیه السیاق،و الروایتان علی ما بهما من الوقف ضعیفتان،و لا حجیه لقول ابن عباس و لا حبیب لغیرهما.

و أما الحجه التی أورداها فیهما و هی أن النبی(ص)لم تزل السکینه معه فمدخوله یدفعها قوله تعالی فی قصه حنین:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ سَکِینَتَهُ عَلی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ» XالآیهX:التوبه:-۲۶ و نظیرته آیه سوره الفتح المشیره إلی قصه الحدیبیه و هما تصرحان بنزول السکینه علیه((ص))فی خصوص المورد فلیکن الأمر علی تلک الوتیره فی الغار.

و کان بعضهم (۱)أحس بالإشکال فحمل قولهما فی الروایتین:أن السکینه لم تزل مع النبی(ص)علی معنی آخر و هو کون السکینه ملازمه للنبی(ص)فی الغار فیکون قرینه علی کون التی نزلت فیه إنما نزلت علی صاحبه دونه،و لعل روایه حبیب أقرب دلاله علی ما ذکره.

قال بعد إیراد روایه ابن عباس ثم روایه حبیب:و قد أخذ بهذه الروایه بعض مفسری اللغه و المعقول و وضحوا ما فیها من التعلیل بأنه(ص)لم یحدث له وقتئذ

۱- ۱) صاحب المنار فی تفسیره.

اضطراب و لا خوف و لا حزن،و قواها بعضهم بأن الأصل فی الضمیر أن یعود إلی أقرب مذکور.و لیس هذا بشیء.

و ذهب آخرون إلی أن الضمیر یعود إلی النبی(ص)و أن إنزال السکینه علیه لا یقتضی أن یکون خائفا أو مضطربا أو منزعجا.و هذا ضعیف لعطف إنزال السکینه علی ما قبلها الدال علی وقوعه بعده و ترتبه علیه،و أن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه:لا تحزن.انتهی.

أما ما ذکروه من عدم طرو خوف و اضطراب علیه((ص))وقتئذ فإن کانوا استفادوه من عدم ذکر شیء من ذلک فی الآیه أو فی روایه معتمد علیها فکلامه تعالی فی قصه حنین و الحدیبیه أیضا خال عن ذکر النبی(ص)بخوف أو حزن أو اضطراب،و لم ترد روایه معتمد علیها تدل علی ذلک فکیف استقام ذکر نزول السکینه علیه(ص)فیهما؟.

و إن قالوا باستلزام إنزال السکینه الاضطراب و الخوف و الحزن فهو ممنوع کما تقدم کیف؟و نزول نعمه من النعم الإلهیه لا یتوقف علی سبق الاتصاف بحاله مضاده لها و نقمه مقابله لها کنزول الرحمه بعد الرحمه و النعمه بعد النعمه و الإیمان و الهدایه بعد الإیمان و الهدایه و غیر ذلک،و قد نص القرآن الکریم بأمور کثیره من هذا القبیل.

و أما قوله:إن رجوع الضمیر إلی النبی(ص)ضعیف لعطف إنزال السکینه علی ما قبلها الدال علی وقوعه بعده و ترتبه علیه و أن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه:

لا تحزن.انتهی.

ففیه:أنه لا ریب أن فاء التفریع تدل علی ترتب ما بعدها علی ما قبلها و وقوعه بعده لکن بعدیه رتبیه لا بعدیه زمانیه و لم یقل أحد بوجوب کونها زمانیه دائما.

فمن الواجب فیما نحن فیه أن یترتب قوله:« فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ وَ أَیَّدَهُ » علی ما تقدم علیه من الکلام لا علی ما هو أقرب إلیه من غیره إلا علی القول بأن الأصل فی الضمیر أن یعود إلی أقرب مذکور،و قد ضعفه فی سابق کلامه.

و الذی یصلح من سابق لیتعلق به التفریع المذکور هو قوله:فقد نصره الله فی کذا و کذا وقتا و تفرع هذه الفروع علیه من قبیل تفرع التفصیل علی الإجمال و السیاق علی استقامته:«فقد نصره الله فی وقت کذا فأنزل سکینته علیه و أیده

بجنود لم تروها و جعل كلمه الذين كفروا السفلى.

فظهر أن ما أجاب به أخيرا هو عين ما ضعفه أولا من حديث أصل قرب المرجع من الضمير-ذاک الأصل الذى لا أصل له-كرره ثانيا بتغيير ما فى اللفظ.

و من هنا يظهر جهه المناقشه

فى روايه أخرى رواها فى الدر المنثور،عن ابن مردويه عن أنس بن مالک«قال: دخل النبى(ص)و أبو بكر غار حراء-فقال أبو بكر للنبى(ص)لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى و إياک-فقال:ما ظنک باثنين الله ثالثهما-إن الله أنزل سكينته عليک و أيدنى بجنود لم تروها.

على أن الروايه تذكر غار حراء و قد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أن الغار كان غار ثور لا غار حراء.

على أن الروايه مشتمله على تفكيک السياق صريحا بما فيها من قوله:أنزل سكينته عليک و أيدنى بجنود،إلخ.

و قد أورد الآلوسى فى روح المعانى،الروايه هكذا:«إن الله أنزل سكينته عليک و أيدک بجنود لم تروها،فأرجع الضميرين إلى أبى بكر دون النبى(ص).

و لا ندرى أى اللفظين هو الأصل و أيهما المحرف غير أنه يضاف على روايه «و أيدک بجنود لم تروها»إلى ما ذكر من الإشكال آنفا إشكالات أخرى تقدمت فى البيان السابق مضافا إلى إشكال آخر جديد من جهه قوله:«لم تروها»بخطاب الجمع و لا مخاطب يومئذ جمعا.

و فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى:« لَوْ كٰانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قٰاصِداً »:فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع): فى قوله:« لَوْ كٰانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قٰاصِداً »يقول:غنيمه قريبه« لاَتَّبَعُوکَ ».

و فى تفسير العياشى،عن زراره و حمران و محمد بن مسلم،عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع): فى قول الله:« لَوْ كٰانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قٰاصِداً لاَتَّبَعُوکَ »الآيه- إنهم يستطيعون و قد كان فى علم الله-أنه لو كان عرضا قريبا و سفرا قاصدا لفعلوا:

أقول:و رواه الصدوق فى المعانى،بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين عن أبى عبد الله(ع)مثله .

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى:« وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ »يعنى إلى

تبوک و سبب ذلک-أن رسول الله ص لم یسافر سفرا أبعد منه و لا أشد منه-.

و کان سبب ذلک أن الصیافه کانوا یقدمون المدینه من الشام-و معهم الدرموک و الطعام.و هم الأنباط فأشاعوا بالمدینه أن الروم قد اجتمعوا-یریدون غزو رسول الله ص فی عسکر عظیم،و أن هرقل قد سار فی جمع جنوده،و جلب معهم غسان و جذام و بهراء و عامله،و قد قدم عساکره البلقاء و نزل هو حمص-.

فأرسل رسول الله ص أصحابه إلی تبوک و هی من بلاد البلقاء،و بعث إلی القبائل حوله،و إلی مکه،و إلی من أسلم من خزاعه و مزینه و جهینه فحثهم علی الجهاد-.

و أمر رسول الله ص بعسکره فضرب فی ثنیه الوداع،و أمر أهل الجده أن یعینوا من لا قوه به،و من کان عنده شیء أخرجه،و حملوا و قووا و حثوا علی ذلک-.

و خطب رسول الله ص و قال بعد حمد الله و الثناء علیه:أیها الناس إن أصدق الحدیث کتاب الله.و أولی القول کلمه التقوی،و خیر الملل مله إبراهیم، و خیر السنن سنه محمد،و أشرف الحدیث ذکر الله،و أحسن القصص هذا القرآن، و خیر الأمور عزائمها و شر الأمور محدثاتها،و أحسن الهدی هدی الأنبیاء،و أشرف القتلی الشهداء،و أعمی العمی الضلاله بعد الهدی،و خیر الأعمال ما نفع،و خیر الهدی ما اتبع،و شر العمی عمی القلب و الید العلیا خیر من الید السفلی،و ما قل و کفی خیر مما کثر و ألهی،و شر المعذره محضر الموت،و شر الندامه یوم القیامه، و من الناس من لا یأتی الجمعه إلا نزرا.و منهم من لا یذکر الله إلا هجرا،و من أعظم الخطایا اللسان الکذب،و خیر الغنی غنی النفس،و خیر الزاد التقوی،و رأس الحکمه مخافه الله،و خیر ما ألقی فی القلب الیقین،و الارتیاب من الکفر،و التباعد من عمل الجاهلیه،و الغلول من قیح جهنم،و السکر جمر النار،و الشعر من إبلیس، و الخمر جماع الإثم،و النساء حبائل إبلیس،و الشباب شعبه من الجنون،و شر المکاسب کسب الربا،و شر الأکل أکل مال الیتیم،و السعید من وعظ بغیره،و الشقی من شقی فی بطن أمه،و إنما یصیر أحدکم إلی موضع أربعه أذرع،و الأمر إلی آخره و ملاک الأمر خواتیمه،و أربی الربا الکذب،و کلما هو آت قریب،و سباب المؤمن فسوق،و قتال المؤمن کفر،و أکل لحمه من معصیه الله،و حرمه ماله کحرمه دمه، و من توکل علی الله کفاه،و من صبر ظفر،و من یعف یعف الله عنه،و من کظم الغیظ

آجره الله،و من يصبر على الرزيه يعوضه الله،و من تبع السمعه يسمع الله به، و من يصم يضاعف الله له،و من يعص الله يعذبه،اللهم اغفر لی و لأمتی.اللهم اغفر لی و لأمتی أستغفر الله لی و لكم-.

قال:فرغب الناس فی الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله،و قدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم،و قعد عنه قوم من المنافقين و غيرهم،و لقی رسول الله ص الجد بن قيس فقال له:يا أبا وهب أ لا تنفر معنا فی هذه الغزاه؟لعلك إن تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله:و الله إن قومی ليعلمون أن ليس فيهم أشد عجبا بالنساء منی-و أخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر-فلا تفتنی و ائذن لی أن أقيم.و قال للجماعه من قومه:لا تخرجوا فی الحر-.

فقال ابنه:ترد على رسول الله و تقول له ما تقول-ثم تقول لقومك:لا تنفروا فی الحر-و الله لينزلن الله فی هذا قرآنا يقرؤه الناس إلى يوم القيامه-فأنزل الله على رسوله ص فی ذلك:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لاٰ تَفْتِنِّی-أَلاٰ فِی الْفِتْنَهِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَهٌ بِالْكٰافِرِينَ ».

ثم قال الجد بن قيس:أ يطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم.لا يرجع من هؤلاء أحد أبدا.

أقول:و قد روی هذه المعانی فی روايات أخرى كثيره من طرق الشيعه و أهل السنه.

و فی العيون،بإسناده عن علی بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا علی بن موسى(ع)-فقال له:يا ابن رسول الله أ ليس من قولك:إن الأنبياء معصومون؟قال:بلى،فقال له المأمون-فيما سأله-يا أبا الحسن فأخبرنی عن قول الله تعالى:« عَفَا اللّٰهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ».

قال الرضا(ع):«-هذا مما نزل:إياك أعنی و اسمعی يا جاره،خاطب الله تعالى بذلك نبيه و أراد به أمته،و كذلك قوله عز و جل:« لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ »،و قوله تعالى:« وَ لَوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ».قال:صدقت يا ابن رسول الله.

أقول:و مضمون الروايه ينطبق على ما قدمناه فی بيان الآيه،دون ما ذكروه

من کون إذنه(ص)لهم فی القعود من قبیل ترک الأولی فإنه لا یستقیم معه کون الآیه من قبیل«إیاک أعنی و اسمعی یا جاره».

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق فی المصنف؛و ابن جریر،عن عمرو بن میمون الأودی قال": اثنتان فعلهما رسول الله ص لم یؤمر فیهما بشیء:إذنه للمنافقین، و أخذه من الأساری-فأنزل الله:« عَفَا اللّٰهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ »الآیه.

أقول:و قد تقدم الکلام علی مضمون الروایه.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّهً »الآیه- و ما بعدها قال:و تخلف عن رسول الله ص أهل نیات-و بصائر لم یکن یلحقهم شک و لا ارتیاب-و لکنهم قالوا:نلحق برسول الله ص-.

منهم أبو خیثمه و کان قویا و کان له زوجتان و عریشان،و کانتا زوجتاه قد رشتا عریشتیه،و بردتا له الماء،و هیأتا له طعاما فأشرف علی عریشتیه-فلما نظر إلیهما قال:لا و الله ما هذا بإنصاف،رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر-قد خرج فی الفیح و الریح،و قد حمل السلاح یجاهد فی سبیل الله،و أبو خیثمه قوی قاعد فی عریشه و امرأتین حسناوین-لا و الله ما هذا بإنصاف-.

ثم أخذ ناقته فشد علیها رحله و لحق برسول الله ص-فنظر الناس إلی راکب علی الطریق-فأخبروا رسول الله ص بذلک-فقال رسول الله ص:کن أبا خیثمه فأقبل،و أخبر النبی بما کان منه فجزاه خیرا و دعا له-.

و کان أبو ذر تخلف عن رسول الله ثلاثه أیام-و ذلک أن جمله کان أعجف،فلحق بعد ثلاثه أیام به و وقف علیه جمله فی بعض الطریق-فترکه و حمل ثیابه علی ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلی شخص مقبل-فقال رسول الله ص:کن أبا ذر فقالوا:

هو أبو ذر فقال رسول الله ص:أدرکوه فإنه عطشان فأدرکوه بالماء-.

و وافی أبو ذر رسول الله ص و معه إداوه فیها ماء-فقال رسول الله ص:

یا أبا ذر معک ماء و عطشت؟قال:نعم یا رسول الله-بأبی أنت و أمی انتهیت إلی صخره علیها ماء السماء فذقته-فإذا هو عذب بارد فقلت:لا أشربه حتی یشرب رسول الله-.

فقال رسول الله ص:یا أبا ذر رحمک الله،تعیش وحدک،و تموت وحدک،

و تبعث وحدك،و تدخل الجنه وحدك،يسعد بك قوم من أهل العراق-يتولون غسلك و تجهيزك و الصلاه عليك و دفنك-.

ثم قال:و قد كان تخلف عن رسول الله ص قوم من المنافقين-و قوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم فى نفاق:منهم كعب بن مالك الشاعر-و مراره بن الربيع و هلال بن أميه الرافعى-فلما تاب الله عليهم قال كعب.ما كنت قط أقوى منى فى ذلك الوقت الذى خرج رسول الله ص إلى تبوك،و ما اجتمعت لى راحلتان قط إلا فى ذلك اليوم،و كنت أقول:أخرج غدا بعد غد فإنى مقوى،و توانيت و ثقلت بعد خروج النبى ص أياما أدخل السوق-و لا أقضى حاجه فلقيت هلال بن أميه و مراره بن الربيع-و قد كانا تخلفا أيضا فتوافقنا أن نبكر إلى السوق؛فلم نقض حاجه فما زلنا نقول:نخرج غدا و بعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله(ص)فندمنا-.

فلما وافى رسول الله ص استقبلناه نهنئه السلامه-فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام و أعرض عنا،و سلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام-فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا كلامنا؛و كنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد و لا يكلمنا-فجاءت نساؤنا إلى رسول الله(ص)فقلن:قد بلغنا سخطك على أزواجنا أ فنعتزلهم؟فقال رسول الله(ص):لا تعتزلنهم و لكن لا يقربوكن-.

فلما رأى كعب بن مالك و صاحباه ما قد حل بهم قالوا:ما يقعدنا بالمدينه و لا يكلمنا رسول الله(ص)و لا إخواننا و لا أهلونا؟فهلموا نخرج إلى هذا الجبل- فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت-.

فخرجوا إلى ذباب-جبل بالمدينه-فكانوا يصومون و كان أهلوهم يأتونهم بالطعام-فيضعونه ناحيه ثم يولون عنهم و لا يكلمونهم-.

فبقوا على هذا أياما كثيره يبكون بالليل و النهار-و يدعون الله أن يغفر لهم فلما طال عليهم الأمر-قال لهم كعب:يا قوم قد سخط الله علينا و رسوله،و قد سخط علينا أهلونا، و إخواننا-قد سخطوا علينا فلا يكلمنا أحد-فلم لا يسخط بعضنا على بعض؟فتفرقوا فى الجبل-و حلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت-أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثه أيام،و كل واحد منهم فى ناحيه من الجبل-لا يرى أحد منهم صاحبه و لا يكلمه.

ص :٣٠٢

فلما كان فى الليله الثالثه،و رسول الله ص فى بيت أم سلمه-نزلت توبتهم على رسول الله ص قوله:« لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين و الأنصار-الذين اتبعوه فى ساعه العسره »قال الصادق(ع):هكذا نزلت و هو أبو ذر و أبو خيثمه و عمير بن وهب-الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ص-.

ثم قال فى هؤلاء الثلاثه:« وَ عَلَى الثَّلاٰثَهِ الَّذِينَ خُلِّفُوا »فقال العالم(ع):إنما أنزل:

على الثلاثه-الذين خالفوا و لو خلفوا لم يكن عليهم عيب« حَتّٰى إِذٰا ضٰاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ »حيث لا يكلمهم رسول الله ص-و لا- إخوانهم و لا- أهلوهم فضاقت عليهم المدينه-حتى خرجوا منها« وَ ضٰاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ »حيث حلفوا أن لا- يكلم بعضهم بعضا-فتفرقوا و تاب الله عليهم لما عرف من صدق نياتهم.

أقول:و سيأتى الكلام فى الآيتين و ما ورد فيهما من الروايات.

و فى تفسير العياشى،عن المغيره قال:سمعته يقول: فى قول الله عز و جل:« وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّهً »قال:يعنى بالعده النيه«يقول:«لو كان لهم نيه لخرجوا.

أقول:الروايه على ضعفها و إرسالها و إضمارها لا تنطبق على لفظ الآيه و الله أعلم.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن الحسن البصرى قال": كان عبد الله بن أبى و عبد الله بن نبتل-و رفاعه بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين، و كانوا ممن يكيد الإسلام و أهله،و فيهم أنزل الله:« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَهَ مِنْ قَبْلُ-وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ »إلى آخر الآيه.

[سوره التوبه (٩): الآيات ۴٩ الى ۶٣]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي أَلاٰ فِي اَلْفِتْنَهِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَهٌ بِالْكٰافِرِينَ (۴٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَهٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَهٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنٰا أَمْرَنٰا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (۵٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنٰا إِلاّٰ مٰا كَتَبَ اَللّٰهُ لَنٰا هُوَ مَوْلاٰنٰا وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۵١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَى اَلْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اَللّٰهُ بِعَذٰابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينٰا فَتَرَبَّصُوا إِنّٰا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (۵٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فٰاسِقِينَ (۵٣) وَ مٰا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقٰاتُهُمْ إِلاّٰ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لاٰ يَأْتُونَ اَلصَّلاٰهَ إِلاّٰ وَ هُمْ كُسٰالىٰ وَ لاٰ يُنْفِقُونَ إِلاّٰ وَ هُمْ كٰارِهُونَ (۵۴) فَلاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِي اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ (۵۵) وَ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مٰا هُمْ مِنْكُمْ وَ لٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغٰارٰاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵٧) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي اَلصَّدَقٰاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهٰا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهٰا إِذٰا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اَللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنّٰا إِلَى اَللّٰهِ رٰاغِبُونَ (۵٩) إِنَّمَا اَلصَّدَقٰاتُ لِلْفُقَرٰاءِ وَ اَلْمَسٰاكِينِ وَ اَلْعٰامِلِينَ عَلَيْهٰا وَ اَلْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي اَلرِّقٰابِ وَ اَلْغٰارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ فَرِيضَهً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶٠) وَ مِنْهُمُ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ

اَلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۶۱) يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذٰلِكَ اَلْخِزْيُ اَلْعَظِيمُ (۶۳)

(بیان)

الآیـات تعقب القول فی المنـافقین و بیـان حـالهم و فیهـا ذکر أشـیاء من أقوالهم و أفعـالهم،و البحث عما یکشف عنه من خبائث أوصافهم الباطنه و اعتقاداتهم المبنیه علی الضلال.

قوله تعـالی:« وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لاٰ تَفْتِنِّی أَلاٰ فِی الْفِتْنَهِ سَقَطُوا »الآیه الفتنه هاهنا-علی ما یهـدی إلیه السـیاق-إما الإلقاء إلی ما یفتتن و یغر به،و إما الإلقاء فی الفتنه و البلیه الشامله.

و المراد علی الأـول:ائـذن لی فی القعود و عـدم الخروج إلی الجهاد،و لا تلقنی فی الفتنه بتوصـیف ما فی هـذه الغزوه من نفائس الغنائم و مشـتهیات الأنفس فافتتن بها و اضـطر إلی الخروج،و علی الثانی ائـذن لی و لا تلقنی إلی ما فی هذه الغزوه من المحنه و المصیبه و البلیه.

فأجـاب الله عن قولهم بقولهم:« أَلاٰ فِی الْفِتْنَهِ سَقَطُوا »و معناه أنهم یحترزون بحسب زعمهم عن فتنه مترقبه من قبل الخروج،و قد أخطئوا فإن الذی هم علیه من الکفر و النفاق و سوء السـریره،و من آثاره هذا القول الذی تفوهوا به هو بعینه فتنه سـقطوا فیها فقد فتنهم الشیطان بالغرور،و وقعوا فی مهلکه الکفر و الضلال و فتنته.

هذا حالهم فی هذه النشأه الدنیویه و أما فی الآخره فإن جهنم لمحیطه بالکافرین علی حذو إحاطه الفتنه بهم فی الدنیا و سقوطهم فیها فقوله:« أَلاٰ فِی الْفِتْنَهِ سَقَطُوا » و قوله:« وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکٰافِرِینَ »کأنهما معا یفیـدان معنی واحدا و هو أن هؤلاء واقعون فی الفتنه و التهلکه أبدا فی الدنیا و الآخره.

و یمکن أن یفهم من قوله:« وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ »الإحاطه بالفعل دون الإحاطه الاستقبالیه کما تهدی إلیه الآیات الداله علی تجسم الأعمال.

قوله تعالی:« إِنْ تُصِبْکَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْکَ مُصِیبَةٌ یَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ »المراد بالحسنه و السیئه بقرینه السیاق ما تتعقبه الحروب و المغازی لأهلها من حسنه الفتح و الظفر و الغنیمه و السبی،و من سیئه القتل و الجرح و الهزیمه.

و قوله:« یَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ »کنایه عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه کأن أمرهم کان خارجا من أیدیهم فأخذوه و قبضوا و تسلطوا علیه فلم یدعوه یفسد و یضیع.

فمعنی الآیه إن هؤلاء المنافقین هواهم علیک:إن غنمت و ظفرت فی وجهک هذا ساءهم ذلک،و إن قتلت أو جرحت أو أصبت بأی مصیبه أخری قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل و تولوا و هم فرحون.

و قد أجاب الله سبحانه عن ذلک بجوابین اثنین فی آیتین:قوله:« قُلْ لَنْ یُصِیبَنا »إلخ و قوله:« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ »إلخ.

قوله تعالی:« قُلْ لَنْ یُصِیبَنا إِلاّ ما کَتَبَ اللّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَی اللّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »محصله أن ولایه أمرنا إنما هی لله سبحانه فحسب-علی ما یدل علیه قوله:« هُوَ مَوْلانا »من الحصر-لا إلی أنفسنا و لا إلی شیء من هذه الأسباب الظاهره،بل حقیقه الأمر لله وحده و قد کتب کتابه حتم ما سیصیبنا من خیر أو شر أو حسنه أو سیئه،و إذا کان کذلک فعلینا امتثال أمره و السعی لإحیاء أمره و الجهاد فی سبیله و لله المشیه فیما یصیبنا فی ذلک من حسنه أو سیئه فما علی العبید إلا ترک التدبیر و امتثال الأمر و هو التوکل.

و بذلک یظهر:أن المراد بقوله:« وَ عَلَی اللّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »لیس کلاما مستأنفا بل معطوف علی ما قبله متمم له،و المعنی أن ولایه أمرنا لله و نحن مؤمنون به،و لازمه أن نتوکل علیه و نرجع الأمر إلیه من غیر أن نختار لأنفسنا شیئا من الحسنه و السیئه فلو أصابتنا حسنه کان المن له و إن أصابتنا سیئه کانت المشیه و الخیره له، و لا لوم علینا و لا شماته تتعلق بنا،و لا حزن و لا مساءه یطرأ علی قلوبنا.

و قد قال تعالی:« مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی أَنْفُسِکُمْ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهٰا إِنَّ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیرٌ. لِکَیْلاٰ تَأْسَوْا عَلیٰ مٰا فٰاتَکُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاکُمْ:» الحدید:-۲۳،و قال:« مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِیبَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ یَهْدِ قَلْبَهُ:» التغابن:-۱۱ و قال:« ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا:» سوره محمد:-۱۱، و قال:« وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ:» آل عمران:-۶۸،و قال:« فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِیُّ:» الشوری:-۹.

و الآیات-کما تری-تتضمن أصول هذه الحقیقه التی تنبئ عنه الآیه التی نتکلم فیها جوابا عن وهم المنافقین،و هی أن حقیقه الولایه لله سبحانه لیس إلی أحد من دونه من الأمر شیء فإذا آمن الإنسان به و عرف مقام ربه علم ذلک و کان علیه أن یتوکل علی ربه و یرجع إلیه حقیقه المشیه و الخیره فلا یفرح بحسنه أصابته،و لا یحزن لسیئه أصابته.

و من الجهل أن یسوء الإنسان ما أصابت عدوه من حسنه أو یسره ما أصابته من سیئه فلیس له من الأمر شیء،و هذا هو الجواب الأول عن مساءتهم بما أصاب المؤمنین من الحسنه و فرحهم بما أصابتهم من السیئه.

و ظاهر کلام بعض المفسرین أن المولی فی الآیه بمعنی الناصر،و کذا ظاهر کلام بعضهم:أن قوله:« وَ عَلَی اللّٰهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »جمله مستأنفه أمر الله فیها المؤمنین بالتوکل علیه،و السیاق المشهود من الآیتین لا یساعد علیه.

قوله تعالی:« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَی الْحُسْنَیَیْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِکُمْ » الآیه الحسنیان هما الحسنه و السیئه علی ما یدل علیه الآیه الأولی الحاکیه أنهم یسوؤهم ما أصاب النبی ص من حسنه،و تسرهم ما أصابه من سیئه فیقولون قد أخذنا أمرنا من قبل فهم علی حال تربص ینتظرون ما یقع به و بالمؤمنین من الحسنه أو السیئه.

و الحسنه و السیئه کلتاهما حسنیان بحسب النظر الدینی فإن فی الحسنه حسنه الدنیا و عظیم الأجر عند الله،و فی السیئه التی هی الشهاده أو أی تعب و عناء أصابهم مرضاه الله و ثواب خالد دائم.

و معنی الآیه أنا نحن و أنتم کل یتربص بصاحبه غیر أنکم تتربصون بنا إحدی خصلتین کل واحده منهما خصله حسنی و هما: الغلبه علی العدو مع الغنیمه،و الشهاده

فی سبیل الله،و نحن نتربص بکم أن یعذبکم الله بعذاب من عنده کالعذاب السماوی أو بعذاب یجری بأیدینا کأن یأمرنا بقتالکم و تطهیر الأرض من قذاره وجودکم فنحن فائزون علی أی حال،إن وقع شیء مما تربصتم سعدنا،و إن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إنا معکم متربصون،و هذا جواب ثان عن المنافقین.

و قد ذکر فی الآیه الأولی إصابه الحسنه و السیئه النبی ص،و فی مقام الجواب فی الآیتین الثانیه و الثالثه إصابتهما النبی و المؤمنین جمیعا لملازمتهم إیاه و مشارکتهم إیاه فیما أصابه من حسنه أو سیئه.

قوله تعالی:« قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً لَنْ یُتَقَبَّلَ مِنْکُمْ إِنَّکُمْ کُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِینَ » لفظ أمر فی معنی الشرط.و التردید للتعمیم و لفظ الأمر فی هذه الموارد کنایه عن عدم النهی و سد السبیل إیماء إلی أن الفعل لغو لا یترتب علیه أثر،و قوله:« لَنْ یُتَقَبَّلَ مِنْکُمْ » تعلیل للأمر کما أن قوله تعالی:« إِنَّکُمْ کُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِینَ »تعلیل لعدم القبول.

و معنی الآیه:لا نمنعکم عن الإنفاق فی حال من طوع أو کره فإنه لغو غیر مقبول لأنکم فاسقون،و لا یقبل عمل الفاسقین،قال تعالی:« إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ:» المائده:-۲۷ و التقبل أبلغ من القبول.

قوله تعالی:« وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاّ أَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّهِ وَ بِرَسُولِهِ » إلخ الآیه تعلیل تفصیلی لعدم تقبل نفقاتهم،و بعباره أخری بمنزله الشرح لفسقهم،و قد عدت الکفر بالله تعالی و رسوله و الکسل فی إقامه الصلاه و الکره فی الإنفاق أرکانا لنفاقهم.

قوله تعالی:« فَلا تُعْجِبْکَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُعَذِّبَهُمْ بِها »إلی آخر الآیه،الإعجاب بالشیء السرور بما یشاهد فیه من جمال أو کمال أو نحوهما،و الزهوق خروج الشیء بصعوبه و أصله الهلاک علی ما قیل.

و قد نهی الله سبحانه نبیه ص عن الإعجاب بأموال المنافقین و أولادهم أی بکثرتها علی ما یعطیه السیاق،و علل ذلک بأن هذه الأموال و الأولاد-و هی شاغله للإنسان لا محاله-لیست من النعمه التی تهتف لهم بالسعاده بل من النقمه التی تجرهم إلی الشقاء فإن الله و هو الذی خولهم إیاها إنما أراد بها تعذیبهم فی الحیاه الدنیا،و توفیهم و هم کافرون.

فإن الحياه التى يعدها الموجود الحى سعاده لنفسه و راحه لذاته إنما تكون سعاده فيها الراحه و البهجه إذا جرت على حقيقه مجراها و هو أن يتلبس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع و العمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره و نفعه، فهذه هى الحياه التى لا موت فيها،و الراحه التى لا تعب معها،و اللذه التى لا ألم دونها،و هى الحياه فى ولايه الله،قال تعالى:« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ:» يونس:-۶۲.

و أما من اشتغل بالدنيا و جذبته زيناتها من مال و بنين إلى نفسها و غرته الآمال و الأمانى الكاذبه التى تتراءى له منها و استهوته الشياطين فقد وقع فى تناقضات القوى البدنيه و تزاحمات اللذائذ الماديه،و عذب أشد العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته و لذته فمن المشاهد المعاين أن الدنيا كلما زادت إقبالا على الإنسان،و متعته بكثره الأموال و الأولاد أبعدته عن موقف العبوديه و قربته إلى الهلاكه و عذاب الروح فلا يزال يتقلب بين هذه الأسباب الموافقه و المخالفه،و الأوضاع و الأحوال الملائمه و المزاحمه، فالذى يسميه هؤلاء المغفلون سعه العيش هو بالحقيقه ضنك كما قال تعالى:« وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى:» طه:-۱۲۶.

فغايه إعراض الإنسان عن ذكر ربه،و انكبابه على الدنيا يبتغى به سعاده الحياه و راحه النفس و لذه الروح أن يعذب بين أطباق هذه الفتن التى يراها نعما، و يكفر بربه بالخروج عن زى العبوديه كما قال:« إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ »و هو الإملاء و الاستدراج الذين يذكرهما فى قوله:« سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ:» الأعراف:-۱۸۳.

قوله تعالى:« وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ »إلى آخر الآيتين،الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع،و الملجأ الموضع الذى يلتجأ إليه و يتحصن فيه، و المغار المحل الذى يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار،و يطلق على الغار و هو الثقب الذى يكون فى الجبال،و المدخل من الافتعال الطريق الذى يتدسس بالدخول فيه،و الجماح مضى المار مسرعا على وجهه لا يصرفه عنه شىء،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ

يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ

» اللمز العيب، و إنما كانوا يعيبونه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآيه.

قوله تعالى:« وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ »إلى آخر الآيه،« لَوْ » للتمنى و قوله:« رَضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ »كأن الرضى ضمن معنى الأخذ و لذا عدى بنفسه أى أخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك،و الإيتاء الإعطاء،و حسبنا الله أى كفانا فيما نرغب إليه و نأمله.

و قوله:« سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ »بيان لما يرغب إليه و يطمع فيه و ليس إخبارا عما سيكون،و قوله:« إِنّا إِلَى اللّهِ راغِبُونَ »كالتعليل لقوله:

« سَيُؤْتِينَا اللّهُ »إلى آخر الآيه.

و المعنى و كان مما يتمنى لهم أن يكونوا أخذوا ما أعطاهم الله و رسوله بأمر منه من مال الصدقات أو غيره،و قالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب و نحن راغبون فى فضله و نطمع أن يؤتينا من فضله و يؤتينا رسوله.

و فى الآيه ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء إلى الله و إلى رسوله و خص الكفايه و الفضل و الرغبه بالله على ما هو لازم دين التوحيد.

قوله تعالى:« إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ »الآيه،بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبه و هى الزكوات بدليل قوله فى آخر الآيه:« فَرِيضَةً مِنَ اللّهِ »و هى ثمانيه.وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآيه و لازمه أن يكون الفقير و المسكين موردين أحدهما غير الآخر.

و قد اختلفوا فى الفقير و المسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثانى فى معناهما على أقوال كثيره لا ينتهى أكثرها إلى حجه بينه،و الذى يعطيه ظاهر لفظهما أن الفقير هو الذى اتصف بالعدم و فقدان ما يرفع حوائجه الحيويه من المال قبال الغنى الذى اتصف بالغنى و هو الجده و اليسار.

و أما المسكين فهو الذى حلت به المسكنه و الذله مضافه إلى فقدان المال و ذلك إنما يكون بأن يصل فقره إلى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بدا من أن يبذل ماء

وجهه و يسأل كل كريم و لئيم من شده الفقر و كالأعمى و الأعرج فالمسكين أسوأ حالا من الفقير.

و الفقير و المسكين و إن كانا بحسب النسبه أعم و أخص فكل مسكين من جهه الحاجه الماليه فقير و لا عكس غير أن العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايره الوصفين فی نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميته و ذلك أن المسكنه هی وصف الذله كالزمانه و العرج و العمى و إن كان بعض مصاديقه نهايه الذله من جهه فقد المال.

و أما العاملون عليها أی على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات و جباتها.

و أما المؤلفه قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاه ليسلموا أو يدفع بهم العدو أو يستعان بهم على حوائج الدين.

و أما قوله:« وَ فِی الرِّقابِ »فهو متعلق بمقدر و التقدير:و المصرف فی الرقاب أی فی فكها كما فی المكاتب الذی لا يقدر على تأديه ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذی كان فی شده.

و قوله:« وَ الْغارِمِينَ »أی و للصرف فی الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاه.

و قوله:« وَ فِی سَبِيلِ اللّهِ »أی و للصرف فی سبيل الله،و هو كل عمل عام يعود عائدته إلى الإسلام و المسلمين و تحفظ به مصلحه الدين و من أظهر مصاديقه الجهاد فی سبيل الله،و يلحق به سائر الأعمال التی تعم نفعه و تشمل فائدته كإصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك.

و قوله:« وَ ابْنِ السَّبِيلِ »أی و للصرف فی ابن السبيل و هو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به و إن كان غنيا ذا يسار فی بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاه.

و قد اختلف سياق العد فيما ذكر فی الآيه من الأصناف الثمانيه فذكرت الأربعه الأول باللام:« لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ »ثم غير السياق فی الأربعه الباقيه فقيل:« وَ فِی الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِی سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ »فإن ظاهر السياق الخاص بهذه الأربعه أن التقدير:و فی الرقاب و فی الغارمين و فی سبيل الله و فی ابن السبيل.

أما الأربعه الأول:« لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ »فاللام

فيها للملک بمعنی الاختصاص فی التصرف فإن الآیه بحسب السیاق کالجواب عن المنافقین الذین کانوا یطمعون فی الصدقات و هم غیر مستحقین لها و کانوا یلمزون النبی ص فی حرمانهم منها فأجیبوا بالآیه أن للصدقات مواضع خاصه تصرف فیها و لا تتعداها، و الآیه لیست بظاهره فی أزید من هذا المقدار من الاختصاص.

و أما کون ملکهم للصدقات هو الملک بمعناه المعروف فقها؟و کذا حقیقه هذا الملک مع کون المالکین أصنافا بعناوینهم الصنفیه لا ذوات شخصیه؟و نسبه سهم کل صنف إلی بقیه السهام؟فإنما هی مسائل فقهیه خارجه عن غرضنا،و قد اختلفت أقوال الفقهاء فیها اختلافا شدیدا فلیرجع إلی الفقه.

و أما الأربعه الباقیه:« وَ فِی الرِّقٰابِ وَ الْغٰارِمِینَ وَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ » فقد قیل فی تغییر السیاق فیها و فی تأخیرها عن الأربعه الأول وجوه:

منها:أن الترتیب لبیان الأحق فالأحق من الأصناف،فأحق الأصناف بها الفقراء ثم المساکین و هکذا علی الترتیب،و لکون الأربعه الأخیره بحسب ترتیب الأحقیه واقعه فی المراتب الأربع الأخیره وضع کل فی موضعه الخاص،و لو لا هذا الترتیب لکان الأنسب أن یذکر الأصناف ثم تذکر موارد المصالح فیقال:للفقراء و المساکین و العاملین علیها و المؤلفه قلوبهم و الغارمین و ابن السبیل ثم یقال:و فی الرقاب و سبیل الله.

و الحق أن دلاله الترتیب بما فیه من التقدیم و التأخیر علی أهمیه الملاک و قوه المصلحه فی أجزاء الترتیب لا ریب فیه فإن کان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاکا فالأهم فهو،و لو کان المراد التقدم و التأخر من حیث الإعطاء و الصرف و ما یشبه ذلک فلا دلاله من جهه اللفظ علیه البته کما لا یخفی و الذی أیده به من الوجه لا جدوی فیه.

و منها:أن العدول عن اللام فی الأربعه الأخیره إلی« فِی »للإیذان بأنهم أرسخ فی استحقاق التصدق علیهم ممن سبق ذکره لأن« فِی »للوعاء فنبه علی أنهم أحقاء بأن توضع فیهم الصدقات و یجعلوا مظنه لها و مصبا،و ذلک لما فی فک الرقاب من الکتابه أو الرق و الأسر،و فی فک الغارمین من الغرم و التخلیص و الإنقاذ، و لجمع الغازی الفقیر أو المنقطع فی الحج بین الفقر و العباده،و کذلک ابن السبیل جامع بین الفقر و الغربه عن الأهل و المال.

و تکریر« فِی »فی قوله:« وَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ »فیه فضل ترجیح

لهذين على الرقاب و الغارمين.كذا ذكره فى الكشاف.

و فيه:أنه معارض بكون الأربعه الأول مدخوله للام الملك فإن المملوك أشد لزوما و اتصالا بالنسبه إلى مالكه من المظروف بالنسبه إلى ظرفه،و هو ظاهر.

و منها:أن الأصناف الأربعه الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم،و إنما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم،و أما الأربعه الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل و لا يصرف إليهم و لكن فى مصالح تتعلق بهم.

فالمال الذى يصرف فى الرقاب إنما يتناوله الساده المكاتبون و البائعون فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعره بتملكهم لما يصرف نحوهم،و إنما هم محال لهذا الصرف و المصلحه المتعلقه به،و كذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم،و أما سبيل الله فواضح ذلك فيه،و أما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا فى سبيل الله،و إنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعا و عطفه على المجرور باللام ممكن و لكنه على (١) القريب منه أقرب.

و هذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أن إجراءه فى ابن السبيل لا يخلو عن تكلف، و ما ذكر من دخوله فى سبيل الله هو وجه مشترك بينه و بين غيره.

و لو قال قائل بكون الغارمين و ابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الأول بالمعنى الذى ذكرناه وجها للترتيب و الوجه الأخير وجها لاختصاص الرقاب و سبيل الله بدخول« فِي »لم يكن بعيدا عن الصواب.

و قوله فى ذيل الآيه:« فَرِيضَةً مِنَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »إشاره إلى كون الزكاه فريضه واجبه مشرعه على العلم و الحكمه لا تقبل تغيير المغير،و لا يبعد أن يتعلق الفرض بتقسمها إلى الأصناف الثمانيه كما ربما يؤيده السياق فإن الغرض فى الآيه إنما تعلق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض أصلها فالأنسب أن يكون قوله:« فَرِيضَةً مِنَ اللّٰهِ »إشاره إلى أن تقسمها إلى الأصناف الثمانيه أمر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون فى لمزهم النبى ص.

ص :٣١٣

١- ١) بل هو أيضا كالغارمين و الرقاب لا يدفع إليه نصيبه و إنما يصرف فى المصلحه المتعلقه به من الزاد و اكتراء الراحله حتى يصل إلى وطنه(ب).

و من هنا يظهر أن الآيه لا تخلو عن إشعار بكون الأصناف الثمانيه على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافا لما ذكره بعضهم:أن المؤلفه قلوبهم كانوا جماعه من الأشراف فى زمن النبى ص ألف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إياهم، و أما بعده(ص)فقد ظهر الإسلام على غيره،و ارتفعت الحاجه إلى هذا النوع من التأليفات،و هو وجه فاسد و ارتفاع الحاجه ممنوع.

قوله تعالى:« وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الأذن جارحه السمع المعروفه، و قد أطلقوا عليه(ص)الأذن و سموه بها إشاره إلى أنه يصغى لكل ما قيل له و يستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن.

و قوله:« قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ »من الإضافه الحقيقيه أى سماع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحى و فيه خير لكم،و يسمع من المؤمنين النصيحه و فيها خير لكم و يمكن أن يكون من إضافه الموصوف إلى الصفه أى أذن هى خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم و لا يضركم.

و الفرق بين الوجهين أن اللازم على الأول أن يكون مسموعه خيرا لهم كالوحى من الله و النصيحه من المؤمنين،و اللازم على الثانى أن يكون استماعه استماع خير و إن لم يكن مسموعه خيرا كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيرا لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحه فلا يهتك حرمته و لا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذى جاءه بالخبر.

و من هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآيه هو الوجه الثانى لما عقبه بقوله:« يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »الآيه.

و ذلك أن الإيمان هو التصديق،و قد ذكر متعلق الإيمان فى قوله:« يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ »و أما قوله:« وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »فلم يذكر متعلقه و إنما ذكر أن هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام،و التصديق الذى يكون فيه نفع المؤمنين حتى فى الخبر الذى يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبرى دون الخبرى أى فرض أن المخبر

صادق بمعنى أنه معتقد بصدق خبره و إن كان كاذبا لا يطابق الواقع.

و هذا كما فى قوله تعالى:« إِذٰا جٰاءَكَ الْمُنٰافِقُونَ قٰالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ لَكٰاذِبُونَ:» المنافقون:-١ فالله سبحانه يكذب المنافقين لا من حيث خبرهم برساله النبى ص بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه و هذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه:« وَ لَمّٰا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ:» الأحزاب:-٢٢ فهم يصدقون الله و رسوله فى الخبر لا فى الاعتقاد.

و بالجمله ظاهر قوله:« يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »إنه يصدق الله فيما أخبره به من الوحى،و يصدق لنفع المؤمنين كل من ألقى إليه منهم خبرا بحمل فعله على الصحه و عدم رميه بالكذب و سوء النيه من غير أن يرتب أثرا على كل ما يسمعه و يستمع إليه و إلا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين و اختل الأمر،و هذا المعنى كما ترى يؤيد الوجه الثانى المذكور.

و كأن المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب إليهم و إن اشتمل على أفراد من غيرهم كالمنافقين و على هذا كان المراد بالذين آمنوا منهم المؤمنون من قومهم حقا فمعنى الكلام أنه يصدق ربه و يصدق كل فرد من أفراد مجتمعكم احتراما لظاهر حاله من الانتساب إلى المؤمنين و هو رحمه للذين آمنوا منكم حقا لأنه يهديهم إلى مستقيم الصراط.

و إن كان المراد من الذين آمنوا هم الذين آمنوا فى أول البعثه قبل الفتح-كما تقدم سابقا أن« اَلَّذِينَ آمَنُوا »اسم تشريفى فى القرآن للمؤمنين الأولين فى الإسلام-كان المراد بالمؤمنين فى قوله:« وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »المؤمنون منهم حقا كما أطلق بهذا المعنى فى قوله:

« وَ لَمّٰا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ:» الأحزاب:-٢٢.

و ربما قيل:إن اللام فى قوله:« وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »للتعديه كما فى قوله:« يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ » فالإيمان يتعدى بالحرفين جميعا كما فى قوله:« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ:» العنكبوت:-٢۶ و قوله:« فَمٰا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ:» يونس:-٨٣ و قوله:« أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» :الشعراء:-١١١.

و ربما قيل:إن اللفظ جار على طريقه التضمين بتضمين الإيمان معنى الجنوح المتعدى باللام و المعنى يجنح للمؤمنين مؤمنا بهم أو يؤمن جانحا لهم.

و الوجهان و إن كانا لا بأس بهما فی نفسهما لكن يبعد ذلک لزوم التفكيک فی قوله:« يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »بين« يُؤْمِنُ »الأول و الثانی من غير نكته ظاهره إلا أن يحمل علی التفنن فی التعبير و مع ذلک فالنتيجه هی النتيجه السابقه فإن إيمانه بالمؤمنين لا يختص بالمخبرين خاصه حتی يصدق خبرهم و يؤاخذ آخرين إذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعم جميع المؤمنين فيصدق المخبر فی خبره بمعنی إعطاء الصدق المخبری و يصدق المخبر عنه بحمل فعله علی الصحه فافهم ذلک.

و عده تعالی نبيه فی قوله:« وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ »رحمه لقوم خاص فی هذه الآيه مع عده رحمه للناس كلهم فی قوله عز و جل:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ:» الأنبياء:-١٠٧ إنما هو لاختلاف المراد بالرحمه فی الآيتين فالمراد بها هاهنا الرحمه الفعليه و هناک الرحمه الشأنيه.

و بعباره أخری هو(ص)رحمه لمن آمن به حقا بمعنی أن الله سبحانه أنقذه به من الضلاله و ختم له بالسعاده و الكرامه،و رحمه للناس كلهم مؤمنهم و كافرهم،من معاصريه و ممن يأتی بعده بمعنی أن الله بعثه((ص))بمله بيضاء و سنه طيبه فحول المجتمع البشری و صرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامه إلی طريق الشقاوه و الهلاک،و أنار بمشعلته صراط الفطره الإلهيه فمن راكب علی السبيل فائز بالغايه المطلوبه،و من خارج عن مسير الردی و الهلكه و لما يركب متن الصراط الفطری،و من قاصد للخروج و الورود و لما يخرج و هذا حال المجتمع العام البشری بعد طلوع الإسلام و بسطه معارفه بين الناس و إيصاله إلی سمع كل سامع و تأثيره فی كل من السنن الاجتماعيه بما فی وسعه أن يتأثر به،و هذا مما لا يرتاب فيه باحث عن طبيعه المجتمع الإنسانی،و هذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع إليه بالحقيقه.

قوله تعالی:« يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كٰانُوا مُؤْمِنِينَ »قال فی المجمع:،«الفرق بين الأحق و الأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولک:زيد أحق بالمال،و الأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل و تقول:الله أحق بأن يطاع و لا تقول أصلح».انتهی.

و السبب الأصلی فيه أن الصلاحيه و الصلوح يحمل معنی الاستعداد و التهيؤ، و الحق يحمل معنی الثبوت و اللزوم،و الله سبحانه لا يتصف بشیء من معنی الاستعداد

و القبول المستلزم لتأثير الغير فيه و تأثره عنه.

و قد حول الله الخطاب في الآيه عن نبيه(ص)إلى المؤمنين التفاتا و كأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله:« وَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كٰانُوا مُؤْمِنِينَ » من الحكم و هو أن من الواجب على كل مؤمن أن يرضى الله و رسوله،و لا يحاد الله و رسوله فإن فيه خزيا عظيما نار جهنم خالدا فيها.

و من أدب التوحيد فی الآيه ما فی قوله:« أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »من إفراد الضمير و لم يقل:أحق أن يرضوهما صونا لمقامه تعالى من أن يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق و كذا الأوصاف التی يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق و الإجراء،له تعالى بالذات و لنفسه و لغيره بالتبع أو بالعرض و من جهته كوجوب الإرضاء و التعظيم و الطاعه و غيرها،و كالاتصاف بالعلم و الحياه و الإحياء و الإماته و غيرها.

و قد روعى نظير هذا الأدب فی القرآن فی موارد كثيره فيما يشارك النبی(ص) غيره من الأمه من الشئون فأخرج النبی(ص)من بينهم و أفرد بالذكر كما فی قوله:

« يَوْمَ لاٰ يُخْزِي اللّٰهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا:» التحريم:-٨ و قوله:« فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ:» الفتح:-٢۶ و قوله:« آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ» :البقره:-٢٨۵ و غير ذلك.

قوله تعالى:« أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحٰادِدِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ »إلى آخر الآيه قال فی المجمع،: المحاده مجاوزه الحد بالمشاقه،و هی و المخالفه و المجانبه و المعاداه نظائر،و أصله المنع و المحاده ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب و قال:

و الخزی الهوان و ما يستحيی منه.انتهی.

و الاستفهام فی الآيه للتعجيب،و الكلام مسوق لبيان كونه تعالى و كون رسوله أحق بالإرضاء و محصله أنهم يعلمون أن محاده الله و رسوله و المشاقه و المعاداه مع الله و رسوله و الإسخاط يوجب خلود النار،و إذا حرم إسخاط الله و رسوله وجب إرضاؤه و إرضاء رسوله على من كان مؤمنا بالله و رسوله.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،عن أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله تعالی:« إِنْ تُصِبْکَ حَسَنَهٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْکَ مُصِیبَهٌ »الآیه-أما الحسنه فهی الغنیمه و العافیه، و أما المصیبه فالبلاء و الشده.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن جابر بن عبد الله قال": جعل المنافقون الذین تخلفوا بالمدینه-یخبرون عن النبی ص أخبار السوء،و یقولون:إن محمدا و أصحابه قد جهدوا فی سفرهم-و هلکوا فبلغهم تکذیب حدیثهم-و عافیه النبی(ص) و أصحابه-فساءهم ذلک فأنزل الله تعالی:« إِنْ تُصِبْکَ حَسَنَهٌ تَسُؤْهُمْ »الآیه.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی حمزه عن أبی جعفر(ع)قال: قلت له:قول الله عز و جل« هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَی الْحُسْنَیَیْنِ »قال:إما موت فی طاعه الإمام أو إدراک ظهور إمام« وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِکُمْ »مع ما نحن فیه من المشقه« أَنْ یُصِیبَکُمُ اللّٰهُ بِعَذٰابٍ مِنْ عِنْدِهِ »قال:هو المسخ« أَوْ بِأَیْدِینٰا »و هو القتل،قال الله عز و جل لنبیه:« فَتَرَبَّصُوا إِنّٰا مَعَکُمْ مُتَرَبِّصُونَ ».

أقول:و هو من الجری دون التفسیر.

فی المحاسن،بإسناده عن یوسف بن ثابت عن أبی عبد الله(ع)قال: لا یضر مع الإیمان عمل،و لا ینفع مع الکفر عمل-.

ثم قال:أ لا تری أن الله تبارک و تعالی قال:« وَ مٰا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقٰاتُهُمْ-إِلاّٰ أَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُولِهِ ».

أقول:و رواه العیاشی و القمی عنه و کذا الکلینی فی الکافی،عنه فی حدیث مفصل

و الروایه تبینها آیات و روایات أخری فالإیمان ما دام باقیا لا یضره معصیه بإیجاب خلود النار،و الکفر ما دام کفرا لا ینفع معه حسنه.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« مُدَّخَلاً »الآیه قال:سربا: عن أبی جعفر(ع).

و فی الکافی،بإسناده عن إسحاق بن غالب قال: قال أبو عبد الله(ع): یا إسحاق کم تری أهل هذه الآیه: فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهٰا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ یُعْطَوْا مِنْهٰا إِذٰا هُمْ

يَسْخَطُونَ

»قال:هم أكثر من ثلثى الناس:

أقول:و رواه العياشى فى تفسيره و الحسين بن سعيد فى كتاب الزهد عن إسحاق عنه(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: بينما النبى ص يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصره التميمى-فقال:اعدل.يا رسول الله فقال:ويلك و من يعدل إذا لم أعدل-.

فقال عمر بن الخطاب:يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه-فقال رسول الله ص دعه-فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه-مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميه-فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء،ثم ينظر فى نضيه فلا يرى فيه شىء،ثم ينظر فى رصافه فلا يرى فيه شىء،ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء،قد سبق الفرث و الدم آيتهم رجل أسود إحدى ثديه-أو قال:ثدييه-مثل ثدى المرأه-أو مثل البضعه تدر در يخرجون على حين فرقه من الناس-قال:فنزلت فيهم:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ »الآيه-.

قال أبو سعيد:أشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ص،و أشهد أن عليا حين قتلهم-و أنا معه جىء بالرجل على النعت الذى نعت رسول الله ص.

و فى تفسير القمى،": فى الآيه:أنها نزلت لما جاءت الصدقات-و جاء الأغنياء و ظنوا أن الرسول يقسمها بينهم-فلما وضعها رسول الله ص فى الفقراء-تغامزوا رسول الله ص و لمزوه،و قالوا:نحن الذين نقوم فى الحرب و نغزو معه و نقوى أمره- ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه و لا يغنون عنه شيئا-فأنزل الله:« وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ-وَ قالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ- إِنّا إِلَى اللّهِ راغِبُونَ ».

ثم فسر الله عز و جل الصدقات لمن هى و على من يجب؟فقال:« إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ-وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ- وَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَهً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »فأخرج الله من

الصدقات جميع الناس-إلا هذه الثمانيه الأصناف الذين سماهم-.

و بين الصادق(ع)من هم؟فقال:الفقراء هم الذين لا يسألون و عليهم مئونات من عيالهم،و الدليل على أنهم لا يسألون قول الله تعالى فى سوره البقره:« لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ-يَحْسَبُهُمُ الْجٰاهِلُ أَغْنِيٰاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمٰاهُمْ لاٰ يَسْئَلُونَ النّٰاسَ إِلْحٰافاً -.

و المساكين هم أهل الزمانه من العميان و العرجان و المجذومين-و جميع أصناف الزمنى من الرجال و النساء و الصبيان-.

و العاملين عليها هم السعاه و الجباه فى أخذها و جمعها و حفظها-حتى يؤديها إلى من يقسمها-.

و المؤلفه قلوبهم قوم وحدوا الله و لم يدخل المعرفه قلوبهم-أن محمدا رسول الله فكان رسول الله ص يتألفهم و يعلمهم-كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيبا فى الصدقات كى يعرفوا و يرغبوا.

أقول:و قد وردت فى تأييد هذا الذى أرسله من الروايه روايات كثيره مسنده من طرق أهل البيت(ع).و فى بعض الروايات تعارض ما،و ليرجع فى تفصيل الروايات على كثرتها و تنقيح المطلب إلى جوامع الحديث و كتب الفقه.

و فى الدر المنثور،أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال": بعث على بن أبى طالب من اليمن إلى النبى ص-بذهبيه فيها تربتها فقسمها بين أربعه من المؤلفه:الأقرع بن حابس الحنظلى و علقمه بن علاثه العامرى- و عيينه بن بدر الفزارى و زيد الخيل الطائى،فقالت قريش و الأنصار:أ تقسم بين صناديد أهل نجد و تدعنا؟فقال النبى ص:إنما أتألفهم.

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن يحيى بن أبى كثير قال": المؤلفه قلوبهم من بنى هاشم-أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب،و من بنى أميه أبو سفيان بن حرب،و من بنى مخزوم الحارث بن هشام و عبد الرحمن بن يربوع-و من بنى أسد حكيم بن حزام،و من بنى عامر سهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى،و من بنى جمح صفوان بن أميه،و من بنى سهم عدى بن

قیس،و من ثقیف العلاء بن جاریه أو حارثه،و من بنی فزاره عیینه بن حصن، و من بنی تمیم الأقرع بن حابس،و من بنی نصر مالک بن عوف،و من بنی سلیم العباس بن مرداس-.

أعطی النبی ص کل رجل منهم مائه ناقه-إلا عبد الرحمن بن یربوع و حویطب بن عبد العزی-فإنه أعطی کل واحد منهما خمسین.

و فی تفسیر القمی،فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع)قال: المؤلفه قلوبهم:

أبو سفیان بن حرب بن أمیه،و سهیل بن عمرو و هو من بنی عامر بن لؤی-و هشام ابن عمرو أخوه:-أخو بنی عامر بن لؤی-و صفوان بن أمیه بن خلف القرشی- ثم الجمحی،و الأقرع بن حابس التمیمی أحد بنی حازم-و عیینه بن حصن الفزاری و مالک بن عوف و علقمه بن علاثه-.

بلغنی أن رسول الله ص کان یعطی الرجل منهم مائه من الإبل-و رعاتها و أکثر من ذلک و أقل.

أقول:و هؤلاء هم المؤلفه قلوبهم الذین أعطاهم النبی ص تألیفا لقلوبهم، و لیس المراد حصر المؤلفه قلوبهم و هم صنف من الأصناف الثمانیه المذکور فی الآیه فی هؤلاء الأشخاص بأعیانهم.

و فی تفسیر العیاشی،عن ابن إسحاق عن بعض أصحابنا عن الصادق(ع)قال:

سئل عن مکاتب عجز عن مکاتبته و قد أدی بعضها،قال:یؤدی من مال الصدقه إن الله یقول فی کتابه:« وَ فِی الرِّقٰابِ »

و فیه،عن زراره قال: قلت لأبی عبد الله(ع):عبد زنی؟قال:یجلد نصف الحد،قال:قلت:فإن هو عاد؟قال: یضرب مثل ذلک،قال:قلت:فإن هو عاد؟قال:لا یزاد علی نصف الحد.قال:قلت:فهل یجب علیه الرجم فی شیء من فعله؟قال:نعم یقتل فی الثامنه إن فعل ذلک ثمان مرات-.

قال:قلت:فما الفرق بینه و بین الحر و إنما فعلهما واحد؟فقال له:إن الله

رحمه أن يجمع عليه ربق الرق و حد الحر.قال:ثم قال:و على إمام المسلمين أن يدفع ثمنه إلى مولاه من سهم الرقاب.

و فيه،عن الصباح بن سيابه قال": أيما مسلم مات و ترک دينا لم يكن فى فساد و على إسراف-فعلى الإمام أن يقضيه فإن لم يقض فعليه إثم ذلک-إن الله يقول:« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ-وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ »فهو من الغارمين و له سهم عند الإمام فإن حبسه فإثمه عليه.

و فيه،عن محمد بن القسرى عن أبى عبد الله(ع)قال: سألته عن الصدقه فقال:اقسمها فيمن قال الله-و لا يعطى من سهم الغارمين-الذين يغرمون فى مهور النساء-و لا الذين ينادون نداء الجاهليه قال:قلت:و ما نداء الجاهليه؟قال:

الرجل يقول:يا آل بنى فلان فيقع بينهم القتل-و لا يؤدى ذلک من سهم الغارمين، و لا الذين لا يبالون ما صنعوا بأموال الناس.

و فيه،عن الحسن بن محمد قال: قلت:لأبى عبد الله(ع)-إن رجلا أوصى لى فى السبيل قال:فقال لى:اصرف فى الحج قال:قلت:إنه أوصى فى السبيل! قال:اصرفه فى الحج فإنى لا أعلم سبيلا من سبله أفضل من الحج.

أقول:و الروايات فى الباب أكثر من أن تحصى،و إنما أوردنا منها ما يجرى مجرى الأنموذج.

و فى الدر المنثور،":فى قوله تعالى:« وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ »الآيه":،أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال": كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله ص فيجلس إليه فيسمع-ثم ينقل حديثه إلى المنافقين،و هو الذى قال لهم:إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه،فأنزل الله فيه:« وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ »الآيه.

و فى تفسير القمى،": فى الآيه قال:سبب نزولها-أن عبد الله بن نبتل كان منافقا و كان يقعد إلى رسول الله ص-فيسمع كلامه و ينقله إلى المنافقين فينم عليه-فنزل جبرئيل على رسول الله ص فقال:يا محمد-إن رجلا من المنافقين ينم و ينقل حديثک إلى المنافقين،فقال رسول الله ص:من هو؟قال:الرجل الأسود الوجه الكثير

شعر الرأس-ينظر بعينين كأنهما قدران،و ينطق بلسان شيطان-.

فدعاه رسول الله ص فأخبره فحلف أنه لم يفعل-فقال رسول الله ص:

قد قبلت منک فلا تفعل فرجع إلى أصحابه-فقال:إن محمدا أذن.أخبره الله أنی أنم علیه و أنقل أخباره فقبله،و أخبرته أنی لم أقل و لم أفعل فقبله!.

فأنزل الله على نبيه:« وَ مِنْهُمُ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ-قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »أی يصدق الله فيما يقول له،و يصدقكم فيما تعتذرون إليه و لا يصدقكم فی الباطن،و يؤمن للمؤمنين يعنی المقرين بالإيمان من غير اعتقاد.

أقول:و روى ما يقرب منه فی نهج البيان،عن الصادق(ع).

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن السدی قال": اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت-و جحش بن حمير و وديعه بن ثابت-فأرادوا أن يقعوا فی النبی ص فنهی بعضهم بعضا،و قالوا:إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم،و قال بعضهم:إن محمدا أذن نحلف له فيصدقنا-فنزل:« وَ مِنْهُمُ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ »الآيه.

و فی تفسير العياشی،عن حماد بن سنان عن أبی عبد الله(ع)قال: إنی أردت أن أستبضع فلانا بضاعه إلى اليمن-فأتيت إلى أبی جعفر(ع) فقلت:إنی أريد أن أستبضع فلانا فقال لی.أ ما علمت أنه يشرب الخمر؟فقلت:قد بلغنی من المؤمنين إنهم يقولون ذلک،فقال:صدقهم إن الله عز و جل يقول:« يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ »فقال:يعنی يصدق الله و يصدق للمؤمنين-لأنه كان رءوفا رحيما بالمؤمنين.

[سوره التوبه (٩): الآيات ۶۴ الی ۷۴]

اشاره

يَحْذَرُ اَلْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِی قُلُوبِهِمْ قُلِ اِسْتَهْزِؤُا إِنَّ اَللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (۶۵) لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶) اَلْمُنَافِقُونَ وَ اَلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اَللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ اَلْمُنَافِقِينَ هُمُ اَلْفَاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اَللَّهُ اَلْمُنَافِقِينَ وَ اَلْمُنَافِقَاتِ وَ اَلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِیَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اَللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالاً وَ أَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اِسْتَمْتَعَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِی خَاضُوا أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِی اَلدُّنْيَا وَ اَلْآخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخَاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ اَلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اَللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰) وَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ اَلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاَةَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اَللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اَللَّهُ إِنَّ اَللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اَللَّهُ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ

رِضْوانٌ مِنَ اَللّهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (٧٢) يا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ جاهِدِ اَلْكُفّارَ وَ اَلْمُنافِقِينَ وَ اُغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ اَلْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اَللّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اَللّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي اَلدُّنْيا وَ اَلْآخِرَهِ وَ ما لَهُمْ فِي اَلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٧۴)

(بیان)

تذکر الآیات شأنا آخر من شئون المنافقین،و تکشف عن سوأه أخری من سوءاتهم ستروا علیها بالنفاق،و کانوا یحذرون أن تظهر علیهم و تنزل فیها سوره تقص ما هموا به منها.

و الآیات تنبئ عن أنهم کانوا جماعه ذوی عدد کما یدل علیه قوله:« إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَهٍ مِنْکُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَهً »و أنه کان لهم بعض الاتصال و التوافق مع جماعه آخرین من المنافقین کما فی قوله:« اَلْمُنٰافِقُونَ وَ الْمُنٰافِقٰاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ »الآیه و أنهم کانوا علی ظاهر الإسلام و الإیمان حتی الیوم و إنما نافقوا یومئذ أی تفوهوا بکلمه الکفر فیما بینهم و أسروا بها یومئذ کما فی قوله:« قَدْ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ ».

و أنهم تواطئوا علی أمر دبروه فیما بینهم فأظهروا عند ذلک کلمه الکفر و هموا علی أمر عظیم فحال الله بینهم و بینه فخاب سعیهم و لم یؤثر کیدهم کما فی قوله:« وَ لَقَدْ قٰالُوا کَلِمَهَ الْکُفْرِ وَ کَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ یَنٰالُوا ».

و أنه ظهر مما هموا به بعض ما یستدل علیه من الآثار و القرائن فسألوا عن ذلک فاعتذروا بما هو مثله قبحا و شناعه کما فی قوله:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَیَقُولُنَّ إِنَّمٰا کُنّٰا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ »و الآیات التالیه لهذه الآیات فی سیاق متصل منسجم تدل علی أن هذه الوقعه أیا ما کانت وقعت بعد خروج النبی ص إلی غزوه تبوک و لما یرجع إلی المدینه کما یدل علیه قوله:« فَإِنْ رَجَعَکَ اللّٰهُ إِلیٰ طٰائِفَهٍ مِنْهُمْ» Xالآیه X:توبه ۸۳ و قوله:

«سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكَمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ» Xالآيه٩٥-:X من السوره.

فيتلخص من الآيات أن جماعه ممن خرج مع النبى ص تواطئوا على أن يمكروا بالنبى ص،و أسروا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم ثم هموا أن يفعلوا ما اتفقوا عليه بفتك أو نحوه فأبطل الله كيدهم و فضحهم و كشف عنهم فلما سئلوا عن ذلك قالوا:إنما كنا نخوض و نلعب فعاتبهم الله بلسان رسوله ص بأنه استهزاء بالله و آياته و رسوله،و هددهم بالعذاب إن لم يتوبوا،و أمر نبيه ص أن يجاهدهم و يجاهد الكافرين.

فالآيات-كما ترى-أوضح انطباقا على حديث العقبه منها على غيره من القصص التى تتضمنها الروايات الآخر الوارده فى بيان سبب نزول الآيات،و سنورد جلها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:« يَحْذَرُ الْمُنٰافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمٰا فِى قُلُوبِهِمْ »إلى آخر الآيه.كان المنافقون يشاهدون أن جل ما يستسرون به من شئون النفاق؛ و يناجى به بعضهم بعضا من كلمه الكفر و وجوه الهمز و اللمز و الاستهزاء أو جميع ذلك لا يخفى على الرسول،و يتلى على الناس فى آيات من القرآن يذكر النبى ص أنه من وحى الله،و لا محاله كانوا لا يؤمنون بأنه وحى نزل به الروح الأمين على رسول الله ص،و يقدرون أن ذلك مما يتجسسه المؤمنون فيخبرون به النبى ص فيخرجه لهم فى صوره كتاب سماوى نازل عليهم و هم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم و خروج ما خبوه فى سرائرهم الخبيثه لأن السلطنه و الظهور كانت للنبى ص عليهم يجرى فيهم ما يأمر به و يحكم عليه.

فهم كانوا يحذرون نزول سوره يظهر بها ما أضمروه من الكفر و هموا به من تقليب الأمور على النبى ص و قصده بما يبطل به نجاح دعوته و تمام كلمته فأمر الله نبيه ص أن يبلغهم أن الله عالم بما فى صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه و ظهوره بنزول سوره من عنده أى يخبرهم بأن الله منزل سوره هذا نعتها.

و بهذا يستنير معنى الآيه فقوله:« يَحْذَرُ الْمُنٰافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ » الخطاب للنبى ص و وجه الكلام إليه،و هو يعلم بتعليم الله أن هذا الكلام الذى

يتلوه على النـاس كلاـم إلهى و قرآن منزل من عنـده فيصف سبحانه الكلاـم الـذى يخـاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبى ص و هو أنه سوره منزله من الله على النـاس و منهم المنـافقون لاـ على ما يراه المنافقون أنه كلام بشـرى يـدعى كونه كلام الله.

فهم كـانوا يحـذرون أن يتلو النبى ص عليهم و على النـاس كلامـا هـذا نعته الواقعى و هو أنه سوره منزله عليهم بمـا أنها متوجهه بمضـمونها إليهم قاصـده نحوهم ينبئهم هـذه السوره النـازله بمـا فى قلوبهم فيظهر على النـاس و يفشو بينهم ما كانوا يسـرونه من كفرهم و سوء نياتهم،و هذا الظهور فى الحقيقه هو الذى كانوا يحذرونه من نزول السوره.

و قوله:« قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ »كـأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم و ما يلحق به من الآثار فإن الله سـمى نفاقهم استهزاء حاكيـا فى ذلـك قولهم حيث قـال:« وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ:» البقره:-۱۴ فـالمراد بالاسـتهزاء هـو سـتر مـا يحـذرون ظهـوره، و الأـمر تعجيزى أى دوموا على نفـاقكم و سـتركم ما تحـذرون خروجه من عنـدكم إلى مرأى الناس و مسـمعهم فإن الله مخرج ذلك و كاشف عن وجهه الغطاء،و مظهر ما أخفيتموه فى صدوركم.

فصـدر الآيه و إن كان يـذكر أنهم يحذرون تنزيل سوره كذا و كذا لكنهم إنما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء التى يحذرون أن يطلع عليها النبى ص و تنجلى للناس،و هذا هو الذى يذكر ذيلها أنهم يحذرونه فالكلام بمنزله أن يقال:يحذر المنافقون تنزيل سوره قل إن الله منزلها،أو يقال:يحذر المنافقون انكشاف باطن أمرهم و ما فى قلوبهم قل اسـتهزءوا إن الله سيكشف ذلك و ينبئ عما فى قلوبكم.

و بمـا تقـدم يظهر سـقوط مـا أشـكل على الآيه أولا:بأن المنافقين لكفرهم فى الحقيقه لم يكونوا يرون أن القرآن كلام منزل من عند الله فكيف يصح القول أ يحذرون أن تنزل عليهم سوره؟.

و ثانيـا:أنهم لمـا لم يكونوا مؤمنين فى الواقع فكيف يصـح أن يطلق أن سوره قرآنيه نزلت عليهم و لاـ تنزل السوره إلا على النبى ص أو على المؤمنين؟.

و ثالثا:أن حذرهم نزول السوره و هو حال داخلى جدى فيهم لا يجامع كونه استهزاء.

ص: ۳۲۷

و رابعا:أن صـدر الآيه يـذكر أنهم يحـذرون أن تنزل سوره و ذيلها يقول:إن الله مخرج ما تحـذرون فهو فى معنى أن يقال:إن الله مخرج سوره أو مخرج تنزيل سوره.

و قـد يجاب عن الإشكال الأول بـأن قوله: يَحْذَرُ الْمُنٰافِقُونَ «إلـخ»إنشاء فى صوره خبر أى ليحـذر المنـافقون أن تنزل عليهم سوره«إلخ».

و هو ضعيف إذ لا دليل عليه أصلا على أن ذيل الآيه لا يلائم ذلك إذ لا معنى لقولنا:ليحذر المنافقون كذا قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون أى ما يجب عليكم حذره.و هو ظاهر.

و قد يجاب عنه بأنهم إنما كانوا يظهرون الحذر استهزاء لا جدا و حقيقه.و فيه أن لازمه أنهم كانوا على ثقه بأن ما فى قلوبهم من الأنباء و ما أبطنوه من الكفر و الفسوق لا سبيل للظهور و الانجلاء إليه،و لا طريق لأحـد إلى الاطلاع عليه، و يكـذبه آيات كثيره فى القرآن الكريم تقص ما عقـدوا عليه القلوب من الكفر و الفسوق و هموا به من الخدعه و المكيده كالآيات من سوره البقره و سوره المنافقين و غيرهما،و إذ كانوا شاهـدوا ظهور أنبائهم و مطويات قلوبهم عيانا مره بعد مره فلا معنى لثقتهم بأنها لا تنكشـف أصلا و إظهارهم الحذر استهزاء لا جدا،و قد قال تعالى:« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَهٍ عَلَيْهِمْ:» المنافقون:-۴.

و قـد يجاب عنه بأن أكثر المنافقين كانوا على شك من صـدق الـدعوه النبويه من غير أن يستيقنوا كـذبه،و هؤلاء كانوا يجوزون تنزيـل سوره تنبئهم بمـا فى قلوبهم احتمالاـ عقليـا،و هـذا الحـذر و الإشـفاق كمـا ذكروه أثر طبيعى للشـك و الارتياب فلو كانوا موقنين بكـذب الرسول ص لمـا خطر لهم هـذا الخوف على بـال،و لو كانوا موقنين بصـدقه لما كان هناك محل لهـذا الخوف و الحذر لأن قلوبهم مطمئنه بالإيمان.

و هـذا الجواب-و هو الـذى اعتمـد عليه جمهور المفسـرين-و إن كـان بظـاهره لاـ يخلو عن وجه غير أن فيه أنه إنمـا يحسم ماده الإشـكال لو كان الواقع من التعبير فى الآيه نحوا من قولنا:يخاف المنافقون أن تنزل عليهم سوره،و لـذا قرروا الجواب بأن الخوف يناسب الشك دون اليقين.

لكن الآيه تعبر عن شأنهم بالحذر،و يخبر أنهم يحذرون أن تنزل عليهم سوره

«إلخ»و الحذر فیه شیء من معنی الاحتراز و الاتقاء،و لا یتم ذلک إلا بالتوسل إلی أسباب و وسائل تحفظ الحاذر مما یحذره و یحترز منه،و تصونه من شر مقبل إلیه من ناحیه ما یخافه.

و لو کان مجرد شک من غیر مشاهده أثر من الآثار و إصابه شیء مما یتقونه إیاهم لما صح الاحتراز و الاتقاء،فحذرهم یشهد أنهم کانوا یخافون أن یقع بهم هذه المره نظیر ما وقع بهم قبل ذلک من جهه آیات البقره و غیرها،فهذا هو الوجه لحذرهم دون الشک و الارتیاب فالمعتمد فی الجواب ما قدمناه.

و قد یجاب عن الإشکال الثانی بأن«علی»فی قوله:« أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ » بمعنی:فی کما فی قوله:« وَ اتَّبَعُوا مٰا تَتْلُوا الشَّيٰاطِينُ عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمٰانَ:» البقره:- ۱۰۲،و المعنی:یحذر المنافقون أن تنزل فیهم أی فی شأنهم و بیان حالهم سوره تکشف عما فی ضمائرهم.

و فیه أنه لا بأس به لو لا قوله بعده:« تُنَبِّئُهُمْ بِمٰا فِي قُلُوبِهِمْ »علی ما سنوضحه.

و قد یجاب عنه بأن الضمیر فی قوله:« عَلَيْهِمْ »راجع إلی المؤمنین دون المنافقین و المعنی:یحذر المنافقون أن تنزل علی المؤمنین سوره تنبئ المنافقین بما فی قلوب المنافقین أو تنبئ المؤمنین بما فی قلوب المنافقین.

ورد علیه بأنه یستلزم تفکیک الضمائر.و دفع بأن تفکیک الضمائر غیر ممنوع و لا أنه مناف للبلاغه إلا إذا کان المعنی معه غیر مفهوم،و ربما أید بعضهم هذا الجواب بأنه لیس هاهنا تفکیک للضمائر فإنه قد سبق أن المنافقین یحلفون للمؤمنین لیرضوهم ثم وبخهم الله بأن الله و رسوله أحق أن یرضوه إن کانوا مؤمنین فقد بین هاهنا بطریقه الاستئناف أنهم یحذرون أن تنزل علی المؤمنین سوره تنبئهم بما فی قلوبهم فتبطل ثقتهم بهم فأعید الضمیر إلی المؤمنین لأن سیاق الکلام فیهم فلا أثر من التفکیک.

و فیه أن من الواضح الذی لا یرتاب فیه أن موضوع الکلام فی هذه الآیات و آیات کثیره مما یتصل بها من قبل و من بعد،هم المنافقون،و السیاق سیاق الخطاب للنبی ص لا غیره،و إنما کان خطاب المؤمنین فی قوله:« يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لكم لیرضوکم خطابا التفاتیا للتنبیه علی غرض خاص أومأنا إلیه ثم عاد الکلام إلی سیاقها الأصلی

من خطاب النبى ص بتبدل خطابهم إلى خطابه فلا معنى لقوله:إن سياق الكلام فى المؤمنين.

و لو كان السياق هو الذى ذكره لكان من حق الكلام أن يقال:أن تنزل عليكم سوره تنبئكم بما فى قلوبهم، فما معنى العدول إلى ضمير الغيبه،و لم يتقدم فى سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت؟.

على أن قوله:إن الآيه- يَحْذَرُ الْمُنٰافِقُونَ -بيان من طريق الاستئناف لسبب حلفهم للمؤمنين ليرضوهم،إخراج لهذه الطائفه من الآيات من استقلال غرضها الأصلى الذى بحثنا عنه فى أول الكلام،و يختل بذلك ما يتراءى من فقرات الآيات من الاتصال و الارتباط.

فالآيه- يَحْذَرُ الْمُنٰافِقُونَ إلخ-ليست بيانا لسبب حلفهم المذكور سابقا بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدى إليه مجموع الآيات الإحدى عشره.

و بالجمله الآيات السابقه على هذه الآيه خاليه عن ذكر المؤمنين ذكرا يوجب انعطاف الذهن إليه حينما يلقى ضميرا يمكن عوده إليهم و هذا هو التفكيك المذكور، و هو مع ذلك تفكيك ممنوع لإيجابه إبهاما فى البيان ينافى بلاغته.

و الحق أن الضمير فى قوله:« أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ »للمنافقين-كما تقدمت الإشاره إليه-و لا بأس بأن يسمى تنزيل سوره لبيان حالهم و ذكر مثالبهم و توبيخهم على نفاقهم تنزيلا للسوره عليهم و هم فى جماعه المؤمنين غير متميزين منهم كما عبر بنظير التعبير فى مورد المؤمنين حيث قال:« وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ مٰا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتٰابِ وَ الْحِكْمَهِ يَعِظُكُمْ بِهِ:» البقره:-٢٣١.

و قد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير فى أهل الكتاب حيث قال:« يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ:» النساء:-١٥٣،و فى المشركين حيث حكى عنهم قولهم:« وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ:» إسراء:-٩٣، و ليست نسبه المنافقين و هم فى المؤمنين إلى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبه المشركين و أهل الكتاب إلى نزوله عليهم،و النزول و الإنزال و التنزيل يقبل التعدى بإلى بعنايه الانتهاء و بعلى بعنايه الاستعلاء و الإتيان من العلو،و التعديه بكل واحد منهما كثير

فی تعبیرات القرآن،و المراد بنزول الکتاب إلی قوم و علی قوم تعرضه لشئونهم و بیانه لما ینفعهم فی دنیاهم و أخراهم.

و قد یجاب عن الإشکال الثالث بأن قوله تعالی:« قُلِ اسْتَهْزِؤُا »دلیل علی أنهم کانوا یستهزءون بالحذر و لم یکن من جد الحذر فی شیء.

و فیه أن الآیات الکثیره النازله فی سوره البقره و النساء و غیرها-و کل ذلک قبل هذه الآیات نزولا-المخرجه لکثیر من خبایا قلوبهم الکاشفه عن أسرارهم تدل علی أن هذا الحذر کان منهم علی حقیقته من غیر استهزاء و سخریه.

علی أنه تعالی وصفهم فی سوره المنافقون بمثل قوله:« یَحْسَبُونَ کُلَّ صَیْحَهٍ عَلَیْهِمْ:» المنافقون:-۴،و قال فی مثل ضربه لهم و فیهم:« یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ:» البقره:-۱۹ و قد ذکر فی الآیه التالیه.

و الحق أن استهزاءهم إنما هو نفاقهم و قولهم فی الظاهر خلاف ما فی باطنهم کما یؤیده قوله تعالی:« وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلَوْا إِلی شَیاطِینِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَکُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ:» البقره:-۱۴.

و الجواب عن الإشکال الرابع أن الشیء الذی کانوا یحذرونه فی الحقیقه هو ظهور نفاقهم و انکشاف ما فی قلوبهم،و إنما کانوا یحذرون نزول السوره لأجل ذلک فالمحذور الذی ذکر فی صدر الآیه و الذی فی ذیل الآیه أمر واحد،و معنی قوله« إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ »إنه مظهر لما أخفیتموه من النفاق و منبئ لما فی قلوبکم.

قوله تعالی:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَیَقُولُنَّ إِنَّما کُنّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللّهِ وَ آیاتِهِ وَ رَسُولِهِ کُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ » الخوض -علی ما فی المجمع،-دخول القدم فیما کان مائعا من الماء و الطین ثم کثر حتی استعمل فی غیره.

و قال الراغب فی المفردات:، الخوض هو الشروع فی الماء و المرور فیه،و یستعار فی الأمور،و أکثر ما ورد فی القرآن ورد فیما یذم الشروع فیه.انتهی.

و لم یذکر الله سبحانه متعلق السؤال و أن المسئول عنه الذی إن سأل النبی ص سأل عنه ما هو؟غیر أن قوله:« لَیَقُولُنَّ إِنَّما کُنّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ »بما له من السیاق

المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلا صادرا منهم له نوع تعلق بالنبى ص،و كان أمرا مرئيا يسىء الظن بهم،و لم يكن فى وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين و انكشف للنبى ص إلا بأنه إنما كان منهم خوضا و لعبا لم يريدوا به غير ذلك.

و الخوض و اللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئه التى لا يعترف بهما الناس فى حالهم العادى و خاصه المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان و خاصه إذا كان ذلك فى أمر يرجع إلى الله و رسوله غير أنهم لم يجدوا وصفا يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه،دون أن يعنونوه بأنه كان خوضا و لعبا.

و لذا أمر نبيه ص أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال:« قُلْ أَ بِاللّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ »ثم فسر عملهم فى آخر الآيات بقوله:« يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مٰا قٰالُوا وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا »الآيه.

و يتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبى ص بسوء كالفتك به و مفاجأته بما يهلكه و أقدموا على ما قصدوه و تكلموا عند ذلك بشىء من الكلام الردى لكنهم أخطئوا فى ما أوقعوه عليه و اندفع الشر عنه،و لم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم و بان أمرهم سألهم النبى ص عن ذلك و ما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون و يلعبون فوبخهم النبى ص بقوله:« أَ بِاللّهِ وَ آيٰاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ »و رد الله سبحانه إليهم عذرهم الذى اعتذروا به و بين حقيقه ما قصدوا بذلك.

و بالجمله معنى الآيه:و أقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذى شوهد منهم:ما الذى أرادوا به؟و كان ظاهره أنهم هموا بأمر فيك ليقولن:لم يكن قصد سوء و لا بالذى ظننت فأسأت الظن بنا،و إنما كنا نخوض و نلعب خوض الركب فى الطريق لا على سبيل الجد و لكن لعبا.

و هذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله و آياته و رسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوه خوضا و لعبا فقد استهزءوا بالله و رسوله فقل:أ بالله و آياته و رسوله كنتم تستهزءون أى أ تعتذرون عن سيئ فعلكم بسيئه أخرى هى الاستهزاء بالله و آياته و رسوله،و هو كفر؟.

و ليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول،و إنما

ذکر الله و آیاته للدلاله علی معنی الاستهزاء بالرسول،و أنه لما کان من آیات الله کان الاستهزاء به استهزاء بآیات الله،و الاستهزاء بآیات الله استهزاء بالله العظیم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله و آیاته و رسوله.

قوله تعالی:« لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَهٍ مِنْکُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَهً »الآیه،قال الراغب فی المفردات،: الطوف المشی حول الشیء و منه الطائف لمن یدور حول البیوت حافظا-إلی أن قال-و الطائفه من الناس جماعه منهم و من الشیء القطعه منه.

و قوله تعالی:« فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ کُلِّ فِرْقَهٍ مِنْهُمْ طٰائِفَهٌ لِیَتَفَقَّهُوا فِی الدِّینِ »قال بعضهم:قد یقع ذلک علی الواحد فصاعدا،و علی ذلک قوله:« وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ . إِذْ هَمَّتْ طٰائِفَتٰانِ مِنْکُمْ ».

و الطائفه إذا أرید بها الجمع فجمع طائف،«و إذا أرید بها الواحد فیصح أن یکون جمعا و یکنی به عن الواحد،و یصح أن یجعل کراویه و علامه و نحو ذلک.انتهی.

و قد خطأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفه علی الواحد و الاثنین من الناس کما تصدق علی الثلاثه فصاعدا،و بالغ فی ذلک حتی عده غلطا و لا دلیل له علی ما ذکره،و ماده اللفظ لا یستوجب شیئا معینا من العدد،و إطلاقها علی القطعه من الشیء یؤید استعمالها فی الواحد.

و قوله:« لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ »نهی عن الاعتذار بدعوی أنه لغو کما یدل علیه قوله:« قَدْ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ »فإن الاعتذار لا فائده تترتب علیه بعد الحکم بکفرهم بعد إیمانهم.

و المراد بإیمانهم هو ظاهر الإیمان الذی کانوا یتظاهرون به لا حقیقه الإیمان الذی هو من الهدایه الإلهیه التی لا یعقبها ضلال،و یؤیده قوله تعالی فی آخر هذه الآیات:

« وَ لَقَدْ قٰالُوا کَلِمَهَ الْکُفْرِ وَ کَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ »فبدل الإیمان إسلاما و هو ظاهر الشهادتین.

و یمکن أن یقال:إن من مراتب الإیمان ما هو اعتقاد و إذعان ضعیف غیر آب عن الزوال کإیمان الذین فی قلوبهم مرض و قد عدهم الله من المؤمنین و ذکرهم مع

المنافقين لأمنهم،و لا مانع من أن ينسلخوا هذا الإيمان.

و كيف لا؟و قد سلخ الله الإيمان ممن هو أرسخ إيمانا منهم كالذى يقصه فى قوله:« وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْنٰاهُ آیٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطٰانُ فَکٰانَ مِنَ الْغٰاوِینَ وَ لَوْ شِئْنٰا لَرَفَعْنٰاهُ بِهٰا وَ لٰکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوٰاهُ:» الأعراف:-۱۷۶.

و قال أيضا:« إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ ازْدٰادُوا کُفْراً:» و قد أكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الإيمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبى قبل رسوخه و هو اعتقاد.

نعم الإيمان المستقر و الاعتقاد الراسخ لا سبيل إلى عروض الزوال له قال تعالى:

« مَنْ یَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی:» الأعراف:-۱۷۸ و قال:« فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ:» النحل:-۳۷.

و قوله:« إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَةٍ مِنْکُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَةً »يدل على أن هؤلاء المنافقين المذكورين فى الآيات كانوا ذوى عدد و كثره،و أن كلمه العذاب وقعت عليهم لا بد لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهى لمصلحه فى ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجمله:« إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَةٍ مِنْکُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَةً »بحسب ما يفهم من نظمه و سياقه.

و بعباره أخرى رابطه اللزوم بين الشرط و الجزاء بترتب الجزاء و تفرعه على الشرط إنما هى بالتبع و أصله ترتب الجزاء هاهنا على أمر يتعلق به الشرط و هو أن العذاب وجب على جماعتهم فإن عفى عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف.

و قد ظهر بما قدمناه أولا:وجه ترتب قوله:« نُعَذِّبْ طٰائِفَةً »على قوله:

« إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَةٍ »و اندفع ما استشكله بعضهم على الآيه أنه لا ملازمه بين العفو عن البعض و عذاب البعض فما معنى الاشتراط؟.

و الجواب:أن اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعه و بين نزوله على بعضهم ثم انتقل إلى ما بين العفو عن البعض و بين نزوله على بعضهم كما قررناه.

و ثانيا:أن المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحه من مصالح الدين دون العفو

بمعنی المغفره المستنده إلی التوبه إذ لا وجه ظاهرا لمثل قولنا:إن غفرنا لطائفه منکم لتوبتهم نعذب طائفه لجرمهم مع أنهم لو تابوا جمیعا لم یعذبوا قطعا.

و قد ندب الله إلیهم جمیعا أن یتوبوا حیث قال فی آخر الآیات:« فَإِنْ یَتُوبُوا یَکُ خَیْراً لَهُمْ وَ إِنْ یَتَوَلَّوْا یُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ عَذٰاباً أَلِیماً فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ ».

و ثالثا:أن العفو فی الآیه بل و العذاب المذکور فیها هو العفو عن العذاب الدنیوی و ترکها و کذا القول فی العذاب فإن العفو من العذاب الأخروی علی ما تنص علیه الآیات القرآنیه إنما یکون لتوبه أو شفاعه،و لا تحقق لواحد منهما فیما نحن فیه أما التوبه فلما تبین أنها غیر مراده فی الآیه،و أما الشفاعه فلما ثبت بآیات الشفاعه أن الشفاعه لا ینالها فی الآخره إلا مؤمن مرضی الإیمان،و قد استوفینا البحث عنها فی الجزء الأول من الکتاب.

و رابعا:أنه لا مانع من کون الآیه أعنی قوله:« لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَهٍ »الآیه من تتمه کلام النبی ص فإن المراد بالعفو و العذاب هو العذاب الدنیوی بالسیاسه و ترکه،و لا مانع من نسبتهما إلی النبی ص.

لکن ظاهر الآیات التالیه هو کونه من قول الله سبحانه خطابا للمنافقین فیکون التفاتا من خطاب النبی ص إلی خطابهم و النکته فیه إظهار کمال الغضب و اشتداد السخط من صنعهم حتی کأنه لا یفی بإیذانه و إعلامه الرساله فواجههم بنفسه و خاطبهم بشخصه فهددهم بعذاب واقع لا مرد له و لا مفر منه.

قوله تعالی:« اَلْمُنٰافِقُونَ وَ الْمُنٰافِقٰاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ »إلی آخر الآیتین،ذکروا أنه استئناف یتعرض لحال عامه المنافقین بذکر أوصافهم العامه الجامعه و تعریفهم بها و ما یجازیهم الله فی عاقبه أمرهم ثم یتعرض لحال عامه المؤمنین و یعرفهم بصفاتهم الجامعه و یذکر ما ینبئهم الله به علی سبیل المقابله استتماما للقسمه،و من الدلیل علی هذا الاستیفاء ذکر جزاء الکفار مع المنافقین فی قوله:« وَعَدَ اللّٰهُ الْمُنٰافِقِینَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْکُفّٰارَ »الآیه.

و الظاهر أن الآیه فی مقام التعلیل لقوله فی الآیه السابقه:« إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَهٍ مِنْکُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَهً »و سیاق مخاطبه المنافقین جار لم ینقطع بعد.

فالآیه السابقه لما دلت علی أنه تعالی لا یترک المنافقین حتی یعذبهم بأجرامهم

فإن ترک بعضا منهم لحکمه و مصلحه أخذ آخرین منهم بالعذاب کان هناک مظنه أن یسأل فیقال:ما وجه أخذ البعض إذا ترک غیره؟و هل هو إلا کأخذ الجار بجرم الجار فأجیب ببیان السبب و هو أن المنافقین جمیعا بعضهم من بعض لاشتراکهم فی خبائث الصفات و الأعمال،و اشتراکهم فی جزاء أعمالهم و عاقبه حالهم.

و لعله ذکر المنافقات مع المنافقین مع عدم سبق لذکرهن للدلاله علی کمال الاتحاد و الاتفاق بینهم فی نفسیتهم،و لیکون تلویحا علی أن من النساء أیضا أجزاء مؤثره فی هذا المجتمع النفاقی الفاسد المفسد.

فمعنی الآیه لا ینبغی أن یستغرب أخذ بعض المنافقین إذا ترک البعض الآخر لأن المنافقین و المنافقات یحکم علیهم نوع من الوحده النفسیه یوحد کثرتهم فیرجع بعضهم إلی بعض،فیشرکهم فی الأوصاف و الأعمال و ما یجازون به بوعد من الله تعالی.

فهم یأمرون بالمنکر و ینهون عن المعروف و یمسکون عن الإنفاق فی سبیل الله و بعباره أخری نسوا الله تعالی بالإعراض عن ذکره لأنهم فاسقون خارجون عن زی العبودیه فنسیهم الله فلم یثبهم بما أثاب عباده الذاکرین مقام ربهم.

ثم ذکر ما وعدهم علی ذلک فقال:« وَعَدَ اللّٰهُ الْمُنٰافِقِینَ وَ الْمُنٰافِقٰاتِ وَ الْکُفّٰارَ -و عطف علیهم الکفار لأنهم جمیعا سواء- نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا هِیَ حَسْبُهُمْ »من الجزاء لا یتعدی فیهم إلی غیرها« وَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ »و أبعدهم« وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُقِیمٌ »ثابت لا یزول عنهم البته.

و قد ظهر بذلک أن قوله تعالی:« نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِیَهُمْ »(إلخ؟بیان لما تقدمه من قوله:

« یَأْمُرُونَ بِالْمُنْکَرِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ یَقْبِضُونَ أَیْدِیَهُمْ ».

و یتفرع علی ذلک أن الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر و الإنفاق فی سبیل الله من الذکر.

قوله تعالی:« کَالَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ کٰانُوا أَشَدَّ مِنْکُمْ قُوَّهً وَ أَکْثَرَ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاٰقِهِمْ »إلخ،قال الراغب: الخلاق ما اکتسبه الإنسان من الفضیله بخلقه قال تعالی:« وَ مٰا لَهُ فِی الْآخِرَهِ مِنْ خَلاٰقٍ »انتهی و فسره غیره بمطلق النصیب.

و الآیه من تتمه مخاطبه المنافقین التی فی قوله:« لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ »

الآیه فی سیاق واحد متصل و فی الآیه تشبیه حال المنافقین بحال من کان قبلهم من الکفار و المنافقین و قیاسهم إلیهم لیستشهد بذلک علی ما قیل:إن المنافقین و المنافقات بعضهم من بعض و أنهم جمیعا و الکفار ذوو طبیعه واحده فی الإعراض عن ذکر الله و الإقبال علی الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنیا من أموال و أولاد و الخوض فی آیات الله ثم فی حبط أعمالهم فی الدنیا و الآخره و الخسران.

و معنی الآیه-و الله أعلم-أنتم کالذین من قبلکم کانت لهم قوه و أموال و أولاد بل أشد و أکثر فی ذلک منکم،فاستمتعوا بنصیبهم و قد تفرع علی هذه المماثله أنکم استمتعتم کما استمتعوا و خضتم کما خاضوا أولئک حبطت أعمالهم فی الدنیا و الآخره و أولئک هم الخاسرون و أنتم أیضا أمثالهم فی الحبط و الخسران و لذا وعدکم النار الخالده و لعنکم.

و ذکر کون قوه من قبلهم أشد و أموالهم و أولادهم أکثر للإیماء إلی أنهم لم یعجزوا الله بذلک،و لم یدفع ذلک عنهم غائله الحبط و الخسران فکیف بکم و أنتم أضعف قوه و أقل أموالا و أولادا؟.

قوله تعالی:« أَ لَمْ یَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرٰاهِیمَ وَ أَصْحٰابِ مَدْیَنَ وَ الْمُؤْتَفِکٰاتِ »الآیه رجوع إلی السیاق الأول و هو سیاق مخاطبه النبی ص مع افتراض الغیبه فی المنافقین،و تذکیر لهم بما قص علیهم القرآن من قصص الأمم الماضین.

فذاک قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق،و عاد و هم قوم هود أهلکهم بریح صرصر عاتیه،و ثمود و هم قوم صالح عذبهم بالرجفه،و قوم إبراهیم أهلک ملکهم نمرود و سلب عنهم النعمه،و المؤتفکات و هی القری المنقلبات علی وجهها-من ائتفکت الأرض إذا انقلبت-قری قوم لوط جعل عالیها سافلها.

و قوله:« أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ »أی بالواضحات من الآیات و الحجج و البراهین و هو بیان إجمالی لنبئهم أی کان نبؤهم أن أتتهم رسلهم بالآیات البینه فکذبوها فانتهی أمرهم إلی الهلاک،و لم یکن من شأن السنه الإلهیه أن یظلمهم لأنه بین لهم الحق و الباطل،و میز الرشد من الغی،و الهدی من الضلال،و لکن کان أولئک الأقوام

و الأمم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا و الخوض فى آيات الله و تكذيب رسله.

قوله تعالى:« وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »إلى آخر الآيه.ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامه محاذاه لما وصف به المنافقين فقال:« وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »ليدل بذلك على أنهم مع كثرتهم و تفرقهم من حيث العدد و من الذكوره و الأنوثه ذوو كينونه واحده متفقه لا تشعب فيها و لذلك يتولى بعضهم أمر بعض و يدبره.

و لذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف و ينهى بعضهم بعضا عن المنكر فلولايه بعض المجتمع على بعض ولايه ساريه فى جميع الأبعاض دخل فى تصديهم الأمر بالمعروفه و النهى عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله:« وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ »و هما الركنان الوثيقان فى الشريعه فالصلاه ركن العبادات التى هن الرابطه بين الله و بين خلقه،و الزكاه فى المعاملات التى هى رابطه بين الناس أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله:« وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ »فجمع فى إطاعه الله جميع الأحكام الشرعيه الإلهيه و جمع فى إطاعه رسوله جميع الأحكام الولائيه التى يصدرها رسوله فى إداره أمور الأمه و إصلاح شئونهم كفرامينه فى الغزوات،و أحكامه فى القضايا و إجراء الحدود و غير ذلك.

على أن إطاعه شرائع الله النازله من السماء من جهه أخرى منطويه فى إطاعه الرسول فإن الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوه إلى أصول الدين و فروعه.

و قوله:« أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ »إخبار عما فى القضاء الإلهى من شمول الرحمه الإلهيه لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر،و كان فى هذه الجمله محاذاه لما سرد فى المنافقين من قوله تعالى:« نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »و الظاهر أيضا أن قوله:« إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » تعليل لما ذكر من الرحمه فلا مانع من رحمته لعزته،و لا اختلال أو وهنا و جزافا فى حكمته.

قوله تعالى:« وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ » إلى آخر الآيه، العدن مصدر بمعنى الإقامه و الاستقرار يقال:عدن بالمكان أى أقام فيه و استقر و منه المعدن للأرض التى تستقر فيه الجواهر و الفلزات المعدنيه،و على هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامه و استقرار و خلود.

و قوله:« وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ »أی رضی الله سبحانه عنهم أكبر من ذلک كله-علی ما یفیده السیاق-و قد نكر« رِضْوٰانٌ »إیماء إلی أنه لا یقدر بقدر و لا یحیط به وهم بشر أو لأن رضوانا ما منه و لو كان یسیرا أكبر من ذلک كله لا لأن ذلک كله مما یتفرع علی رضاه تعالی و یترشح منه و إن كان كذلک فی نفسه -بل لأن حقیقه العبودیه التی یندب إلیها كتاب الله هی عبودیته تعالی حبا له:

لا طمعا فی جنه،أو خوفا من نار،و أعظم السعاده و الفوز عند المحب أن یستجلب رضی محبوبه دون أن یسعی لإرضاء نفسه.

و كأنه للإشاره إلی ذلک ختم الآیه بقوله:« ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ »و تكون فی الجمله دلاله علی معنی الحصر أی إن هذا الرضوان هو حقیقه كل فوز عظیم حتی الفوز العظیم بالجنه الخالده إذ لو لا شیء من حقیقه الرضی الإلهی فی نعیم الجنه كان نقمه لا نعمه.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ جٰاهِدِ الْكُفّٰارَ وَ الْمُنٰافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ » جهاد القوم و مجاهدتهم بذل غایه الجهد فی مقاومتهم و هو یكون باللسان و بالید حتی ینتهی إلی القتال،و شاع استعماله فی الكتاب فی القتال و إن كان ربما استعمل فی غیره كما فی قوله:« وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنٰا »الآیه.

و استعماله فی قتال الكفار علی رسله لكونهم متجاهرین بالخلاف و الشقاق،و أما المنافقون فهم الذین لا یتظاهرون بكفر و لا یتجاهرون بخلاف،و إنما یبطنون الكفر و یقلبون الأمور كیدا و مكرا و لا معنی للجهاد معهم بمعنی قتالهم و محاربتهم؟و لذلک ربما یسبق إلی الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضیه المصلحه من بذل غایه الجهد فی مقاومتهم فإن اقتضت المصلحه هجروا و لم یخالطوا و لم یعاشروا،و إن اقتضت وعظوا باللسان،و إن اقتضت أخرجوا و شردوا إلی غیر الأرض أو قتلوا إذا أخذ علیهم الرده،أو غیر ذلک.

و ربما شهد لهذا المعنی أعنی كون المراد بالجهاد فی الآیه مطلق بذل الجهد تعقیب قوله:« جٰاهِدِ الْكُفّٰارَ وَ الْمُنٰافِقِینَ »بقوله:« وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ »أی شدد علیهم و عاملهم بالخشونه.

و أما قوله:« وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ »فهو عطف علی ما قبله من الأمر، و لعل الذی هون الأمر فی عطف الإخبار علی الإنشاء هو كون الجمله السابقه فی معنی قولنا:«إن هؤلاء الكفار و المنافقین مستوجبون للجهاد».و الله أعلم.

قوله تعالی:« یَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ

وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا

»الآيه.سياق الآيه يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ و شفعوه بقول تفوهوا به عند ذلك،و أن النبى ص عاتبهم على قولهم مؤاخذا لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدم فى قوله:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمٰا كُنّٰا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ »إلى آخر الآيه إنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضا و لعبا لا غير ذلك.

و الله سبحانه يكذبهم فى الأمرين جميعا:أما فى إنكارهم القول فبقوله:« وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ »و فسره ثانيا بقوله:« وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ »للدلاله على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الإسلام.

و لعله قال هاهنا:« وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ »و قد قيل سابقا:« قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ »لأن القول السابق للنبى ص الجارى على ظاهر حالهم و هو الإيمان الذى كانوا يدعونه و يتظاهرون به،و القول الثانى لله العالم بالغيب و الشهاده فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين و لم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين، و قد كفروا بقولهم و خرجوا عن الإسلام إلى الكفر،و فى هذا إيماء إلى أن قولهم كان كلمه فيه الرد على الشهادتين أو إحداهما.

أو لأن القول الأول فى قبال عملهم الذى أرادوا إيقاع الشر بالنبى ص، و العمل الخالى من القول و هو لم يصب الغرض لا يضر بالإسلام الذى هو نصيب اللفظ و الشهاده،و إنما يضر بالإيمان الذى هو نصيب الاعتقاد،و القول الثانى فى قبال قولهم الذى تفوهوا به،و هو ينافى الإسلام الذى يكتسب باللفظ دون الإيمان الذى هو نوع من الاعتقاد القلبى.

و أما فى إنكارهم العمل السيئ الذى أتوا به و تأويلهم إياه إلى الخوض و اللعب فبقوله:« وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا ».

ثم قال فى مقام ذمهم و تعييرهم:« وَ مٰا نَقَمُوا إِلاّٰ أَنْ أَغْنٰاهُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » أى بسبب أن أغناهم الله و رسوله،أى كان سبب نقمتهم هذه أن الله أغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم و بسط عليهم الأمن و الرفاهيه فمكنهم من توليد الثروه و إنماء المال من كل جهه،و كذا رسوله حيث هداهم إلى عيشه صالحه تفتح عليهم أبواب بركات السماء و الأرض،و قسم بينهم الغنائم و بسط عليهم العدل.

فهو من قبيل وضع الشىء موضع ضده:وضع فيه الإغناء و هو بحسب الطبع

سبب للرضى و الشكر موضع سبب النقمه و السخطه كالظلم و الغضب و إن شئت قلت:وضع فيه الإحسان موضع الإساءه،ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما فى قوله تعالى:« وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ:» الواقعه:-٨٢ أى تجعلون رزقكم سببا للتكذيب بآيات الله و هو سبب بحسب الطبع لشكر النعمه و الرضا بالموهبه على ما قيل:إن المعنى:و تجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون.

و الضمير فى قوله:« مِنْ فَضْلِهِ »راجع إلى الله سبحانه،قال فى المجمع،:و إنما لم يقل:من فضلهما لأنه لا يجمع بين اسم الله و اسم غيره فى الكنايه تعظيما لله،و لذلك قال النبى ص لمن سمعه يقول:«من أطاع الله و رسوله فقد اهتدى و من عصاهما فقد غوى»:بئس خطيب القوم أنت فقال:كيف أقول يا رسول الله؟قال:قل:

و من يعص الله و رسوله،و هكذا القول فى قوله سبحانه:« وَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »و قيل:إنما لم يقل من فضلهما لأن فضل الله منه و فضل رسوله من فضله،انتهى كلامه.

و هناك وراء التعظيم أمر آخر قدمنا القول فيه فى تفسير قوله تعالى:« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَةٍ:» المائده:-٧٣ فى الجزء السادس من الكتاب،و هو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحده العدديه حتى يصح بذلك تأليفها مع وحده غيره و استنتاج عدد من الأعداد منه.

ثم بين الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكه و صريح كفرهم بالله و همهم بما لم ينالوا أن يرجعوا إلى ربهم،و بين عاقبه أمر هذه التوبه و عاقبه التولي و الإعراض عنها فقال: « فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ »لأدائه إلى المغفره و الجنه« وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا »و يعرضوا عن التوبه« يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ عَذٰاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيٰا » بالسياسه و النكال أو بإغراء النبى ص عليهم أو بالمكر و الاستدراج،و لو لم يكن من عذابهم إلا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبنى على الصدق و الإيمان فتقادمهم سلسله الأسباب و تحطمهم و تفضحهم لكان فيه كفايه،و قد قال الله:« وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ:» التوبه:-٢۴« وَ الْآخِرَةِ »بعذاب النار.

و قوله تعالى:« وَ مٰا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ »معناه أن هؤلاء لا ولى لهم فى الأرض يتولى أمرهم و يصرف العذاب عنهم،و لا نصير ينصرهم و يمدهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن أنفسهم لأن سائر المنافقين أيضا منهم و كلمه الفساد يجمعهم

و أصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونيه فلا ولی لهم يتولی أمرهم و لا ناصر لهم ينصرهم و لعل هذه الجمله من الآيه إشاره إلی ما أومأنا إليه فی معنی عذاب الدنيا.

(بحث روائی)

فی المجمع،: فی قوله تعالی:« يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ »الآيه،قيل:

نزلت فی اثنی عشر رجلا وقفوا علی العقبه-ليفتكوا برسول الله ص عند رجوعه من تبوک-فأخبر جبرئيل رسول الله ص بذلک،و أمره أن يرسل إليهم و يضرب وجوه رواحلهم-.

و عمار كان يقود دابه رسول الله ص و حذيفه يسوقها-فقال لحذيفه:اضرب وجوه رواحلهم،فضربها حتی نحاهم-فلما نزل قال لحذيفه:من عرفت من القوم؟ قال:لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله ص:إنه فلان و فلان حتی عدهم كلهم- فقال حذيفه:ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟فقال:أكره أن تقول العرب:لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم:عن ابن كيسان.

و روی عن أبی جعفر الباقر(ع): مثله إلا أنه قال:ائتمروا بينهم ليقتلوه و قال بعضهم لبعض:إن فطن نقول:إنما كنا نخوض و نلعب،و إن لم يفطن نقتله.

و قيل:إن جماعه من المنافقين قالوا فی غزوه تبوک:يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام و حصونها هيهات هيهات،فأطلع الله نبيه ص علی ذلک فقال:احبسوا علی الركب،فدعاهم فقال لهم:قلتم كذا و كذا.فقالوا:يا نبی الله إنما كنا نخوض و نلعب و حلفوا علی ذلک فنزلت الآيه:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ »إلخ،عن الحسن و قتاده.

و قيل:كان ذلک عند منصرفه من غزوه تبوک إلی المدينه و كان بين يديه أربعه نفر أو ثلاثه يستهزءون و يضحكون،و أحدهم يضحک و لا يتكلم فنزل جبرئيل و أخبر رسول الله ص بذلک فدعا عمار بن ياسر و قال:إن هؤلاء يستهزءون بی و بالقرآن أخبرنی جبرئيل بذلک،و لئن سألتهم ليقولن:كنا نتحدث بحديث الركب فأتبعهم عمار و قال:مم تضحكون؟قالوا:نتحدث بحديث الركب فقال عمار:صدق الله و رسوله احترقتم أحرقكم الله،فأقبلوا إلی النبی ص يعتذرون فأنزل الله تعالی الآيات.عن الكلبی و علی بن إبراهيم و أبی حمزه.

و قیل:إن رجلا قال فی غزوه تبوک:ما رأیت أکذب لسانا و لا أجبن عند اللقاء من هؤلاء یعنی رسول الله ص و أصحابه،فقال له عوف بن مالک:کذبت و لکنک منافق،و أراد أن یخبر رسول الله بذلک فجاء و قد سبقه الوحی فجاء الرجل معتذرا،و قال: إنما کنا نخوض و نلعب ففیه نزلت الآیه،عن ابن عمر و زید بن أسلم و محمد بن کعب.

و قیل:إن رجلا من المنافقین قال:یحدثنا محمد أن ناقه فلان بوادی کذا و کذا و ما یدریه ما الغیب؟فنزلت الآیه،عن مجاهد.

و قیل:نزلت فی عبد الله بن أبی و رهطه،عن الضحاک.

و فی المجمع،أیضا: فی قوله تعالی:« یَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا »الآیه،اختلف فی من نزلت فیه هذه الآیه-فقیل:إن رسول الله ص کان جالسا فی ظل شجره-فقال:

إنه سیأتیکم إنسان فینظر إلیکم بعینی الشیطان،فلم یلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ص-فقال:علام تشتمنی أنت و أصحابک؟فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله:ما قالوا فأنزل الله هذه الآیه:عن ابن عباس.

و قیل:خرج المنافقون مع رسول الله ص إلی تبوک فکانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ص و أصحابه و طعنوا فی الدین فنقل ذلک حذیفه إلی رسول الله ص فقال لهم:ما هذا الذی بلغنی عنکم فحلفوا بالله:ما قالوا شیئا من ذلک.

عن الضحاک.

و قیل:نزلت فی جلاس بن سوید بن الصامت،و ذلک أن رسول الله ص خطب ذات یوم بتبوک و ذکر المنافقین فسماهم رجسا و عابهم،فقال الجلاس:و الله لئن کان محمد صادقا فیما یقول فنحن شر من الحمیر فسمعه عامر بن قیس فقال:أجل و الله إن محمدا لصادق و أنتم شر من الحمیر،فلما انصرف رسول الله ص إلی المدینه أتاه عامر بن قیس فأخبره بما قال الجلاس،فقال الجلاس:کذب یا رسول الله.

فأمرهما رسول الله ص أن یحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال ثم قام عامر فحلف بالله:لقد قال،ثم قال:اللهم أنزل علی نبیک الصادق منا الصدق،فقال رسول الله ص و المؤمنون:آمین،فنزل جبرئیل(ع)قبل أن یتفرقا بهذه الآیه حتی بلغ:« فَإِنْ یَتُوبُوا یَکُ خَیْراً لَهُمْ ».

فقام الجلاس فقال:يا رسول الله أسمع الله قد عرض على التوبه صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلته و أنا أستغفر الله و أتوب إليه،فقبل رسول الله ص ذلك منه.عن الكلبى و محمد بن إسحاق و مجاهد.

و قيل:نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول حين قال:« لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَهِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »عن قتاده.

و قيل:نزلت فى أهل العقبه فإنهم ائتمروا فى أن يغتالوا رسول الله ص فى عقبه عند مرجعهم من تبوك،و أرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلعه الله على ذلك،و كان من جمله معجزاته لأنه لا يمكن معرفه مثل ذلك إلا بوحى من الله تعالى.

فسار رسول الله ص فى العقبه،و عمار و حذيفه معه،أحدهما يقود ناقته و الآخر يسوقها و أمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادى،و كان الذين هموا بقتله اثنى عشر رجلا أو خمسه عشر رجلا على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ص و سماهم واحدا واحدا،عن الزجاج و الواقدى و الكلبى،و القصه مشروحه فى كتاب الواقدى.

و قال الباقر(ع):كانت ثمانيه منهم من قريش و أربعه من العرب.

أقول:و الذى ذكره رحمه الله مما جمعه و اختاره من الروايات مرويه فى كتب التفسير بالمأثور و جوامع الحديث من كتب الفريقين و هناك روايات أخرى تركها و أحرى بها أن تترك فتركنا أكثرها كما ترك.

و أما الذى أورده من الروايات فشىء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبه الذى أورده تاره فى تفسير الآيه الأولى:« يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَهٌ الآيه،و تاره فى تفسير الآيه:« يَحْلِفُونَ بِاللّهِ ما قالُوا »الآيه.

و أما سائر الروايات الوارده فإنما هى روايات تتضمن من متفرقات القصص و الوقائع ما لو صحت و ثبتت كانت من قصص المنافقين من غير أن ترتبط بهذه الآيات و هى كما عرفت فى البيان السابق إحدى عشره آيه متصل بعضها ببعض مسروده لغرض واحد،و هو الإشاره إلى قصه من قصص المنافقين هموا فيها باغتيال رسول الله ص،و تكلموا عند ذلك بكلمه الكفر فحال الله سبحانه بينهم و بين أن ينالوا ما هموا به فسألهم رسول الله ص عن أمرهم و ما تفوهوا به فأولوا فعلهم و أنكروا قولهم و حلفوا على ذلك فكذبهم الله تعالى فيه.

فهذا إجمال ما يلوح من خلال الآيات،و لا ينطبق من بين الروايات إلا على الروايات المشتمله على قصه العقبه فى الجمله دون سائرها.

و لا مسوغ للاستناد إليها فى تفسير الآيات إلا على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات أو لم تساعد على ما فيها-أعنى الروايات-من الاختلاف الفاحش الذى يوجب سوء الظن بها كما يظهر لمن راجعها.

على أن فى الروايات مغمزا آخر و هو ظهورها فى تقطع الآيات و تشتت بعضها و انفصاله عن بعض بنزول كل لسبب آخر و تعقيبه غرضا آخر،و قد عرفت أن الآيات ذات سياق واحد متصل ليس من شأنه إلا أن يعقب غرضا واحدا.

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الكلبى: أن رسول الله ص لما أقبل من غزوه تبوك و بين يديه ثلاثه رهط-استهزءوا بالله و رسوله و بالقرآن- قال:كان رجل منهم لم يمالئهم فى الحديث-يسير مجانبا لهم يقال له:يزيد بن وديعه- فنزلت:« إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰائِفَهٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طٰائِفَهً »فسمى طائفه و هو واحد.

أقول:و هذا هو منشأ قول بعضهم:إن الطائفه تطلق على الواحد كما تطلق على الكثير مع أن الآيه جاريه مجرى الكنايه دون التسميه و نظير ذلك كثير فى الآيات القرآنيه كما تقدمت الإشاره إليه.

و فيه،أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال": نزلت هذه الآيه فى رهط من المنافقين من بنى عمرو بن عوف-فيهم وديعه بن ثابت،و رجل من أشجع حليف لهم يقال له:

مخشى بن حمير (۱)كانوا يسيرون مع رسول الله ص و هو منطلق إلى تبوك-فقال بعضهم لبعض:أ تحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم-و الله لكأنا بكم غدا تقادون فى الحبال-.

قال مخشى بن حمير-لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائه-على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن-فقال رسول الله ص لعمار بن ياسر:أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا-فإن هم أنكروا و كتموا فقل:بلى قد قلتم كذا و كذا-فأدركهم فقال لهم فجاءوا يعتذرون فأنزل الله:

۱- ۱) و قد مر فى ص ۳۲۳ نقلا عن المصدر نفسه جحش بن حمير و هو مصحف(ب).

«لاّ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكَمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طّائِفَهٍ مِنْكَمْ»

الآيه-فكان الذى عفا الله عنه مخشى بن حمير-فتسمى عبد الرحمن،و سأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمقتله-فقتل باليمامه لا يعلم مقتله و لا من قتله- و لا يرى له أثر و لا عين.

أقول:و قصه مخشى بن حمير وردت فى عده روايات غير أنها على تقدير صحتها لا تستلزم نزول الآيات فيها على ما بينها و بين مضامين الآيات من البون البعيد.

و ليس من الواجب علينا إذا عثرنا على شىء من القصص الواقعه فى زمن النبى ص أى قصه كانت أن نلجم بها آيه من آيات القرآن الكريم ثم نعود فنفسر الآيه بالقصه و نحكمها عليها.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال": ما أشبه الليله بالبارحه:« كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّهً -إلى قوله- وَ خُضْتُمْ كَالَّذِى خاضُوا »هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم،و الذى نفسى بيده لتتبعنهم-حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه:

أقول:و رواه فى المجمع،أيضا عنه.

و فى المجمع،عن تفسير الثعلبى عن أبى هريره عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ص قال: لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعا بذراع-و شبرا بشبر و باعا بباع- حتى لو أن أحدا من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه.قالوا:يا رسول الله كما صنعت فارس و الروم و أهل الكتاب؟قال:فهل الناس إلا هم؟

و فيه،أيضا عن تفسير الثعلبى عن حذيفه قال: المنافقون الذين فيكم اليوم-شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ص.قلنا:و كيف؟قال:أولئك كانوا يخفون نفاقهم و هؤلاء أعلنوه.

و فى العيون،بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم قال:

سألت الرضا(ع)عن قول الله عز و جل:« نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ »فقال:إن الله تبارك و تعالى لا ينسى و لا يسهو،و إنما ينسى و يسهو المخلوق المحدث-أ لا تسمعه عز و جل يقول:« وَ ما كانَ رَبُّکَ نَسِيًّا »،و إنما يجازى من نسيه و نسى لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم-كما قال عز و جل:« وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّهَ-فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ

أَولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ »[و]قوله عز و جل« فَالْیَوْمَ نَنْسٰاهُمْ کَمٰا نَسُوا لِقٰاءَ یَوْمِهِمْ هٰذٰا » أی نترکهم کما ترکوا الاستعداد للقاء یومهم هذا.

و فی تفسیر العیاشی،عن جابر عن أبی جعفر(ع): « نَسُوا اللّٰهَ »قال:ترکوا طاعه الله« فَنَسِیَهُمْ »قال:فترکهم.

و فیه،عن أبی معمر السعدانی قال:قال علی(ع): فی قوله:« نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِیَهُمْ » فإنما یعنی أنهم نسوا الله فی دار الدنیا فلم یعملوا له بالطاعه-و لم یؤمنوا به و برسوله فنسیهم فی الآخره-أی لم یجعل لهم فی ثوابه نصیبا فصاروا منسیین من الخیر:

أقول:و رواه الصدوق فی المعانی،بإسناده عن أبی معمر عنه(ع).

و فی الکافی،بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع):-فی حدیث- قلت:« وَ الْمُؤْتَفِکٰاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ »قال:أولئک قوم لوط ائتفکت علیهم-أی انقلبت و صارت عالیها سافلها.

و فی التهذیب،بإسناده عن صفوان بن مهران قال: قلت لأبی عبد الله(ع)- تأتینی المرأه المسلمه قد عرفتنی بعملی-و أعرفها بإسلامها لیس لها محرم فأحملها،قال:

فاحملها فإن المؤمن محرم للمؤمنه.ثم تلا هذه الآیه:« وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ »:

أقول:و رواه العیاشی فی تفسیره عن صفوان الجمال عنه(ع).

و فی تفسیر العیاشی،عن ثویر عن علی بن الحسین(ع)قال: إذا صار أهل الجنه فی الجنه-و دخل ولی الله إلی جناته و مساکنه،و اتکأ،کل مؤمن علی أریکته حفته خدامه،و تهدلت علیه الأثمار،و تفجرت حوله العیون،و جرت من تحته الأنهار،و بسطت له الزرابی،و وضعت له النمارق،و أتته الخدام بما شاءت هواه من قبل أن یسألهم ذلک-قال:و تخرج علیه الحور العین من الجنان فیمکثون بذلک ما شاء الله.

ثم إن الجبار یشرف علیهم فیقول لهم:أولیائی و أهل طاعتی و سکان جنتی فی جواری الأهل أنبئکم بخیر مما أنتم فیه؟فیقولون:ربنا و أی شیء خیر مما نحن فیه:فیما اشتهت أنفسنا و لذت أعیننا من النعم فی جوار الکریم؟.

قال:فیعود علیهم القول فیقولون ربنا نعم-فأتنا بخیر مما نحن فیه فیقول تبارک و تعالی لهم:رضای عنکم و محبتی لکم خیر و أعظم مما أنتم فیه-قال:فیقولون:نعم یا ربنا رضاک عنا-و محبتک لنا خیر و أطیب لأنفسنا-.

ثم قرأ علی بن الحسین(ع)هذه الآیه:« وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ-خالِدِینَ فِیها وَ مَساکِنَ طَیِّبَهً فِی جَنّاتِ عَدْنٍ-وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَکْبَرُ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ ».

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن جابر قال:قال رسول الله ص: إذا دخل أهل الجنه الجنه قال الله:هل تشتهون شیئا فأزیدکم؟قالوا:یا ربنا و هل بقی شیء؟إلا قد أنلتناه؟فیقول:نعم رضائی فلا أسخط علیکم أبدا.

أقول:و هذا المعنی وارد فی روایات کثیره من طرق الفریقین.

و فی جامع الجوامع،عن أبی الدرداء عن النبی ص: عدن دار الله التی لم ترها عین-و لم تخطر علی قلب بشر لا یسکنها غیر ثلاثه:النبیون و الصدیقون و الشهداء یقول الله:طوبی لمن دخلک.

أقول:و لا ینافی خصوص سکنه الجنه فی الروایه عمومهم فی الآیه لدلاله قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِکَ هُمُ الصِّدِّیقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ:» الحدید:- ۱۹ علی أن الله سبحانه سیلحق عامه المؤمنین بالصدیقین و الشهداء.

و فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْکُفّارَ وَ الْمُنافِقِینَ »الآیه:

قال حدثنی أبی عن أبی عمیر عن أبی بصیر عن أبی جعفر(ع)قال: جاهد الکفار و المنافقین بإلزام الفرائض.

و فی الدر المنثور،أخرج البیهقی فی شعب الإیمان عن ابن مسعود قال": لما نزلت:

« یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْکُفّارَ وَ الْمُنافِقِینَ »أمر رسول الله ص أن یجاهد بیده فإن لم یستطع فبقلبه-فإن لم یستطع فبلسانه فإن لم یستطع فلیلقه بوجه مکفهر.

أقول:و فی الروایه تشویش من حیث ترتب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجمیع و قد تخلل بینها.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۷۵ الی ۸۰]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اَللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلصّالِحِینَ (۷۵) فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اَللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ (۷۷) أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اَللّهَ یَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اَللّهَ عَلاّمُ اَلْغُیُوبِ (۷۸) اَلَّذِینَ یَلْمِزُونَ اَلْمُطَّوِّعِینَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ فِی اَلصَّدَقاتِ وَ اَلَّذِینَ لا یَجِدُونَ إِلاّ جُهْدَهُمْ فَیَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اَللّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۷۹) اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّهً فَلَنْ یَغْفِرَ اَللّهُ لَهُمْ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَللّهُ لا یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْفاسِقِینَ (۸۰)

(بیان)

تـذکر الآیـات طـائفه أخری من المنـافقین تخلفوا عن حکم الصـدقات فامتنعوا عن إیتاء الزکاه،و قـد کانوا فقراء فعاهـدوا الله إن أغناهم و آتاهم من فضله لیصدقن و لیکونن من الصالحین فلما آتاهم مالا بخلوا به و امتنعوا.

و تـذکر آخرین من المنافقین یعیبون أهل السعه من المؤمنین بإیتاء الصـدقات و کـذلک یلمزون أهل العسره منهم و یسخرون منهم و الله سبحانه یسمی هؤلاء جمیعا منافقین،و یقضی فیهم بعدم المغفره البته.

قوله تعالی:« وَ مِنْهُمْ مَنْ عٰاهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ آتٰانٰا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَکُونَنَّ مِنَ الصّٰالِحِینَ »إلی آخر الآیتین. الإیتاء الإعطاء،و قد کثر إطلاق الإیتاء من الفضل علی إعطاء المال،و من القرائن علیه فی الآیه قوله« لَنَصَّدَّقَنَّ »أی لنتصـدقن مما آتانا من المال و کذلک ما فی الآیه التالیه من ذکر البخل به.

و السیاق یفیـد أن الکلاـم متعرض لأـمر واقع،و الروایـات تـدل علی أن الآیـات نزلت فی ثعلبه فی قصه سیأتی نقلهـا فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی،و معنی الآیتین ظاهر.

قوله تعالى:« فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ »الآيه. الأعقاب الإيراث قال فى المجمع،:و أعقبه و أورثه و أداه نظائر و قد يكون أعقبه بمعنى جازاه.انتهى و هو مأخوذ من العقب،و معناه الإتيان بشىء عقيب شىء.

و الضمير فى قوله:« فَأَعْقَبَهُمْ »راجع إلى البخل أو إلى فعلهم الذى منه البخل، و على هذا فالمراد بقوله:« يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ »يوم لقاء البخل أى جزاء البخل بنحو من العنايه.

و يمكن أن يرجع الضمير إليه تعالى و المراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله و هو يوم القيامه على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسميه يوم القيامه بيوم لقاء الله أو يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى:« مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ» :العنكبوت:-۵.

و هذا الثانى هو الظاهر على الثانى لأن الأنسب عند الذهن أن يقال:فهم على نفاقهم إلى أن يموتوا.دون أن يقال:فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أى حال.

و قوله:« بِمٰا أَخْلَفُوا اللّٰهَ مٰا وَعَدُوهُ وَ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ »الباء فى الموضعين منه للسببيه أى إن هذا البخل أورثهم نفاقا بما كان فيه من الخلف فى الوعد و الاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفه باطنهم لظاهرهم و هو النفاق.

و معنى الآيه:فأورثهم البخل و الامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقا فى قلوبهم يدوم لهم ذلك و لا يفارقهم إلى يوم موتهم و إنما صار هذا البخل و الامتناع سببا لذلك لما فيه من خلف الوعد لله و الملازمه و الاستمرار على الكذب.

أو المعنى:جازاهم الله نفاقا فى قلوبهم إلى يوم لقائه و هو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه و كانوا يكذبون.

و فى الآيه دلاله أولا:على أن خلف الوعد و كذب الحديث من أسباب النفاق و أماراته.

و ثانيا:أن من النفاق ما يعرض الإنسان بعد الإيمان كما أن من الكفر ما هو كذلك و هو الرده،و قد قال الله سبحانه:« ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا السُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِؤُنَ:» الروم:-۱۰ فذكر أن الإساءه ربما أدى بالإنسان إلى تكذيب آيات الله،و التكذيب ربما كان ظاهرا و باطنا معا و هو الكفر، أو باطنا فحسب و هو النفاق.

قوله تعالى:« أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ »الآيه النجوى الكلام الخفى و الاستفهام للتوبيخ و التأنيب.

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لاـ يَجِدُونَ إِلاّـ جُهْدَهُمْ »الآـيه التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس و لاـ تحسبه شاقا و لذلك يستعمل غالبا فى المندوبات لما فى الواجبات من شائبه التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

و مقابله المطوعين من المؤمنين فى الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم قرينه على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاه على السعه و الجده كأنهم لسعتهم و كثره مالهم يؤتونها على طوع و رغبه من غير أن يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أى مبلغ جهدهم و طاقتهم أو ما يشق عليهم القنوع بذلك.

و قوله:« اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ »الآيه كلام مستأنف أو هو وصف للذين ذكروا بقوله:

« وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ »الآـيه كما قالوا.و المعنى:الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين و الذين لا يجدون من المال إلا جهد أنفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم و معسرهم و غنيهم و فقيرهم و يسخرون منهم سخر الله منهم و لهم عذاب أليم،و فيه جواب لاستهزائهم و إيعاد بعذاب شديد.

قوله تعالى:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاـ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّهً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ »الترديد بين الأمر و النهى كنايه عن تساوى الفعل و الترك أى لغويه الفعل كما مر نظيره فى قوله:« أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ:» التوبه:-۵۳.

فالمعنى أن هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفره من الله و يستوى فيهم طلب المغفره و عدمها لأن طلبها لهم لغو لا أثر له.

و قوله:« إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّهً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ »تأكيدا لما ذكر قبله من لغويه الاستغفار لهم،و بيان أن طبيعه المغفره لا تنالهم البته سواء سألت المغفره فى حقهم أو لم تسأل،و سواء كان الاستغفار مره أو مرات قليلا أو كثيرا.

فذكر السبعين كنايه عن الكثره من غير أن يكون هناك خصوصيه للعدد حتى يكون الواحد و الاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر فى حقهم فإذا جاوز السبعين أثر أثره،و لذلك علله بقوله:« ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ »أى إن

المانع من شمول المغفره هو كفرهم بالله و رسوله،و لا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار.

و لا وجوده واحدا أو كثيرا فهم على كفرهم.

و من هنا يظهر أن قوله:« وَ اللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ »متمم لسابقه و الكلام مسوق سوق الاستدلال القياسی و التقدير:أنهم كافرون بالله و رسوله فهم فاسقون خارجون عن عبوديه الله،و الله لا يهدى القوم الفاسقين،لكن المغفره هدايه إلى سعاده القرب و الجنه فلا تشملهم المغفره و لا تنالهم البته.

و استعمال السبعين فی الكثره المجرده عن الخصوصيه كاستعمال المائه و الألف فيها كثير فی اللغه.

(بحث روائی)

فی المجمع،:قيل: نزلت فی ثعلبه بن حاطب،و كان من الأنصار فقال للنبی ص:ادع الله أن يرزقنی مالا فقال:يا ثعلبه قليل تؤدی شكره خير من كثير لا تطيقه-أ ما لک فی رسول الله أسوه حسنه؟و الذی نفسی بيده لو أردت أن تسير الجبال معی ذهبا و فضه لسارت-.

ثم أتاه بعد ذلک فقال:يا رسول الله-ادع الله أن يرزقنی مالا-و الذی بعثک بالحق،لئن رزقنی الله مالا-لأعطين كل ذی حق حقه،فقال(ص):اللهم ارزق ثعلبه مالا-فاتخذ غنما-فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينه-فتنحی عنها فنزل واديا من أوديتها-ثم كثرت نموا حتی تباعد من المدينه-فاشتغل بذلک عن الجمعه و الجماعه،و بعث رسول الله ص إليه المصدق ليأخذ الصدقه فأبی و بخل-و قال:

ما هذه إلا-أخت الجزيه فقال رسول الله ص:يا ويح ثعلبه يا ويح ثعلبه،و أنزل الله الآيات:. عن أبی أمامه الباهلی و روی ذلک مرفوعا .

و قيل:إن ثعلبه أتی مجلسا من الأنصار فأشهدهم فقال:لئن آتانی الله من فضله تصدقت منه و آتيت كل ذی حق حقه و وصلت منه القرابه فابتلاه الله فمات ابن عم له فورثه مالا فلم يف بما قال فنزلت.عن ابن عباس و سعيد بن جبير و قتاده.

و قيل:نزلت فی ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشير و هما من بنی عمرو بن عوف

ص :۳۵۲

قالا:لئن رزقنا الله مالا لنصدقن فلما رزقهما الله المال بخلا به.عن الحسن و مجاهد.

أقول:ما ذكروه من الروايات لا يدفع بعضها البعض فمن الجائز أن يكون ثعلبه عاهد النبى ص بذلك ثم أشهد عليه جماعه من الأنصار،و أن يكون معه فى ذلك غيره فتتأيد الروايات بعضها ببعض.

و تتأيد أيضا بما روى عن الضحاك أن الآيات نزلت فى رجال من المنافقين:

نبتل بن الحارث،و جد بن قيس،و ثعلبه بن حاطب،و معتب بن قشير.

و أما ما

رواه فى المجمع،عن الكلبى": أنها نزلت فى حاطب بن أبى بلتعه كان له مال بالشام-فأبطأ عنه و جهد لذلك جهدا شديدا-فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدقن-فأتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل؛فهو بعيد الانطباق على الآيات-لأن إيصال المال إلى صاحبه لا يسمى إيتاء من الفضل،و إنما هو الإعطاء و الرزق.

و فى تفسير القمى،قال:و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع): -فى الآيه- قال:هو ثعلبه بن حاطب بن عمرو بن عوف-كان محتاجا فعاهد الله فلما آتاه بخل به.

و فى الدر المنثور،أخرج البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى عن أبى هريره عن النبى ص قال: آيه المنافق ثلاث:إذا حدث كذب-و إذا وعد أخلف و إذا اؤتمن خان.

أقول:و هو مروى بغير واحد من الطرق عن أئمه أهل البيت(ع)،و قد تقدم بعضها.

و فيه،":فى قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ »الآيه":أخرج البخارى و مسلم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى المعرفه عن ابن مسعود قال": لما نزلت آيه الصدقه كنا نتحامل على ظهورنا-فجاء رجل فتصدق بشىء كثير فقالوا:

مراء،و جاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون:إن الله لغنى عن صدقه هذا فنزلت:

« اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ-وَ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ إِلاّٰ جُهْدَهُمْ »الآيه.

أقول:و الروايات فى سبب نزول الآيه كثيره و أمثلها ما أوردناه،و فى قريب من معناه روايات أخرى،و ظاهرها أن الآيه مستقله عما قبلها مستأنفه فى نفسها.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن عروه: أن عبـد الله بن أبی قال لأصـحابه:لو لا أنکم تنفقون علی محمد و أصحابه لانفضوا من حوله،و هو القائل:

لیخرجن الأعز منها الأذل-فأنزل الله عز و جل:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً-فَلَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ »قال النبی ص:لأزیدن علی السبعین فأنزل الله: سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ .

و فیه،أخرج ابن أبی شیبه و ابن جریر و ابن المنذر عن مجاهد قال:- لما نزلت:

« إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ »قال النبی ص:سأزید علی سبعین- فأنزل الله فی السوره التی یذکر فیها المنافقون« فَلَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ ».

و فیه،أخرج ابن جریر عن ابن عباس:أن رسول الله ص قال: -لما نزلت هذه الآیه-أسـمع ربی قد رخص لی فیهم-فوالله لأستغفرن أکثر من سبعین مره-لعل الله أن یغفر لهم فقال الله من شده غضبه علیهم:« سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-لَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ ».

أقول:مما لا ریب فیه أن هذه الآیات مما نزلت فی أواخر عهد النبی(ع) و قد سبقتها فی النزول السور المکیه عامه و أکثر السور و الآیات المـدنیه قطعا،و مما لا ریب فیه لمن یتدبر کتاب الله أنه لا رجاء فی نجاه الکفار و المنافقین و هم أشد منهم إذا ماتوا علی کفرهم و نفاقهم،و لا مطمع فی شمول المغفره الإلهیه لهم فهناک آیات کثیره مکیه و مدنیه صریحه قاطعه فی ذلک.

و النبی ص أجل من أن یخفی علیه ما أنزله الله إلیه أو أن لا یثق بما وعـدهم الله من العـذاب المخلد وعدا حتمیا فیطمع فی نقض القضاء المحتوم بالإصرار علیه تعالی و الإلحاح فی طلب الغفران لهم.

أو أن یخفی علیه أن التردید فی الآیه لبیان اللغویه و أن لا خصوصیه لعدد السبعین حتی یطمع فی مغفرتهم لو زاد علی السبعین.

و لیت شـعری ما ذا یزید قوله تعالی فی سوره المنافقون:« سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ »علی قوله تعالی فی هذه الآیه« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ

اللّهُ لَهُمْ ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللّهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ

»و قد علل الله سبحانه نفی المغفره نفیا مؤبدا فیهما بأنهم فاسقون و الله لا یهدی القوم الفاسقین.

فقد تلخص أن هذه الروایات و ما فی معناها موضوعه یجب طرحها.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و البخاری و الترمذی و النسائی و ابن أبی حاتم و ابن أبی حاتم و النحاس و ابن حبان و ابن مردویه و أبو نعیم فی الحلیه عن ابن عباس قال: سمعت عمر یقول:لما توفی عبد الله بن أبی دعی رسول الله ص للصلاه علیه-فقام علیه فلما وقف قلت:أ علی عدو الله عبد الله بن أبی القائل کذا و کذا-و القائل کذا و کذا؟ أعدد أیامه و رسول الله ص یتبسم حتی إذا أکثرت-قال:یا عمر أخر عنی إنی قد خیرت قد قیل لی:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً » فلو أعلم أنی إن زدت علی السبعین غفر له لزدت علیها-.

ثم صلی علیه رسول الله ص و مشی معه حتی قام علی قبره-حتی فرغ منه فعجبت لی و لجرأتی علی رسول الله ص و الله و رسوله أعلم-فوالله ما کان إلا یسیرا حتی نزلت هاتان الآیتان:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلیٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلیٰ قَبْرِهِ »فما صلی رسول الله ص علی منافق بعده-حتی قبضه الله عز و جل.

أقول:

قوله(ص)فی الروایه: «فلو أعلم أنی إن زدت علی السبعین» إلخ صریح فی أنه کان آئسا من شمول المغفره له،و هو یشهد بأن المراد من قوله:«إنی قد خیرت قد قیل لی اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »إن الله قد ردد الأمر و لم ینهه عن الاستغفار لا أنه خیره بین الاستغفار و عدمه تخییرا حقیقیا حتی ینتج تأثیر الاستغفار فی حصول المغفره أو رجاء ذلک.

و من ذلک یعلم أن استغفاره(ص)لعبد الله و صلاته علیه و قیامه علی قبره إن ثبت شیء من ذلک لم یکن شیء من ذلک لطلب المغفره و الدعاء له جدا کما سیأتی فی روایه القمی،و فی الروایات کلام سیأتی.

و فیه،عن ابن أبی حاتم عن الشعبی أن عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت فی الإسلام هفوه ما أصبت مثلها قط-أراد رسول الله ص أن یصلی علی عبد الله بن أبی-فأخذت بثوبه فقلت:و الله ما أمرک الله بهذا-لقد قال الله:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ »فقال رسول الله ص:

قد خیرنی ربی فقال:استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فقعد رسول الله علی شفیر القبر- فجعل الناس یقولون لابنه:-یا حباب افعل کذا یا حباب افعل کذا-فقال رسول الله ص:الحباب اسم شیطان أنت عبد الله.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »الآیه-أنها نزلت لما رجع رسول الله ص المدینه-و مرض عبد الله بن أبی و کان ابنه عبد الله بن عبد الله مؤمنا-فجاء إلی رسول الله ص و أبوه یجود بنفسه-فقال:یا رسول الله بأبی أنت و أمی- إنک إن لم تأت أبی کان ذلک عارا علینا-فدخل إلیه رسول الله ص و المنافقون عنده-فقال ابنه عبد الله بن عبد الله استغفر له فاستغفر له-.

فقال عمر:-أ لم ینهک الله یا رسول الله أن تصلی علی أحد أو تستغفر له؟فأعرض عنه رسول الله ص فأعاد علیه فقال له:ویلک إنی قد خیرت فاخترت إن الله یقول:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ اَللّٰهُ لَهُمْ ».

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلی رسول الله ص فقال:بأبی أنت و أمی یا رسول الله-إن رأیت أن تحضر جنازته فحضر رسول الله ص فقام علی قبره-فقال له عمر:یا رسول الله-أ لم ینهک الله أن تصلی علی أحد منهم مات أبدا-و أن تقیم علی قبره؟فقال رسول الله ص:ویلک و هل تدری ما قلت؟إنما قلت:اللهم احش قبره نارا و جوفه نارا و أصله النار-فبدا من رسول الله ص ما لم یکن یحب.

أقول:و فی الروایات تتمه کلام سیوافیک فی ذیل الآیات التالیه.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۸۱ الی ۹۶]

اشاره

فَرِحَ اَلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاٰفَ رَسُولِ اَللّٰهِ وَ کَرِهُوا أَنْ یُجٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ قٰالُوا لاٰ تَنْفِرُوا فِی اَلْحَرِّ قُلْ نٰارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ کٰانُوا یَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْیَضْحَکُوا قَلِیلاً وَ لْیَبْکُوا کَثِیراً جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَکَ اَللّٰهُ إِلیٰ طٰائِفَهٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوکَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِیَ أَبَداً وَ لَنْ تُقٰاتِلُوا مَعِیَ عَدُوًّا إِنَّکُمْ رَضِیتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّهٍ فَاقْعُدُوا مَعَ اَلْخٰالِفِینَ (۸۳) وَ لاٰ تُصَلِّ عَلیٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلیٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ فٰاسِقُونَ (۸۴) وَ لاٰ تُعْجِبْکَ أَمْوٰالُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا یُرِیدُ اَللّٰهُ أَنْ یُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِی اَلدُّنْیٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ کٰافِرُونَ (۸۵) وَ إِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ أَنْ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ جٰاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اِسْتَأْذَنَکَ أُولُوا اَلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قٰالُوا ذَرْنٰا نَکُنْ مَعَ اَلْقٰاعِدِینَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ اَلْخَوٰالِفِ وَ طُبِعَ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ یَفْقَهُونَ (۸۷) لٰکِنِ اَلرَّسُولُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولٰئِکَ لَهُمُ اَلْخَیْرٰاتُ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اَللّٰهُ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا ذٰلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۸۹) وَ جٰاءَ اَلْمُعَذِّرُونَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ لِیُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ اَلَّذِینَ کَذَبُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ سَیُصِیبُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۹۰) لَیْسَ عَلَی اَلضُّعَفٰاءِ وَ لاٰ عَلَی اَلْمَرْضیٰ وَ لاٰ عَلَی اَلَّذِینَ لاٰ یَجِدُونَ مٰا یُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذٰا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ مٰا عَلَی اَلْمُحْسِنِینَ مِنْ سَبِیلٍ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۱) وَ لاٰ عَلَی اَلَّذِینَ إِذٰا مٰا أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاٰ أَجِدُ مٰا أَحْمِلُکُمْ عَلَیْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْیُنُهُمْ تَفِیضُ مِنَ اَلدَّمْعِ حَزَناً أَلاّٰ یَجِدُوا مٰا یُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا اَلسَّبِیلُ عَلَی اَلَّذِینَ یَسْتَأْذِنُونَکَ وَ هُمْ أَغْنِیٰاءُ رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ اَلْخَوٰالِفِ وَ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۹۳) یَعْتَذِرُونَ إِلَیْکُمْ إِذٰا رَجَعْتُمْ إِلَیْهِمْ قُلْ لاٰ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اَللّٰهُ مِنْ أَخْبٰارِکُمْ وَ سَیَرَی اَللّٰهُ عَمَلَکُمْ وَ

رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ إِذَا اِنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٩۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَرْضىٰ عَنِ اَلْقَوْمِ اَلْفٰاسِقِينَ (٩۶)

ص :٣۵۶

(بیان)

الآیات تقبل الاتصال بالآیات التی قبلها و هی تعقب غرضا یعقبه ما تقدمها.

قوله تعالی:« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاٰفَ رَسُولِ اللّٰهِ »الآیه الفرح و السرور خلاف الغم و هما حالتان نفسیتان وجدانیتان ملذه و مؤلمه،و المخلفون اسم مفعول من قولهم خلفه إذا ترکه بعده و المقعد کالقعود مصدر قعد یقعد و هو کنایه عن عدم الخروج إلی الجهاد.

و الخلاف کالمخالفه مصدر خالف یخالف،و ربما جاء بمعنی بعد کما قیل و لعل منه قوله:« وَ إِذاً لاٰ یَلْبَثُونَ خِلاٰفَکَ إِلاّٰ قَلِیلاً »و کان قیاس الکلام أن یقال:« خِلاٰفَکَ » لأن الخطاب فیه للنبی ص و إنما قیل:« خِلاٰفَ رَسُولِ اللّٰهِ »للدلاله علی أنهم إنما یفرحون علی مخالفه الله العظیم فما علی الرسول إلا البلاغ.

و المعنی فرح المنافقون الذین ترکتهم بعدک بعدم خروجهم معک خلافا لک

ص :۳۵۸

-أو بعدك-و كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل الله.

و قوله تعالى:« وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ »خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبى ص و يبطلوا مسعاه فى تنفير الناس إلى الغزوه،و لذلك أمره الله تعالى أن يجيب عن قولهم ذلك بقوله:« قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا »أى إن الفرار عن الحر بالقعود إن أنجاكم منه لم ينجكم مما هو أشد منه و هو نار جهنم التى هى أشد حرا فإن الفرار عن هذا الهين يوقعكم فى ذاك الشديد.ثم أفاد بقوله:« لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ »المصدر بلو التمنى اليأس من فقههم و فهمهم.

قوله تعالى:« فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ » تفريع على تخلفهم عن الجهاد بالأموال و الأنفس و فرحهم بالقعود عن هذه الفريضه الإلهيه الفطريه التى لا سعاده للإنسان فى حياته دونها.

و قوله:« جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ »و الباء للمقابله أو السببيه دليل على أن المراد بالضحك القليل هو الذى فى الدنيا فرحا بالتخلف و القعود و نحو ذلك،و بالبكاء الكثير ما كان فى الآخره فى نار جهنم التى هى أشد حرا فإن الذى فرع عليه الضحك و البكاء هو ما فى الآيه السابقه،و هو فرحهم بالتخلف و خروجهم من حر الهواء إلى حر نار جهنم.

فالمعنى:فمن الواجب بالنظر إلى ما عملوه و اكتسبوه أن يضحكوا و يفرحوا قليلا فى الدنيا و أن يبكوا و يحزنوا كثيرا فى الآخره فالأمر بالضحك و البكاء للدلاله على إيجاب السبب و هو ما كسبوه من الأعمال لذلك.

و أما حمل الأمر فى قوله:« فَلْيَضْحَكُوا »و قوله:« وَ لْيَبْكُوا »على الأمر المولوى لينتج تكليفا من التكاليف الشرعيه فلا يناسبه قوله:« جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ».

و يمكن أن يكون المراد الأمر بالضحك القليل و البكاء الكثير معا ما هو فى الدنيا جزاء لسابق أعمالهم فإنها هدتهم إلى راحه وهميه فى أيام قلائل و هى أيام قعودهم خلاف رسول الله ص ثم إلى هوان و ذله عند الله و رسوله و المؤمنين ما داموا أحياء فى الدنيا ثم إلى شديد حر النار فى الآخره بعد موتهم.

قوله تعالى:« فَإِنْ رَجَعَكَ اللّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ »إلى آخر

الآیه المراد بالقعود أول مره التخلف عن الخروج فی أول مره کان علیهم أن یخرجوا فیها فلم یخرجوا،و لعلها غزوه تبوک کما یهدی إلیه السیاق.

و المراد بالخالفین المتخلفون بحسب الطبع کالنساء و الصبیان و المرضی و الزمنی و قیل:المتخلفون من غیر عذر،و قیل:الخالفون هم أهل الفساد،و الباقی واضح.

و فی قوله:« فَإِنْ رَجَعَکَ اللّٰهُ إِلیٰ طٰائِفَهٍ مِنْهُمْ »الآیه دلاله علی أن هذه الآیه و ما فی سیاقها المتصل من الآیات السابقه و اللاحقه نزلت و رسول الله ص فی سفره و لما یرجع إلی المدینه،و هو سفره إلی تبوک.

قوله تعالی:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلیٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلیٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ فٰاسِقُونَ »نهی عن الصلاه لمن مات من المنافقین و القیام علی قبره و قد علل النهی بأنهم کفروا و فسقوا و ماتوا علی فسقهم،و قد علل لغویه الاستغفار لهم فی قوله تعالی:السابق: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ:» آیه-٨٠ من السوره، و کذا فی قوله «سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِینَ:» المنافقون:-۶ بالکفر و الفسق أیضا.

و یتحصل من الجمیع أن من فقد الإیمان بالله باستیلاء الکفر علی قلبه و إحاطته به فلا سبیل له إلی النجاه یهتدی به،و أن الآیات الثلاث جمیعا تکشف عن لغویه الاستغفار للمنافقین و الصلاه علی موتاهم و القیام علی قبورهم للدعاء لهم.

و فی الآیه إشاره إلی أن النبی ص کان یصلی علی موتی المسلمین و یقوم علی قبورهم للدعاء.

قوله تعالی:« وَ لاٰ تُعْجِبْکَ أَمْوٰالُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ »الآیه تقدم بعض ما یتعلق بالآیه من الکلام فی الآیه ۵۵ من السوره.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ أَنْ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ جٰاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ »إلی آخر الآیتین. الطول القدره و النعمه،و الخوالف هم الخالفون و الکلام فیه کالکلام فیه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« لٰکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ » لما ذم المنافقین فی الآیتین السابقتین بالرضا بالقعود مع الخوالف و الطبع علی قلوبهم

استدرک بالنبی ص و الذین آمنوا معه-و المراد بهم المؤمنون حقا الذین خلصت قلوبهم من رین النفاق بدلیل المقابله مع المنافقین-لیمدحهم بالجهاد بأموالهم و أنفسهم أی إنهم لم یرضوا بالقعود و لم یطبع علی قلوبهم بل نالوا سعاده الحیاه و النور الإلهی الذی یهتدون به فی مشیهم کما قال تعالی:« أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّاسِ:» الأنعام:-۱۲۲.

و لذلک عقب الکلام بقوله:« وَ أُولئِکَ لَهُمُ الْخَیْراتُ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » فلهم جمیع الخیرات-علی ما یقتضیه الجمع المحلی باللام-من الحیاه الطیبه و نور الهدی و الشهاده و سائر ما یتقرب به إلی الله سبحانه،و هم المفلحون الفائزون بالسعاده.

قوله تعالی:« أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی »الآیه الإعداد هو التهیئه و قد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الأمور بخواتیمها و عواقبها فلو کان وعدا و هو وعد لجمیع من آمن معه لکان قضاء حتمیا واجب الوفاء سواء بقی الموعودون علی صفاء إیمانهم و صلاح أعمالهم أو غیروا و الله لا یخلف المیعاد.

و الأصول القرآنیه لا تساعد علی ذلک،و لا الفطره السلیمه ترضی أن ینسب إلی الله سبحانه أن یطبع بطابع المغفره و الجنه الحتمیه علی أحد لعمل عمله من الصالحات ثم یخلی بینه و بین ما شاء و أراد.

و لذلک نجده سبحانه إذا وعد وعدا علقه علی عنوان من العناوین العامه کالإیمان و العمل الصالح یدور معه الوعد الجمیل من غیر أن یخص به أشخاصا بأعیانهم فیفید التناقض بالجمع بین التکلیف و التأمین کما قال تعالی:« وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ:» الآیه-۷۲ من السوره،و قال تعالی:« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَی الْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ -Xإلی أن قالX- وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِیماً:» الفتح:-۲۹.

قوله تعالی:« وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِیُؤْذَنَ لَهُمْ »الآیه.الظاهر أن المراد بالمعذرین هم أهل العذر کالذی لا یجد نفقه و لا سلاحا بدلیل قوله:« وَ قَعَدَ الَّذِینَ کَذَبُوا »الآیه،و السیاق یدل علی أن فی الکلام قیاسا لإحدی الطائفتین إلی الأخری لیظهر به لؤم المنافقین و خستهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم،حیث إن فریضه الجهاد الدینیه و النصره لله و رسوله هیج لذلک المعذرین من الأعراب و جاءوا

إلی النبی ص یستأذنونه،و لم یؤثر فی هؤلاء الکاذبین شیئا.

قوله تعالی:« لَیْسَ عَلَی الضُّعَفٰاءِ وَ لاٰ عَلَی الْمَرْضیٰ وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ لاٰ یَجِدُونَ مٰا یُنْفِقُونَ حَرَجٌ »المراد بالضعفاء بدلاله سیاق الآیه:الذین لا قوه لهم علی الجهاد بحسب الطبع کالزمنی کما أن المرضی لا قوه لهم علیه بحسب عارض مزاجی،و الذین لا یجدون ما ینفقون لا قوه لهم علیه من جهه فقد المال و نحوه.

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج و المشقه أی الحکم بالوجوب الذی لو وضع کان حکما حرجیا،و کذا ما یستتبعه الحکم من الذم و العقاب علی تقریر المخالفه.

و قد قید الله تعالی رفع الحرج عنهم بقوله:« إِذٰا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ »و هو ناظر إلی الذم و العقاب علی المخالفه و القعود فإنما یرفع الذم و العقاب عن هؤلاء المعذورین إذا نصحوا لله و رسوله،و أخلصوا من الغش و الخیانه و لم یجروا فی قعودهم علی ما یجری علیه المنافقون المتخلفون من تقلیب الأمور و إفساد القلوب فی مجتمع المؤمنین، و إلا فیجری علیهم ما یجری علی المنافقین من الذم و العقاب.

و قوله:« مٰا عَلَی الْمُحْسِنِینَ مِنْ سَبِیلٍ »فی مقام التعلیل لنفی الحرج عن الطوائف المذکورین بشرط أن ینصحوا لله و رسوله أی لأنهم یکونون حینئذ محسنین و ما علی المحسنین من سبیل فلا سبیل یتسلط علیهم یؤتون منه فیصابون بما یکرهونه.

ففی السبیل کنایه عن کونهم فی مأمن مما یصیبهم من مکروه کأنهم فی حصن حصین لا طریق إلی داخله یسلکه الشر إلیهم فیصیبهم،و الجمله عامه بحسب المعنی و إن کان مورد التطبیق خاصا.

قوله تعالی:« وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ إِذٰا مٰا أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ »الآیه قال فی المجمع،:

الحمل إعطاء المرکوب من فرس أو بعیر أو غیر ذلک تقول:حمله یحمله حملا إذا أعطاه ما یحمل علیه قال:

أ لا فتی عنده خفان یحملنی

علیهما إننی شیخ علی سفر

قال:و الفیض الجری عن امتلاء من قولهم:فاض الإناء بما فیه،و الحزن ألم فی القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض و هی الأرض الغلیظه المسلک.انتهی.

و قوله:« وَ لاٰ عَلَی الَّذِینَ »الآیه.موصول صلته قوله:« تَوَلَّوْا »الآیه،و قوله:

« إِذٰا مٰا أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ »کالشرک و الجزاء و المجموع ظرف لقوله: تَوَلَّوْا »و حزنا

مفعول له،و« أَلاّ يَجِدُوا »منصوب بنزع الخافض.

و المعنى:و لاـ حرج على الفقراء الـذين إذا ما أتوك لتعطيهم مركوبا يركبونه و تصـلح سائر ما يحتاجون إليه من السـلاح و غيره قلت لاـ أجـد مـا أحملكم عليه تولوا و الحـال أن أعينهم تمتلئ و تسـكب دموعـا للحزن من أن لاـ يجـدوا-أو لأن لا يجـدوا- ما ينفقونه فى سبيل الله للجهاد مع أعدائه.

و عطف هذا الصنف على ما تقدمه من عطف الخاص على العام عنايه بهم لأنهم فى أعلى درجه من النصح و إحسانهم ظاهر.

قوله تعالى:« إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ »الآيه،القصر للإفراد و المعنى ظاهر.

قوله تعـالى:« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ »إلى آخر الآيه.خطـاب الجمع للنبى ص و المؤمنين جميعا،و قوله:« لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ »أى لن نصـدقكم على ما تعتـذرون به بناء على تعـديه الإيمان باللام كالباء-أو لن نصـدق تصديقا ينفعكم- بناء على كون اللام للنفع-و الجمله تعليل لقوله:« لاَ تَعْتَذِرُوا »كما أن قوله:« قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ »تعليل لهذه الجمله.

و المعنى يعتـذر المنافقون إليكم عنـد رجوعكم من الغزوه إليهم قل يا محمد لهم:لا تعتذروا إلينا لأنا لن نصدقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد أخبرنا ببعض أخباركم مما يظهر به نفاقكم و كذبكم فيما تعتذرون به،و سيظهر عملكم ظهور شهود لله و رسوله ثم تردون إلى الله الذى يعلم الغيب و الشهاده يوم القيامه فيخبركم بحقائق أعمالكم.

و فى قوله:« وَ سَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ »إلخ فى إيضاحه كلام سيمر بك عن قريب.

قوله تعالى:« سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ »الآيه أى لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب و التقريع و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغى أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

قوله تعـالى:« يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »أى هـذا الحلف منهم كما كان للتوسل إلى صرفكم عنهم ليأمنوا

الـذم و التقريع كـذلك هو للتوسـل إلى رضـاكم عنهم أمـا الإعراض فـافعلوه لأنـهم رجس لا ينبغى لنزاهه الإيمان و طهارته أن تتعرض لرجس النفـاق و الكـذب و قـذاره الكفر و الفسق،و أمـا الرضـى فـاعلموا أنكم إن ترضوا عنهم فـإن الله لا يرضـى عنهم لفسقهم و الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

فالمراد أنكم إن رضـيتم عنهم فقد رضـيتم عمن لم يرض الله عنه أى رضـيتم بخلاف رضى الله،و لا ينبغى لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه فهو أبلغ كنايه عن النهى عن الرضا عن المنافقين.

(بحث روائى)

فى الـدر المنثور،فى قوله تعالى:« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ »الآيه:أخرج ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمـد عن أبيه-(ع)-قال: كانت غزوه تبوك آخر غزوه غزاها رسول الله ص،و هى غزوه الحر« قٰالُوا لاٰ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ »و هى غزوه العسره.

و فيـه،أخرج ابـن جرير و ابن أبى حـاتم و ابن مردويه عن ابن عبـاس: أن رسـول الله ص أمر النـاس أن ينبعثـوا معه-و ذلـك فى الصيف فقال رجال.

يـا رسول الله إن الحر شديـد و لاـ نسـتطيع الخروج-فلاـ تنفروا فى الحر فقـال الله« قُلْ نٰارُ جَهَنَّمَ أَشَـدُّ حَرًّا لَوْ كٰانُوا يَفْقَهُونَ »فأمره بالخروج.

أقول:ظاهر الآيه أنهم إنما قالوه ليخذلوا الناس عن الخروج،و ظاهر الحديث أنهم إنما قالوه إشاره فلا يتطابقان.

و فيه،أخرج ابن جرير عن محمـد بن كعب القرظى و غيره قـالوا": خرج رسول الله ص فى حر شديـد إلى تبوك-فقال رجل من بنى سلمه:لا تنفروا فى الحر-فأنزل الله:« قُلْ نٰارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا »الآيه.

أقول:تقـدمت أخبار فى قوله تعالى:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْـذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي » الآيه أن القائل لقوله:« لاٰ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ »هو جد بن قيس.

و فى الـدر المنثور،أيضا:فى قوله تعالى:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ »الآيه:أخرج البخارى و مسـلم و ابن أبى حاتم و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل

عن ابن عمر قال: لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول-أتى ابنه عبد الله رسول الله ص- يسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه- ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ص-.

فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال:يا رسول الله-أ تصلى عليه و قد نهاك الله أن تصلى على المنافقين؟فقال:إن ربى خيرنى و قال: اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ- إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ ،و سأزيد على السبعين فقال:إنه منافق فصلى عليه-فأنزل الله تعالى:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ » فترك الصلاه عليهم.

أقول:و فى هذا المعنى روايات أخرى رواها أصحاب الجوامع و رواه الحديث عن عمر بن الخطاب و جابر و قتاده،و فى بعضها أنه كفنه فى قميصه و نفث فى جلده و نزل فى قبره.

و فيه،أخرج أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و ابن أبى حاتم و النحاس و ابن حبان و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحليه عن ابن عباس قال:سمعت عمر يقول: لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ص للصلاه عليه-فقام عليه فلما وقف قلت:أ تصلى على عدو الله عبد الله بن أبى-القائل كذا و كذا و القائل كذا و كذا-أعدد أيامه-و رسول الله يتبسم حتى إذا أكثرت-قال:يا عمر أخر عنى إنى قد خيرت-قد قيل لى. اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ،فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها-ثم صلى عليه رسول الله ص و مشى معه-حتى قام على قبره حتى فرغ منه-.

فعجبت لى و لجرأتى على رسول الله ص،و الله و رسوله أعلم-فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ »فما صلى رسول الله ص على منافق بعده حتى قبضه الله عز و جل.

و فيه،أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى أن عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت فى الإسلام هفوه ما أصبت مثلها قط-أراد رسول الله ص أن يصلى على عبد الله بن أبى- فأخذت بثوبه فقلت:و الله ما أمرك الله بهذا.لقد قال الله:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ »فقال رسول الله ص:قد خيرنى ربى فقال« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ».

فقعد رسول الله ص على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه،يا حباب افعل

كذا يا حباب افعل كذا-فقال رسول الله ص:الحباب اسم شيطان أنت عبد الله.

و فيه،أخرج الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس": أن ابن عبد الله بن أبى قال له أبوه،اطلب لى ثوبا من ثياب النبى ص-فكفنى فيه و مره أن يصلى على قال:فأتاه-فقال:يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله-و هو يطلب إليك ثوبا من ثيابك نكفنه فيه و تصلى عليه-.

فقال عمر:يا رسول الله قد عرفت عبد الله و نفاقه أ تصلى عليه-و قد نهاك الله أن تصلى عليه؟فقال:و أين؟فقال:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ »قال:فإنى سأزيد على سبعين فأنزل الله:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ »الآيه-قال:فأرسل إلى عمر فأخبره بذلك-و أنزل الله سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ».

أقول:و قد ورد استغفار النبى ص لعبد الله بن أبى و صلاته عليه فى بعض المراسيل من روايات الشيعه أيضا أوردها العياشى و القمى فى تفسيريهما،و قد تقدم خبر القمى.

و هذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض و التدافع و اشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمه دفعا بينا لا مريه فيه:

أما أولا فلظهور قوله تعالى:« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ »ظهورا بينا فى أن المراد بالآيه بيان لغويه الاستغفار للمنافقين دون التخيير،و أن العدد جىء به لمبالغه الكثره لا لخصوصيه فى السبعين بحيث ترجى المغفره مع الزائد على السبعين.

و النبى ص أجل من أن يجهل هذه الدلاله فيحمل الآيه على التخيير ثم يقول سأزيد على سبعين ثم يذكره غيره بمعنى الآيه فيصر على جهله حتى ينهاه الله عن الصلاه و غيرها بآيه أخرى ينزلها عليه.

على أن جميع هذه الآيات المتعرضه للاستغفار للمنافقين و الصلاه عليهم كقوله:

« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »و قوله:« سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »و قوله:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً »تعلل النهى و اللغويه بكفرهم و فسقهم،حتى قوله تعالى فى النهى عن الاستغفار للمشركين:« مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ

آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ:» آیه:-۱۱۳ من السوره ینهی عن الاستغفار معللا ذلک بالکفر و خلود النار، و کیف یتصور مع ذلک جواز الاستغفار لهم و الصلاه علیهم؟.

و ثانیا:أن سیاق الآیات التی منها قوله:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً »الآیه صریح فی أن هذه الآیه إنما نزلت و النبی ص فی سفره إلی تبوک و لما یرجع إلی المدینه،و ذاک فی سنه ثمان،و قد وقع موت عبد الله بن أبی بالمدینه سنه تسع من الهجره کل ذلک مسلم من طریق النقل.

فما معنی قوله فی هذه الروایات:أن النبی ص صلی علی عبد الله و قام علی قبره ثم أنزل الله علیه:« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً »الآیه؟.

و أعجب منه ما وقع فی بعض الروایات السابقه أن عمر قال للنبی ص:

أ تصلی علیه و قد نهاک عن الصلاه للمنافقین فقال:إن ربی خیرنی ثم أنزل الله:

« وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ »الآیه.

و أعجب منه ما فی الروایه الأخیره من نزول قوله:« سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »الآیه،و الآیه من سوره المنافقون و قد نزلت بعد غزاه بنی المصطلق و کانت فی سنه خمس و عبد الله بن أبی حی عندئذ و قد حکی فی السوره قوله: لَئِنْ رَجَعْنٰا إِلَى الْمَدِينَهِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .

و قد اشتمل بعض هذه الروایات و تعلق به بعض من انتصر لها علی أن النبی ص إنما استغفر و صلی علی عبد الله لیستمیل قلوب رجال منافقین من الخزرج إلی الإسلام،و کیف یستقیم ذلک؟و کیف یصح أن یخالف النبی ص النص الصریح من الآیات استماله لقلوب المنافقین و مداهنه معهم؟و قد هدده الله علی ذلک بأبلغ التهدید فی مثل قوله:

«إِذاً لَأَذَقْنٰاكَ ضِعْفَ الْحَيٰاهِ وَ ضِعْفَ الْمَمٰاتِ» XالآیهX:إسراء:-۷۵.فالوجه أن هذه الروایات موضوعه یجب طرحها بمخالفه الکتاب.

و فی الدر المنثور،:فی قوله:« رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوٰالِفِ »الآیه:أخرج ابن مردویه عن سعد بن أبی وقاص: أن علی بن أبی طالب خرج مع النبی ص-حتی جاء ثنیه الوداع یرید تبوک،و علی یبکی-و یقول:تخلفنی مع الخوالف؟فقال رسول الله ص:أ لا ترضی أن تکون منی بمنزله هارون من موسی إلا النبوه.

أقول:و الروایه مرویه بطرق کثیره من طرق الفریقین.

و فی تفسیر العیاشی عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قوله:« رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ »قال:مع النساء.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق فی المصنف و ابن أبی شیبه و أحمد و البخاری و أبو الشیخ و ابن مردویه عن أنس: أن رسول الله ص لما قفل من غزوه تبوک- فأشرف علی المدینه قال:لقد ترکتم بالمدینه رجالا-ما سرتم فی مسیر و لا أنفقتم من نفقه-و لا قطعتم وادیا إلا کانوا معکم فیه.قالوا:یا رسول الله و کیف یکونون معنا و هم بالمدینه؟قال:حبسهم العذر.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی:« لَیْسَ عَلَی الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَی الْمَرْضی »الآیتین-قیل:إن الآیه الأولی نزلت فی عبد الله بن زائده- و هو ابن أم مکتوم و کان ضریر البصر-جاء إلی رسول الله ص فقال:یا نبی الله-إنی شیخ ضریر خفیف الحال نحیف الجسم-و لیس لی قائد فهل لی رخصه فی التخلف عن الجهاد؟فسکت النبی ص فأنزل الله الآیه.عن الضحاک،و قیل:نزلت فی عائذ بن عمرو و أصحابه.عن قتاده-.

و الآیه الثانیه نزلت فی البکاءین و هم سبعه نفر:منهم عبد الرحمن بن کعب و علبه بن زید-و عمرو بن ثعلبه بن غنمه و هؤلاء من بنی النجار،و سالم بن عمیر و هرمی بن عبد الله و عبد الله بن عمرو بن عوف[أو]و عبد الله بن مغفل من مزینه- جاءوا إلی رسول الله فقالوا یا رسول الله-احملنا فإنه لیس لنا ما نخرج علیه فقال.

لا أجد ما أحملکم علیه عن أبی حمزه الثمالی-.

و قیل:نزلت فی سبعه من قبائل شتی أتوا النبی ص فقالوا له:احملنا علی الخفاف و النعال.عن محمد بن کعب و ابن إسحاق-.

و قیل:کانوا جماعه من مزینه.عن مجاهد،و قیل:کانوا سبعه من فقراء الأنصار-فلما بکوا حمل عثمان منهم رجلین،و العباس بن عبد المطلب رجلین،و یامین بن کعب النضری ثلاثه عن الواقدی قال:و کان الناس بتبوک-مع رسول الله ص ثلاثین ألفا منهم عشره آلاف فارس.

أقول:و الروایات فی أسماء البکاءین مختلفه اختلافا شدیدا.

و فی تفسیر القمی،قال":قال: و إنما سأل هؤلاء البکاءون نعلا یلبسونها.

و فی المعانی،بإسناده عن ثعلبه عن بعض أصحابنا عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل:« عٰالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ »فقال:الغیب ما لم یکن و الشهاده ما قد کان.

أقول:و هو من باب إراءه بعض المصادیق و اللفظ أعم.

و فی تفسیر القمی،قال: و لما قدم النبی ص من تبوک-کان أصحابه المؤمنون یتعرضون المنافقین و یؤذونهم-فأنزل الله:« سَیَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَکُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَیْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ »إلی آخر الآیتین.

و فی المجمع،": قیل:نزلت الآیات-فی جد بن قیس و متعب بن قشیر و أصحابهما من المنافقین-و کانوا ثمانین رجلا،و لما قدم النبی ص المدینه راجعا عن تبوک-قال:

لا تجالسوهم و لا تکلموهم":عن ابن عباس.

[سوره التوبه (۹): الآیات ۹۷ الی ۱۰۶]

اشاره

اَلْأَعْرٰابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفٰاقاً وَ أَجْدَرُ أَلاّٰ یَعْلَمُوا حُدُودَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۹۷) وَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ مَنْ یَتَّخِذُ مٰا یُنْفِقُ مَغْرَماً وَ یَتَرَبَّصُ بِکُمُ اَلدَّوٰائِرَ عَلَیْهِمْ دٰائِرَهُ اَلسَّوْءِ وَ اَللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۹۸) وَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ یَتَّخِذُ مٰا یُنْفِقُ قُرُبٰاتٍ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ صَلَوٰاتِ اَلرَّسُولِ أَلاٰ إِنَّهٰا قُرْبَهٌ لَهُمْ سَیُدْخِلُهُمُ اَللّٰهُ فِی رَحْمَتِهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۹) وَ اَلسّٰابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ مِنَ اَلْمُهٰاجِرِینَ وَ اَلْأَنْصٰارِ وَ اَلَّذِینَ اِتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ رَضِیَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی تَحْتَهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً ذٰلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۱۰۰) وَ مِمَّنْ حَوْلَکُمْ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ مُنٰافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ اَلْمَدِینَهِ مَرَدُوا عَلَی اَلنِّفٰاقِ لاٰ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَیْنِ ثُمَّ یُرَدُّونَ إِلیٰ عَذٰابٍ عَظِیمٍ (۱۰۱) وَ آخَرُونَ اِعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صٰالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اَللّٰهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۰۲) خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَهً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِهٰا وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلاٰتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ وَ اَللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ یَقْبَلُ اَلتَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ یَأْخُذُ اَلصَّدَقٰاتِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلتَّوّٰابُ اَلرَّحِیمُ (۱۰۴) وَ قُلِ اِعْمَلُوا فَسَیَرَی اَللّٰهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلیٰ عٰالِمِ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵) وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اَللّٰهِ إِمّٰا یُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۰۶)

(بیان)

الکلام جار علی الغرض السابق یبین به حال الأعراب فی کفرهم و نفاقهم و إیمانهم و فی خلال الآیات آیه الصدقه.

قوله تعالی:« اَلْأَعْرٰابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفٰاقاً وَ أَجْدَرُ أَلاّٰ یَعْلَمُوا حُدُودَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلیٰ رَسُولِهِ »الآیه،قال الراغب فی المفردات،:العرب ولد إسماعیل،و الأعراب جمعه فی الأصل،و صار ذلک اسما لسکان البادیه:« قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا »و اَلْأَعْرٰابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفٰاقاً . وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ »،و قیل فی جمع الأعراب:أعاریب،قال الشاعر:

أعاریب ذوو فخر بإفک

و ألسنه لطاف فی المقال

و الأعرابی فی التعارف صار اسما للمنسوب إلی سکان البادیه،و العربی المفصح و الإعراب البیان،انتهی موضع الحاجه.یبین تعالی حال سکان البادیه و أنهم أشد کفرا و نفاقا لأنهم لبعدهم عن المدنیه و الحضاره،و حرمانهم من برکات الإنسانیه من العلم و الأدب أقسی و أجفی،فهم أجدر و أحری أن لا یعلموا حدود ما أنزل الله من

ص :۳۷۰

المعارف الأصليه و الأحكام الشرعيه من فرائض و سنن و حلال و حرام.

قوله تعالى:« وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوٰائِرَ » الآيه،قال فى المجمع:، المغرم الغرم و هو نزول نائبه بالمال من غير خيانه،و أصله لزوم الأمر،و منه قوله:إن عذابها كان غراما،و حب غرام أى لازم و الغريم يقال لكل واحد من المتداينين للزوم أحدهما الآخر و غرمته كذا أى ألزمته إياه فى ماله،انتهى.

و الدائره الحادثه و تغلب فى الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم و الرجوع إلى رسوم الشرك و الضلال.

و قوله:« يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ مَغْرَماً »أى يفرض الإنفاق غرما أو المال الذى ينفقه مغرما-على أن يكون ما مصدريه أو موصوله-و المراد الإنفاق فى الجهاد أو أى سبيل من سبل الخير على ما قيل،و يمكن أن يكون المراد الإنفاق فى خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئه لما سيجىء بعد عده آيات من حكم أخذ الصدقه من أموالهم، و يؤيده ما فى الآيه التاليه من قوله:« وَ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ قُرُبٰاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ وَ صَلَوٰاتِ الرَّسُولِ » فإنه كالتوطئه لقوله فى آيه الصدقه:« وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ».

فمعنى الآيه:و من سكان الباديه من يفرض الإنفاق فى سبيل الخير أو فى خصوص الصدقات غرما و خساره و ينتظر نزول الحوادث السيئه بكم،عليهم دائره السوء -قضاء منه تعالى أو دعاء عليهم-و الله سميع للأقوال عليم بالقلوب.

قوله تعالى:« وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ قُرُبٰاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ وَ صَلَوٰاتِ الرَّسُولِ »إلخ،الظاهر أن قوله:« صَلَوٰاتِ الرَّسُولِ » عطف على قوله:« مٰا يُنْفِقُ »و أن الضمير فى قوله:« أَلاٰ إِنَّهٰا قُرْبَةٌ »عائد إلى ما ينفق و صلوات الرسول.

و معنى الآيه:و من الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك و يؤمن باليوم الآخر فيصدق الحساب و الجزاء و يتخذ إنفاق المال لله و ما يتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخير و البركه،كل ذلك قربات عند الله و تقربات منه إليه إلا أن هذا الإنفاق و صلوات الرسول قربه لهم،و الله يعدهم بأنه سيدخلهم فى رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به و المطيعين له.

ص :۳۷۱

قوله تعالى:« وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهٰاجِرِينَ وَ الْأَنْصٰارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ » إلخ القراءه المشهوره« وَ الْأَنْصٰارِ »بالكسر عطفا على« اَلْمُهٰاجِرِينَ »و التقدير:السابقون الأولون من المهاجرين و السابقون الأولون من الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان؛و قرأ يعقوب:و الأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب.

و قد اختلفت الكلمه فى المراد بالسابقين الأولين فقيل:المراد بهم من صلى إلى القبلتين،و قيل:من بايع بيعه الرضوان و هى بيعه الحديبيه،و قيل:هم أهل بدر خاصه، و قيل:هم الذين أسلموا قبل الهجره،و هذه جميعا وجوه لم يوردوا لها دليلا من جهه اللفظ.

و الذى يمكن أن يؤيده لفظ الآيه بعض التأييد هو أن بيان الموضوع-السابقون الأولون-بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم و أشخاصهم يشعر بأن الهجره و النصره هما الجهتان اللتان روعى فيهما السبق و الأوليه.

ثم الذى عطف عليهم من قوله:« وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ »يذكر قوما ينعتهم بالاتباع و يقيده بأن يكون بإحسان و الذى يناسب وصف الاتباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأوليه فلا يقال:أول و تابع و إنما يقال:سابق و تابع،و تصديق ذلك قوله تعالى:« لِلْفُقَرٰاءِ الْمُهٰاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ وَ أَمْوٰالِهِمْ» Xإلى أن قال:X «وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّٰارَ وَ الْإِيمٰانَ مِنْ قَبْلِهِمْ» Xإلى أن قال:X «وَ الَّذِينَ جٰاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ:رَبَّنَا اغْفِرْ لَنٰا وَ لِإِخْوٰانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونٰا بِالْإِيمٰانِ» Xالآيات X:الحشر:-١٠.

فالمراد بالسابقين هم السابقون إلى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام إلى يوم القيامه.

و لكون السبق و يقابله اللحوق و الاتباع من الأمور النسبيه،و لازمه كون مسلمى كل عصر سابقين فى الإيمان بالقياس إلى مسلمى ما بعد عصرهم كما أنهم لاحقون بالنسبه إلى من قبلهم قيد« اَلسّٰابِقُونَ »بقوله:« اَلْأَوَّلُونَ »ليدل على كون المراد بالسابقين هم الطبقه الأولى منهم.

و إذ ذكر الله سبحانه ثالث الأصناف الثلاثه بقوله:« وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ » و لم يقيده بتابعى عصر دون عصر و لا وصفهم بتقدم و أوليه و نحوهما و كان شاملا لجميع من يتبع السابقين الأولين كان لازم ذلك أن يصنف المؤمنون غير المنافقين من يوم البعثه إلى يوم البعث فى الآيه ثلاثه أصناف:السابقون الأولون من المهاجرين،و السابقون

الأولون من الأنصار،و الذين اتبعوهم بإحسان،و الصنفان الأولان فاقدان لوصف التبعيه و إنما هما إمامان متبوعان لغيرهما و الصنف الثالث ليس متبوعا إلا بالقياس.

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالسابقين الأولين هم الذين أسسوا أساس الدين و رفعوا قواعده قبل أن يشيد بنيانه و يهتز راياته صنف منهم بالإيمان و اللحوق بالنبى ص و الصبر على الفتنه و التعذيب،و الخروج من ديارهم و أموالهم بالهجره إلى الحبشه و المدينه،و صنف بالإيمان و نصره الرسول و إيوائه و إيواء من هاجر إليهم من المؤمنين و الدفاع عن الدين قبل وقوع الوقائع.

و هذا ينطبق على من آمن بالنبى ص قبل الهجره ثم هاجر قبل وقعه بدر التى منها ابتدأ ظهور الإسلام على الكفر أو آمن بالنبى ص و آواه و تهيأ لنصرته عند ما هاجر إلى المدينه.

ثم إن قوله:« وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ »قيد فيه اتباعهم بإحسان و لم يرد الاتباع فى الإحسان بأن يكون المتبوعون محسنين ثم يتبعهم التابعون فى إحسانهم و يقتدوا بهم فيه-على أن يكون الباء بمعنى فى-و لم يرد الاتباع بواسطه الإحسان -على أن يكون الباء للسببيه أو الآليه-بل جىء بالإحسان منكرا،و الأنسب له كون الباء بمعنى المصاحبه فالمراد أن يكون الاتباع مقارنا لنوع ما من الإحسان مصاحبا له،و بعباره أخرى يكون الإحسان وصفا للاتباع.

و إنا نجده تعالى فى كتابه لا يذم من الاتباع إلا ما كان عن جهل و هوى كاتباع المشركين آباءهم،و اتباع أهل الكتاب أحبارهم و رهبانهم و أسلافهم عن هوى و اتباع الهوى و اتباع الشيطان فمن اتبع شيئا من هؤلاء فقد أساء فى الاتباع و من اتبع الحق لا لهوى متعلق بالأشخاص و غيرهم فقد أحسن فى الاتباع،قال تعالى:« اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ:» الزمر:-١٨ و من الإحسان فى الاتباع كمال مطابقه عمل التابع لعمل المتبوع و يقابله الإساءه فيه.

فالظاهر أن المراد بالذين اتبعوهم بإحسان أن يتبعوهم بنوع من الإحسان فى الاتباع و هو أن يكون الاتباع بالحق-و هو اتباعهم لكون الحق معهم- و يرجع إلى اتباع الحق بالحقيقه بخلاف اتباعهم لهوى فيهم أو فى اتباعهم،و كذا مراقبه التطابق.

هذا ما يظهر من معنى الاتباع بإحسان،و أما ما ذكروه من أن المراد كون

الاتبـاع مقارنا لإحسان فی المتبع عملا بأن يأتی بالأعمال الصالحه و الأفعال الحسـنه فهو لا يلائم كل الملاءمه التنكير الـدال على النوع فی الإحسـان،و على تقـدير التسـليم لاـ مفر فيه من التقييـد بمـا ذكرنـا فإن الاتباع للحق و فی الحق يسـتلزم الإتيان بالأعمال الحسنه الصالحه دون العكس و هو ظاهر.

فقد تلخص أن الآيه تقسم المؤمنين من الأمه إلى ثلاثه أصناف:صنفان هما السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار،و الصنف الثالث هم الذين اتبعوهم بإحسان.

و ظهر مما تقدم أولا:أن الآيه تمدح الصنفين الأولين،بالسبق إلى الإيمان و التقدم فی إقامه صلب الدين و رفع قاعدته،و تفضيلهم على غيرهم على ما يفيده السياق.

و ثانيا:أن« مِنَ »فی قوله:« مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ »تبعيضـيه لا بيانيه لما تقدم من وجه فضـلهم،و لما أن الآيه تذكر أن الله رضی عنهم و رضوا عنه،و القرآن نفسه يـذكر أن منهم من فی قلبه مرض و منهم سـماعون للمنافقين،و منهم من يسـميه فاسـقا، و منهم من تبرأ النبی ص من عمله و لا معنی لرضی الله عنهم،و الله لا يرضی عن القوم الفاسقين.

و ثالثـا:أن الحكم بالفضـل و رضـی الله سبحانه فی الآـيه مقيـد بالإيمـان و العمل الصالـح على ما يعطيه السـياق فإن الآيه تمـدح المؤمنين فی سـياق تذم فيه المنافقين بكفرهم و سيئات أعمالهم و يدل على ذلك سائر المواضع التی مدحهم الله فيها أو ذكرهم بخير و وعـدهم وعـدا جميلا فقـد قيد جميع ذلك بالإيمان و العمل الصالح كقوله تعالی:« لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ» Xإلى آخر الآيات الثلاثX:الحشر:-٨.

و قوله فيما حكاه من دعاء الملائكه لهم:« وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَـذابَ الْجَحِيمِ رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَـلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ:» المؤمن:-٨.

و قـوله: «مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللّـهِ وَ الَّذِيـنَ مَعَـهُ أَشِـدّاءُ عَلَى الْكُفّـارِ رُحَمـاءُ بَيْنَهُمْ -Xإلى أن قـالX- وَعَـدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَ عَمِلُـوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً:» الفتح:-٢٩.

و قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ:» الطور:-٢١ انظر إلى موضع قوله:

« بِإِيمانٍ »و قوله: كُلَّ امْرِئٍ «إلخ».

و لو كان الحكم فى الآيه غير مقيد بقيد الإيمان و العمل الصالح و كانوا مرضيين عند الله مغفورا لهم أحسنوا أو أساءوا و اتقوا أو فسقوا كان ذلك تكذيبا صريحا لقوله تعالى:« فَإِنَّ اللّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» التوبه:-٩٦،و قوله:« وَ اللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ:» التوبه:-٨٠،و قوله:« وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ:» آل عمران:- ٥٧ إلى غير ذلك من الآيات الكثيره الداله مطابقه أو التزاما أن الله لا يرضى عن الظالم و الفاسق و كل من لا يطيعه فى أمر أو نهى،و ليست الآيات مما يقبل التقييد أو النسخ و كذا أمثال قوله تعالى خطابا للمؤمنين:« لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ:» النساء:-١٢٣.

على أن لازم عدم تقييد الحكم فى هذه الآيه تقييد جميع الآيات الداله على الجزاء و المشتمله على الوعيد و التهديد،و هى آيات جمه فى تقييدها اختلال نظام الوعد و الوعيد و إلغاء معظم الأحكام و الشرائع،و بطلان الحكمه،و لا فرق فى ذلك بين أن نقول بكون« مِنَ »تبعيضيه و الفضل لبعض المهاجرين و الأنصار أو بيانيه و الفضل للجميع و الرضى الإلهى للكل،و هو ظاهر.

و قوله تعالى:« رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ » الرضى منا موافقه النفس لفعل من الأفعال من غير تضاد و تدافع يقال:رضى بكذا أى وافقه و لم يمتنع منه،و يتحقق بعدم كراهته إياه سواء أحبه أو لم يحبه و لم يكرهه فرضى العبد عن الله هو أن لا يكره بعض ما يريده الله و لا يحب بعض ما يبغضه و لا يتحقق إلا إذا رضى بقضائه تعالى و ما يظهر من أفعاله التكوينيه،و كذا بحكمه و ما أراده منه تشريعا،و بعباره أخرى إذا سلم له فى التكوين و التشريع و هو الإسلام و التسليم لله سبحانه.

و هذا بعينه شاهد آخر على ما تقدم أن الحكم فى الآيه مقيد بالإيمان و العمل الصالح بمعنى أن الله سبحانه إنما يمدح من المهاجرين و الأنصار و التابعين من آمن به و عمل صالحا،و يخبر عن رضاه عنه و إعداده له جنات تجرى تحتها الأنهار.

و ليس مدلول الآيه أن من صدق عليه أنه مهاجر أو أنصارى أو تابع فإن الله قد رضى عنه رضا لا سخط بعده أبدا و أوجب فى حقه المغفره و الجنه سواء أحسن بعد ذلك أو أساء،اتقى أو فسق.

و أما رضاه تعالى فإنما هو من أوصافه الفعليه دون الذاتيه فإنه تعالى لا يوصف لذاته بما يصير معه معرضا للتغيير و التبدل كأن يعرضه حال السخط إذا عصاه ثم الرضى إذا تاب إليه،و إنما يرضى و يسخط بمعنى أنه يعامل عبده معامله الراضى من إنزال الرحمه و إيتاء النعمه أو معامله الساخط من منع الرحمه و تسليط النقمه و العقوبه.

و لذلك كان من الممكن أن يحدث له الرضى ثم يتبدل إلى السخط أو بالعكس غير أن الظاهر من سياق الآيه أن المراد بالرضى هو الرضى الذى لا سخط بعده فإنه حكم محمول على طبيعه أخيار الأمه من سابقيهم و تابعيهم فى الإيمان و العمل الصالح، و هذا أمر لا مداخله للزمان فيه حتى يصح فرض سخط بعد رضى و هو بخلاف قوله تعالى:« لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ» :Xالآيه Xالفتح:-١٨ فإنه رضى مقيد بزمان خاص يصلح لنفسه لأن يفرض بعده سخط.

قوله تعالى:« وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَهِ »الآيه حول الشىء ما يجاوره من المكان من أطرافه و هو ظرف،و المرد العتو و الخروج عن الطاعه،و الممارسه و التمرين على الشر و هو المعنى المناسب لقوله فى الآيه:« مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ »أى مرنوا عليه و مارسوا حتى اعتادوه.

و معنى الآيه:و ممن فى حولكم أو حول المدينه من الأعراب الساكنين فى البوادى منافقون مرنوا على النفاق و من أهل المدينه أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم.

و قد اختلفت كلماتهم فى المراد من تعذيبهم مرتين ما هما المرتان؟فقيل:يعنى مره فى الدنيا بالسبى و القتل و نحوهما و مره بعذاب القبر،و قيل:فى الدنيا بأخذ الزكاه و فى الآخره بعذاب القبر،و قيل بالجوع مرتين و قيل مره عند الاحتضار و مره فى القبر و قيل:بإقامه الحدود و عذاب القبر،و قيل:مره بالفضيحه فى الدنيا و مره بالعذاب فى القبر،و قيل غير ذلك،و لا دليل على شىء من هذه الأقوال،و إن كان و لا بد فأولها أولاها.

قوله تعالى:« وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً » الآيه،أى و من الأعراب جماعه آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح و عمل آخر سيئ خلطوا هذا بذلك من المرجو أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

و فی قوله:« عَسَی اللّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ »إیجاد الرجاء فی نفوسهم لتکون نفوسهم واقعه بین الخوف و الرجاء من غیر أن یحیط بها الیأس و القنوط،و فی قوله:

« إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ »ترجیح جانب الرجاء.

قوله تعالی:« خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَهً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ وَ اللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ » التطهیر إزاله الأوساخ و القذارات من الشیء لیصفی وجوده و یستعد للنشوء و النماء و ظهور آثاره و برکاته،و التزکیه إنماؤه و إعطاء الرشد له بلحوق الخیرات و ظهور البرکات کالشجر یقطع الزوائد من فروعها فتزید فی حسن نموها و جوده ثمرتها فالجمع بین التطهیر و التزکیه فی الآیه من لطیف التعبیر.

فقوله:« خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَهً »أمر للنبی ص بأخذ الصدقه من أموال الناس و لم یقل:من مالهم لیکون إشاره إلی أنها مأخوذه من أصناف المال،و هی النقدان:الذهب و الفضه،و الأنعام الثلاثه:الإبل و البقر و الغنم،و الغلات الأربع:

الحنطه و الشعیر و التمر و الزبیب.

و قوله:« تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِها »خطاب للنبی ص،و لیس وصفا لحال الصدقه،و الدلیل علیه ضمیر بها الراجع إلی الصدقه أی خذ یا محمد من أصناف أموالهم صدقه تطهرهم أنت و تزکیهم بتلک الصدقه أی أخذها.

و قوله:« وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ »الصلاه علیهم هی الدعاء لهم و السیاق یفید أنه دعاء لهم و لأموالهم بالخیر و البرکه و هو المحفوظ من سنه النبی ص فکان یدعو لمعطی الزکاه و لماله بالخیر و البرکه.

و قوله:« إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ » السکن ما یسکن إلیه الشیء و المراد به أن نفوسهم تسکن إلی دعائک و تثق به و هو نوع شکر لسعیهم فی الله کما أن قوله تعالی فی ذیل الآیه:« وَ اللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ »سکن یسکن إلیه نفوس المکلفین ممن یسمع الآیه أو یتلوها.

و الآیه تتضمن حکم الزکاه المالیه التی هی من أرکان الشریعه و المله علی ما هو ظاهر الآیه فی نفسها،و قد فسرتها بذلک أخبار متکاثره من طرق أئمه أهل البیت(ع) و غیرهم.

قوله تعالی:« أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ هُوَ یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبادِهِ وَ یَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِیمُ »استفهام إنکاری بداعی تشویق الناس إلی إیتاء الزکاه،

و ذلک أنهم إنما یؤتون الصدقه لله و إنما یسلمونها إلی الرسول أو إلی عامله و جابیه بما أنه مأمور من قبل الله فی أخذها فإیتاؤه إیتاء لله،و أخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الأخذ لها بالحقیقه،و قد قال تعالی فی أمثاله: «إِنَّ الَّذِینَ یُبٰایِعُونَکَ إِنَّمٰا یُبٰایِعُونَ اللّٰهَ یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ:» الفتح:-۱۰ و قال:« وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ:» الأنفال:-۱۳ و قال قولا عاما: «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ:» النساء:-۸۰.

فإذا ذکر الناس بمثل قوله:« أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ »الآیه،انبعثت رغباتهم و اشتاقوا أن یعاملوا ربهم فیصافحوه و یمسوا بأیدیهم یده تنزه عن عوارض الأجسام و تعالی عن ملابسه الحدثان.

و مقارنته الصدقه بالتوبه لما أن التوبه تطهر و إیتاء الصدقه تطهر فالتصدق بصدقه توبه مالیه کما أن التوبه بمنزله الصدقه فی الأعمال و الحرکات،و لذلک عطف علی صدر الآیه قوله ذیلا:« وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِیمُ »فذکر عباده باسمیه التواب و الرحیم،و جمع فیهما التوبه و التصدق.

و قد بان من الآیه أن التصدق و إیتاء الزکاه نوع من التوبه.

قوله تعالی:« وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَیَرَی اللّٰهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ »الآیه،الآیه علی ظاهر اتصالها بما قبلها کأنها تخاطب المؤمنین و تسوقهم و تحرضهم إلی إیتاء الصدقات.

غیر أن لفظها مطلق لا دلیل علی تخصیص خطابها بالمتصدقین من المؤمنین و لا بعامه المؤمنین بل هی تشمل کل ذی عمل من الناس من الکفار و المنافقین و المؤمنین و لا أقل من شمولها للمنافقین و المؤمنین جمیعا.

إلا أن نظیر الآیه الذی مر أعنی قوله فی سیاق الکلام علی المنافقین:« وَ سَیَرَی اللّٰهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلیٰ عٰالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ:» التوبه:- ۹۴ حیث ذکر الله و رسوله فی رؤیه عملهم و لم یذکر المؤمنین لا یخلو من إیماء إلی أن الخطاب فی الآیه التی نحن فیها للمؤمنین خاصه فإن ضم إحدی الآیتین إلی الأخری یخطر بالبال أن حقیقه أعمال المنافقین أعنی مقاصدهم من أعمالهم لما کانت خفیه علی ملإ الناس فإنما یعلم بها الله و رسوله بوحی من الله تعالی،و أما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعنی مقاصدهم منها و آثارها و فوائدها التی تتفرع علیها و هی شیوع التقوی و إصلاح شئون المجتمع الإسلامی و إمداد الفقراء فی معایشهم و زکاه الأموال و نماؤها یعلمها الله

تعالی و رسوله و یشاهدها المؤمنون فیما بینهم.

لکن ظهور الأعمال بحقائق آثارها و عامه فوائدها أو مضراتها فی محیط کینونتها و تبدلها بأمثالها و تصورها فی أطوارها زمانا بعد زمان و عصرا بعد عصر مما لا یختص بعمل قوم دون عمل قوم،و لا مشاهدتها و التأثر بها بقوم دون قوم.

فلو کان المراد من رؤیه المؤمنین أعمالاـ لعاملین ظهور آثارها و نتائجها و بعباره أخری ظهور أنفسها فی ألبسه نتائجها لهم لم یختص المشاهده بقوم دون قوم و لاـ بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال یراها المؤمنون و لا یراها المنافقون و هم أهل مجتمع واحد؟ و ما بال أعمال المنافقین لا یشاهدها المؤمنون و قد کونت فی مجتمعهم و داخلت أعمالهم؟.

و هذا مع ما فی الآیه من خصوص السیاق مما یقرب الذهن أن یفهم من الآیه معنی آخر فإنه قوله:« وَ سَتُرَدُّونَ إِلیٰ عٰالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »یدل أولا علی أن قوله:« فَسَیَرَی اللّٰهُ عَمَلَکُمْ »الآیه ناظر إلی ما قبل البعث و هی الدنیا لمکان قوله:« وَ سَتُرَدُّونَ »فإنه یشیر إلی یوم البعث و ما قبله هو الدنیا.

و ثانیا:أنهم إنما یوقفون علی حقیقه أعمالهم یوم البعث و أما قبل ذلک فإنما یرون ظاهرها،و قد نبهنا علی هذا المعنی کرارا فی أبحاثنا السابقه،و إذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم علی إنبائه تعالی إیاهم بها یوم القیامه و ذکر رؤیه الله و رسوله و المؤمنین أعمالهم قبل یوم البعث فی الدنیا و قد ذکر الله مع رسوله و غیره و هو عالم بحقائقها و له أن یوحی إلی نبیه بها کان المراد بها مشاهده الله سبحانه و رسوله و المؤمنون حقیقه أعمالهم،و کان المراد بالمؤمنین شهداء الأعمال منهم لا عامه المؤمنین کما یدل علیه أمثال قوله تعالی «وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰاکُمْ أُمَّهً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَی النّٰاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً» البقره:-۱۴۳ و قد مر الکلام فیه فی الجزء الأول من الکتاب.

و علی هذا فمعنی الآیه:و قل یا محمد اعملوا ما شئتم من عمل خیرا أو شرا فسیشاهد الله سبحانه حقیقه عملکم و یشاهدها رسوله و المؤمنون-و هم شهداء الأعمال- ثم تردون إلی الله عالم الغیب و الشهاده یوم القیامه فیریکم حقیقه عملکم.

و بعباره أخری:ما عملتم من عمل خیر أو شر فإن حقیقته مرئیه مشهوده لله عالم الغیب و الشهاده ثم لرسوله و المؤمنین فی الدنیا ثم لکم أنفسکم معاشر العاملین یوم القیامه.

ص :۳۷۹

فالآـيه مسوقه لنـدب النـاس إلى مراقبه أعمـالهم بتـذكيرهم أن لأعمـالهم من خير أو شـر حقائق غير مسـتوره بستر،و إن لها رقباء شهداء سـيطلعون عليها و يرون حقائقها و هم رسول الله و شـهداء الأعمال من المؤمنين و الله من ورائهم محيط فهو تعالى يراها و هم يرونها،ثم إن الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامه للعاملين أنفسهم كما قال:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ:» ق:-٢٢ ففرق عظيم بين أن يـأتى الإنسـان بعمل فى الخلوه لا يطلع عليه أحد،و بين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملإ من الناظرين جلوه و هو يرى أنه كذلك.

هـذا فى الآـيه التى نحن فيهـا،و أما الآيه السابقه:« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّٰهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »فإن وجه الكلام فيها إلى أشـخاص من المنافقين بأعيانهم يأمر الله فيها نبيه ص أن يرد إليهم اعتـذارهم،و يـذكر لهم أولا أن الله قد نبأهم أى النبى و الذين معه من المؤمنين فى جيش الإسلام أخبارهم بنزول هذه الآيات التى تقص أخبار المنافقين و تكشف عن مساوى أعمالهم.

ثم يـذكر لهم أن حقيقه أعمـالهم غير مسـتوره عن الله سـبحانه و لاـ خفيه عليه و كـذلك رسوله وحـده و لم يكن معه أحـد من شهداء الأعمال ثم الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقه أعمالهم يوم القيامه.

فهـذا هو الفرق بين الآـيتين مع اتحادهمـا فى ظاهر السـياق حيث ذكر فى الآيه التى نحن فيها:الله و رسوله و المؤمنون،و فى الآيه السابقه:الله و رسوله،و اقتصر على ذلك.فهذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيه و من لم يقنع بذلك و لم يرض دون أن يصور للآيه معنى ظاهريا فليقل إن ذكره تعالى«الله و رسوله»فى خطاب المنافقين إنما هو لأجل أنهم إنما يريدون أن يكيدوا الله و رسوله و لا هم لهم فى المؤمنون،و أما ذكره تعالى:«الله و رسوله و المؤمنين»فى الخطاب العام فإنما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح فى مشهد من الملإ الصالح و لم يعبأ بحال غيرهم من الكفار و المنافقين.فتدبر.

قوله تعـالى:« وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّٰهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » الإرجـاء التأخير،و الآيه معطوفه على قوله:« وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ » و معنى إرجائهم إلى أمر الله أنهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب أو جانب

المغفره فأمرهم يئول إلى أمر الله ما شاء و أراد فيهم فهو النافذ فى حقهم.

و هذه الآيه تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين و المسيئين،و إن ورد فى أسباب النزول أن الآيه نازله فى الثلاثه الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ص و سيجىء إن شاء الله تعالى.

و كيف كان فالآيه تخفى ما يئول إليه عاقبه أمرهم و تبقيها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين:العليم و الحكيم الدالين على أن الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه و حكمته،و هذا بخلاف ما ذيل قوله:« وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ »حيث قال:« عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى،عن داود بن الحصين عن أبى عبد الله(ع)قال: سألته عن قول الله:« وَ مِنَ الْأَعْرٰابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ- وَ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ قُرُبٰاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ »أ يثيبهم عليه؟قال:نعم.

و فيه،عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد الله(ع)قال: إن الله سبق بين المؤمنين كما سبق بين الخيل يوم الرهان-.

قلت:أخبرنى عما ندب الله المؤمن من الإسباق إلى الإيمان.قال:قول الله تعالى:« سٰابِقُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ-وَ جَنَّةٍ عَرْضُهٰا كَعَرْضِ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ-أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ »و قال:« اَلسّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ».

و قال:« وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهٰاجِرِينَ وَ الْأَنْصٰارِ-وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ »فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجه سبقهم-ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين و أمرهم بإحسان-فوضع كل قوم على قدر درجاتهم و منازلهم عنده.

و فى تفسير البرهان،عن مالك بن أنس عن أبى صالح عن ابن عباس قال":

« وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ »نزلت فى أمير المؤمنين(ع)-و هو أسبق الناس كلهم بالإيمان و صلى على القبلتين،و بايع البيعتين بيعه بدر و بيعه الرضوان،و هاجر الهجرتين مع جعفر من مكه إلى الحبشه و من الحبشه إلى المدينه.

أقول:و فى معناها روايات أخر.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن مردویه من طریق الأوزاعی حدثنی یحیی بن کثیر و القاسم و مکحول و عبده بن أبی لبابه و حسان بن عطیه أنهم سـمعوا جمـاعه من أصـحاب النبی ص یقولون:لمـا أنزلت هـذه الآیه:« وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ -إلی قوله- وَ رَضُوا عَنْهُ »قال رسول الله ص:هذا لأمتی کلهم،و لیس بعد الرضا سخط.

أقول:معناه أن من رضی الله عنهم و رضوا عنه هم الذین جمعتهم الآیه لا أن الآیه تدل علی رضاه تعالی عن الأمه کلهم فهذا مما یـدفعه الکتـاب بالمخالفه القطعیه،و کـذا قوله:«و لیس بعـد الرضا سـخط»،مراده لیس بعـد الرضا المـذکور فی الآیه سـخط، و قد قررناه فیما تقدم لا أنه لیس بعد مطلق رضی الله سخط فهو مما لا یستقیم البته.

و فیه،أخرج أبو الشـیخ و ابن عسـاکر عن أبی صـخر حمیـد بن زیـاد قال": قلت لمحمـد بن کعب القرظی:أخبرنی عن أصـحاب رسول الله ص و إنما أرید الفتن:فقال:

إن الله قـد غفر لجمیع أصـحاب النبی ص،و أوجب لهم الجنه فی کتابه محسـنهم و مسـیئهم.قلت:و فی أی موضع أوجب الله لهم الجنه فی کتابه؟قال:أ لا تقرأ:

« وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ »الآیه-أوجب لجمیع أصحاب النبی ص الجنه و الرضوان، و شرط علی التابعین شرطا لم یشترطه فیهم-.

قلت:و ما أشترط علیهم؟قال:اشترط علیهم أن یتبعوهم بإحسان یقول:

یقتـدوا بهم فی أعمـالهم الحسـنه،و لا یقتـدون بهم فی غیر ذلک.قـال أبو صـخر:فوالله لکـأنی لم أقرأهـا قبـل ذلـک،و ما عرفت تفسیرها حتی قرأها علی محمد بن کعب.

أقول:هو-کما تری-یسـلم أن فی أعمالهم حسـنه و سـیئه و طاعه و فسـقا غیر أن الله رضی عنهم فی جمیع ذلک و غفرها لهم فلا یجازیهم بالسـیئه سـیئه،و هو الذی ذکرنا فی البیان المتقدم أن مقتضاه تکذیب آیات کثیره قرآنیه تدل علی أن الله لا یرضـی عن القوم الفاسـقین و الظالمین و أنه لا یحبهم و لا یهدیهم،و تقید آیات أکثر من ذلک و هی أکثر الآیات القرآنیه الداله علی عموم جزاء الحسنه بالحسنه و السیئه بالسیئه من غیر مقید و علیها تعتمد آیات الأمر و النهی و هی آیات الأحکام بجملتها.

و لو کـان مـدلول الآـیه هـذا الـذی ذکره لکـانت الصـحابه علی عربیتهم المحضه و اتصالهم بزمان النبوه و نزول الوحی أحق أن یفهموا من الآیه ذلک،و لو کانوا فهموا منها ذلک لما عامل بعضهم بعضا بما ضبطه النقل الصحیح.

و کیف یمکن أن یتحقق کلهم بمضمون قوله:« رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ » و یفهموا ذلک منه ثم لا یرضی بعضهم عن بعض و قد رضی الله عنه،و الراضی عن الله راض عما رضی الله عنه،و لا یندفع هذا الإشکال بحدیث اجتهادهم فإن ذلک لو سلم یکون عذرا فی مقام العمل لا مصححا للجمع بین صفتین متضادتین وجدانا و هما الرضا عن الله و عدم الرضا عما رضی الله عنه و الکلام طویل.

و فیه،أخرج أبو عبید و سنید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن مردویه عن حبیب الشهید عن عمرو بن عامر الأنصاری": أن عمر بن الخطاب قرأ« و السابقون الأولون من المهاجرین و الأنصار الذین اتبعوهم بإحسان »فرفع الأنصار و لم یلحق الواو فی الذین فقال له زید بن ثابت:و الذین فقال عمر:الذین فقال زید:أمیر المؤمنین أعلم فقال عمر:ائتونی بأبی بن کعب فأتاه فسأله عن ذلک-فقال أبی:و الذین فقال عمر:

فنعم إذن نتابع أبیا.

أقول:و مقتضی قراءه عمر اختصاص المهاجرین بما یتضمنه قوله:« وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ »من المنقبه و منقبه أخری و هی کونهم متبوعین للأنصار کما یشیر إلیه الحدیث الآتی.

و فیه،أخرج ابن جریر و أبو الشیخ عن محمد بن کعب القرظی قال": مر عمر برجل یقرأ« وَ السّٰابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهٰاجِرِینَ وَ الْأَنْصٰارِ » فأخذ عمر بیده فقال:

من أقرأک هذا؟قال:أبی بن کعب.قال:لا تفارقنی حتی أذهب بک إلیه-فلما جاءه قال عمر:أنت أقرأت هذا هذه الآیه هکذا؟قال:نعم-قال:و سمعتها من رسول الله ص؟قال:نعم.قال:کنت أری أنا رفعنا رفعه لا یبلغها أحد بعدنا-.

فقال أبی:تصدیق ذلک فی أول سوره الجمعه:« وَ آخَرِینَ مِنْهُمْ لَمّٰا یَلْحَقُوا بِهِمْ »و فی سوره الحشر:« وَ الَّذِینَ جٰاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ-یَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنٰا وَ لِإِخْوٰانِنَا الَّذِینَ سَبَقُونٰا بِالْإِیمٰانِ »و فی الأنفال:« وَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولٰئِکَ مِنْکُمْ ».

و فی الکافی،بإسناده عن موسی بن بکر عن رجل قال:قال أبو جعفر(ع):

«الذین خَلَطُوا عَمَلاً صٰالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً »فأولئک قوم مؤمنون یحدثون فی إیمانهم من الذنوب-التی یعیبها المؤمنون و یکرهونها-فأولئک عسی الله أن یتوب علیهم.

أقول:و رواه العياشی عن زراره عنه(ع)إلا أن فيه «مذنبون» «مكان مؤمنون».

و فی المجمع،":فی قوله تعالی:« وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ »الآيه-قال:أبو حمزه الثمالی: بلغنا أنهم ثلاثه نفر من الأنصار:أبو كنانه بن عبد المنذر و ثعلبه بن وديعه- و أوس بن حذام تخلفوا عن رسول الله ص-عند مخرجه إلی تبوک-فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيه ص أيقنوا بالهلاک-و أوثقوا أنفسهم بسواری المسجد فلم يزالوا كذلک-حتی قدم رسول الله ص فسأل عنهم-فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلون أنفسهم-حتی يكون رسول الله يحلهم،و قال رسول الله ص:و أنا أقسم لا أكون أول من حلهم-إلا أن أومر فيهم بأمر-.

فلما نزل:« عَسَی اللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ »عمد رسول الله ص إليهم فحلهم فانطلقوا-فجاءوا بأموالهم إلی رسول الله ص فقالوا:هذه أموالنا التی خلفتنا عنک فخذها و تصدق بها عنا.قال:ما أمرت فيها،فنزل:« خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً الآيات.

أقول:و فی هذا المعنی روايات أخری رواها فی الدر المنثور بينها اختلاف فی أسامی الرجال،و فيها نزول آيه الصدقه فی خصوص أموالهم،و يضعفها تظافر الروايات فی نزول الآيه فی الزكاه الواجبه.

و فيه،و روی عن أبی جعفر الباقر(ع): أنها نزلت فی أبی لبابه و لم يذكر غيره معه-و سبب نزولها فيه ما جری منه فی بنی قريظه- حين قال:إن نزلتم علی حكمه فهو الذبح.

و فی الكافی،بإسناده عن عبد الله بن سنان قال:قال أبو عبد الله(ع): لما نزلت هذه الآيه:« خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهٰا »و أنزلت فی شهر رمضان-فأمر رسول الله ص مناديه فنادی فی الناس:أن الله فرض عليكم الزكاه كما فرض عليكم الصلاه-ففرض الله عز و جل عليهم من الذهب و الفضه-و فرض الصدقه من الإبل و البقر و الغنم،و من الحنطه و الشعير و التمر و الزبيب- فنادی بهم بذلک فی شهر رمضان،و عفا لهم عما سوی ذلک-.

قال:ثم لم يفرض لشیء من أموالهم-حتی حال عليه الحول من قابل-فصاموا

و أفطروا فأمر مناديه فنادى فى المسلمين:أيها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلاتكم.

قال:ثم وجه عمال الصدقه و عمال الطسوق.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى شيبه و البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن ماجه و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسول الله ص إذا أتى بصدقه قال:اللهم صل على آل فلان فأتاه أبى بصدقته فقال:اللهم صل على آل أبى أوفى.

و فى تفسير البرهان،عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن أبى عبد الله (ع): فى قوله تعالى:« وَ يَأْخُذُ الصَّدَقٰاتِ »قال:يقبلها من أهلها و يثيب عليها.

و فى تفسير العياشى،عن مالك بن عطيه عن أبى عبد الله(ع)قال:قال على بن الحسين(ع): ضمنت على ربى أن الصدقه لا تقع فى يد العبد-حتى تقع فى يد الرب،و هو قوله:« هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقٰاتِ ».

أقول:و فى معناه روايات أخرى مرويه عن النبى ص و على و أبى جعفر و أبى عبد الله(ع).

و فى بصائر الدرجات،بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)قال:

سألت عن الأعمال هل تعرض على رسول الله ص؟قال:ما فيه شك.قال:

أ رأيت قول الله« اِعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ »فقال:لله شهداء فى خلقه.

أقول:و فى معناه روايات متظافره متكاثره مرويه فى جوامع الشيعه عن أئمه أهل البيت(ع)،و فى أكثرها:أن« اَلْمُؤْمِنُونَ »فى الآيه هم الأئمه،و انطباقها على ما قدمناه من التفسير ظاهر.

و فى الكافى،بإسناده عن زراره عن أبى جعفر(ع): فى قول الله« وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّٰهِ »قال:قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزه و جعفرا-و أشباههما من المسلمين-ثم إنهم دخلوا فى الإسلام فوحدوا الله و تركوا الشرك،و لم يعرفوا الإيمان بقلوبهم-فيكونوا من المؤمنين فيجب لهم الجنه،و لم يكونوا على جحودهم فيكفروا- فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله-إما يعذبهم و إما يتوب عليهم:

أقول:و رواه العياشى فى تفسيره عن زراره عنه(ع)

و فى معناه روايات أخر.

و فی تفسیر العیاشی،عن حمران قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن المستضعفین قال:هم لیسوا بالمؤمنین و لا بالکفار فهم المرجون لأمر الله.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن المنذر عن عکرمه": فی قوله:« وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّٰهِ »قال:هم الثلاثه الذین خلفوا":

أقول:و روی مثله عن مجاهد و قتاده و أن أسماءهم هلال بن أمیه،و مراره بن الربیع و کعب بن مالک من الأوس و الخزرج،

و لا تنطبق قصتهم علی هذه الآیه و سیجیء إن شاء الله تعالی.

(کلام فی الزکاه و سائر الصدقه)

الأبحاث الاجتماعیه و الاقتصادیه و سائر الأبحاث المرتبطه بها جعلت الیوم حاجه المجتمع من حیث إنه مجتمع إلی مال یختص به و یصرف لرفع حوائجه العامه فی صف البدیهیات التی لا یشک فیها شاک و لا یداخلها ریب فکثیر من المسائل الاجتماعیه و الاقتصادیه-و منها هذه المسأله-کانت فی الأعصار السالفه مما یغفل عنها عامه الناس و لا یشعرون بها إلا شعورا فطریا إجمالیا و هی الیوم من الأبجدیات التی یعرفها العامه و الخاصه.

غیر أن الإسلام بحسب ما بین من نفسیه الاجتماع و هویته و شرع من الأحکام المالیه الراجعه إلیها،و الأنظمه و القوانین التی رتبها فی أطرافها و متونها له الید العلیا فی ذلک.

فقد بین القرآن الکریم أن الاجتماع یصیغ من عناصر الأفراد المجتمعین صیغه جدیده فیکون منهم هویه جدیده حیه هی المجتمع،و له من الوجود و العمر و الحیاه و الموت و الشعور و الإراده و الضعف و القوه و التکلیف و الإحسان و الإساءه و السعاده و الشقاوه أمثال أو نظائر ما للإنسان الفرد و قد نزلت فی بیان ذلک کله آیات کثیره قرآنیه کررنا الإشاره إلیها فی خلال الأبحاث السابقه.

و قد عزلت الشریعه الإسلامیه سهما من منافع الأموال و فوائدها للمجتمع کالصدقه الواجبه التی هی الزکاه و کالخمس من الغنیمه و نحوها و لم یأت فی ذلک ببدع فإن القوانین و الشرائع السابقه علیها کشریعه حمورابی و قوانین الروم القدیم یوجد فیها

أشیاء من ذلک بل سائر السنن القومیه فی أی عصر،و بین أیه طائفه دارت لا یخلو عن اعتبار جهه مالیه لمجتمعها فالمجتمع کیفما کان یحس بالحاجه المالیه فی سبیل قیامه و رشده.

غیر أن الشریعه الإسلامیه تمتاز فی ذلک من سائر السنن و الشرائع بأمور یجب إمعان النظر فیها للحصول علی غرضها الحقیقی و نظرها المصیب فی تشریعها و هی:

أولا:أنها اقتصرت فی وضع هذا النوع من الجهات المالیه علی کینونه الملک و حدوثه موجودا و لم یتعد ذلک،و بعباره أخری إذا حدثت مالیه فی ظرف من الظروف کغله حاصله عن زراعه أو ربح عائد من تجاره أو نحو ذلک بادرت فوضعت سهما منها ملکا للمجتمع و بقیه السهام ملکا لمن له رأس المال أو العمل مثلا،و لیس علیه إلا أن یرد مال المجتمع و هو السهم إلیه.

بل ربما کان المستفاد من أمثال قوله تعالی:« خَلَقَ لَکُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً:» البقره:-۲۹ و قوله: «وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَکُمُ الَّتِی جَعَلَ اللّٰهُ لَکُمْ قِیٰاماً:» النساء:-۵ أن الثروه الحادثه عند حدوثها للمجتمع بأجمعها ثم اختص سهم منها للفرد الذی نسمیه المالک أو العامل،و بقی سهم أعنی سهم الزکاه أو سهم الخمس فی ملک المجتمع کما کان فالمالک الفرد مالک فی طول مالک و هو المجتمع،و قد تقدم بعض البحث عن ذلک فی تفسیر الآیتین.

و بالجمله فالذی وضعته الشریعه من الحقوق المالیه کالزکاه و الخمس مثلا إنما وضعته فی الثروه الحادثه عند حدوثها فشرکت المجتمع مع الفرد من رأس ثم الفرد فی حریه من ماله المختص به یضعه حیث یشاء من أغراضه المشروعه من غیر أن یعترضه فی ذلک معترض إلا أن یدهم المجتمع من المخاطر العامه ما یجب معه صرف شیء من رءوس الأموال فی سبیل حفظ حیاته کعدو هاجم یرید أن یهلک الحرث و النسل، و المخمصه العامه التی لا تبقی و لا تذر.

و أما الوجوه المالیه المتعلقه بالنفوس أو الضیاع و العقار أو الأموال التجاریه عند حصول شرائط أو فی أحوال خاصه کالعشر المأخوذ فی الثغور و نحو ذلک فإن الإسلام لا یری ذلک بل یعده نوعا من الغصب و ظلما یوجب تحدیدا فی حریه المالک فی ملکه.

ففی الحقیقه لا یأخذ المجتمع من الفرد إلا مال نفسه الذی یتعلق بالغنیمه و الفائده عند أول حدوثه و یشارک الفرد فی ملکه علی نحو یبینه الفقه الإسلامی

مشروحا،و أما إذا انعقد الملك و استقر لمالكه فلا اعتراض لمعترض على مالكك فى حال أو عند شرط،يوجب قصور يده و زوال حريته.

و ثانيا:أن الإسلام يعتبر حال الأفراد فى الأموال الخاصه بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع بل الغلبه فى ما يظهر من نظره لحالهم على حاله فإنه يجعل السهام فى الزكاه ثمانيه لا يختص بسبيل الله منها إلا سهم واحد و باقى السهام للأفراد كالفقراء و المساكين و العاملين و المؤلفه قلوبهم و غيرهم،و فى الخمس سته لم يجعل لله سبحانه إلا سهم واحد و الباقى للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

و ذلك أن الفرد هو العنصر الوحيد لتكون المجتمع،و رفع اختلاف الطبقات الذى هو من أصول برنامج الإسلام،و إلقاء التعادل و التوازن بين قوى المجتمع المختلفه و تثبيت الاعتدال فى مسيره بأركانه و أجزائه لا يتم إلا بإصلاح حال الأجزاء أعنى الأفراد و تقريب أحوالهم بعضهم من بعض.

و أما قصر مال المجتمع فى صرفه فى إيجاد الشوكه العامه و التزيينات المشتركه و رفع القصور المشيده العاليه و الأبنيه الرفيعه الفاخره و تخليه القوى و الضعيف أو الغنى و الفقير على حالهما لا يزيدان كل يوم إلا ابتعادا فلتدل التجربه الطويله القطعيه أنه لا يدفع غائلا و لا يغنى طائلا.

و ثالثا:أن للفرد من المسلمين أن يصرف ما عليه من الحق المالى الواجب كالزكاه مثلا-فى بعض أرباب السهام كالفقير و المسكين من دون أنه يؤديه إلى ولى الأمر أو عامله فى الجمله فيرده هو إلى مستحقيه.

و هذا نوع من الاحترام الاستقلالى الذى اعتبره الإسلام لأفراد مجتمعه نظير إعطاء الذمه الذى لكل فرد من المسلمين أن يقوم به لمن شاء من الكفار المحاربين و ليس للمسلمين و لا لولى أمرهم أن ينقض ذلك.

نعم لولى الأمر إذا رأى فى مورد أن مصلحه الإسلام و المسلمين فى خلاف ذلك أن ينهى عن ذلك فيجب الكف عنه لوجوب طاعته.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصٰاداً لِمَنْ حٰارَبَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاَّ اَلْحُسْنىٰ وَ اَللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (١٠٧) لاٰ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى اَلتَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجٰالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اَللّٰهُ يُحِبُّ اَلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ تَقْوىٰ مِنَ اَللّٰهِ وَ رِضْوٰانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ فَانْهٰارَ بِهِ فِي نٰارِ جَهَنَّمَ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (١٠٩) لاٰ يَزٰالُ بُنْيٰانُهُمُ اَلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاّٰ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

(بیان)

تذکر الآیات طائفه أخری من المنافقین بنوا مسجد الضرار و تقیس حالهم إلی حال جماعه من المؤمنین بنوا مسجدا لتقوی الله.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً وَ کُفْراً »إلی آخر الآیه، الضرار و المضاره إیصال الضرر،و الإرصاد اتخاذ الرصد و الانتظار و الترقب.

و قوله:« وَ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً »إن کانت الآیات نازله مع ما تقدمها من الآیات النازله فی المنافقین فالعطف علی من تقدم ذکرهم من طوائف المنافقین المذکورین بقوله:و منهم،و منهم أی و منهم الذین اتخذوا مسجدا ضرارا.

و إن کانت مستقله بالنزول فالوجه کون الواو استئنافیه و قوله:« اَلَّذِینَ اتَّخَذُوا » مبتدأ خبره قوله:« لاٰ تَقُمْ فِیهِ أَبَداً »و یمکن إجراء هذا الوجه علی التقدیر السابق أیضا، و قد ذکر المفسرون فی إعراب الآیه وجوها أخری لا تخلو عن تکلف ترکناها.

و قد بین الله غرض هذه الطائفه من المنافقین فی اتخاذ هذا المسجد و هو الضرار بغیرهم و الکفر و التفریق بین المؤمنین و الإرصاد لمن حارب الله و رسوله،و الأغراض المذکوره خاصه ترتبط إلی قصه خاصه بعینها،و هی علی ما اتفق علیه أهل النقل أن

جماعه من بنی عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا و سألوا النبی أن یصلی فیه فصلی فیه فحسدهم جماعه من بنی غنم بن عوف و هم منافقون فبنوا مسجدا إلی جنب مسجد قبا لیضروا به و یفرقوا المؤمنین منه و ینتظروا لأبی عامر الراهب الذی وعدهم أن یأتیهم بجیش من الروم لیخرجوا النبی ص من المدینه،و أمرهم أن یستعدوا للقتال معهم.

و لما بنوا المسجد أتوا النبی ص و هو یتجهز إلی تبوک و سألوه أن یأتیه و یصلی فیه و یدعو لهم بالبرکه فوعدهم إلی الفراغ من أمر تبوک و الرجوع إلی المدینه فنزلت الآیات.

فکان مسجدهم لمضاره مسجد قبا،و للکفر بالله و رسوله،و لتفریق المؤمنین المجتمعین فی قبا،و لإرصاد أبی عامر الراهب المحارب لله و رسوله من قبل،و قد أخبر الله سبحانه عنهم إنهم لیحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلا الفعله الحسنی و هو التسهیل للمؤمنین بتکثیر معابد یعبد فیها الله،و شهد تعالی بکذبهم بقوله:« وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ».

قوله تعالی:« لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً »إلی آخر الآیه،بدأ بنهی النبی ص عن أن یقوم فیه ثم ذکر مسجد قبا و رجح القیام فیه بعد ما مدحه بقوله:« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ »فمدحه بحسن نیه مؤسسیه من أول یوم و بنی علیه رجحان القیام فیه علی القیام فی مسجد الضرار.

و الجمله و إن لم تفد تعین القیام فی مسجد قبا حیث عبر بقوله:«أحق،غیر أن سبق النهی عن القیام فی مسجد الضرار یوجب ذلک،و قوله تعالی:« فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا »تعلیل للرجحان السابق،و قوله:« وَ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ »متمم للتعلیل المذکور،و هذا هو الدلیل علی أن المراد بقوله:« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ »إلخ هو مسجد قبا لا مسجد النبی أو غیره.

و معنی الآیه:لا تقم أی للصلاه فی مسجد الضرار أبدا،أقسم،لمسجد قبا الذی هو مسجد أسس علی تقوی الله من أول یوم أحق و أحری أن تقوم فیه للصلاه و ذلک أن فیه رجالا یحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس و الأحداث و الله یحب المطهرین و علیک أن تقوم فیهم.

و قد ظهر بذلک أن قوله:« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ »إلخ،بمنزله التعلیل لرجحان المسجد علی المسجد و قوله:« فِيهِ رِجالٌ »إلخ،لإفاده رجحان أهله علی أهله،و قوله

الآتی:« أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْیانَهُ »إلخ،لبیان الرجحان الثانی.

قوله تعالی:« أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْیانَهُ عَلی تَقْوی مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٍ خَیْرٌ »إلی آخر الآیه شفا البئر طرفه،و جرف الوادی جانبه الذی انحفر بالماء أصله و هار الشیء یهار فهو هائر و ربما یقال: هار بالقلب و أنهار ینهار انهیارا أی سقط عن لین فقوله:

« عَلی شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِی نارِ جَهَنَّمَ »استعاره تخییلیه شبه فیها حالهم بحال من بنی بنیانا علی نهایه شفیر واد لا ثقه بثباتها و قوامها فتساقطت بما بنی علیه من البنیان و کان فی أصله جهنم فوقع فی ناره،و هذا بخلاف من بنی بنیانه علی تقوی من الله و رضوان منه أی جری فی حیاته علی اتقاء عذاب الله و ابتغاء رضاه.

و ظاهر السیاق أن قوله:« أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْیانَهُ عَلی تَقْوی »إلخ،و قوله:

« أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْیانَهُ عَلی شَفا جُرُفٍ »إلخ،مثلان یمثل بهما بنیان حیاه المؤمنین و المنافقین و هو الدین و الطریق الذی یجریان علیه فیها فدین المؤمن هو تقوی الله و ابتغاء رضوانه عن یقین به،و دین المنافق مبنی علی التزلزل و الشک.

و لذلک أعقبه الله تعالی و زاد فی بیانه بقوله:« لا یَزالُ بُنْیانُهُمُ »یعنی المنافقین « اَلَّذِی بَنَوْا رِیبَهً »و شکا« فِی قُلُوبِهِمْ »لا یتعدی إلی مرحله الیقین« إِلاّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ »فتتلاشی الریبه بتلاشیها« وَ اللّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ » و لذلک یضع هؤلاء و یرفع أولئک.

(بحث روائی)

فی المجمع،قال المفسرون: إن بنی عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا،و بعثوا إلی رسول الله ص أن یأتیهم فأتاهم و صلی فیه-فحسدهم جماعه من المنافقین من بنی غنم بن عوف-فقالوا:نبنی مسجدا فنصلی فیه و لا نحضر جماعه محمد،و کانوا اثنی عشر رجلا،و قیل:خمسه عشر رجلا،منهم:ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشیر-و نبتل بن الحارث فبنوا مسجدا إلی جنب مسجد قبا-.

فلما بنوه أتوا رسول الله ص و هو یتجهز إلی تبوک-فقالوا:یا رسول الله إنا قد بنینا مسجدا-لذی العله و الحاجه و اللیله الممطره و اللیله الشاتیه،-و إنا نحب أن تأتینا فتصلی فیه لنا-و تدعو بالبرکه فقال(ص):إنی علی جناح سفر-و لو قدمنا أتیناکم إن شاء الله فصلینا لکم فیه،فلما انصرف رسول الله ص من تبوک-نزلت

علیه الآیه فی شأن المسجد-.

قال:فوجه رسول الله ص عند قدومه من تبوک-عاصم بن عوف العجلانی و مالک بن الدخشم-و کان مالک من بنی عمرو بن عوف فقال لهما:انطلقا إلی هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه و حرقاه،و روی أنه بعث عمار بن یاسر و وحشیا فحرقاه،و أمر بأن یتخذ کناسه یلقی فیها الجیف.

أقول:و

فی روایه القمی": أنه(ص)بعث لذلک مالک بن دخشم الخزاعی- و عامر بن عدی أخا بنی عمرو بن عوف-فجاء مالک و قال لعامر:انتظرنی حتی أخرج نارا من منزلی،فدخل و جاء بنار و أشعل فی سعف النخل-ثم أشعله فی المسجد فتفرقوا،و قعد زید بن حارثه حتی احترقت البنیه-ثم أمر بهدم حائطه.

و القصه مرویه بطرق کثیره من طرق أهل السنه،و الروایات متقاربه إلا أن فی أسامی من بعثه النبی ص اختلافا.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن إسحاق قال": کان الذین بنوا مسجد الضرار اثنی عشر رجلا:خذام بن خالد بن عبید بن زید،و ثعلبه بن حاطب و هلال بن أمیه،و معتب بن قشیر،و أبو حبیبه بن الأزعر،و عباد بن حنیف،و جاریه بن عامر و ابناه مجمع و زید،و نبتل بن الحارث،و بخدج بن عثمان (1)و ودیعه بن ثابت.

و فی المجمع،": فی قوله:« وَ إِرْصٰاداً لِمَنْ حٰارَبَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ »قال:هو أبو عامر الراهب،قال و کان من قصته أنه کان قد ترهب فی الجاهلیه-و لبس المسوح فلما قدم النبی ص المدینه حسده،و حزب علیه الأحزاب-ثم هرب بعد فتح مکه إلی الطائف-فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام،و خرج إلی الروم و تنصر و هو أبو حنظله غسیل الملائکه-الذی قتل مع النبی ص یوم أحد-و کان جنبا فغسلته الملائکه-.

و سمی رسول الله ص أبا عامر الفاسق،و کان قد أرسل إلی المنافق أن استعدوا و ابنوا مسجدا-فإنی أذهب إلی قیصر و آتی من عنده بجنود،و أخرج محمدا من المدینه- فکان هؤلاء المنافقون یتوقعون أن یجیئهم أبو عامر-فمات قبل أن یبلغ ملک الروم.

أقول:و فی معناه عده من الروایات.

۱- ۱) و فی السیره:بجاد بن عثمان و هو الصحیح(ب).

و فی الکافی،بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)قال: سألته عن المسجد الذی أسس علی التقوی-فقال:مسجد قبا:

أقول:و رواه العیاشی فی تفسیره،

و روی هذا المعنی أیضا فی الکافی،بإسناده عن معاویه بن عمار عنه(ع).

و قد روی فی الدر المنثور،بغیر واحد من الطرق عن النبی ص أنه قال: هو مسجدی هذا،و هو مخالف لظاهر الآیه و خاصه-قوله:« فِیهِ رِجٰالٌ »إلخ،فإن الکلام موضوع فی القیاس بین المسجدین:-مسجد قبا و مسجد الضرار و القیاس بین أهلیهما-و لا غرض یتعلق بمسجد النبی ص.

و فی تفسیر العیاشی،عن الحلبی عن الصادق(ع)قال: سألته عن قول الله:

« فِیهِ رِجٰالٌ یُحِبُّونَ أَنْ یَتَطَهَّرُوا »قال:الذین یحبون أن یتطهروا نظف الوضوء- و هو الاستنجاء بالماء و قال:قال نزلت هذه فی أهل قبا.

و فی المجمع،:فی الآیه قال: یحبون أن یتطهروا بالماء عن الغائط و البول: و هو المروی عن السیدین:الباقر و الصادق(ع) ،

و روی عن النبی ص أنه قال:

لأهل قبا:ما ذا تفعلون فی طهرکم-فإن الله تعالی قد أحسن علیکم الثناء؟قالوا:

نغسل أثر الغائط.فقال:أنزل الله فیکم:« وَ اللّٰهُ یُحِبُّ الْمُطَّهِّرِینَ ».

و فیه،: فی قراءه قوله:« إِلاّٰ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ »و قرأ یعقوب و سهل:« إلی أن » علی أنه حرف الجر،و هو قراءه الحسن و قتاده و الجحدری و جماعه: و رواه البرقی عن أبی عبد الله(ع) .

[سوره التوبه (٩): الآیات ١١١ الی ١٢٣]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ اِشْتَریٰ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ اَلْجَنَّهَ یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ فَیَقْتُلُونَ وَ یُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا فِی اَلتَّوْرٰاهِ وَ اَلْإِنْجِیلِ وَ اَلْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفیٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اَللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَیْعِکُمُ اَلَّذِی بٰایَعْتُمْ بِهِ وَ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (١١١) اَلتّٰائِبُونَ اَلْعٰابِدُونَ اَلْحٰامِدُونَ اَلسّٰائِحُونَ اَلرّٰاکِعُونَ اَلسّٰاجِدُونَ اَلْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ اَلنّٰاهُونَ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ اَلْحٰافِظُونَ لِحُدُودِ اَللّٰهِ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِینَ (١١٢) مٰا کٰانَ لِلنَّبِیِّ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ وَ لَوْ کٰانُوا أُولِی قُرْبیٰ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ اَلْجَحِیمِ (١١٣) وَ مٰا کٰانَ اِسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِیمَ لِأَبِیهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَهٍ وَعَدَهٰا إِیّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِیمٌ (١١٤) وَ مٰا کٰانَ اَللّٰهُ لِیُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰاهُمْ حَتّٰی یُبَیِّنَ لَهُمْ مٰا یَتَّقُونَ إِنَّ اَللّٰهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (١١٥) إِنَّ اَللّٰهَ لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ (١١٦) لَقَدْ تٰابَ اَللّٰهُ عَلَی اَلنَّبِیِّ وَ اَلْمُهٰاجِرِینَ وَ اَلْأَنْصٰارِ اَلَّذِینَ اِتَّبَعُوهُ فِی سٰاعَهِ

اَلْعُسْرَهِ مِنْ بَعْدِ مٰا كٰادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى اَلثَّلاٰثَهِ اَلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّٰى إِذٰا ضٰاقَتْ عَلَيْهِمُ اَلْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ وَ ضٰاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لاٰ مَلْجَأَ مِنَ اَللّٰهِ إِلاّٰ إِلَيْهِ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلتَّوّٰابُ اَلرَّحِيمُ (١١٨) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ كُونُوا مَعَ اَلصّٰادِقِينَ (١١٩) مٰا كٰانَ لِأَهْلِ اَلْمَدِينَهِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اَللّٰهِ وَ لاٰ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاٰ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لاٰ نَصَبٌ وَ لاٰ مَخْمَصَهٌ فِى سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لاٰ يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ اَلْكُفّٰارَ وَ لاٰ يَنٰالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاّٰ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صٰالِحٌ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَ لاٰ يُنْفِقُونَ نَفَقَهً صَغِيرَهً وَ لاٰ كَبِيرَهً وَ لاٰ يَقْطَعُونَ وٰادِياً إِلاّٰ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اَللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مٰا كٰانَ اَلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّهً فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَهٍ مِنْهُمْ طٰائِفَهٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى اَلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا قٰاتِلُوا اَلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ اَلْكُفّٰارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَهً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُتَّقِينَ (١٢٣)

(بیان)

آیـات فی أغراض متفرقه یجمعهـا غرض واحـد مرتبط بغرض الآیات السابقه فإنها تتکلم حول القتال فمنها ما یمـدح المؤمنین و یعدهم وعدا جمیلا علی جهادهم فی سبیل الله و منها ما ینهی عن التودد إلی المشرکین و الاستغفار لهم،و منها ما یدل علی توبته تعـالی للثلاـثه المخلفین عن غزوه تبوک،و منهـا ما یفرض علی أهل المـدینه و من حولهم من الأعراب أن یخرجوا مع النبی ص إذا أراد الخروج إلی قتـال و لا یتخلفوا عنه، و منها ما یفرض علی الناس أن یلازم بعضـهم البیضه للتفقه فی الـدین ثم تبلیغه إلی قومهم إذا رجعوا إلیهم و منها ما یقضی بقتال الکفار ممن یلی بلاد الإسلام.

قوله تعـالی:« إِنَّ اللّهَ اشْتَریٰ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَـهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّهَ » إلی آخر الآـیه، الاشتراء هو قبول العین المبیعه بنقل الثمن فی المبایعه.

و الله سـبحانه یـذکر فی الآیه وعـده القطعی للـذین یجاهدون فی سبیل الله بأنفسـهم و أموالهم بالجنه، و یذکر أنه ذکر ذلک فی التوراه و الإنجیل کما یذکره فی القرآن.

و قد قلبه سبحانه فی قالب التمثیل فصور ذلک بیعا،و جعل نفسه مشتریا

و المؤمنين بـائعين،و أنفسـهم و أموالهم سـلعه و مبيعـا،و الجنه ثمنـا،و التوراه و الإنجيـل و القرآن سـندا للمبـايعه،و هو من لطيف التمثيل ثم يبشر المؤمنين ببيعهم ذلك، و يهنئهم بالفوز العظيم.

قوله تعالى:« اَلتّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السّائِحُونَ »إلى آخر الآيه،يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صـفاتهم،و الصـفات مرفوعه بالقطع أى المؤمنون هم التائبون العابدون إلخ،فهم التائبون لرجوعهم من غير الله إلى الله سبحانه العابدون له و يعبدونه بألسـنتهم فيحمدونه بجميل الثناء،و بأقدامهم فيسيحون و يجولون من معهد من المعاهد الدينيه و مسجد من مساجد الله إلى غيره،و بأبدانهم فيركعون له و يسجدون له.

هذا شأنهم بالنسـبه إلى حال الانفراد و أما بالنسـبه إلى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف فى السنه الدينيه و ناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدونه فى حالتى انفرادهم و اجتماعهم خلوتهم و جلوتهم،ثم يأمر النبى ص بأن يبشرهم و قد بشرهم تعالى نفسه فى الآيه السابقه،و فيه من كمال التأكيد ما لا يقدر قدره.

و قد ظهر بما قررنا أولا:وجه الترتيب بين الأوصاف التى عدها لهم فقد بدأ بأوصافهم منفردين و هى التوبه و العباده و السـياحه و الركـوع و السـجود ثم ذكر مـا لهم من الوصف الخـاص بهم المنبعث عن إيمـانهم مجتمعين و هو الأـمر بـالمعروف و النهى عن المنكر و ختم بمـا لهم من جميـل الوصف فى حالتى انفرادهم و اجتماعهم و هو حفظهم لحـدود الله، و فى التعبير بالحفظ مضافا إلى الدلاله على عدم التعدى دلاله على الرقوب و الاهتمام.

و ثانيـا:أن المراد بالسـياحه-و معناه السـير فى الأرض-على ما هو الأنسب بسـياق الترتيب هو السـير إلى مساكن ذكر الله و عبادته كالمساجد،و أما القول بأن المراد بالسياحه الصيام أو السياحه فى الأرض للاعتبار بعجائب قدره الله و ما جرى على الأمم الماضيه مما تحكيه ديارهم و آثارهم أو المسافره لطلب العلم أو المسافره لطلب الحديث خاصه فهى وجوه غير سديده.

أمـا الأـول:فلا دليل عليه من جهه اللفظ البته،و أما الوجوه الأخر فإنها و إن كانت ربما اسـتفيد النـدب من مثل قوله تعالى:« أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ:» المؤمن:-٨٢،و قوله:« فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ:» الآيه-١٢٢ من السوره إلا أن إرادتها من قوله:

« اَلسّٰائِحُونَ »تبطل جوده الترتيب بين الصفات المنضوده.

و ثالثا:أن هذه الصفات الشريفه هى التى يتم بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعى بالجنه المستتبع للبشاره الإلهيه و النبويه و هى الملازمه للقيام بحق الله المستلزمه لقيام الله سبحانه بما جعله من الحق على نفسه.

قوله تعالى:« مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كٰانُوا أُولِي قُرْبىٰ »إلى آخر الآيتين،معنى الآيه ظاهر غير أنه تعالى لما ذكر فى الآيه الثانيه التى تبين سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافرا أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبين له أنه عدو لله،فدل ذلك على أن تبين كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازما لكونهم أعداء لله فإذا تبين للنبى و الذين آمنوا أن المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضرورى و هو عدم جواز الاستغفار لكونه لغوا لا يترتب عليه أثر و خضوع الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحه الكبرياء.

و ذلك أنه تاره يفرض الله تعالى عدوا للعبد مبغضا له لتقصير من ناحيته و سوء من عمله فمن الجائز بالنظر إلى سعه رحمه الله أن يستغفر له و يسترحم إذا كان العبد متذللا غير مستكبر،و تاره يفرض العبد عدوا لله محاربا له مستكبرا مستعليا كأرباب الجحود و العناد من المشركين،و العقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعه بمسأله أو استغفار إلا أن يتوب و يرجع إلى الله و ينسلخ عن الاستكبار و العناد و يتلبس بلباس الذله و المسكنه فلا معنى لسؤال الرحمه و المغفره لمن يأبى عن القبول، و لا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ و التناول إلا الهزء بمقام الربوبيه و اللعب بمقام العبوديه و هو غير جائز بضروره من حكم الفطره.

و فى الآيه نفى الجواز بنفى الحق بدليل قوله:« مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » أى ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ما تبين لهم كذا و كذا،و قد تقدم فى ذيل قوله تعالى:« مٰا كٰانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اللّٰهِ:» الآيه-١٧ من السوره أن حكم الجواز مسبوق فى الشرع بجعل الحق.

و المعنى أن النبى و الذين آمنوا بعد ما ظهر و تبين بتبيين الله لهم أن المشركين أعداء لله مخلدون فى النار لم يكن لهم حق يملكون به أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قربى منهم،و أما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنه ظن أنه ليس بعدو

معاند لله و إن كان مشركا فاستعطفه بوعد وعدها إياه فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله معاند على شركه و ضلاله تبرأ منه.

و قوله:« إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِيمٌ »تعليل لوعد إبراهيم و استغفاره لأبيه بأنه تحمل جفوه أبيه و وعده وعدا حسنا لكونه حليما و استغفر له لكونه أواها، و الأواه هو الكثير التأوه خوفا من ربه و طمعا فيه.

قوله تعالى:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰاهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ إلى آخر الآيتين الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهى عن الاستغفار للمشركين.

أما الآيه الأولى أعنى قوله:« وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ »إلخ ففيه تهديد للمؤمنين بالإضلال بعد الهدايه إن لم يتقوا ما بين الله لهم أن يتقوه و يجتنبوا منه،و هو بحسب ما ينطبق على المورد أن المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم و التودد إليهم فعلى المؤمنين أن يتقوا ذلك و إلا فهو الضلال بعد الهدى،و عليك أن تذكر ما قدمناه فى تفسير قوله تعالى:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ:» المائده:- ٣ فى الجزء الخامس من الكتاب و فى تفسير آيات ولايه المشركين و أهل الكتاب الواقعه فى السور المتقدمه.

و الآيه بوجه فى معنى قوله تعالى:« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ:» الأنفال:-٥٣ و ما فى معناه من الآيات،و هى جميعا تهتف بأن من السنه الإلهيه أن تستمر على العبد نعمته و هدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران و التعدى فيسلب الله منه النعمه و الهدايه.

و أما الآيه الثانيه أعنى قوله:« إِنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ »فذيلها بيان لعله الحكم السابق المدلول عليه بالآيه السابقه و هو النهى عن تولى أعداء الله أو وجوب التبرى منهم إذ لا ولى و لا نصير حقيقه إلا الله سبحانه و قد بينه للمؤمنين فعليهم بدلاله من إيمانهم أن يقصروا التولى عليه تعالى أو من أذن فى توليهم له من أوليائه و ليس لهم أن تعتدوا ذلك إلى تولى أعدائه كائنين من كانوا.

و صدر الآيه بيان لسبب هذا السبب و هو أن الله سبحانه هو الذى يملك كل شىء و بيده الموت و الحياه فإليه تدبير كل أمر فهو الولى لا ولى غيره.

و قـد ظهر من عموم البيـان و العله فى الآيـات الأـربع أن الحكم عـام و هو وجوب التـبرى أو حرمه التولى لأعـداء الله سواء كـان التولى بالاسـتغفار أو بغير ذلـك و سواء كـان العـدو مشـركا أو كـافرا أو منافقـا أو غيرهم من أهـل البـدع الكافرين بآيات الله أو المصرين على بعض الكبائر كالمرابى المحارب لله و رسوله.

قوله تعـالى:« لَقَـدْ تـابَ اللّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهـاجِرِينَ وَ الْأَنْصـارِ الَّذِينَ »إلى آخر الآـيتين، الساعه مقـدار من الزمان فساعه العسـره الزمـان الـذى تعسـر فيه الحيـاه لابتلاـء الإنسـان بما تشق معه العيشه عليه كعطش أو جوع أو حر شديـد أو غير ذلك، و الزيغ هو الخروج من الطريق و الميل عن الحق،و إضافه الزيغ إلى القلوب و ذكر ساعه العسـره و سائر ما يلوح من سـياق الكلام دليل على أن المراد بـالزيغ الاسـتنكاف عـن امتثـال أمر النـبى ص و الخروج عـن طـاعته بالتثاقـل عـن الخروج إلى الجهـاد أو الرجـوع إلى الأوطان بقطع السير تحرجا من العسره و المشقه التى واجهتهم فى مسيرهم.

و التخليف -على مـا فى المجمع،-تأخير الشـىء عمن مضـى فأما تأخير الشـىء عنك فى المكان فليس بتخليف،و هو من الخلف الـذى هو مقابـل لجهه الوجه يقال خلفه أى جعله خلفه فهو مخلف.انتهى و الرحب هو السـعه التى تقابل الضـيق،و بما رحبت أى برحبها فما مصدريه.

و الآيتان و إن كانت كل واحـده منهما ناظره إلى جهه دون جهه الأخرى فالأولى تبين التوبه على النبى و المهاجرين و الأنصار و الثـانيه تبين توبه الثلاـثه المخلفين مضافا إلى أن نوع التوبه على أهل الآيتين مختلف فأهل الآيه الأولى أو بعضـهم تاب الله عليهم من غير معصيه منهم و أهل الآيه الثانيه تيب عليهم و هم عاصون مذنبون.

و بالجمله الآيتان مختلفتان غرضا و مدلولا غير أن السـياق يدل على أنهما مسوقتان لغرض واحد و متصلتان كلاما واحدا تبين فيه توبته تعالى للنبى و المهاجرين و الأنصار و الثلاثه الذين خلفوا،و من الدليل عليه قوله:« لَقَدْ تابَ اللّهُ عَلَى النَّبِيِّ إلى أن قال:

« وَ عَلَى الثَّلاثَهِ »إلخ فالآيه الثانيه غير مستقله عن الأولى بحسب اللفظ و إن استقلت عنها فى المعنى،و ذلك يستدعى نزولهما معا و تعلق غرض خاص بهذا الاتصال و الامتزاج.

و لعل الغرض الأصـلى بيان توبه الله سـبحانه لأولئك الثلاثه المخلفين و قد ضم إليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين و الأنصار حتى للنبى ص لتطيب قلوبهم بخلطهم

بغيرهم و زوال تميزهم من سائر الناس و عفو أثر ذلك عنهم حتى يعود الجميع على نعت واحد و هو أن الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير أن يرتفع بعضهم عن بعض أو ينخفض بعضهم عن بعض.

و بهذا تظهر النكته فى تكرار ذكر التوبه فى الآيتين فإن الله سبحانه يبدأ بذكر توبته على النبى و المهاجرين و الأنصار ثم يقول:« ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ »و على الثلاثه الذين خلفوا ثم يقول:« ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا »فليس إلا أن الكلام مسوق على منهج الإجمال و التفصيل ذكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالا ثم أشير إلى حال كل من الفريقين على حدته فذكرت عند ذلك توبته الخاصه به.

و لو كانت كل واحده من الآيتين ذات غرض مستقل من غير أن يجمعها غرض جامع لكان ذلك تكرارا من غير نكته ظاهره.

على أن فى الآيه الأولى دلاله واضحه على أن النبى ص لم يكن له فى ذلك ذنب و لا زيغ و لا كاد أن يزيغ قلبه فإن فى الكلام مدحا للمهاجرين و الأنصار باتباع النبى ص فلم يزغ قلبه و لا كاد أن يزيغ حتى صار متبعا يقتدى به و لو لا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره(ص)مع سائر المذكورين وجه ظاهر.

فيئول معنى الآيه إلى أن الله-أقسم لذلك-تاب و رجع برحمته رجوعا إلى النبى و المهاجرين و الأنصار و الثلاثه الذين خلفوا فأما توبته و رجوعه بالرحمه على المهاجرين و الأنصار فإنهم اتبعوا النبى فى ساعه العسره و زمانها و هو أيام مسيرهم إلى تبوك- اتبعوه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم و يميل عن الحق بترك الخروج أو ترك السير فبعد ما اتبعوه تاب الله عليهم إنه بهم لرءوف رحيم.

و أما الثلاثه الذين خلفوا فإنهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت و وسعت-و كان ذلك بسبب أن الناس لم يعاشروهم و لا كلموهم حتى أهلهم فلم يجدوا أنيسا يأنسون به-و ضاقت عليهم أنفسهم-من دوام الغم عليهم-و أيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه بالتوبه و الإنابه فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم و انعطف و رجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم أنه هو التواب-كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهدايه و التوفيق للتوبه إليه ثم بقبول تلك التوبه-و الرحيم بالمؤمنين.

و قد تبين بذلك كله أولا:أن المراد بالتوبه على النبى ص محض الرجوع

إليه بـالرحمه،و من الرجوع إليه بـالرحمه،الرجوع إلى أمته بالرحمه فالتوبه عليهم توبه عليه فهو(ص)الواسـطه فى نزول الخيرات و البركات إلى أمته.

و أيضا فإن من فضـله تعالى على نبيه ص أن:كلما ذكر أمته أو الـذين معه بخير أفرده من بينهم و صـدر الكلام بذكره تشـريفا له كمـا فى قـوله:« آمَنَ الرَّسُـولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُـونَ:» البقره:-٢٨٥ و قـوله:« ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَـكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُـولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ:» التوبه-٢۶،و قوله:« لٰكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جٰاهَدُوا:» التوبه-٨٨ إلى غير ذلک من الموارد.

و ثانيا:أن المراد بما ذكر ثانيا و ثالثا من التوبه بقوله:« ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ »فى الموضـعين هو تفصـيل ما ذكره إجمالا بقوله:« لَقَدْ تٰابَ اللّٰهُ ».

و ثالثا:أن المراد بالتوبه فى قوله:« ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ »فى الموضـعين رجوعه تعالى إليهم بالهدايه إلى الخير و التوفيق فقد ذكرنا مرارا فى الأبحـاث السـابقه أن توبه العبـد محفوفه بتوبتين من الرب تعـالى،و أنه يرجع إليه بـالتوفيق و إفاضه رحمه الهـدايه و هو التوبه الأولى منه فيهتدى العبد إلى الاستغفار و هو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته و غفران ذنوبه و هو التوبه الثانيه منه تعالى.

و الدليل على أن المراد بها فى الموضـعين ذلک أما فى الآيه الأولى فلأنه لم يذكر منهم فيها ذنبا يسـتغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبه قبول،و إنما ذكر أنه كان من المتوقع زيغ قلوب بعضهم و هو يناسب التوبه الأولى منه تعالى دون الثانيه،و أما فى الآيه الثانيه فلأنه ذكر بعدها قوله:« لِيَتُوبُوا »و هو الاستغفار،أخذ غايه لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبه الأولى منه.

و ربما أيد ذلک قوله تعالى فى مقام تعليل توبته عليهم:« إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ »حيث لم يذكر من أسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبه بمعنى الاستغفار.

و رابعا:أن المراد بقوله فى الآيه الثانيه:« لِيَتُوبُوا »توبه الثلاثه الـذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الأولى عليهم،فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثه ليتوب الثلاثه فيتوب عليهم و يغفر لهم إنه هو التواب الرحيم.

فإن قلت:فالآیه لم تدل علی قبول توبتهم و هذا مخالف للضروره الثابته من جهه النقل أن الآیه نزلت فی توبتهم.

قلت:القصه ثابته نقلا غیر أنه لا توجد دلاله فی لفظ الآیه إلا أن الآیه تدل بسیاقها علی ذلک فقد قال تعالی فی مقام الإجمال:« لَقَدْ تابَ اللّهُ »و هو أعم بإطلاقه من التوبه بمعنی التوفیق و بمعنی القبول،و کذا قوله بعد:« إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِیمُ » و خاصه بالنظر إلی ما فی الجمله من سیاق الحصر الناظر إلی قوله:« وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاّ إِلَیْهِ »فإذا کانوا أقدموا علی التوبه لیأخذوا ملجأ من الله یأمنون فیه و قد هداهم الله إلیه بالتوبه فتابوا فمن المحال أن یردهم الله من بابه خائبین و هو التواب الرحیم، و کیف یستقیم ذلک؟و هو القائل عز من قائل:« إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَهٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ فَأُولئِکَ یَتُوبُ اللّهُ عَلَیْهِمْ:» النساء:-۱۷.

و ربما قیل:إن معنی« ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا »ثم سهل الله علیهم التوبه لیتوبوا.و هو سخیف.و أسخف منه قول من قال:إن المراد بالتوبه فی« لِیَتُوبُوا » الرجوع إلی حالتهم الأولی قبل المعصیه.و أسخف منه قول آخرین:«إن الضمیر فی « لِیَتُوبُوا »راجع إلی المؤمنین و المعنی ثم تاب علی الثلاثه و أنزل توبتهم علی نبیه ص لیتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأن الله قابل التوب.

و خامسا:أن الظن یفید فی الآیه مفاد العلم لا لدلاله لفظیه بل لخصوص المورد.

قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ کُونُوا مَعَ الصّادِقِینَ » الصدق بحسب الأصل مطابقه القول و الخبر للخارج،و یوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج ثم لما عد کل من الاعتقاد و العزم-الإراده-قولا توسع فی معنی الصدق فعد الإنسان صادقا إذا طابق خبره الخارج و صادقا إذا عمل بما اعتقده و صادقا إذا أتی بما یریده و یعزم علیه علی الجد.

و ما فی الآیه من إطلاق الأمر بالتقوی و إطلاق الصادقین و إطلاق الأمر بالکون معهم-و المعیه هی المصاحبه فی العمل و هو الاتباع-یدل علی أن المراد بالصدق هو معناه الوسیع العام دون الخاص.

فالآیه تأمر المؤمنین بالتقوی و اتباع الصادقین فی أقوالهم و أفعالهم و هو غیر الأمر بالاتصاف بصفتهم فإنه الکون منهم لا الکون معهم و هو ظاهر.

قوله تعالى:« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَهِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ »إلى آخر الآيتين الرغبه ميل خاص نفسانى و الرغبه فى الشىء الميل إليه لطلب منفعه فيه،و الرغبه عن الشىء الميل عنه بتركه و الباء للسببيه فقوله:« وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » معناه و ليس لهم أن يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازى و فى تعب الأسفار و دعثائها و يقعدوا للتمتع من لذائذ الحياه،و الظمأ العطش،و النصب التعب و المخمصه المجاعه،و الغيظ أشد الغضب،و الموطأ الأرض التى توطأ بالأقدام.

و الآيه تسلب حق التخلف عن النبى ص من أهل المدينه و الأعراب الذين حولها ثم تذكر أن الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم فى كل مصيبه تصيبهم فى الجهاد من جوع و عطش و تعب و فى كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملا صالحا فإنهم محسنون و الله لا يضيع أجر المحسنين،و هذا معنى قوله:

« ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاٰ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ »إلخ.

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيره يسيره كانت أو كبيره خطيره و كذا كل واد قطعوه فإنه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

و قوله:« لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ »غايه متعلقه بقوله:« كُتِبَ لَهُمْ أى غايه هذه الكتابه هى أن يجزيهم بأحسن أعمالهم،و إنما خص جزاء أحسن الأعمال بالذكر لأن رغبه العامل عاكفه عليه،أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره،أو لأن المراد بأحسن الأعمال الجهاد فى سبيل الله لكونه أشقها و قيام الدعوه الدينيه به.

و هاهنا معنى آخر و هو أن جزاء العمل فى الحقيقه إنما هو نفس العمل عائدا إلى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال فى معنى الجزاء بأحسن الجزاء و معنى آخر و هو أن يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبه بأعمالهم الحسنه و يستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسنا ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك و ربما رجع المعنيان إلى معنى واحد.

قوله تعالى:« وَ مٰا كٰانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّهً فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَهٍ مِنْهُمْ طٰائِفَهٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ »السياق يدل على أن المراد بقوله:« لِيَنْفِرُوا كَافَّهً »لينفروا و ليخرجوا إلى الجهاد جميعا،و قوله:« فِرْقَهٍ مِنْهُمْ »الضمير للمؤمنين الذين ليس

لهم أن ينفروا كافه،و لازمه أن يكون النفر إلى النبى ص منهم.

فالآيه تنهى مؤمنى سائر البلاد غير مدينه الرسول أن ينفروا إلى الجهاد كافه بل يحضضهم أن ينفر طائفه منهم إلى النبى ص للتفقه فى الدين و ينفر إلى الجهاد غيرهم.

و الأنسب بهذا المعنى أن يكون الضمير فى قوله« رَجَعُوا »للطائفه المتفقهين، و فى قوله:« إِلَيْهِمْ »لقومهم و المراد إذا رجع هؤلاء المتفقهون إلى قومهم،و يمكن العكس بأن يكون المعنى:إذا رجع قومهم من الجهاد إلى هؤلاء الطائفه بعد تفقههم و رجوعهم إلى أوطانهم.

و معنى الآيه لا يجوز لمؤمنى البلاد أن يخرجوا إلى الجهاد جميعا فهلا نفر و خرج إلى النبى ص طائفه من كل فرقه من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه و الفهم فى الدين فيعملوا به لأنفسهم و لينذروا بنشر معارف الدين و ذكر آثار المخالفه لأصوله و فروعه قومهم إذا رجعت هذه الطائفه إليهم لعلهم يحذرون و يتقون.

و من هنا يظهر أولا:أن المراد بالتفقه تفهم جميع المعارف الدينيه من أصول و فروع لا خصوص الأحكام العمليه و هو الفقه المصطلح عليه عند المتشرعه،و الدليل عليه قوله:« لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ »فإن ذلك أمر إنما يتم بالتفقه فى جميع الدين و هو ظاهر.

و ثانيا:أن النفر إلى الجهاد موضوع عن طلبه العلم الدينى بدلاله من الآيه.

و ثالثا:أن سائر المعانى المحتمله التى ذكروها فى الآيه بعيده عن السياق كقول بعضهم:إن المراد بقوله:« لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »نفرهم إلى النبى ص للتفقه،و قول بعضهم فى« فَلَوْ لاٰ نَفَرَ »أى إلى الجهاد،و المراد بقوله:« لِيَتَفَقَّهُوا »أى الباقون المتخلفون فينذروا قومهم النافرين إلى الجهاد إذا رجعوا إلى أولئك المتخلفين.فهذه و نظائرها معان بعيده لا جدوى فى التعرض لها و الإطناب فى البحث عنها.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قٰاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفّٰارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »أمر بالجهاد العام الذى فيه توسع الإسلام حتى يشيع فى الدنيا فإن قتال كل طائفه من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهى إلا باتساع الإسلام اتساعا باستقرار سلطنته على الدنيا و إحاطته بالناس جميعا.

و المراد بقوله:« وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً »أى الشده فى ذات الله و ليس يعنى بها الخشونه و الفظاظه و سوء الخلق و القساوه و الجفاء فجميع الأصول الدينيه تذم ذلك

و تستقبحه،و لحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد و اعتداء و جفاء كما مر فى سوره البقره.

و فى قوله:« وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »وعد إلهى بالنصر بشرط التقوى، و يئول معناه إلى إرشادهم إلى أن يكونوا دائما مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم،و هو أنه معهم و مولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال:

نزلت هذه الآيه على رسول الله ص و هو فى المسجد:« إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »الآيه-فكبر الناس فى المسجد-فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه-فقال:يا رسول الله أ نزلت هذه الآيه؟قال:نعم.فقال الأنصارى:بيع ربيح لا نقيل و لا نستقيل.

و فى الكافى،بإسناده عن سماعه عن أبى عبد الله(ع)قال: لقى عباد البصرى على بن الحسين(ع)فى طريق مكه فقال له:يا على بن الحسين تركت الجهاد و صعوبته-و أقبلت على الحج و لينته إن الله يقول:« إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرىٰ »إلخ،فقال على بن الحسين(ع)-إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج.

أقول:يريد(ع)ما فى الآيه الثانيه:« اَلتّٰائِبُونَ الْعٰابِدُونَ »الآيه من الأوصاف.

و عن النبى ص قال: سياحه أمتى فى المساجد.

أقول:

و روى عن أبى هريره عن النبى ص: أن السائحين هم الصائمون.

و عن أبى أمامه عنه(ص): إن سياحه أمتى الجهاد فى سبيل الله، و قد تقدم الكلام فيه.

و فى المجمع،": « التائبين العابدين »إلى آخرها بالياء- عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).پ

و فى الدر المنثور،فى قوله:« مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ »:أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و البخارى و مسلم و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاه دخل عليه النبى ص-و عنده أبو جهل

و عبد الله بن أبی أمیه-فقال النبی ص:أی عم قل لا إله إلا الله أحاج لک بها عند الله-فقال أبو جهل و عبد الله بن أبی أمیه:یا أبا طالب أ ترغب عن مله عبد المطلب؟ و جعل النبی ص یعرضها علیه-و أبو جهل و عبد الله یعانوانه (۱)بتلک المقاله- فقال أبو طالب آخر ما کلمهم هو:علی مله عبد المطلب،و أبی أن یقول:لا إله إلا الله.

فقال النبی ص:لأستغفرن لک ما لم أنه عنک فنزلت:« مَا کَانَ لِلنَّبِیِّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ »الآیه،و أنزل الله فی أبی طالب فقال لرسول الله ص:« إِنَّکَ لاَ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ ».

أقول:و فی معناه روایات أخری من طرق أهل السنه،و فی بعضها أن المسلمین لما رأوا النبی ص یستغفر لعمه و هو مشرک استغفروا لآبائهم المشرکین فنزلت الآیه، و قد اتفقت الروایه عن أئمه أهل البیت(ع)أنه کان مسلما غیر متظاهر بإسلامه لیتمکن بذلک من حمایه النبی ص،و فیما روی بالنقل الصحیح من أشعاره شیء کثیر یدل علی توحیده و تصدیقه النبوه،و قد قدمنا نبذه منها.

و فی الکافی،بإسناده عن زراره عن أبی جعفر قال: الأواه الدعاء.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِلَّ قَوْماً »الآیه-قیل:مات قوم من المسلمین علی الإسلام-قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون:یا رسول الله إخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟فنزل:« وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُضِلَّ قَوْماً » الآیه ":عن الحسن.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن ابن عباس": فی الآیه قال:نزلت حین أخذوا الفداء من المشرکین یوم الأساری (۲)قال:لم یکن لکم أن تأخذوه حتی یؤذن لکم- و لکن ما کان الله لیعذب قوما بذنب أذنبوه-حتی یبین لهم ما یتقون.قال:حتی ینهاهم قبل ذلک.

أقول:ظاهر الروایتین أنهما من التطبیق دون النزول بمعناه المصطلح علیه، و اتصال الآیه بالآیتین قبلها و دخولها فی سیاقهما ظاهر،و قد تقدم توضیحه.

و فی الکافی،بإسناده عن حمزه بن محمد الطیار عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله:

۱- ۱) أی یفسرانه.

۲- ۲) یعنی یوم بدر.

« وَ مَا كَانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْماً-بَعْدَ إِذْ هَدٰاهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ »قال:يعرفهم ما يرضيه و ما يسخطه.الحديث:

أقول:و رواه أيضا عن عبد الأعلى عنه(ع)،و رواه البرقى أيضا فى المحاسن.

و فى تفسير القمى،: « لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين و الأنصار-الذين اتبعوه فى ساعه العسره »قال الصادق(ع):هكذا نزلت- و هم أبو ذر و أبو خيثمه و عمير بن وهب-الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ص.

أقول:و قد استخرجناه من حديث طويل أورده القمى فى تفسيره فى قوله تعالى:« وَ لَوْ أَرٰادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً:» الآيه:-۴۶ من السوره،و روى قراءه «بالنبى»فى المجمع،عنه و عن الرضا(ع).

و فى المجمع،": فى قوله:« وَ عَلَى الثَّلاٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا »و قرأ على بن الحسين زين العابدين و محمد بن على الباقر-و جعفر بن محمد الصادق(ع)-و أبو عبد الرحمن السلمى.خالفوا.

و فيه،": فى قوله:« لَقَدْ تٰابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهٰاجِرِينَ وَ الْأَنْصٰارِ »الآيه-نزلت فى غزاه تبوك و ما لحق المسلمين فيها من العسره-حتى هم قوم بالرجوع ثم تداركهم لطف الله سبحانه-قال الحسن:كان العشره من المسلمين-يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعه-ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك،و كان زادهم الشعير المسوس و التمر المدود و الإهاله السنخه-و كان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم- فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمره فلاكها حتى يجد طعمها-ثم يعطيها صاحبه فيمصها-ثم يشرب عليها جرعه من ماء كذلك-حتى يأتى على آخرهم فلا يبقى من التمره إلا النواه.

و فيه،": فى قوله:« وَ عَلَى الثَّلاٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا »الآيه-نزلت فى شأن كعب بن مالك و مراره بن الربيع و هلال بن أميه،و ذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ص-و لم يخرجوا معه لا عن نفاق و لكن عن توان-ثم ندموا فلما قدم النبى ص المدينه جاءوا إليه و اعتذروا-فلم يكلمهم النبى ص و تقدم إلى المسلمين-بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان،و جاءت نساؤهم إلى رسول الله ص فقلن له:يا رسول الله نعتزلهم؟فقال:و لكن لا يقربوكن-.

فضاقت عليهم المدينه فخرجوا إلى رءوس الجبال،و كان أهاليهم يجيئون لهم

بالطعام و لا يكلمونهم-فقال بعضهم لبعض:قد هجرنا الناس-و لا يكلمنا أحد منهم فهلا نتهاجر نحن أيضا؟ فتفرقوا و لم يجتمع منهم اثنان،و بقوا على ذلك خمسين يوما يتضرعون إلى الله تعالى و يتوبون إليه،فقبل الله تعالى توبتهم و أنزل فيهم هذه الآيه.

أقول:و قد تقدمت القصه فى حديث طويل نقلناه من تفسير القمى فى الآيه ۴۶ من السوره،و رويت القصه بطرق كثيره.

و فى تفسير البرهان،عن ابن شهرآشوب من تفسير أبى يوسف بن يعقوب بن سفيان حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال": « يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ » قال:أمر الله الصحابه أن يخافوا الله.ثم قال:« وَ كُونُوا مَعَ الصّٰادِقِينَ »يعنى مع محمد و أهل بيته(ع).

أقول:و فى هذا المعنى روايات كثيره عن أئمه أهل البيت(ع)

و قد روى فى الدر المنثور،عن ابن مردويه عن ابن عباس،و أيضا عن ابن عساكر عن أبى جعفر: فى قوله:« وَ كُونُوا مَعَ الصّٰادِقِينَ »قالا:مع على بن أبى طالب.

و فى الكافى،بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبى عبد الله(ع)-إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس؟قال:أين قول الله عز و جل:« فَلَوْ لاٰ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ-وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »قال:هم فى عذر ما داموا فى الطلب،و هؤلاء الذين ينتظرونهم فى عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم.

أقول:و فى هذا المعنى روايات كثيره عن الأئمه(ع)،و هو مما يدل على أن المراد بالتفقه فى الآيه أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم.

و اعلم أن هناك أقوالا أخرى فى أسباب نزول بعض الآيات السابقه تركناها لظهور ضعفها و وهنها.

[سوره التوبه (۹): الآيات ۱۲۴ الى ۱۲۹]

اشاره

وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِيمٰاناً فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا فَزٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۱۲۴) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كٰافِرُونَ (۱۲۵) أَ وَ لاٰ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاٰ يَتُوبُونَ وَ لاٰ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرٰاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ اِنْصَرَفُوا صَرَفَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ (۱۲۷) لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِيمِ (۱۲۹)

(بیان)

هی آیات تختتم بها آیات براءه و هی تـذکر حال المؤمنین و المنافقین عنـد مشاهـده نزول السور القرآنیه،یتحصل بذلک أیضـا أمـاره من أمارات النفاق یعرف بها المنافق من المؤمن،و هو قولهم عنـد نزول القرآن:أیکم زادته هـذه إیمانا؟و نظر بعضـهم إلی بعض هل یراکم من أحد؟.

و فیها وصفه تعالی نبیه ص وصفا یحن به إلیه قلوب المؤمنین،و أمره بالتوکل علیه إن أعرضوا عنه.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ أَیُّکُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِیمٰاناً » إلی آخر الآیتین.نحو السؤال فی قولهم:هل یراکم من أحـد؟!یدل علی أن سائله لا یخلو من شـیء فی قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا یجد فی قلبه أثرا من نزول القرآن و کأنه یـذعن أن قلوب غیره کقلبه فیمـا یتلقـاه فیتفحص عمن أثر فی قلبه نزول القرآن کأنه یری أن النبی ص یـدعی أن القرآن یصـلح کل قلب سواء کان مسـتعدا مهیئا للصـلاح أم لا و هو لا یـذعن بذلک و کلما تلیت علیه سوره جدیده و لم یجد فی قلبه خشوعا لله و لا میلا و حنانا إلی الحق زاد شکا فبعثه ذلک إلی أن یسأل

سائر من حضر عند النزول عن ذلک حتی یستقر فی شکه و یزید ثباتا فی نفاقه.

و بالجمله السؤال سؤال من لا یخلو قلبه من نفاق.

و قد فصل الله سبحانه أمر القلوب و فرق بین قلوب المؤمنین و الذین فی قلوبهم مرض فقال:« فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا »و هم الذین قلوبهم خالیه عن النفاق بریئه من المرض و هم علی یقین من دینهم بقرینه المقابله« فَزادَتْهُمْ »السوره النازله« إِيماناً » فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدایتها توجب اشتداد نور الإیمان فیه،و هذه زیاده فی الکیف، و باشتمالها علی معارف و حقائق جدیده من المعارف القرآنیه و الحقائق الإلهیه،و بسطها علی القلب نور الإیمان بها توجب زیاده إیمان جدید علی سابق الإیمان و هذه زیاده فی الکمیه و نسبه زیاده الإیمان إلی السوره من قبیل النسبه إلی الأسباب الظاهره و کیف کان فالسوره تزید المؤمنین إیمانا فتنشرح بذلک صدورهم و تتهلل وجوههم فرحا « وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ».

« وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »و هم أهل الشک و النفاق« فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ »أی ضلالا جدیدا إلی ضلالهم القدیم و قد سمی الله سبحانه الضلال رجسا فی قوله:« وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ:» الأنعام:-١٢٥ و المقابله الواقعه بین« اَلَّذِينَ آمَنُوا »و« اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »یفید أن هؤلاء لیس فی قلوبهم إیمان صحیح و إنما هو الشک أو الجحد و کیف کان فهو الکفر و لذلک قال« وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ ».

و الآیه تدل علی أن السوره من القرآن لا تخلو عن تأثیر فی قلب من استمعه فإن کان قلبا سلیما زادته إیمانا و استبشارا و سرورا،و إن کان قلبا مریضا زادته رجسا و ضلالا نظیر ما یفیده قوله:« وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلاّ خَساراً:» إسراء:-٨٢.

قوله تعالی:« أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ »الآیه الاستفهام للتقریر أی ما لهم لا یتفکرون و لا یعتبرون و هم یرون أنهم یبتلون و یمتحنون کل عام مره أو مرتین فیعصون الله و لا یخرجون من عهده المحنه الإلهیه و هم لا یتوبون و لا یتذکرون و لو تفکروا فی ذلک انتبهوا لواجب أمرهم و أیقنوا أن الاستمرار علی هذا الشأن ینتهی بهم إلی تراکم الرجس علی الرجس و الهلاک الدائم و الخسران المؤبد.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرٰاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » الآيه و هذه خصيصه أخرى من خصائصهم و هى أنهم عند نزول سوره قرآنيه-و لا محاله هم حاضرون-ينظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول:هل يراكم من أحد،و هذا قول من يسمع حديثا لا يطيقه و يضيق بذلك صدره فيتغير لونه و يظهر القلق و الاضطراب فى وجهه فيخاف أن يلتفت إليه و يظهر السر الذى طواه فى قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سره و أوقفه على باطن أمره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق و الاضطراب أحد.

فقوله:« نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ »أى بعض المنافقين،و هذا من الدليل على أن الضمير فى قوله فى الآيه السابقه:« فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ »أيضا للمنافقين،و قوله:

« نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ »أى نظر قلق مضطرب يحذر ظهور أمره و انهتاك ستره، و قوله:« هَلْ يَرٰاكُمْ مِنْ أَحَدٍ »فى مقام التفسير للنظر أى نظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول:هل يراكم من أحد؟و من للتأكيد و أحد فاعل يراكم.

و قوله:« ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ »ظاهر السياق أن المعنى ثم انصرفوا من عند النبى ص فى حال صرف الله قلوبهم عن وعى الآيات الإلهيه و الإيمان بها بسبب أنهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجمله حاليه على ما يجوزه بعضهم.

و ربما احتمل كون قوله:« صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ »دعاء منه تعالى على المنافقين،و له نظائر فى القرآن،و الدعاء منه تعالى على أحد إيعاد له بالشر.

قوله تعالى:« لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » العنت هو الضرر و الهلاك،و ما فى قوله:« مٰا عَنِتُّمْ » مصدريه التأويل عنتكم،و المراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمد ص، و قد وصفه بأنه من أنفسهم و الظاهر أن المراد به أنه بشر مثلكم و من نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقريش خاصه،و خاصه بالنظر إلى وجود رجال من الروم و فارس و الحبشه بين المسلمين فى حال الخطاب.

و المعنى لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم،من أوصافه أنه يشق عليه ضركم أو هلاككم و أنه حريص عليكم جميعا من مؤمن أو غير مؤمن،و أنه رءوف رحيم بالمؤمنين

منكم خاصه فيحق عليكم أن تطيعوا أمره لأنه رسول لا يصدع إلا عن أمر الله، و طاعته طاعه الله،و أن تأنسوا به و تحنوا إليه لأنه من أنفسكم،و أن تجيبوا دعوته و تصغوا إليه كما ينصح لكم.

و من هنا يظهر أن القيود المأخوذه فى الكلام من الأوصاف أعنى قوله« رَسُولٌ » و« مِنْ أَنْفُسِكُمْ »و« عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ »إلخ،جميعها مسوقه لتأكيد الندب إلى إجابته و قبول دعوته،و يدل عليه قوله فى الآيه التاليه:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ ».

قوله تعالى:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »أى و إن تولوا عنك و أعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبى الله لا إله إلا هو أى هو كافى لا إله إلا هو.

فقوله:« لا إِلهَ إِلاّ هُوَ »فى مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب و اعتصامه بربه فهو كاف لا كافى سواه لأنه الله لا إله غيره،و من المحتمل أن تكون كلمه التوحيد جىء بها للتعظيم نظير قوله:« وَ قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ:» البقره:-۱۱۶.

و قوله:« عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ »و فيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله:« حَسْبِيَ اللّهُ » الدال على معنى التوكل بالالتزام،و قد تقدم فى بعض الأبحاث السابقه أن معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلا يحل محل نفسه و يتولى تدبير أموره أى انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الأسباب،و لا محاله هو بعض الأسباب الذى هو عله ناقصه و الاعتصام بالسبب الحقيقى الذى إليه ينتهى جميع الأسباب.

و من هنا يظهر وجه تذليل الكلام بقوله:« وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »أى الملك و السلطان الذى يحكم به على كل شىء و يدبر به كل أمر.

و إنما قال تعالى:« فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ »الآيه و لم يقل:فتوكل على الله لإرشاده إلى أن يتوكل على ربه و هو ذاكر هذه الحقائق التى تنور حقيقه معنى التوكل،و أن النظر المصيب هو أن لا يثق الإنسان بما يدركه من الأسباب الظاهره التى هى لا محاله بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه و يثق بربه و يتوكل عليه فى حصول بغيته و غرضه.

و فی الآیه من الدلاله علی عجیب اهتمامه(ص)باهتداء الناس ما لیس یخفی فإنه تعالی یأمره بالتوکل علی ربه فیما یهتم به من الأمر و هو ما تبینه الآیه السابقه من شده رغبته و حرصه فی اهتداء الناس و فوزهم بالسعاده فافهم ذلک.

(بحث روائی)

فی الکافی،بإسناده عن أبی عمرو الزبیری عن أبی عبد الله(ع): - فی حدیث طویل یذکر فیه تمام الإیمان و نقصه،قال:قلت:قد فهمت نقصان الإیمان و تمامه- فمن أین جاءت زیادته؟فقال:قول الله عز و جل:« وَ إِذٰا مٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ أَیُّکُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ إِیمٰاناً-فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَزٰادَتْهُمْ إِیمٰاناً وَ هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ- وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ »و قال:« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَیْکَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ-إِنَّهُمْ فِتْیَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنٰاهُمْ هُدیً ».

و لو کان کله واحدا لا زیاده فیه و لا نقصان-لم یکن لأحد منهم فضل علی الآخر،و لاستوت النعم فیه،و لاستوی الناس و بطل التفضیل-،و لکن بتمام الإیمان دخل المؤمنون الجنه-و بالزیاده فی الإیمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، و بالنقصان دخل المفرطون النار.

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره بن أعین عن أبی جعفر(ع): « وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ »یقول شکا إلی شکهم.

و فی الدر المنثور،:فی قوله:« لَقَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ »:أخرج أبو نعیم فی الدلائل عن ابن عباس قال:قال رسول الله ص: لم یلتق أبوای قط علی سفاح.

لم یزل الله ینقلنی من الأصلاب الطیبه إلی الأرحام الطاهره-مصفی مهذبا لا تنشعب شعبتان إلا کنت فی خیرهما.

أقول:و قد أورد فیه روایات کثیره فی هذا المعنی عن رجال من الصحابه و غیرهم کالعباس و أنس و أبی هریره و ربیعه بن الحارث بن عبد المطلب و ابن عمر و ابن عباس و علی و محمد بن علی الباقر و جعفر بن محمد الصادق (ع)و غیرهم عن النبی ص.

و فیه،أخرج ابن الضریس فی فضائل القرآن و ابن الأنباری فی المصاحف و ابن مردویه عن الحسن أن أبی بن کعب کان یقول": إن أحدث القرآن عهدا بالله-و فی لفظ بالسماء-هاتان الآیتان:« لَقَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ »إلی آخر الآیه:

أقول:و الروایه مرویه من طریق آخر عن أبی بن کعب

و هی لا تخلو عن تعارض مع ما سیأتی من الروایه و کذا مع ما تقدم من الروایات فی قوله تعالی:

« وَ اتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اللّٰهِ» Xالآیه X:البقره:-۲۸۱ أنها آخر آیه نزلت من القرآن.

علی أن لفظ الآیتین لا یلائم کونهما آخر ما نزلت من القرآن إلا أن یکون إشاره إلی بعض الحوادث الواقعه فی مرض النبی ص کحدیث الدواه و القرطاس.

و فیه،أخرج ابن إسحاق و أحمد بن حنبل و ابن أبی داود عن عباد بن عبد الله بن الزبیر قال": أتی الحارث بن خزیمه بهاتین الآیتین من آخر براءه:« لَقَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ -إلی قوله-« وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ »إلی عمر-فقال:من معک علی هذا؟فقال:لا أدری-و الله إلا أنی أشهد لسمعتها من رسول الله ص-و وعیتها و حفظتها-فقال عمر:و أنا أشهد لسمعتها من رسول الله ص-لو کانت ثلاث آیات لجعلتها سوره علی حده-فانظروا سوره من القرآن فألحقوها فألحقت فی آخر براءه.

أقول:و

فی روایه أخری: أن عمر قال للحارث:لا أسألک علیها بینه أبدا- کذلک کان رسول الله ص،۹ و فی هذا المعنی أحادیث أخری،و سنستوفی الکلام فی تألیف القرآن و ما یتعلق به من الأبحاث فی تفسیر سوره الحجر إن شاء الله تعالی.

و قد کنا نرجو أن نفرد کلاما فی آخر براءه نبحث فیه عن شأن المنافقین فی الإسلام و نستخرج ما یشرحه القرآن فی أمرهم مع تحلیل فی تاریخهم و تبیین لما أودعوه من الفساد و البلوی بین المسلمین لکن طول الکلام فی تفسیر الآیات عاقنا عن ذلک فأخرناه إلی موضع آخر یناسبه و الله نسأل التوفیق فهو ولیه.

تم و الحمد لله

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:
تأسّس مركز القائمیة للدراسات الكمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ١٤٢٦ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الكمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونیة من الكتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلكترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.
وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراكز الشیعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام
تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة
تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات
توسیع عام لفكرة المطالعة
تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والكتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الكترونیة

السیاسات:
مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتنباب عن الروتینیة وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:
طبع الكتب والملزمات والدوريات
إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب
إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية
إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية
افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com
إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...
الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها
تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms
إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس
إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين
إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛
JAVA.١
ANDROID.٢
EPUB.٣
CHM.۴
PDF.۵
HTML.۶
CHM.٧
GHB.٨
إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية
ANDROID.١
IOS.٢
WINDOWS PHONE.٣
WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزى
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزى ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵
هاتف المكتب فى طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱
قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.